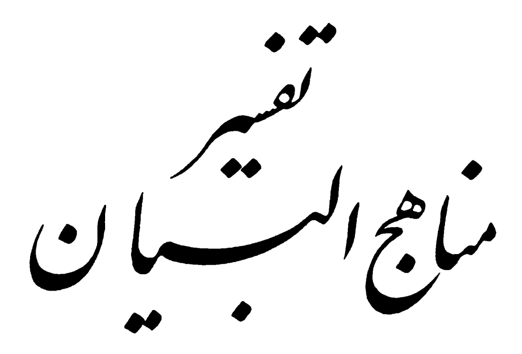
مناهج البيان

في تفسير القرآن

الجزء التاسع والعشرون

آية الله الشيخ محمد باقر الملكي الميانجي

بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء التاسع والعشرون

آية الله الشيخ محمد باقر الملكي



مؤسسة النبأ الثقافية

سرشناسه	: ملکی میانجی، محمدباقر، ۱۲۸۴ ـ ۱۳۷۷.
عنوان و نام پدیدآور	: مناهج البیان فی تفسیرالقرآن / محمدباقر الملکی میانجی؛ تنظیم محمد البیابانی الاسکویی؛ اشراف حسین درگاهی؛ تصحیح عزیز آل طالب.
مشخصات نشر	: تهران : نبأ، ۱۴۳۴ ق.= ۲۰۱۳ م.، ۱۳۹۲.
مشخصات ظاهری	: ج.۳
شابک	: ج.۳: ۵ ـ ۰۱۸ ـ ۲۶۴ ـ ۶۰۰ ـ ۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا
یادداشت	: عربی
موضوع	: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
شناسه افزوده	: بیابانی اسکوئی، محمد، ۱۳۴۱ - ، گردآورنده
شناسه افزوده	: درگاهی، حسین، ۱۳۳۱ - ، ویراستار
شناسه افزوده	: آل طالب، عزیز، مصحح
رده بندی کنگره	: ۱۳۹۲ ۸ م ۷ م / ۹۸ BP
رده بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۳۲۱۷۴۱۸



اسم الکتاب : مناهج البیان في تفسیر القرآن

المؤلّف: آیة الله الشیخ محمّد باقر الملکي المیانجي

التنظیم: محمّد البیاباني الاسکوئي. إشْراف: حُسَیْن دِرْگاهي. التصحیح: عزیز آلْ طالِبْ

عدد النسخ : ۱۰۰۰ نسخة. الطبعة: الأولی (۱۴۳۴ هـ ـ ۲۰۱۳ م). المطبعة: دالاهو

النّاشر: المؤسّسة النبأ الثقافیّة / طهران، شارع شریعتی، شارع مقدم، شارع ادیبی، ۲۶

هاتف: ۷۷۵۰۶۶۰۲ ـ ۷۷۵۰۴۶۸۳ ـ الشابک : ۵ ـ ۰۱۸ ـ ۲۶۴ ـ ۶۰۰ ـ ۶۷۸

مراکز التوزیع: ایران ـ مشهد ـ منشورات الولایة ـ هاتف: ۰۰۹۸۹۱۵۱۵۷۶۰۰۳

ایران ـ قم ـ مجتمع الامام المهدی (عج) الطابق الارضی ـ رقم ۱۱۶ ـ

هاتف: ۰۰۹۸۲۵۳۷۸۳۳۶۲۴

بیروت لبنان ـ الرویس ـ مفرق محلات محفوظ ستورز ـ بنایة رمال ـ هاتف: ۵۴۲۲۱۱

بسمه تعالی

تعدّ مهمّة نشر وإشاعة معارف (الثقلين) الأصيلة من الواجبات التی لا يمكن بأیّ حالٍ من الأحوال تبرير الغفلة عنها أو التقصير فيها، وهی مهمّة من الضخامة والاتّساع بما يجعلها تتجاوز القدرات الفرديّة المحدودة والإمكانات المتاحة أمام كلّ واحدٍ من العاملين فی ميادين الثقافة الدينيّة.

من هنا تبرز ضرورة تعاون المؤسّسات والمراكز الثقافيّة والتنسيق فی ما بينها باعتباره خطوة مباركة لا يخفى ما لها من الآثار فی تقديم الثمار اليانعة لعشّاق العلم والثقافة وطالبيهما.

ومن تلک الثمار القيّمة كتاب «مناهج البيان فی تفسير القرآن»، وهو تفسيرٌ ألّفه آية اللّه الشيخ محمّد باقر الملكی الميانجی، وقامت مؤسّسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامی فی العام ١٤١٧ هـ بطباعة ألف نسخة منه ضمن الطبعة الأُولی.

وسعيا من «مؤسّسة عالم آل محمّد (عليهم السلام) العالميّة» و «مؤسّسة معارف أهل البيت(عليهم السلام)» و «مؤسّسة النبأ الثقافيّة» إلی توفير هذا السفر التفسيریّ القيّم بين يدی القرّاء المهتمّين فقد صمّمت هذه المؤسّسات علی التعاون وتشريک جهودها فی سبيل طباعته طبعةً ثانيةً عسی أن تسهم فی تلبية بعض ما

ينشده طلاّب المعرفة من البحوث والدراسات الأصيلة.

وهنا نجد لزاما علينا أن نتقدّم بالشكر والتقدير إلى سماحة الأُستاذ حسين الدرگاهى الذى تفضّل بالموافقة على تجديد طباعة الكتاب، متمنّين له مزيد التوفيق ودوام الصحّة.









الفهرست

٦٧. سورة الملك

في رواية عن ابن عبّاس أنّها مكّيّة؛ وهي السّورة السّادسة والسّبعون من القرآن، نزلت بعد سورة الطّور. (انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾،

بيان:

قوله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم» آية من كتاب الله، وكلام منه تعالى. والمتكلّم به، هوالله ـ سبحانه. والباء في قوله تعالى: «بسم الله» للتّعدية.

بدأ تعالى باسمه الكريم، وشرع به في مفتتح السورة، وقدّمه على مايتلوه من الكلام. وفي تقديم الاسم تشريف إيّاه. وفي تشريفه، تعظيم للمسمّى ـ جلّ ثناؤه. فالمعنى: أبدأ بالاسم؛ أي: بنفس الاسم الكريم على نحو

الموضوعيّة، لا أنّه يبتدأ به لأجل الشروع والابتداء بمايتلوه.

وقد اضطربت كلمات المفسّرين في تفسير البسملة. وذكروا أنّ الله بدأ بالاسم لأجل الشّروع بمايتلوه، على اختلافهم في توجيه ذلك. وقد بسطنا الكلام في البحث والنقض والإبرام في ذلك وتحليل أقوال المفسّرين، في تفسير البسملة في تفسير فاتحة الكتاب.

قوله تعالى: «تَبَارَكَ».

قال في القاموس ٣/٢٩٣: تبارك الله: تقدّس وتنزّه. صفة خاصّة بالله تعالى.

قال في المجمع ٩/٣٢٢: «تبارك»؛ أي: تعالى وجلّ عمّا لايجوز عليه في ذاته وأفعاله.

قال في مجمع البحرين ٥/٢٥٨: قوله: «تبارك الله»؛ أي: ثبت الخير عنده وفي خزائنه.

فعلى القول الأخير تكون الآية في سياق تمجيده تعالى. وهكذا في نظائرها. قال تعالى:

«تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً».
(الفرقان/ ١)

«تبارك الّذي جعل في السّماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً».
(الفرقان/ ٦١)

أقول: لعلّ هذا القول الأخير هو الأشبه.

قوله تعالى: «بِيَدِهِ الْمُلْكُ»؛ أي: في قبضته واقتداره.

والظّاهر أنّ المراد في المقام مالكيّته تعالى، تكويناً وتشريعاً، على جميع ما سواه ـ جلّ ثناؤه ـ وحده لاشريك له.

والمراد من الملك مايكون مملوكاً لله ـ سبحانه. فهو ـ سبحانه ـ مالك لجميع ما سواه تعالى؛ من الدنيا والآخرة، وما فيها من الأشخاص والأعيان، ولجميع مواهبه وعطاياه وكراماته وغيرها ممّا لايعلمها ولايقدر على إحصائها إلاّ الله ـ سبحانه. وله تعالى التصرّف فيها، بلا استثناء شيء منها، كيف شاء وأراد

طبق الحكمة. هذا كلّه في إطلاق كلمة الملْك ومالك ومَلِك ومليك بالنسبة إليه تعالى.

وأمّا إطلاق كلمة **المُلك ومالك ومِلك ومليك** بالنسبة إلى غيره - سبحانه - على سبيل الاشتراك اللّفظي، ما وهبه وملّكه - سبحانه - على عباده من العلم والقدرة والحياة والعقل والسّعادة والعظمة والمال والثروة والنعم والأولاد وغيرها. قال تعالى:

«أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما». (النساء/٥٤)

في الكافي ٢٠٦/١ مسنداً عن بريد العجليّ، عن أبي جعفر - عليه السّلام - في قول الله - تبارك وتعالى -: «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» قال: جعل منهم الرّسل والأنبياء والأئمة. فكيف يقرّون في آل إبراهيم - عليه السّلام - وينكرونه في آل محمّد - صلّى الله عليه وآله؟!

قال: قلت «وآتيناهم ملكاً عظيما»؟ قال: الملك العظيم أن جعل فيهم أئمةً مَن أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله. فهو الملك العظيم.

وفيه أيضاً ١٨٦/١، مسنداً عن بعض أصحابنا، عن أبي جعفر - عليه السّلام - في قول الله - عزّوجل -: «وآتيناهم ملكاً عظيما» قال: الطّاعة المفروضة.

قال تعالى:

«فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء». (البقرة/٢٥٠)

قال في القاموس ٣/ ٣٢٠: مَلَكَهُ يَمْلِكُهُ مِلْكا - مثلّثة - ومَلَكَةً - محرّكة - ومَمْلُكَةً - بضم اللاّم أو يثلّث -: احتواه قادراً على الاستبداد به. وماله ملك - مثلّثاً ويحرّك وبضمّتين -: شيء يملكه - إلى أن قال -: ولي في **الوادي ملك** - مثلّثاً ويحرّك -: مرعى ومشرب ومال، أو: **هي البئر يحفرها** وينفرد بها.

وقال في لسان العرب ١٨٣/١٣: المَلك والمُلك والمِلك: احتواء

الشيء والقدرة على الاستبداد به. ملكه يملكه مَلكاً ومِلكاً ومُلكاً وتملّكاً؛ الأخيرة عن اللّحياني لم يحكها غيره ـ إلى أن قال: ـ وماله مَلك ومِلك ومُلك ومُلُك : أي شيء يملكه. كلّ ذلك عن اللّحياني ـ إلى أن قال: ـ ولي في هذا الوادي مَلك ومِلك ومُلك ومَلَك ؛ يعني: مرعًى ومشرباً ومالاً وغير ذلك ممّا تملكه.

قوله تعالى : «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)» .

مجّد تعالى نفسه القدّوس بإحاطة قدرته واستعلائه على كلّ شيء.

أقول: لايبعد أن يكون هذا التمجيد تثبيتاً لتماميّة مالكيّته تعالى على كل شيء. وقد أوردنا عن بعض اللغويّين في معنى الملك أنّه الاحتواء على الشيء والقدرة على الاستبداد به. ويمكن أن يكون هذا التمجيد منه تعالى مستقلا من غير ارتباط بما قبله. والله هو العالم بحقائق كتابه.

قوله تعالى : «ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ» .

بيان : اعلم أنّ حقيقة الإنسان بحسب الكتاب والسنّة، عبارة عن الرّوح والبدن؛ وحقيقة الموت هو التّفريق بين الرّوح والبدن. وواضح عند أهل البصائر أنّ الإماتة من جملة أفعاله تعالى الحكيمة القيّمة. والآيات الكريمة تنادي بأعلى صوتها أنّه تعالى يحيي ويميت. فهو المتفرّد في ذلك وحده لاشريك له.

فعليه يكون الموت من جملة ما خلقه الله ـ سبحانه. فلا محالة لايكون هذا الموت إلاّ عن مشيّته تعالى وإرادته وقَدَره وقضائه. فيميت الإنسان، ويموت معه جميع آماله وأمنيّاته، وينتقل إلى عالم البرزخ، وينتظر البعث. قال تعالى:

«ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون». (المؤمنون/ ١٠٠)

ولعلّ تقديم الموت على الحياة في الآية الكريمة، لأجل كونه أشدّ دلالةً وآكد وضوحاً على الاعتبار والاستبصار به من الحياة.

والحياة مقابل الموت بالمعنى الّذي ذكرنا، ومن أعظم المواهب الإلٰهيّة. فيفيضها تعالى على الإنسان فيصير حيًّا. ويقبضها ـ سبحانه ـ فيصير ميّتاً.

والحياة خارجة عن حقيقة الإنسان، مثل العقل والشعور والعلم. فإنّية الإنسان حقيقة مظلمة بذاتها. فبإفاضة الحياة منه تعالى يصير حيّاً، وبقبضه يصير ميّتاً.

ولايمكن معرفة الحياة ونيلها إلاّ بتعريف آثارها وعلاماتها. والخوض في حقيقة الحياة وإحقاق القول فيها، خارج عن عهدة المقام.

قوله تعالى: «الَّذي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكم أحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزيزُ الغَفُور(٢)».

قال في القاموس ٤/ ٣٠٠: ابتليته: اختبرته.

في البرهان ١٤٧/١ عن الصدوق، مسنداً عن المفضّل بن عمر، عن الصّادق جعفر بن محمّد ـ عليه السّلام ـ قال:

«... والابتلاء على ضربين؛ أحدهما مستحيل على الله ـ تعالى ذكره ـ والآخر جائز. فأمّا مايستحيل، فهو أن يختبره ليعلم ما تكشف الأيّام عنه. وهذا ما لايصلح؛ لأنه ـ عزّوجلّ ـ علاّم الغيوب. والضّرب الآخر من الابتلاء، أن يبتليه حتّى يصبر فيما يبتليه به، فيكون مايعطيه من العطاء على سبيل الاستحقاق.»

قوله تعالى: «ليبلوكم» مرتبط بقوله تعالى: «خلق الموت والحياة». والوجه في ذلك أنّ الموت والحياة أمران متضادّان. فالحياة الّتى هي من أجلّ مواهبه تعالى على عباده محبوبة عند الكلّ، قد وقعت في مورد التّهديد بالموت. فالموت لابدّ أن يقع ولامحيص عنه. والأسف أنّ وقت افتراق الحياة عند الأحياء غير معلوم بوجه من الوجوه. وحيث إنّ الموت والحياة ـ على الوجه الّذي ذكرناه ـ ضروريّ ومعلوم للكلّ، فهناك مورد الاختبار والامتحان، وموقف تزلّ فيه أقدام الرجال.

فالشخص اللّبيب والبصير لايرخّص نفسه بالافتتان والاشتغال بالدنيا، والغفلة عن نعم دار الآخرة الباقية الهنيئة، وعن مرضاة ربّه ـ جلّ ثناؤه ـ فيقدّم من صالح الأعمال، فيطيب به حياته في الدار الآخرة. فلا يزال واقفاً بين الخوف والطّمع، وبين الرغبة والرّهبة، زاهداً في الدنيا زهد الرّاحل عنها، ناظراً

إليها بعين المستوحشين منها.

وأمّا المتساهل والمتغافل، يخوض في الدنيا ويتلاعب بها. فهو قد تردّى في حفرة المتهاونين وابتلي بنعسة المخذولين. «فبينا هو يضحك إلى الدنيا و تضحك إليه في ظلّ عيش غفول، إذ وطئ الدّهر به حسكه» (النهج/٣٤١، الخطبة ٢٢١) وقطع عمره، و خيّب أمله، ويخرج من الدنيا خائباً خاسراً.

فتبيّن أنّ الموت والحياة من أشدّ مايختبربه تعالى عباده. وفيها تذكرة للمتذكّرين، وعبرة للمعتبرين وموعظة للمتّعظين.

في تفسير نورالثقلين ٥/ ٣٨٠: في كتاب الاحتجاج للطبرسي (ره) عن الرضا ـ عليه السّلام ـ حديث طويل. وفيه:

وأمّا قوله ـ عزّوجلّ ـ: «ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً» فإنّه ـ عزّوجل ـ خلق خلقه ليبلوكم بتكليف طاعته وعبادته، لاعلى سبيل الامتحان والتجربة. لأنّه لم يزل عليماً بكل شيء.

في الكافي ١٦/٢، مسنداً عن سفيان بن عيينة، عن أبي عبداللّه ـ عليه السلام ـ في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : «ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً» قال:

ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم عملاً. وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصّادقة و الحسنة.

ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتّى يخلص، أشدّ من العمل. والعمل الخالص الّذي لاتريد أن يحمدك عليه أحد إلاّ الله ـ عزّ و جلّ. والنيّة أفضل من العمل. ألا وإنّ النيّة هي العمل. ثمّ تلا قوله ـ عزّ وجلّ ـ «قل كلّ يعمل على شاكلته» [الإسراء/٨٤] يعني على نيّته.

قال في المجمع ٣٢٢/٩: قال أبوقتادة:

سألت النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عن قوله تعالى: «أيّكم أحسن عملاً»: ما عنى به؟

فقال: يقول: أيّكم أحسن عقلاً.

ثمّ قال: أتمّكم عقلاً، وأشدّكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً؛ وإن كان أقلّكم تطوّعاً.

قال فيه أيضا: عن ابن عمر، عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنّه

تلا قوله تعالى: «تبارک الذي بيده الملك ـ إلى قوله ـ: أيّكم أحسن عملاً»
ثمّ قال:

«أيّكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله.»

فقوله: «أحسن عملاً»؛ أي: أصوب وأصحّ عملاً قد روعي فيه جميع ما أمرالله به ونهاه عنه. وفي مرحلة الامتثال والإتيان، يجب ببداهة عقله أن يعرف موقفه وموقعه من ربّه ـ جلّ ثناؤه ـ كيف يقوم بين يديه، وكيف يقدّم عمله إلى حضور ربّه. فإنّ الموقف موقف الحضور من ربّه، والمخاطب والمقابل هوالله ـ سبحانه. فالواجب على كلّ عاقل التأدّب بخضوع المتّقين وخشوع المخبتين.

قوله تعالى: «اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ طِباقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفاوُتٍ».

قال الرازيّ في تفسيره ٥٧/٣٠ في ضمن كلام: أمّا دليل القدرة، فهو قوله: «الّذي خلق سبع سموات طباقاً» ... وأمّا دليل العلم، فهو قوله: «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور».

قوله تعالى: «الّذي» معرفة. والمراد منه هوالله ـ سبحانه. وهو قرينة على أنّ الآية الكريمة ليست لإثبات أمر مجهول مشكوك، بل مسوقة لتمجيده تعالى نفسه بالتذكرة والإرشاد إلى سعة علمه ـ سبحانه. فيعرّف تعالى نفسه إلى عباده بعلمه الوسيع غير المتناهي، فيعرفونه تعالى عالماً بالعلم الخارج عن حدّ التعطيل والتشبيه.

و«طباقاً» مصدر من باب المفاعلة؛ أي: مطابقاً نظم كلّ واحد من السّموات مع الآخر. والمطابقة بين الشيئين تكون من كلا الطّرفين وبين الأشياء من جميع الأطراف. فعليه تكون السّموات السّبع مطابقاً جميعها مع الآخر في العنايات الحكيمة الّتي أرادها الله تعالى في هذه الخلقة الكبيرة.

وقيل: المراد طبقة بعد طبقة؛ أي: درجات بعضها فوق بعض (الكشّاف ١٣٤/٤). والظّاهر هو الأوّل.

قوله تعالى: «مَا تَرىٰ في خلقِ الرَّحمٰنِ من تَفاوتٍ».

خطاب للرجال المتفكّرين الّذين كانوا أهل الاستبصار والاعتبار.

وقوله تعالى: «من تفاوت» مصدر من باب تفاعل، مأخوذ من الفوت؛ أي: من فائتة أو ناقصة أو ضائعة.

قوله تعالى: «فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ (٣)»؛ أي: شقوق وصدوع.

الاستفهام تقريريّ. والجواب منه منفيّ. أي: ليس فيها فطور ولافروج. ثمّ أمرهم بالمطالعة والنظر مرّة بعد أخرى.

قوله تعالى: «يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حسيرٌ (٤)».

أي: تنصرف عين المطالعة ودِقّة النظر إليك خاسئة؛ أي: بعيداً عن اكتناه الآيات واستقصاء علومها والأسرار المستودعة فيها في حال كونه حسيراً؛ أي: كليلاً ضعيفاً مسلوب القدرة عن المطالعة.

أقول: الآيات المباركة ليست مسوقةً في سياق الاستدلال وفي طريق إثبات الأمر المبهم المجهول؛ بل شرع تعالى بتمجيد نفسه القدّوس على أنّه فائض للخيرات والبركات، ومقتدر على مالكيّته واحتوائه على الاستقلال في جميع ماخلق، وقادر على إيجاد ما شاء كيف شاء.

ثمّ مجّد نفسه ـ جل ثناؤه ـ على أنّه ـ سبحانه ـ هو الّذى خلق السّموات السّبع على النظام المتقن والتدبير المحكم؛ مافات منه تعالى شيء دخيل في إتقان هذا النظام وجودة هذا الصّنع.

ثمّ تحدّى المخاطب بالنّظر والتفهّم والاستبصار في أمر هذة الخلقة مرّةً بعد أخرى، هل يجد فيها من شقوق وصدوع. ثمّ حكم تعالى ـ و هو حاكم عدل و شاهد صدق ـ أنّه ما وجد ضائعةً ولا نقيصةً ولا صدوعاً، بل رجع أفكاره وعقله بعيداً عن اكتناه هذه الآيات إلى نهايتها واستقصاء ما فيها من العلوم والأسرار المستودعة فيها، حال كون بصيرته و دركه كليلاً ضعيفاً.

فعلى أهل الانصاف والبحث التأمّل فيما ذكرناه من البيان أنّ هذه الآيات الكريمة عين إيصال المخاطب بالمعرفة والاستنارة بما فيها من واضح البيان.

وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾
قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ
إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾
وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: «وَلَقَدْ...»

اللاّم وقدها هنا يتلقّى بها القسم. وعليه أقسم ـ سبحانه ـ أنّه زيّن السّماء الدنيا بعد أن خلقها. ومرتبة الزينة بعد مرتبة الخلقة. والزينة أظهر وأدلّ على ظهور علمه تعالى بآياته وعلاماته من الخلقة. لأنّ الزينة بعد مرتبة الخلقة ومع الخلقة.

قوله تعالى: «السَّماء الدُّنْيا».

دنيا مأخوذ من دنا، يدنو. فإنّ عالم الدنيا أقرب من كلّ العوالم بالنسبة إلينا. وكذلك إذا قلنا إنّ الدنيا بعناية وقوعها في مقابل الآخرة.

قال الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٦٠: المسألة الثانية: اعلم أنّ ظاهر هذه الآية لايدلّ على أنّ هذه الكواكب مركوزة في السّماء الدنيا. وذلك لأنّ السّموات إذا كانت شفّافةً، فالكواكب سواء كانت في السّماء الدنيا، أو كانت في سموات أخرى فوقها، فهي لابدّ وأن تظهر في السّماء الدنيا و تلوح منها. فعلى التقديرين تكون السّماء الدنيا مزيّنةً بهذه المصابيح.

قلت: ما ذكره الرازيّ لاينكر، بل يشهد له بعض الروايات ـ كما سيأتي في تفسير سورة الطّارق إن شاء الله ـ إلا أنّ الآية الكريمة ناظرة إلى أنّ النجوم مخلوقة للسّماء الدنيا، وما ذكره الرازيّ يحتاج إلى عناية أخرى. فالقدر المتيقّن في الآية الكريمة، أنّ هذه الزّينة المذكورة وكونها مصابيح ورجوماً للشّياطين، مختصّة بالسّماء الدنيا فقط.

قوله تعالى: «بِمَصَابِيحَ»: جمع مصباح؛ مثل مفتاح؛ أي: ما يستضاء به، وهو السراج. قال تعالى:

«تبارك الّذي جعل في السّماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً». (الفرقان/ ٦١)

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ».

قال في القاموس ٤/ ١١٧: الرجم... اللّعن والشتم والهجران والطّرد، ورمي بالحجارة، واسم ما يرجم به.

أقول: والمتناسب في المقام هو اللّعن والهجران والطّرد. فالأظهر في معنى قوله تعالى: «رجوماً للشياطين»؛ أي: بشهب وشعلة من الكواكب لا نفسها. ويشهد على ما ذكرنا قوله تعالى:

«ولقد جعلنا في السّماء بروجاً وزيّناها للنّاظرين * وحفظناها من كلّ شيطان رجيم * إلاّ من استرق السّمع فأتبعه شهاب مبين». (الحجر ١٦-١٨).

«لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كلّ جانب * دحوراًولهم عذاب واصب * إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب». (الصّافّات/ ٨-١٠)

«وأنّا لمسنا السّماء فوجدناها ملئت حَرَساً شديداً وشهباً * وأنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسّمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً». (الجنّ/ ٨ و ٩)

قوله تعالى: «وأَعْتَدْنَا لَهُمْ عذَابَ السَّعِيرِ(٥)».

قال في لسان العرب ٦/٣٦٦... والسّعير والسّاعورة: النار. وقيل: لهبها.

قوله تعالى: «وَلِلَّـذينَ كَفَرُوا بِرَبِّـهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ».

عطف على قوله: «وأعتدنا». واللاّم لبيان استحقاق الكفّار بعذاب جهنّم.

وقد حكم تعالى باستحقاق الكفّار للنّار. وهذا الحكم حكم إرشاديّ. ضرورة أنّ وجوب الإيمان عند معرفته تعالى، وكذا وجوب الطّاعة عند الأمر بها، من الفرائض العقليّة. فلا محالة يكون ترك الإيمان والمعصية كفراً وعصيانا يستحقّ الأخذ بالمجازاة أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: «كفروا» مطلق شامل لجميع أنواع الكفر، سواء كان إلحاداً في ذاته تعالى وتوحيده أو إنكاراً لما كان ضروريّاً من أحكام دينه تعالى.

قوله تعالى: «وبِئْسَ الْمَصِير».

عطف على قوله: «عذاب جهنّم». والمصير اسم مكان؛ أي: مستقرّه ومقرّه. وهذا مجازاة أخرى للكافرين، وتهديد إيّاهم بالخلود في النار؛ كما في قوله تعالى:

«والّذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غَراماً * إنّها ساءت مستقرّاً ومُقاماً». (الفرقان/ ٦٥ و ٦٦)

قوله تعالى: «إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِـيَ تَفُورُ(٧)».

أي: إنّ الكفّار إذا وقعوا في النّار، سمعوا للنّار شهيقاً ــ أي: صيحة هائلة مزعجة ـ وهي تفور؛ أي: تهيج وتعلو. ومنه قوله تعالى في ذكر ابتداء طوفان نوح ـ عليه السّلام ـ:

«حتّى إذا جاء أمرنا وفار التّنّور قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين». (هود/ ٤٠)

وفي دعائه -عليه السّلام- بعد صلاة اللّيل في الصّحيفة المباركة السجّاديّة:

« اللّهمّ إنّي أعوذ بك من نار تغلّظت بها على من عصاك ، وتوعّدت بها من صدف عن رضاك ... ومن نار يأكل بعضها بعضاً، ويصول بعضها على بعض ...»

قوله تعالى : « تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ...» .

تميّز؛ أي: تقطع من شدّة الغضب أو سورته. قال في القاموس ٣٩٧/٢: الغيظ: الغضب، أو أشدّه، أو سورته.

قوله تعالى : « سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها ...»

أي: سألهم خزنة النار على نحو التوبيخ والتقريع: ألم يرسل الله تعالى عليكم رسولاً هادياً لكم ومنذرا إيّاكم ليهديكم؟! «قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا» .

وفي هذا دلالة على أنّ هؤلاء الكفّار أقرّوا بطغيانهم على الحقّ وعصيانهم لربّهم وأنّهم كانوا في الدّنيا عارفين بالحقّ، وما كانوا من الضّعفاء؛ فلم يقدروا في جواب خزنة النار على التشبّث بالأعذار الواهية.

قوله تعالى : « وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيءٍ إنْ أَنْتُمْ إلاّ في ضَلالٍ كَبيرٍ(٩)» .

أي: أقرّوا أنّه كان تكذيبهم بأنبيائهم عن عناد وطغيان. وقوله تعالى : «إن أنتم إلاّ في ضلال كبير» قول الكافرين؛ فإنّهم نسبوا إلى أنبيائهم الضّلال والجهل.

قال في المجمع ٣٢٤/٩ في تفسير المقام: أي: لستم اليوم إلاّ في عذاب عظيم.

أقول: هذا ضعيف، فالظّاهر ما ذكرناه.

قوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْنَعْقِلُ مَا كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعير(١٠)» .

يعني: انّا كنّا نسمع كلامهم وصدق مقالاتهم، وندرك بحقيقة عقولنا وجوب تصديقهم والإيمان والتسليم بما جاؤوا من ربّهم. وأقرّوا أنّهم لوكانوا يعقلون ويسمعون ما جاء به الرسل، ما كانوا هالكين.

قوله تعالى: «فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ(١١)».

قال في لسان العرب ١٦٤/٦: والسُحُق: البعد، وكذلك السُحْق؛ مثل عسر وعسر. وقد سحق الشيء- بالضم -فهو سحيق؛ أي: بعيد.

أقول: وهذا دعاء منه تعالى على الكافرين. وواضح أنّ دعاءه تعالى على أحد، ليس كدعاء بعض الناس على بعضهم، كي ينتظر إجابته من الله- سبحانه- بل دعاؤه تعالى على أحد عين حكمه تعالى ونفاذ قضائه الحكيم على هلاكه وطرده وإبعاده من رحمته وكراماته.

بحث و تحليل

قد ذكرنا في تفسير سورة الفاتحة أنّ أسماءه تعالى موضوعة له -سبحانه- بالوضع الشخصيّ، والواضع هو الله- سبحانه- بعناية نعت خاصّ من نعوته سبحانه. فهذه الأسماء الكريمة، في عين كون مصداق جميعها واحداً بالحقيقة، متغاير بالعنايات الملحوظة في كلّ واحد من أسمائه- سبحانه. وليس الأسماء الكريمة من قبيل المترادفات. فلا يجوز تفسير بعضها ببعض -مثل تفسير المدبّر بالربّ وبالعكس- لاستلزام الإخلال في معاني أسمائه تعالى.

مثلاً: العبد المؤمن إذا عرف ربّه تعالى بتعريفه تعالى نفسه إليه بعناية أنّه تعالى كريم رؤوف ودود بارّ عطوف، فلا محالة يرغب إليه تعالى ويرجوه، ويسكن نفسه إلى كرمه، ويرفع عنه الاضطراب في حوائجه وشدائده. وهكذا الكلام في جميع أسمائه تعالى.

إذا تقرّر ذلك، فنقول:

قوله تعالى: «إنَّ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأجْرٌ كَبيرٌ(١٢)».

الظّاهر أنّ الخشية عبارة عن معرفة المؤمن بتعريفه تعالى نفسه إيّاه بعناية أنّه

تعالى رقيب حفيظ مهيمن شهيد على كلّ نفس بما كسبت، فيخشى ويحذر ويتّقى عن العصيان في حضوره ـ جلّ ثناؤه ـ و يعرف و يعقل ببداهة عقله وجوب التحفظ والاحتراز في السرّ والعلانية و المغيب و المحضر.

في البحار ٩٨/٢٤١، قال مولانا الصّادق ـ عليه السلام ـ في دعائه يوم عرفة: « ...اللّهمّ أنت أقرب حفيظ و أدنى شهيد...»

وقال الراغب في مفرداته/١٤٩: الخشية خوف يشوبه تعظيم. وأكثر مايكون ذلك عن علم بما يخشى منه. ولذلك خصّ العلماء بها في قوله تعالى: « إنّما يخشى الله من عباده العلماء» . [فاطر/٢٨]

والفرق بين الخاشي والخائف يمكن أن يقال : إنّ الخائف يعرف الله تعالى بعناية أنّه ـ سبحانه ـ قاهر شديد البطش والانتقام، فيتّقي وينهى نفسه عن إساءة الأدب بمقام ربّه تعالى. ولا يبعد أن يقال : إنّ الخاشي يتّقي عن المعصية أدباً وحياءاً.

قوله تعالى : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٣)» .
الظّاهر أنّها تذكره بعموم علمه تعالى بالظّاهر والباطن والسرّ والجهر في عرض سواء.

قوله تعالى : « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ» .
بيان : تحرير البحث يحتاج إلى بيان أمرين:

الأوّل: إنّ علمه تعالى بجميع ما سواه ـ سبحانه ـ حقيقة متأصّلة فعليّة من غير احتياج العلم إلى المعلوم. وليس أيضاً حقيقةً إضافيّةً يحتاج في تحقّقه وتأصّله إلى المعلوم. فعليه لاوجه للالتزام بأنّ العلم الغير المتناهي شدّةً وسعةً يحتاج إلى المعلوم الغير المتناهي.

الثاني : يستحيل تحقّق المعلوم خارجاً إلاّ بعد مرتبة العلم به قبل وجوده، خارجاً من حيث أصل وجوده؛ وهكذا بالنسبة إلى تنظيم الخلقة وإحكام الصنع وجودة النظم بالضّرورة.

فعلى هذا، قوله تعالى: « ألا يعلم ...» تذكرة وإرشاد إلى أمر ضروريّ

ببداهة العقل أنّ جميع ما خلق الله من الخلق من ذرّة وما دونها وما فوقها آية وعلامة لوجود العلم الظّاهر بذاته بالضّرورة.

قوله تعالى: «وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤)».

في الكافي ١/١٢٢ في رواية شريفة عن أبي الحسن الرضا ـ عليه السلام ـ في بيان معاني أسمائه تعالى والتفريق بين معاني أسمائه ـ سبحانه ـ وبين أسماء ما سواه تعالى قال:

«وأمّا اللطيف، فليس على قلّة وقضافة وصغر؛ ولكن ذلك على النّفاذ في الأشياء والامتناع من أن يدرك... فكذلك لَطُف الله ـ تبارك وتعالى ـ عن أن يدرك بحدّ ويحدّ بوصف...

وأمّا الخبير، فالّذي لا يعزب عنه شيء ولا يفوته.»

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: «هُوَ».

إشارة إلى الغائب. وكونه تعالى غائباً نعت سلبيّ. والمراد من الغائب في أمثال المقام، علوّه وقدسه أن ينال الأفكار والعلوم منه تعالى شيئاً؛ لا قليلاً ولا كثيراً. فهو تعالى في عين كونه غائباً، ظاهرٌ بظهوره الذاتيّ في شدّة غير متناهية. والآيات والعلامات المشهودة تذكرة وإرشاد إلى هذا الظهور الذاتيّ.

وهذا التعبير بلفظ «هو» سواء كان في مورد التمجيد أو التقديس، كثير في القرآن الكريم. قال تعالى:

«وهو الّذي جعل اللّيل والنّهار خِلفةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكوراً». (الفرقان/ ٦٢)

«وهو الّذي أرسل الرّياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السّماء ماءً طهوراً». (الفرقان/ ٤٨)

والأظهر أنّ الآية الكريمة مسوقة في سياق الامتنان على عباده. فالمعنى: انّه تعالى خلق الأرض وجعلها متهيّئةً ومعدّةً لأجل انتفاعكم بها؛ من الحرث والغرس والبناء والتقلّب والسّير فيها للأسفار ودفن الموتى وغيرها من الحوائج الكثيرة.

قوله تعالى: «ذَلُولاً».

قال في لسان العرب ٥/٥٥: والذلّ ـ بالكسر ـ: اللّين؛ وهو ضدّ الصعوبة. والذلّ والذلّ ضدّ الصعوبة. ذلّ يذلّ ذُلّاً وذِلّاً فهو ذَلول.

قوله تعالى: «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ».

قال في لسان العرب ٢٧٦/١٤: ومناكب الأرض: جبالها. وقيل: طرقها. وقيل: جوانبها. وفي التنزيل العزيز: «فامشوا في مناكبها». قال الفرّاء: يريد في جوانبها. وقال الزجاج: معناه في جبالها. وقيل: في طرقها.

أقول: الظّاهر أنّ المراد من المناكب جميع جوانبها؛ الجبال والتّلال والقفار والصحاري والبراري وغيرها. وإحصاء موارد الاحتياج أمر مشكل جدّاً بحسب

العرف والعادة. وتخصيص المناكب ببعض الموارد، خروج عن سياق الآية، ومخالف للامتنان. والأمر بالمشي فيها وأكل رزقه تعالى، ترخيص وإذن منه تعالى بجميع التصرّفات والتقلّبات النافعة. وفيه إشعار بما استظهرنا من أنّ الآية الكريمة مسوقة للامتنان.

قوله تعالى: «وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ(١٥)».

المراد من النشور نشر الموتى وإحياؤهم وبعثهم وسوقهم إلى موقف الحساب. ولا يبعد أن يكون هذا تمجيداً لله ـ سبحانه ـ أنّ أمر البعث والإحياء منوط إلى أمره ومشيّته تعالى وحده لاشريك له. ويمكن أن يقال: إنّ البعث والنشور إليه تعالى؛ أي: إلى حسابه تعالى ومجازاته إيّاهم على أعمالهم.

قوله تعالى: «أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ(١٦)».

قال في المجمع ٣٢٧/١٠: «أي: أمنتم عذاب من في السّماء سلطانه وأمره ونهيه وتدبيره؟! لا بدّ أن يكون هذا معناه؛ لاستحالة أن يكون الله ـ جلّ جلاله ـ في مكان أو في جهة. وقيل: يعني بقوله: «من في السّماء» الملك الموكّل بعذاب العصاة.» ولا يبعد ان يستشهد على هذا القول الأخير بما في الصّحيفة المباركة السجّاديّة في دعائه ـ عليه السلام ـ على حملة العرش. قال:

«... ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء.»

قال السيّد في رياض السالكين/٩٣ في شرح المقام: إلى والباء كلاهما متعلّقان بـ «رسلك». تقول: أرسلته إلى فلان بكذا. والباء للمصاحبة؛ نحو: اهبط بسلام. والمكروه: ما يكره الإنسان ويشقّ عليه. و«ما» موصولة، و«من البلاء» بيان لها.

قال في القاموس ١٤١/٢: مار يمور موراً... المور: الموج والاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرّك.

الآية الكريمة في مقام التهديد من الله ـ سبحانه ـ بعد امتنانه على عباده بهذه النعمة الكبيرة على من ارتكب الكفران والطّغيان، وسلب أمانه تعالى عنهم

بالخسف بهذه الأرض الّتي أنعم الله عليهم ويبدّل نعمتهم بالنقمة ويصيّرها عليهم بلاءاً بواراً.

قوله تعالى: «أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ(١٧)».

قال في لسان العرب ١٩٨/٣: والحاصب: ريح شديدة تحمل التراب والحصباء.

وكذلك يرسل عليهم الرّيح الشّديدة الّتي تحمل التراب والحصباء بقوة. وقد سمّي هذه الريح الشّديدة في زماننا هذا بالطّوفان؛ تخرب البيوت، وتقلع الاشجار وأمثال ذلك.

قوله تعالى: «فستعلمون كيف نذير» قال في المجمع ٣٢٧/٩: أي: كيف إنذاري إذا عاينتم العذاب. وقال في مجمع البحرين ٤٩١/٣: النذير: فعيل بمعنى المنذر.

قوله تعالى: «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(١٨)».

قال في المجمع ٣٢٧/٩: «فكيف كان نكير»؛ أي: عقوبتي وتغييري ما بهم من النعم.

وقيل: كيف رأيتم إنكاري عليهم. بإهلاكهم واستئصالهم. قال في القاموس ١٤٨/٢: ... النكير أيضاً: الإنكار.

قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ... (١٩)».

بيان: أراد تعالى سوق الناس وتوجيههم إلى مطالعة آية عجيبة وسنّة حكيمة في خلق الطّيور وطيرانها، حين يبسطن ويقبضن أجنحتهنّ بما يسّر لهنّ ومكّنهنّ من السّير بواسطة الأجنحة الّتي جعل الله تعالى لهنّ بتدبيره، واهتدائهنّ وحركاتهنّ في شؤون حياتهنّ ومعاشهنّ. ويستحيل هذا الخلق البديع إلّا عن تنظيم علميّ وتدبير عمديّ. ولا تجد في هذا الخلق الحكيم فائتةً ولا ضائعةً. والشّاهد على ما ذكرنا، تمجيده تعالى أنّه بصير على كلّ شيء يخلقه ويبدؤه. والآية الكريمة من جملة الآيات الدالّة على علمه تعالى في النظام المشهود.

قوله تعالى: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠)».

استفهام على سبيل التوبيخ والتقريع على الّذين يتوهّمون أنّ لهم جنوداً وأنصاراً يستنصرون منهم ويستغنون بهم عن الله ـ سبحانه. وليس هذا إلاّ غروراً واغتراراً منهم، ولا يخدعون إلاّ أنفسهم.

ولا دلالة في الآية الكريمة على أنّهم يستنصرون من الأنداد والأضداد في معارضته تعالى ومغالبته فإنّ لفظ «من دون الله» كثيرة في القرآن الكريم، أريد به اتّخاذ الشّريک أو اتّخاذ المعبود غير الله تعالى.

قوله تعالى: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ».

الاستفهام تقريريّ؛ والجواب هنا مثبت ـ أي: من هذا الّذي يرزقكم ـ بخلاف الآية السابقة. والتعبير بقوله تعالى: «هذا» و«الّذي» المعرفتين تعبير عن الواضح الثابت الّذي لاريب فيه؛ وهو الله الرزّاق ذو القوّة المتين.

قوله تعالى: «إن أمسك رزقه» شرط في مقام التهديد والتحدّي. وجواب الشرط محذوف، لوضوحه وثبوته. أي: هلكوا واستؤصلوا. والضّمير في «رزقه» راجع إلى «من».

قوله تعالى: «بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)»:

بل لغاية حمقهم وسفاهتهم، تشبّثوا باللّجاج والعناد، عتوًّا ونفوراً، واستكبروا عن إقرارهم بأنّ الله هو الّذي يعطي رزقه من يشاء ويمسكه عمّن يشاء.

وقد اشتبه الأمر على بعض المفسّرين وزعموا أنّ الاستفهام في هذه الآية استفهام انكاريّ مثل الآية السابقة. قال في الكشّاف ١٣٩/٤: «أم من» يشار إليه فيقال: «هذا الّذي يرزقكم إن أمسك رزقه». وهذا على التقدير. ويجوز أن يكون إشارةً إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنّهم يُحفظون من النوائب ويُرزقون ببركة آلهتهم. فكأنّهم الجند الناصر والرازق. ونحوه قوله: «أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا». [الأنبياء/٤٣]

ومنشأ الغفلة أنّ الآية السابقة استفهام إنكاريّ ـ بتصريح قوله تعالى:

«ينصركم من دون الرحمن». والجواب هناك منفيّ؛ بخلاف الآية المبحوثة عنها؛ فانّه استفهام تقريريّ، والجواب هاهنا مثبت.

وقول الكشّاف: «هذا على التقدير» أي: تقدير الله.

قوله تعالى: «أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)».

قال في القاموس ١٢١/١: كبّه: قلبه وصرعه... والمكبّ ـ كمسنّ ـ: الكثير النظر إلى الأرض.

وقال في لسان العرب ٧/١٢ كبّ الشيء يكبّه وكبكبه: قلبه. وكبّ الرجلُ إناءه يكبّه كبًّا... كبه لوجهه فانكبّ؛ أي: صرعه.

بيان: تحرير البحث في المقام يحتاج إلى تقديم أمور:

الأوّل: خرور الإنسان بتمام بدنه على الأرض يمشي بالتكلّف والتشبّث ـ مثل الحيّة وغيرها من الحشرات ـ ويمرّ على كل حشيش وخسيس وقذر ونظيف ويتردّى في حفرة بعد حفرة.

الثاني: استمرار النظر إلى الأرض لا يلتفت إلى شيء من يمينه وشماله وقدّامه وورائه.

الثالث: الميل والتبعيّة من شخص إلى شخص آخر من حيث نظراته وعقائده في الأبحاث العلميّة. كما شاع في ألسنة العرف: فلان أكبّ على كتب فلان ومقالاته وعقائده.

هذه الأمور الثلاثة جارية دائرة اليوم بين الناس في الاجتماع البشريّ.

الرّابع: قال تعالى: «أمّن يمشي سويًّا...».

السويّ هو الإنسان المعتدل البالغ الكامل. قال في القاموس ٣٤٥/٤: ... واستوى: اعتدل. والرجل: بلغ أشدّه أو أربعين سنة... ليلة السواء: ليلة أربع عشرة أوثلاث عشرة.

قال في لسان العرب ٤٤٨/٦: قال أبوالهيثم: السويّ: فعيل في معنى مفتعل أي: مستوٍ. قال: والمستوي: التامّ في كلام العرب الّذي قد بلغ الغاية في شبابه وتمام خلقه وعقله.

قال الله تعالى:

«ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها». (الشمس/ ٧و٨).

«فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً». (مريم/١٧)

«أكفرت بالّذي خلقك من تراب ثمّ من نطفة ثمّ سوّاك رجلاً». (الكهف/٣٧)

قال تعالى: «ولّما بلغ أشدّه واستوى». (القصص/١٤)

في نور الثقلين ٤/١١٧، عن كتاب معاني الأخبار، مسنداً عن محمّدبن النعمان الأحول، عن أبي عبدالله -عليه السلام- في قول الله -عزّ وجلّ- : «فلمّا بلغ أشدّه واستوى» قال:

«أشدّه ثمان عشر سنة. واستوى: التحى.»

والشّواهد على هذا كثيرة في القرآن الكريم.

إذا تقرّر ذلك، فنقول: الظّاهر من مقابلة قوله تعالى: «سويّاً» بقوله: «يمشي مكبّاً على وجهه» هو مشيه خروراً على وجه الأرض. فإنّ عمل المفسدين في الأرض وأهل الجناية على الأديان وحقوق البشر، هو المصداق الجليّ من مصاديق هذا المشي المكبّ. وإنّهم لايهتمّون بشيء من الفرائض العقليّة والحقائق الدينيّة، ولا همّ لهم في حياتهم إلاّ التجاوز على الحقّ والعلم؛ من دون اعتناء إلى العقل والعلم. ضرورة أنّ الانسان اللّبيب الخبير، كما أنّه يعقل ويهتمّ بمأكوله ومشروبه، جودةً وخسّةً ونظافةً وقذارة وغيرها، كيف لايعقل في معقوله، وهو أهمّ وأولى من المأكول والمشروب؟!

وأمّاالأمر الثاني والثالث أي استمرار النظر إلى الأرض لايلتفت إلى شيء من يمينه وشماله وقدّامه ووارئه، ويمشي في الطريق تقليدا للغير. ويأخذ عقائده وعلميّاته من الغير، فلا يمكن للقول أنّها خارجان عن مفاد الآية. غاية الأمر الالتزام بكونها من المصاديق الضعيفة بالنسبة إلى الأمر الأول. ويشهد على ذلك ما ورد من الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت -عليهم السّلام-:

منها ما في البرهان ٤/٣٦٣ مسنداً عن محمّدبن الفضيل، عن أبي الحسن الماضي -عليه السّلام- قال: قلت: «أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أم من

يمشي سويًّا على صراط مستقيم» . قال:

« إنّ الله ضرب مثلاً. من حاد عن ولاية عليّ ـ عليه السّلام ـ كمن يمشي على وجهه لايهتدي لأمره. و جعل من تبعه سويًّا على صراط مستقيم. و الصراط المستقيم أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام.»

وفيه أيضا مسنداً عن الفضيل قال:

دخلت مع أبي جعفر ـ عليه السلام ـ المسجد الحرام وهو متّكئ عليّ. فنظر إلى الناس ونحن على باب بني شيبة، فقال: يا فضيل، هكذا كانوا يطوفون في الجاهليّة؛ لا يعرفون حقًّا، ولا يدينون دينا. يا فضيل، انظر إليهم! فإنّهم مكبّون على وجوههم. لعنهم الله من خلق ممسوخ مكبّين على وجوهم!

ثمّ تلاهذه الآية: «أفمن يمشي مكبًّا على وجهه أهدى أم من يمشي سويًّا على صراط مستقيم» . يعني ـ والله ـ عليًّا ـ عليه السلام ـ والأوصياء ـ عليهم السلام...

أقول: حيث إنّ هاتين الروايتين واردتان في شأن المسلمين المنحرفين، **فالظاهر أنّهما** ناظرتان إلى الأمر الثاني و الثالث.

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ

ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: «هُوَ الَّذي أَنْشَأَكُمْ».

بيان: الإنشاء ليس مرادفا للخلق ولا للإيجاد.

قال الراغب في مفرداته/٤٩٣: الإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته ـ وذكر عدّةً من الآيات ثمّ قال: ـ فهذه كلّها في الإيجاد المختصّ بالله.

وفيه: أنّ الإنشاء ليس مرادفاً للخلقة ولا للإيجاد. والإيجاد مضادّ للإنشاء بالمعنى الّذي سنذكره ـ إن شاء الله. **فإنّ الإيجاد لاينا في القدم والأزل.**

قال في لسان العرب ١٣٤/١٤: أنشأ الله الخلق؛ أي: ابتدأ خلقهم.

وفيه: انّ الإنشاء ليس مرادفاً للبدء والابتداء. لأنّ الإنشاء متعدٍّ والبدء لازم. فإنّ البدء بمعنى الشروع.

وقد قيل: الإنشاء بمعنى الإحداث.

أقول: لو قلنا إنّ الانشاء بمعنى الإحداث، لابدّ من الالتزام بأنّ المراد من الإحداث أن يكون مسبوقاً بالعدم الصّريح ونفي أزليّته، أي بمعناه اللّغويّ لاالمعنى الاصطلاحيّ. قال في لسان العرب ٧٥/٣: الحديث: نقيض القديم... ولا يقال: حدُث ـ بالضم ـ إلاّ مع قدُم كأنّه أتباع... والحدوث كون شيء لم يكن وأحدثه الله، فحدث. وحدث أمر؛ أي: وقع. ومحدثات الأمور: ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء الّتي كان السّلف الصّالح على غيرها.

قال في المجمع ٣٢٩/٩: «هوالّذي أنشأكم» بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود.

أقول: وفي العبارة ضعف و مسامحة. إذ لامحصّل أن يخرج شيء من العدم. والظاهر أنّ مراده هو ما ذكرناه؛ أي ما كان مسبوقاً بالعدم. وهذا هو الأنسب بالمقام.

قوله تعالى: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا

تَشْكُرُونَ (۲۳)».

بيان: السّمع و البصر من عجائب خلقه تعالى، ومن أجلّ نعمه ومواهبه تعالى على عباده. قال أميرالمؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ في نهج البلاغة/ ٤٧٠ :

«اِعجبوا لهذا الإنسان! ينظر بشحم، و يتكلّم بلحم، و يسمع بعظم، و يتنفّس من خرم!»

وحيث إنّ حقيقة الروح ليست عين الشّعور و الدرك ، بل إنيّة فقيره محتاجة إلى إفاضته تعالى الدرك والشّعور عليها؛ وحيث إنّ نظام حياة الإنسان ومعاشه لايمكن إلاّ بالعلم بجميع ما يحتاج إليه، مثل الغرس و البناء و الصنائع و الحرف وغيرها من أصناف العلوم و أنواعها إلى ما يعسر إحصاؤها، وهذا النوع من العلم لايمكن إلا بالبصر، فالروح الشّاعر الحيّ يرى و يشهد بالحقيقة بتوسّط الشحمة جميع ما في الخارج إحاطةً وعياناً. وبه يتسلّط على جميع أنواع الصنائع و الفنون. و كذلك بتوسط السّمع أيضاً يدرك ويشعر جميع ما يمكن دركه من المسموعات عياناً و إحاطةً.

وآفة السمع والبصر ليست إلاّ بفقدان العلم و الشعور؛ مثل النوم و الغشية ونظائرها، أو آفة تصيب بأدواتها كالشحمة و العظمة و العروق الرابطة في هذا الباب.

و أمّا كيفيّة نفوذ الروح بالشّعور و العلم على أعضاء الإنسان وعروقها؛ فالله يعلم.

فلايخفى أنّ هذا الامتنان منه تعالى بالسّمع و البصر، ليس مختصّاً بشخص دون شخص، و بقوم دون قوم، بل عامّة بالنسبة إلى جميع الخلق، و الكلّ مستفيضون ومستفيدون من السّمع و البصر. و بقاء الدنيا منوط بوجود العلم بهما. ولو قبض الله ـ سبحانه ـ هذا العلم عن وجه الأرض انحلّ النظام، و خربت الدنيا.

وهذا من موارد معنى الرحمانيّة العامّة الإلٰهيّة الواردة في لسان أئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ الشاملة للمؤمن و الكافر و البرّ و الفاجر و الصديق و العدوّ. و هذه الرحمانيّة الإلهيّة مستندة إلى الفضل و الحكمة، لا إلى العطوفة و الرقّة.

قوله تعالى: «وَ الأَفئدة» فهي جمع الفؤاد.

قال الراغب في مفرداته /٣٨٣: الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد، إذا اعتبر فيه معنى التفؤّد؛ أي: التوقّد. وقال في لسان العرب ١٦٦/١٠: ... التفؤّد: التوقّد. والفؤاد: القلب لتفؤّده وتوقّده. وقال في القاموس ٣٢١/١: فاد... التفؤّد: التحرّق والتوقّد.

بيان: التعبير بالتوقّد، لعلّه كان من حيث تنوّره وإضاءته.

قال في المجمع ٣٢٩/٩: «والافئدة»؛ يعني: القلوب، تعقلون بها و تتدبّرون.

أقول: الظّاهر أنّ القلب باعتبار أنّه عضو خاصّ في ناحية خاصّة من البدن بحسب خلقته تعالى في تنظيم أجزاء البدن وموقفه الخاصّ بالنسبة إلى كلّ واحد منها. فلا محالة يكون نسبة التفكّر والتعقّل إليه بالعناية الّتي ذكرناها في السّمع والبصر. أي بسريان نور الشعور والعقل عليه، يكون واجداً للشعور والعقل. وهذا من عجائب خلقه تعالى في خلقة الإنسان من التنظيم العلميّ العجيب وتدبير العليم الحكيم. ويشهد على ذلك عدّة من الروايات الواردة عن ائمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ:

منها ما في البحار ٩٩/١، ح ١٤، عن علل الشرائع بإسناده عن عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ أنّ النّبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ سئل... قال:

«... فيقع في قلب هذا الإنسان نور، فيفهم الفريضة والسنّة والجيّد والرّديّ. ألا ومَثَل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت..»

منها ما في الكافي ٣٣/٢ و٣٤، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن القاسم بن بريد قال: حدّثنا أبو عمرو الزبيريّ عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ... قال:

«... فمنها قلبه الّذي به يعقل ويفقه ويفهم. وهو أمير بدنه؛ الّذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلاّ عن رأيه وأمره.»

وفيه أيضاً ٣٨/٢ و٣٩ مثله بسند آخر.

قوله تعالى: «قُلْ هُوَ الَّذي ذَرَأَكُمْ في ٱلأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤)».

بيان: أمر تعالى رسوله وصفيّه ـ صلى الله عليه وآله ـ بقوله: «قل» أن يمجّد ربّه تعالى أنّه ـ سبحانه ـ قال مخاطباً لجميع الخلق: «هو الّذي ذرأكم»؛ أي:

خلقكم في الأرض.

وقد ذكرنا في أبحاثنا غير مرّة أنّ من الواضحات عند أولي الالباب، أنّ المخلوقيّة علامة بيّنة وآية ظاهرة على علمه تعالى وقدرته؛ ضرورة استحالة خلق شيء من الأشياء من غير علم به وقدرة عليه.

أمّا ارتباط الآية بقوله تعالى: «وإليه تحشرون» إمّا لتهديد العصاة لعصيانهم، أو لغيره من الغايات. فلا يبعد أن يقال: إنّه تفريع على ما تقدّم في قوله: «ذرأكم في الأرض». ضرورة أنّ في خالقيّته تعالى إشارةً ودلالةً على كونه تعالى باعثاً وناشراً إيّاهم من قبورهم أيضاً؛ إذ. لايمكن تفكيك قدرته تعالى وعلمه بين خلقهم وبين بعثهم. فإنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لايجوز سواء. ولهذه الآية نظائر كثيرة في القرآن الكريم؛ منها:

«قل يحيها الّذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خلق عليم * أو ليس الذي خلق السّموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّق العليم». (يس/ ٧٩ و٨١)

«أيحسب الإنسان أن يترك سدًى * ألم يك نطفةً من مني يُمنى * ثمّ كان علقةً فخلق فسوّى * فجعل منه الزّوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى». (القيامة/٣٦-٤٠)

واستظهر الرازيّ (في تفسيره ٧٤/٣٠) ذلك الّذي ذكرناه في تفسير المقام بوجه آخر. من أرادها، فليراجعها.

قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّما العِلْمُ عِنْدَ الله».

ظاهر أنّ السؤال ليس لأجل التفهم والتعلّم، بل لأجل المناقشة والخدشة في إمكان المعاد وصحّته وتكذيب النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ فيما جاء به. فإنّ قولهم: «إن كنتم صادقين» صريح في أنّ السؤال عن الوقت بفرض كون النبيّ صادقاً لا مطلقاً. والجواب أنّ العلم بيوم القيامة مختصّ بالله ـ سبحانه ـ ولا يعلم هذه الحادثة الكبيرة إلاّ الله ـ سبحانه ـ فقط. قال تعالى:

«إنّ الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزىٰ كلُّ نفس بما تسعى». (طه/١٥)

«يسألونك عن السّاعة أيّان مرساها قل إنّما علمها عند ربّي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو». (الأعراف/١٨٧)

قوله تعالى: « وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦).

أي: أنا نذير لإنذار العاصين والكافرين من سطواته تعالى وعذابه ونكاله.

قوله تعالى: « فَلَمّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا».

الزّلفة مصدر بمعنى الفاعل.

وأمّا موطن الرؤية؛ قال في المجمع ٩/ ٣٢٩: « فلمّا رأوه زلفة» ؛ أي: فلمّا رأوا العذاب قريباً. يعني يوم بدر. عن مجاهد. وقيل: معاينةً. عن الحسن وقيل: إنّ اللفظ ماضٍ والمراد به المستقبل. والمعنى: إذا بعثوا ورأوا القيامة قد قامت، ورأوا ما أُعدّ لهم من العذاب. وهذا قول أكثر المفسّرين.

أقول: فيها دلالة على أنّ هذه الرؤية في موطن البعث قبل مشاهدة القيامة كما في عدّة من الآيات؛ منها:

«وأزلفت الجنّة للمتّقين غير بعيد». (ق/٣١)

«وأزلفت الجنّة للمتّقين * وبرّزت الجحيم للغاوين». (الشعراء/ ٩٠و٩١)

«وبرّزت الجحيم لمن يرى». (النازعات/٣٦)

«كلاّ سوف تعلمون * ثمّ كلاّ سوف تعلمون * كلاّ لو تعلمون علم اليقين * لترونّ الجحيم * ثمّ لترونّها عين اليقين». (التكاثر/٣-٧)

الآيات الأخيرة تهديد شديد على المتكاثرين. قال في المجمع ١٠/٥٣٤: رواه زرّبن حبيش عن علي -عليه السلام. قال: مازلنا نشكّ في عذاب القبر حتّى نزلت « ألهاكم التكاثر- إلى قوله: - كلاّ سوف تعلمون» يريد في القبر « ثمّ كلاّ سوف تعلمون» بعد البعث.

و قوله تعالى: «ثمّ لترونّها عين اليقين» فيه دلالة على أنّ رؤية عين اليقين بعد رؤية علم اليقين. ومعنى قوله تعالى: «لترون الجحيم» بضمّ التاء بناءاً على القراءة المرويّة عن عليّ -عليه السلام- هي الإراءة لا الرؤية عياناً وحسّاً، فيكون في موطن بعد البعث قبل دخول الجحيم.

و هل المراد من قوله تعالى: « لترونّ الجحيم» توضيح لقوله تعالى: « ثمّ كلاّ

سوف تعلمون» أو هو موقف آخر من المواقف الّتي بعد البعث؟ والله يعلم.

قوله تعالى: «سيئت وجوه الّذين كفروا»؛ أي: تغيّرت وجوههم، وظهر عليها أثر الذلّة والهوان.

قوله تعالى: «وَقِيلَ هَذَا الَّذي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧)».

قيل: كنتم به تستعجلون. (تفسير الرازي ٣٠/٧٥) وهو الأنسب بما مضى في صدر الآية وأنّ السؤال على سبيل الاستهزاء.

قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجيرُ الكَافرينَ مِنْ عَذَاب أليم (٢٨)».

قال في المجمع ٩/ ٣٣٠: «قل» لهؤلاء الكفّار: «أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي» بأن يميتنا «أورحمنا» بتأخير آجالنا، «فمن يجير الكافرين من عذاب أليم» استحقّوه بكفرهم؟! وما الّذي ينفعهم في دفع العذاب عنهم؟! وقيل: إنّ الكفّار كانوا يتمنّون موت النبيّ - صلىّ الله عليه وآله وسلّم - وموت أصحابه. فقيل له: قل لهم: إن أهلكني الله ومن معي، ذلك بأن يميتني ويميت أصحابي، فمن الّذي ينفعكم ويؤمنكم من العذاب؟ فإنّه واقع بكم لا محالة! وقيل: معناه: أرأيتم إن عذّبني الله ومن معي أورحمنا - أي: غفرلنا - فمن يجيركم؟! أي: نحن مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ولا رجاء لكم كما للمؤمنين؟! عن ابن عبّاس وابن كيسان.

أقول: هذه الوجوه كلّها ضعيفة. والله يعلم حقيقة كتابه.

قوله تعالى: «قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ».

بيان: الضّمير راجع إلى الله العزيز القدّوس في الآيات المتقدّمة؛ سيّما في قوله تعالى: «هو الّذي ذرأكم في الأرض». والتعبير بالاسم الكريم «الرحمن» دون غيره من أسمائه الحسنى، فيه دلالة على التوبيخ والتقريع على الكفّار الّذي أنكروا وكفروا بهذه النعماء الّتي أعطاها الله جميع خلقه لايقدرون على إحصائها وبها قوامهم ومعاشهم. سبحانك! ما أحلمك! بنورك وعظمتك عاداك الجاهلون.

قوله تعالى : « آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلنَا فَسَتَعْلَمونَ مَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبين (٢٩) » .

أي: نحن معشر الموحدين و المؤمنين آمنّا به وعليه توكّلنا على رغم أنوفكم فستعلمون عن قريب من هو أهدى، ومن هو منغمر في ضلال مبين.

قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعينٍ (٣٠) » .

هذه الآية الكريمة تهديد للكفار و العصاة، و تذكير للمؤمنين و الموحّدين.

قوله تعالى: « إن أصبح ماؤكم غوراً»؛ أي:صار ماؤكم الّذي تفضّل به الله ـ سبحانه ـ عليكم غائراً في الارض و ذاهباً فيها. «فمن يأتيكم بماء معين»؟! هل يقدر عليها غير الله ـ سبحانه؟!

٦٨. سورة القلم

في رواية عن ابن عبّاس أنّها مكّيّة، وهي السّورة الثانية من القرآن نزلت بعد سورة العلق. (انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ

وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾».

قوله تعالى: «ن».

لايعلم تأويلها إلا الله. وفي بعض الرّوايات أنّها من أسماء النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله.

في البرهان ٣/ ٢٨، عن سعدبن عبدالله مسنداً، عن الكلبيّ، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال:

قال: يا كلبيّ، كم لمحمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من اسم في القرآن؟

فقلت: اسمان أو ثلاثة.

فقال: يا كلبيّ، له عشرة أسماء: «وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل». [آل عمران/١٤٤] وقوله: «ومبشّرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد». [الصف/٦] و«لمّا قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً [الجنّ/١٩] و«طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى». [طه/١و٢] و«يس * والقرآن الحكيم * إنّك لمن المرسلين * على صراط مستقيم». [يس/ ١-٤] و«ن والقلم وما

يسطرون* ما أنت بنعمة ربّك بمجنون» ...

وهذا لاينافي تأويلاً آخر، لودلّ عليه دليل.

قوله تعالى: « وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ».

الواو للقسم. وإن قلنا إنّ المراد من القلم هي عدّة من الحقائق الغيبيّة الّتي وردت في بعض الروايات، وكذا المراد من المكتوب (انظر: البحار ٣٥٧/٥٧-٣٧٦) فلا يعلمها إلّا الله. وإن كان المراد هو القلم الحسّيّ، فالوجه في حلفه تعالى بالقلم وغيره في أمثال المقام، ما ورد في بعض الروايات أنّالله تعالى أن يحلف بماشاء من خلقه، وليس لخلقه أن يحلفوا إلّا به.

في الوسائل ١٦/ ١٥٩، عن محمّدبن عليّ بن الحسين مسنداً، عن عليّ بن مهزيار قال: قلت لأبي جعفر الثاني -عليه السّلام- قول الله -عزّو جلّ-: « واللّيل إذا يغشى والنّهار إذا تجلّى» وقوله -عزّو جلّ- « والنجّم إذا هوى» وما أشبه هذا. فقال:

إنّالله -عزّو جلّ- يقسم من خلقه بماشاء. وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به-عزّو جلّ.

وفيه أيضاً عن محمّدبن يعقوب مسندًا عن محمّد بن مسلم مثله.

قال بعض المفسّرين في توجيه المقام: إنّ الآيات واردة للتذكير بمواهبه تعالى ونعمائه. ضرورة أنّ نعماءه تعالى لها شأن خاصّ عنده -سبحانه- وعند الخلق.

وفيه: أنّ بعضاً من هذه الآيات الّتي أقسم بها تعالى، واردة في مورد النقمة أيضاً. قال تعالى: « والبحر المسجور» (الطّور/٦). في البرهان ٤/ ٢٤٠، قال: قال: يسجريوم القيامة. وفيه أيضا عن نهج البلاغة عن عليّ -عليه السّلام-: المسجور: الموقّد.

وقال تعالى: « والمرسلات عرفاً* فالعاصفات عصفاً». (المرسلات/ ٢ و٣)

قال في القاموس ١٧٦/٣: عصفت الريح تعصف عصفاً وعصوفاً: اشتدّت.

أقول: قد روعي في كلامه تعالى من القسم المذكور، ماجرت في السّنّة الواردة في التخاطب وعرف المحاورة من الإتيان بالقسم، لتأكيد مورد القسم

من حيث ثبوته وتحقّقه. وللقسم أحكام شرعيّة على المكلّفين؛ من الكراهة والحرمة والوجوب، ومن وجوب الكفّارة وعدمه في بعض الموارد. وأمّا بالنسبة إليه تعالى، ليس إلّا لتأكيد مورد القسم من حيث تحقّقه وثبوته. فليس هو -سبحانه- محكوماً بشيء من الأحكام الشرعيّة. فالله -سبحانه- قد أقسم في الآيات المذكورة بخلقه، وأقسم بنفسه القدّوس أيضاً. قال تعالى:

«ويقول الإنسان أ إذا ما متّ لسوف أُخرج حيّاً * أو لا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً * فوربّك لنحشرنّهم والشّياطين ثم لنحضرنّهم حول جهنّم جثيّاً». (مريم/ ٦٦-٦٨)

«وفي السّماء رزقكم وما توعدون * فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقّ مثل ما أنّكم تنطقون». (الذاريات/ ٢٢ و٢٣)

قوله تعالى: «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)».

بيان: الباء في قوله تعالى «بنعمة» للسّببيّة. والوجه في ذلك أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- قد كان واجدًا لمرتبة كريمة عظيمة من أنواع العلم، وهي النبوّة؛ أي كان يأخذ الأنباء من الله -سبحانه- من غير وساطة الملك، والرّسالة؛ وهي أخذ الحقائق من الله -سبحانه- بواسطة الملك الأمين المكين المقرّب عندالله. وكلا الأمرين علم واطّلاع على الغيوب خارج عن سنّة العادة والأسباب والعلل. ثمّ أكرمه تعالى وأيّده بروح القدس؛ وهو علم وسيع حقيقيّ مصون ومعصوم بذاته، يؤيّده به -سبحانه- ويفيضه على رسوله قبل مرتبة النبوّة والرسالة، أو مقارناً إيّاهما. فبهذا العلم الحقيقيّ المصون المعصوم يأخذ الرسالة والنبوّة. وبه يتحمّلها. وبه يحفظها. وبه يبلّغها ويعلّمها. وبه يعرف شخص الملك الّذي يؤدّي إليه الرّسالة، فيكون على حجّة بيّنة من معرفة الملك ومن معرفة الرسالة والنبوّة، فيبلّغها ويعلّمها عن حجّة معصومة بذاتها. وبهذا العلم يتمّ عليه الحجّة في نبوّته ورسالته. وسيجيء إشباع البحث في ذلك في ذيل سورة النبأ -إن شاء الله-.

في البحار ٢٥/ ٥٧، عن بصائر الدرجات، عن الحسين بن محمّد مسندًا، عن المفضّل بن عمر قال: قلت لأبي عبدالله -عليه السّلام- سألته عن علم الإمام

بما في أقطار الأرض و هو في بيته مرخىً عليه ستره. فقال:

يا مفضّل، إنّ الله -تبارك وتعالى- جعل للنبيّ -صلّى الله عليه وآله- خمسة أرواح: روح الحياة، فبه دبّ ودرج؛ وروح القوّة، فبه نهض وجاهد؛ وروح الشّهوة، فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال؛ وروح الإيمان، فبه أمر وعدل؛ وروح القدس، فبه حمل النبوّة. فإذا قبض النبي -صلّى الله عليه وآله- انتقل روح القدس فصار في الإمام.

وروح القدس لاينام، ولا يغفل، ولا يلهو، ولا يسهو. والأربعة الأرواح تنام، وتلهو، وتغفل، وتسهو. وروح القدس ثابت يرى به ما في شرق الأرض وغربها وبرّها وبحرها.

قوله تعالى : « وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) » .

بيان : المنّ بمعنى القطع. قال في لسان العرب ١٣/١٩٥: منّه يمنّه منّاً: قطعه. والمنين: الحبل الضّعيف. وحبل منين: مقطوع. وفي التهذيب: حبل منين: إذا أخلق وتقطع. والجمع: أمِنّة ومُنُن.

والمعنى: إنّ الله يعطي لرسوله أجرًا بماشاء وكيف شاء، متّصلا ومداومًا في الدّنيا والآخرة، على نحو التفضّل. واللام في « لك » ليست لبيان الاستحقاق و الاستيجاب ، بل لبيان تخصيصه وتكريمه تعالى إيّاه -صلّى الله عليه وآله- والتفضّل عليه بهذا الأجر الكبير.

توضيح ذلك : إنّ اصطفاءه تعالى حبيبه ورسوله بكرامة النبوّة والرسالة، أبهىٰ نعمة وأجلّ كرامة وفضل ابتدائيّ من الله -سبحانه. وكذلك تأييده وتسديده بالعصمة وبروح القدس، كرامة بارزة أخرى. فصار رسول الله -صلّى الله عليه وآله- من المصطفين الأخيار، وله قدم صدق ومكانة عند الله -سبحانه. وتأييده وتسديده في مرتبة البلاغ والتعليم كرامة على كرامة. « يرفع الله الذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات» . (المجادلة/ ١١) سبحانك ما أحسن وفاءك ! وما أجلّ كرامتك على أوليائك وأحبّائك !

فعلى هذا، فهو -صلّى الله عليه وآله- رهين مننه تعالى الجليلة الجميلة

الكريمة وصنيعته الفاضلة الّتي لايمكن أداء حقّها واستيفاء شكرها.

وانظر كرامته تعالى على حبيبه وصفيّه، يوم يبعثه الله مقامًا محمودًا؛ إذ يجمع الله فيه جميع الأوّلين والآخرين، وفي هذا المحتفل الكبير أكابر الرجال الموحّدين من الأنبياء والمرسلين والصدّيقين والمتّقين و المخبتين ، فيعرفونه -صلّى الله عليه وآله- بشخصه حضورًا، وكلّهم يعظّمون مقامه ويغبطونه؛ وكذلك فيه الجبابرة والفراعنة وأتباعهم وأئمّة أهل الضّلال.

قوله تعالى : «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)».

في القاموس ٣/ ٢٢٩: الخلق... بالضّم وبضمّتين: السجيّة والطبع والمروءة والدّين. وفي لسان العرب ٤/ ١٩٦: الخُلق ــ بضم اللام وسكونها ــ وهو: الدين والطبع والسجيّة.

وفي البرهان ٤/ ٣٦٩، عن ابن بابويه مسندًا، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر -عليه السّلام- في **قول** الله -عزّ وجلّ-: «وإنّك لعلى خلق عظيم» قال: «هو الإسلام.»

وفيه أيضاً، عن عليّ بن ابراهيم، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر -عليه السّلام-: قوله «إنّك لعلى خلق عظيم»؛ أي: على دين عظيم.

وقال في المجمع ٩/ ٣٣٣: «وإنّك» يا محمّد «لعلى خلق عظيم»؛ أي: على دين عظيم؛ وهو دين الإسلام. عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن.

بيان : المراد من الدين هنا ليس على إطلاقه وإجماله. والعناية الملحوظة في المقام أنّ الإنسان الجامع لشرائط التكليف، إذا كان مطيعاً وممتثلاً لأمره تعالى ونهيه، سواء كان في أفعاله الخارجيّة أو في أفعاله القلبيّة، وكذلك في امتثال الأحكام العقليّة كلّها، وكان حفيظاً ورقيباً على نفسه ولا يرخّص نفسه في مخالفة ربّه في شيء من أوامره ونواهيه ومعتصماً بعصمة الله المنيعة، فهذا هو الخلق العظيم والدين القيّم. ومن هنا يعلم أنّ تفسير الخُلق بالطّبع والسجيّة، غير متناسب في المقام.

وفي الإتيان بالجملة الاسميّة، وتصديرها بـ «إنّ» المشدّدة ولام

التأكيد، عناية بالغة بالاهتمام في المقام. وهذه الشهادة من الله ـ سبحانه ـ في حقّ رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ شهادة حقّ وقول صدق. وفيها بلاغ وهداية وكفاية لأولي الالباب والأبصار.

قوله تعالى: «فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) بأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ(٦)».

الآية الكريمة في سياق التهديد والتحذير على أعداء رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ الّذين يرمونه بالافتتان والجنون عنادًا ولجاجاً. وفي مقام التسلية لرسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بأنّه تعالى سيجمع بينه وبين أعدائه في يوم الدين ويحكم بالحكومة الحقّة العادلة؛ ويريهم أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ واجد لمواهبه تعالى وعلومه ومصوناً بعصمة الله المنيعة لايزلّ ولا يخطئ بوجه أبدًا؛ ويرى الكفّار أنهم الكاذبون وأنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بريء ممّا يتّهمونه به، فيفحمون ويخذلون؛ فينتقم الله منهم ويؤاخذهم أخذ عزيز مقتدر، ويوردهم دار جهنّم خالدين فيها. فعلى ما ذكرنا، فالباء في «بأيّكم» زائدة.

وهناك وجه آخر ذكره الرازيّ في تفسيره ٣٠/٨٢ ومضمونه: إنّ الله ـ سبحانه ـ يغلبك على أعدائك وينصرك عليهم. ويعلو صوت مجدك وجلالتك في أقطار الأرض. وعند ذلك يتبيّن كذب الفاجر، ويفتضح الفاسق.

أقول: يرد عليه أنّ إيكال الأمر إلى المستقبل في الدنيا، لايخلو من مناسبة بالنسبة إليهم؛ ولكن بالنسبة إليه ـ صلّى الله عليه وآله ـ فلا محصّل له. فإنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ قد كان على بيّنة وبصيرة من ربّه من أوّل أمره؛ ولن يتخلّل ارتياب في وجوده الشّريف بوجه من الوجوه.

قوله تعالى: «إنَّ ربَّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ(٧)».

الآيه الكريمة تذكرة وإرشاد إلى عموم علمه تعالى بجميع أفعال عباده ـ من يضلّ ومن يهتدي ـ وبما يسرّونه في قلوبهم ويُكتمون في صدورهم، فيقضي بين المحقّ والمبطل بعلمه، ويجزي كلاًّ منهما بما هو أهله. وحيث إنّ اهتداء

المهتدين لأجل رضاه ـ سبحانه ـ فهو يراه بعينه الّتي لا تنام وهو كافٍ ووافٍ في حقّ المهتدين في الركون إليه تعالى.

وفيها إشارة أيضاً إلى تأييد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وتبرئته وتنزيهه عمّا يقول في حقّه الكفّار المفترون.

قوله تعالى: « فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبينَ(٨) وَدُّوا لَوْتُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٩) ».

قال في لسان العرب ٤/ ٤٣٤: المداهنة والإدهان: المصانعة واللّين.

بيان: النّهي نهي إرشاديّ؛ لوضوح حرمة إطاعة المكذّبين عند من عرف الله ووحّده وعرف موقفه وموقعه منه تعالى بالنسبة إلى أعدائه المكذّبين لرسله وأنبيائه. وفيها إرشاد ودلالة أيضاً على تحريم المداهنة والمسامحة في إبطال مقالاتهم.

قوله تعالى: « وَلَاتُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ(١٠) ».

عطف على قوله تعالى: « ولا تطع المكذّبين ».

الحلاّف: كثير القسم في خطير ويسير وقليل وكثير. قوله: « مهين » نعت للحلاّف، وهو الرّذل الّذي لا يعتنى بشأنه ولا يعرف أعالي الامور ولا يهتمّ بها. قال تعالى:

« ولا تجعلوا الله عُرضةً لأيمانكم » (البقرة /٢٢٤).

أي: لا تجعلوا الله في معرض أيمانكم وهو خلاف شأنه وعظمته وكبريائه ـ جلّ مجده وثناؤه.

في البرهان ٢١٦/١، عن محمّد بن يعقوب مسندًا، عن أبي أيّوب الخزّاز قال: سمعت أبا عبدالله ـ عليه السّلام ـ يقول:

لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين. فإنّه ـ عزّ وجلّ ـ يقول: « ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم ».

وفيه أيضاً، عن محمّد بن يعقوب مسندًا، عن أبي سلام المتعبّد أنّه سمع أبا عبدالله ـ عليه السّلام ـ يقول لسدير:

يا سدير، من حلف بالله كاذباً، كفر. ومن حلف بالله صادقاً، أثم. إنّ الله

-عزّ وجلّ- يقول: «ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم».

قوله تعالى: «هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)».

قال في لسان العرب ٤/١٣٢: الهامز والهمّاز: العيّاب... وهو مثل العُيَبَة، يكون ذلك بالشدق والعين والرأس.

قوله تعالى: «مشّاء بنميم»؛ أي: يمشي بين اثنين أو بين أقوام بأكاذيب لإيجاد الاختلاف بينهم. وهذه الرذيلة وما يتلوها من الرذائل توصيف للحلّاف. والظّاهر من الآيات الكريمة أنّ هذه الرذائل يكون بعضها في بعض الحالفين لا كلّها في الكلّ.

قوله تعالى: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أثيمٍ (١٢)».

أي: يمنع خير نفسه إلى الغير سواء كان حقًّا واجباً أو غيره، أو يمنع الخير من الغير إلى الغير أيضا.

قوله تعالى: «معتد» فهو اسم فاعل من اعتدى يعتدي؛ أي: متجاوز إلى الغير، أو متجاوز من الحقّ إلى الباطل.

قوله تعالى: «أثيم». قال في لسان العرب ١/٧٤: الإثم: الذنب.

أقول: قال تعالى:

«قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقّ». (الأعراف/ ٣٣)

فالآية الكريمة صريحة في تحريم الإثم. والمصداق البارز من الإثم هو شرب الخمر. قال تعالى:

«يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير». (البقرة/ ٢١٩)

قوله تعالى: «عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)».

قال في لسان العرب ٩/ ٣٩: ... ومنه اشتقّ العُتُلّ؛ وهو: الشديد الجافي والفظّ الغليظ من الناس.

قال فيه أيضاً ٦/ ٩٤: قوله تعالى: «عتلّ بعد ذلك زنيم». قيل: موسوم بالشرّ لأنّ قطع الأذن وسْم. قال في القاموس ٤/١٢٦: الزنيم: المستلحق في

قوم ليس منهم.

قوله تعالى: «أنْ كَانَ ذَامَال وَبَنِينَ(١٤)».

قال المولى الجليل الطبرسي في تفسيره الجوامع /٥٠٤: «أن كان ذامال» يتعلّق بقوله: «ولاتطع». يعني: ولاتطعه مع هذه المثالب لأن كان ذامال أي ليساره وحظّه من الدنيا.

قوله تعالى: «إذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(١٥)».

أي: إنّ هذا الحلاّف المهين إذا رأى نفسه استغنت بأمواله وبنيه ــ وبعبارة أخرى: إذا رآها استغنت بالعِدّة والعُدّة ــ طغى؛ وإذا تتلى عليه آيات الله البيّنات، قال: إنْ هذا إلّا أساطير الأوّلين.

قوله تعالى: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦)».

قال في لسان العرب ١٥/ ٣٠١: الوسم: أثرالكيّ.

وفيه ٤/٦٦: الخرطوم: الأنف.

أقول: هذا أشهر الأقوال بين اللّغويّين. وفي الآية الكريمة تهديد شديد على هذا الطاغي بأنّه تعالى سيسمه؛ أي: يجعل الله علامةً بالكيّ على أنفه يُعرف بهذه العلامة الممسوخة الركيكة بين الناس، فيعرفونه بها ويكون عارًا وفضيحةً عليه. ودخوله النار الخالدة، أشدّ وأفضح من هذه الفضيحة.

قوله تعالى: «إنَّا بَلَوْنَاهُمْ».

قال في لسان العرب ١/ ٤٩٧: بلوت الرجل بلوًا وبلاءاً وابتليته: اختبرته.

اقول: الامتحان على ضربين: ضرب منها لأجل الاستعلام والاستظهار على باطن أمره ومكنون سرّه. وهذا ممّا لا يصحّ القول به بالنسبة إلى ساحته تعالى. فإنّه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ولايخفى عليه شيء من بواطن عباده وسرائرهم.

والضّرب الآخر أن يكون الامتحان لتربية عباده بتقلّبات الأحوال وبالشّدائد والمحن، كي يصبروا ولا يخرجوا عن حدود عبوديّته. وإذا صبروا ولم يخرجوا عن حدود العبوديّة، فيجزيهم تعالى جزاءاً حسناً. ولافرق بين أخذه

تعالى عباده بالشّدائد والمحن، وبين توفيره تعالى المال والجاه والنعم عليهم.

وواضح أنّ اختباره تعالى عباده وامتحانهم بتوفير المال والبنين لأجل تمكّنهم من التوسعة على عيالاتهم وإعانة المضطرّين ورفع حوائج المفتقرين وغير ذلك من الحسنات؛ إلّا أنّ هذا الإنسان الظّلوم الجهول لَيطغى أن رآه استغنى، فينصرف عن جادّة الحق عنادًا ويعرض عن الحقائق العلميّة وما يدركه بالضّرورة العقليّة. وهذا حرام وينجرّ إلى الكفر أحياناً أيضاً. وبديهيّ أنّه لافرق في ذلك بين المنحرف المتعمّد وبين المتسامح المتهاون.ضرورة أنّ التهاون في مقابل الحقائق أعظم جرماً وأكبر جنايةً.

في البرهان٤/٥١١: ابن بابويه عن أبي جعفر-عليه السّلام-: قال: حدّثني أبي، عن آبائه، عن أميرالمؤمنين -عليه السّلام- قال:

«ليس عمل أحبَّ إلى الله -عزّوجلّ- من الصلاة. فلا تشغلنّكم عن أوقاتها بشيء من أمور الدنيا. فإنّ الله -عزّوجلّ- ذمّ أقواماً فقال: «الذين هم عن صلاتهم ساهون». [الماعون/٥] يعني أنّهم غافلون استهانوا بأوقاتها.»

وفيه أيضاً ٤/٥١١: وعن أبي أسامة زيد الشحّام قال:

سألت أبا عبدالله -عليه السّلام- عن قول الله -عزّوجلّ-:«الّذين هم عن صلاتهم ساهون».

قال: هو الترك لها والتواني عنها.

قوله تعالى: «كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ».

وجه الشّباهة والمناسبة بين امتحان الحلّاف المهين بالمال والبنين، وبين امتحان أصحاب الجنّة بالجنّة الناضرة البهيّة، أنّ كلا الامتحانين من باب واحد؛ وهو الثروة والرفاه والنعمة.

قوله تعالى: «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ».

قوله: «إذ» ظرف للقسم. والضمير في قوله: «أقسموا» راجع إلى «أصحاب الجنّة». أي: حلفوا أنّهم يصرمنّها ويقطعون ثمارالجنّة مصبحين.

قوله: «مصبحين» حال من فاعل «ليصرمنّ».

قوله تعالى: « وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ».

ليس المراد من الاستثناء، في المقام الاستثناء المصطلح في النحو بـ « إلاّ » وأمثالها. بل المراد من الاستثناء في الآية الكريمة، أنّ أصحاب الجنّة لم يشترطوا صرم ثمار الجنة والنّيل منها على مشيّة الله ـ سبحانه. والأدب اللازم على كلّ مؤمن إذا ذكر أمراً أو أموراً وعزم بها في المستقبل، أن يقول: « إن شاء الله »؛ لاستحالة وقوع شيء إلّا عن مشيّة الله وإرادته وتقديره وقضائه.

وليعلم: أنّ الأفعال الصّادرة من العباد، لابُدّ أن تكون مشروطة بمشيّة الله ولكنّ المشيّة التي تفيد الآيات الكريمة إيجابها، متعلّقة بمشيّة العباد، لا أعمالهم. قال تعالى:

«وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله». (الدهر / ٣٠)

«وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين». (التكوير / ٢٩)

في الكافي ١/ ١٥٢: محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر قال: قال أبوالحسن الرضا ـ عليه السّلام ـ:

قال الله: [يا] ابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الّذي تشاء لنفسك ما تشاء...

فعلى هذا، يكون القول بأنّ متعلّق مشيّته تعالى هو أعمال العباد، غيرُ سديد. وسيأتي مزيد توضيح لذلك في سورة الدهر. ـ إن شاء الله.

قوله تعالى: « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) ».

قال في لسان العرب ٨/ ٢٢٢: طاف بالقوم وعليهم طوفاً وطَوفاناً ومطافاً، وأطاف: استدار وجاء من نواحيه. وأطاف فلان بالأمر: إذا أحاط به.

أقول: فالمعنى: استدارت وأحاطت على الجنّة بليّةٌ ــ أيّ بلية كانت من صاعقة أو ريح أو غيرهما ــ وقرعهم الله تعالى بقارعة من سطواته، وهم نائمون. فهذا هو موقف حلول غضبه تعالى عليهم.

قوله تعالى: « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ».

« الصّريم» فاعل بمعنى المفعول. أي: صارت الأشجار مثل الأشجار

المصرومة ثمارها، فأباد جميع أثمارها وبقيت خاليةً مثل الأشجار الّتي لاثمر لها أصلاً.

قوله تعالى: «فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١)».

«تنادوا» من باب التفاعل. أي: نادى كلّ واحد منهم الآخر.

قوله تعالى: «أنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢)»؛ أي: سيروا غدّواً على حرثكم.

قوله تعالى: «فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣)»: يوصي بعضهم بعضاً باختفاء الأمر عن جميع الناس.

قوله تعالى: «أنْ لَايَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤)» وكانوا مصرّين في الاختفاء لئلا يطّلع عليهم الفقراء والمساكين.

قوله تعالى: «وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)».

قال في لسان العرب ٣/١١١: الحرد: الجدّ والقصد. حرد يحرد ـ بالكسر ـ حرداً: قصد. وفي التنزيل: «وغدوا على حرد قادرين». والحرد: المنع. وقد فسّرت الآية على هذا. وحرّد الشيء: منعه.

أقول: قد جهل أصحاب الجنّة وما عرفوا أنّه لايشاء أحد شيئاً إلّا بعد أن يشاء الله مشيّته. فلم يوافق مشيّتهم مشيّة الله. والمعنى: إنّهم أصبحوا قاصدين مجدّين على منع الفقراء، قادرين عند أنفسهم على ذلك، بفرط غفلتهم عن الله ـ سبحانه ـ وشدّة حرصهم وبخلهم على إعطاء حقوق الفقراء.

واختار ذلك في المجمع ١٠/٣٣٧ حيث قال: «وغدوا على حردٍ»؛ أي: على قصد منع الفقراء «قادرين» عند أنفسهم وفي اعتقادهم على منعهم وإحراز ما في جنّتهم.

والظّاهر من كلمات بعض المفسّرين أنّ معنى قوله تعالى: «قادرين» مقدّرين في أنفسهم. وهو ضعيف جدّاً؛ لاشاهد ولادليل عليه من ظاهر الآية.

ومعنى القادر غير معنى المقدّر؛ وذكروا فيه وجوهاً أخر. (انظر: مجمع البيان ٣٣٧/١٠، تفسير الرازيّ ٨٩/٣٠)

قوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٢٧)».

بيان: لمّا قرعهم الله بسوط نقمته وجزاهم على سيّئتهم بما يليق بهم، أفاقوا من نومتهم وغفلتهم، وعرفوا أنّ الطريق هو سنّة أبيهم الّذي كان يعطي حقّ الفقراء من هذه الجنّة وأقرّوا واعترفوا بضلالهم عن الحقّ.

وقوله تعالى: «بل نحن محرومون» إضراب عن قولهم: «ضالّون» وفي فرض تثبيت ضلالتهم عدول إلى قوله: «بل نحن محرومون».

وذكر بعض المفسّرين أنّ المراد حرمانهم من فوائد الجنّة. وهذا غير سديد. فإنّ الظاهر أنّ هذا الحرمان من تبعات الضّلالة ومؤاخذتهم عليه. فلا محالة يكون المراد من الحرمان أنّهم محرومون عن كرامة الله وفضله عليهم. وهذا هو الحرمان الحقيقيّ. فإنّ حرمان منافع الجنة أمر حسّيّ أوجب الحسرة عليهم؛ بخلاف ما ذكرناه؛ فإنّ فيه إيماءً وإشعاراً بتوبتهم ورجوعهم عن معصيتهم وما ارتكبوا من إعمال البخل في حقّ الفقراء.

قوله تعالى: «قال أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)».

أي: قال الّذي كان أحسن عقيدة من بين إخوتهم: ألم أقل لكم: لولا تسبّحون الله وتذكرونه وتسألون الخيرة والبركة؟!

و«لولا» في هذا المقام للتحضيض أو العرض؛ مثل قوله تعالى: «لولا تستغفرون الله». (النحل /٤٦) ذكر ذلك ابن هشام في المغني ١/ ٣٦١.

قوله تعالى: «قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٢٩)».

إقرار منهم أنّ ما أصابهم بسوء صنيعهم ومنعهم الفقراء عمّا كتب الله عليهم في أموال الأغنياء.

قوله تعالى: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ(٣٠)»؛ أي: يلوم بعضهم

بعضاً على ما ارتكبوه. وهذه سنّة الجهّال؛ إذا ارتكبوا جنايةً، يبرّئ كلّ واحدٍ منهم نفسه ويتّهم الآخر.

قوله تعالى: «قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(٣١)».

بيان: الويل كلمة هلاك وخزي. فما وقع في كتابه تعالى من الويل ـ مثل قوله تعالى: «ويل يومئذٍ للمكذّبين» (المرسلات/١٥) وقوله تعالى: «ويل لكلّ أفّاك أثيم» (الجاثية/ ٧) ـ إنّه عين حكمه تعالى وقضائه الحكيم على هلاك من دعا عليه. فإنّ دعاءه تعالى على هلاك أحدٍ ليس كدعاء مخلوقٍ على مخلوقٍ، كي ينتظر إجابة دعائه؛ بل هو عين صدور الحكم على الهلاك من دون انتظار شيء آخر. وأمّا الدعاء من أحد المخلوقين على هلاك أحدٍ، فليس بهذه المثابة. فالويل في الآية الكريمة المبحوثة عنها من هذا القبيل. بل يمكن أن يقال: إنّ هذا ليس على سبيل الجدّ على هلاك أنفسهم، بل لإظهار التفجّع والأسف. فإنّ الإنسان بحسب الغالب يدعو على هلاك نفسه.

قوله تعالى: «طاغين»؛ أي: كنّا متجاوزين عن الحدّ وارتكبنا أمراً عظيماً.

قوله تعالى: «عَسَىٰ رَبُّنَا أن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبونَ(٣٢)».

ظاهر الآية أنّهم تابوا إلى الله وادّعوا أنّهم راغبون إليه ـ سبحانه ـ يتوقّعون برّه وإحسانه وأن يبدّل لهم مكان نقمته عليهم رحمةً لهم. إلّا أنّ الآية التالية تنافي صدقهم في ذلك.

قوله تعالى: «كَذَٰلِكَ ٱلْعَذابُ وَلَعَذابُ ٱلآخِرةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمونَ(٣٣)».

بيان: الكاف للتشبيه. و«ذلك» إشارة إلى قصّة أصحاب الجنّة وما ينزل عليهم من العذاب. والمشبّه به هو قصّة أصحاب الجنّة. والمشبّه غيره من العقوبات النازلة على الأمم الطّاغية العاتية.

والوجه في كون عذاب الآخرة أشدّ وأكبر من عذاب الدّنيا: انّ عذاب الآخرة إنّما هو بعد المحاكمة العادلة والحكم الصادر بعد المحاكمة؛ بخلاف

العذاب في الدنيا؛ فإنّه في مرتبة متقدّمة على المحاكمة في الآخرة. فلامحالة يكون عذاب الدنيا على المعاصي في الدنيا أهون وأخف بالنسبة إلى عذاب الآخرة؛ لكونها أمراً موقّتاً ينقطع قبل موته أحياناً. بخلاف العذاب في الآخرة؛ فإنّه قديكون دائميّاً أبديّاً.

قوله تعالى: «لو كانوا يعلمون»؛ أي: لو كانوا يعلمون موقف محاكمة العاصي في الآخرة وأهميّتها و دوام عذاب الآخرة وخلوده. لا أنّها قيد لأصل وجود العذاب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ

فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: «إنَّ لِلْمُتَّقينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتِ النَّعيم(٣٤)».

بيان: ذكّر تعالى في الآيات المتقدمة بماجرت به سنّته القيّمة الفاضلة؛ من امتحان عباده واختبارهم لتربيتهم وتزكيتهم، بتوفير أموالهم وبنيهم؛ وبعبارة أخرى: عِدّتهم وعُدّتهم. ضرورة أنّ توفير المال والجاه امتحان بها، وأمر حسن للتوسعة على نفسه وعيالاته بأمواله، وإعانة المضطرّين ورفع حوائج المفتقرين، وغيرها من الفوائد والمصالح، فيجازيهم تعالى جزاءاً حسناً على حسناتهم. ومن عصى وانحرف عن صراط العبوديّة ــ كماحكاه في قصّة أصحاب الجنّة ــ فصارت نعمة الله تعالى عليهم نقمةً، وحلّ بساحتهم سطواته تعالى وقرعهم بقارعة من قوارعه، فصاروا على خسران وحرمان.

وقوله تعالى: «إنّ للمتّقين عند ربّهم جنّات النعيم» يقابل ما تقدّم من الحلاّف والهمّاز وغيرهما من الأشرار والفجّار وكذلك أصحاب الجنة. وبقوله تعالى هذا، فقد شكرالله تعالى سعيهم، وتقبّل عنهم طاعاتهم وقرباتهم، ووعدهم أنّ لهم عند ربّهم جنّات النعيم.

وبديهيّ أنّ ثوابه تعالى على عباده المتّقين والمحسنين، فضل ابتدائيّ منه ـ سبحانه ـ من دون استيجاب واستحقاق عليه تعالى، كي يطالب بأثمان طاعاتهم وحسناتهم ويؤاخذ ـ سبحانه ـ بأجورها. فإنّ أمره تعالى بالعبادات والطّاعات، إنّما هو لانتفاعهم بها، لا لانتفاعه ـ سبحانه ـ بها. فإنّه غنيّ عن جميع ما سواه، فضلاً عن حسناتهم وطاعاتهم.

وكان خلقه تعالى عباده، فضلاً ابتدائيّا منه ـ سبحانه. وأمره تعالى بالعبادات والطاعات وتوفيقهم وتسديدهم على الإيمان به تعالى وعلى الحسنات والطّاعات، فضل آخر. وكذلك إعطاء الثواب على إيمانهم وحسناتهم، كرامة على كراماته السّابقة. فسبحانه من إله ما أفضله! وسبحانه

من متفضّل ما أشكره و أوفاه!

قوله تعالى: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَالَكُمْ...».

بحث وتحليل: قد أقام تعالى شواهد بيّنةً وأدلّةً قاطعةً ضروريّةً على كلّ من زعم ضعف هذه السنّة المقدّسة الالهيّة؛ من اختصاص التكريم والتشريف لأوليائه دون أعدائه. فهل هذه قضيّة شخصيّة خارجيّة قد كانت المجادلات والمناقشات جاريةً في زمن نزول الآية، كي يكون هذه الأحكام ردّاً و دفعًا لهذه الأقاويل الباطلة في المقام؟ أو هي قضيّة حقيقيّة يحكم تعالى فيها على بطلان قول كلّ من يمكن أن يتوهّم الخدشة في هذه السنّة المباركة الإلهيّة، ويقرع بها كلّ مخالف في زمن نزول الآية إلى يوم القيامة؟

الظّاهر هو الثاني؛ سيّما مع عدم دليل مستند على وجود تلك المجادلات والمناقشات عند نزول هذه الآيات الكريمة. ولا يخفى أنّ وجود مناقشة من أعداء الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ في زمن الحضور، لاينافي ما اخترناه من كون القضيّة حقيقيّةً.

قوله تعالى: «أَفَنَجْعَلُ...».

بيان: الاستفهام إنكاريّ. فيستحيل منه تعالى أن يسوّي بين المتّقين والمجرمين. ضرورة أنّ هذا الحكم مؤسّس على كونه تعالى شكورًا لحسنات المحسنين، ووفيًّا لمن وفا بعهدالله وأتعب نفسه في مرضاته. والجواب منفيّ. فإنّه ـ سبحانه ـ لايضيع لديه أجرالمحسنين، ولايضيع إيمان المؤمنين. ونظير الآية قوله تعالى:

> **«أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار».** (ص/٢٨)

قال مولانا أميرالمؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ في عهده إلى المالك النخعي:

> «ولايكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة. وألزم كـلّاً منهم ما ألزم نفسه.» (نهج البلاغة/ ٤٣٠)

قوله تعالى: «مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦)».

تعجّب ممّن يحكم بالمساواة بين المحسن والمسيء والمبطل والمحقّ، وتهجين إيّاهم بأنّهم كيف يحكمون بهذا الحكم الّذي خلاف ضرورة العقول.

قوله تعالى: «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ(٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ(٣٩)».

بيان: أخذهم الله -سبحانه- بمطالبة الدّليل على أقاويلهم الموهومة وانتقد عليهم في اتّخاذ خلاف الحق واتّباعه والإصرار عليه. والمعنى: هل عندكم كتاب سماويّ تقرؤونه وإنّ لكم في هذا الكتاب دليلاً قاطعاً على كلّ ما تقترحون من الأحكام الباطلة كيفما تخيّرون وتشاؤون؟! أم لكم علينا وعلى عهدتنا عندكم عهود ومواثيق دائمة ومستمرّة إلى يوم القيامة، وإنّ لكم في هذا الكتاب ما تحكمون بآرائكم وأهوائكم؟!

قوله تعالى: «سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ(٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ(٤١)».

أمر الله تعالى رسوله -صلّى الله عليه وآله- أن يسألهم ألهم زعيم وكفيل لإحقاق ما يحكمون ويشتهون، أم لهم شركاء من دون الله تحميهم وتدفع عنهم وعن آرائهم في كلّ ما يدّعون ويشتهون من الضّلال والأهواء.

قوله تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ».

قال في لسان العرب ٤٣٤/٦: الساق في اللّغة: الأمر الشّديد.

قال في القاموس ٢٤٧/٣: «يوم يكشف عن ساق»: عن شدّة. «والتفّت السّاق بالسّاق» [القيامة/٢٩]: آخر شدّة الدّنيا بأوّل شدّة الآخرة. يذكرون الساق إذا أرادوا شدّة الأمر والإخبار عن هوله.

في البرهان ٤٠٨/٤، عن محمّدبن يعقوب مسندا، عن جابر، عن أبي جعفر -عليه السّلام-:

... «والتفّت السّاق بالسّاق»: التفّت الدنيا بالآخرة.

وفيه أيضاً، عن ابن بابويه مسندًا، عن محمّدبن مسلم، عن أبي جعفر محمّدبن عليّ الباقر ـ عليه السّلام ـ مثله.

أقول: قوله تعالى: «التفّت الساق بالساق» الظّاهر أنّها إشارة إلى حال احتضار الكافر إذا بلغت روحه التراقي وكان آخر لحظاته من أيّام الدنيا، وكان في شدائد الاحتضار ويرى ملك الموت وتشديده الأمر عليه في نزع روحه، وشدائد أخرى عند إشرافه على الآخرة. وهذا معنى التفاف الساق بالساق؛ أي: شدائد الدنيا بشدائد الآخرة.

ويشهد على ذلك ما روي في البحار ٤٤/ ١٥٠: عن الأمالي والعيون مسندا، عن عليّ بن الحسن بن فضّال، عن أبيه، عن أبي الحسن الرّضا، عن آبائه ـ عليهم السّلام ـ... فقال ـ عليه السّلام ـ:

«إنّما أبكي لخصلتين: لهول المطّلع، وفراق الأحبّة.»

قال في مجمع البحرين ٤/ ٣٦٨: وفي الدعاء: «أعوذبك من هول المطّلَع» بتشديد الطّاء المهملة والبناء للمفعول: أمر الآخرة وموقف القيامة؛ الّذي يحصل الاطّلاع عليه بعد الموت.

قوله تعالى: «يوم»، ظرف لما تقدّم من تعجيزه تعالى أعداء الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وتحدّيهم بإتيان شركائهم، يوم يكشف عن شدائد الآخرة في موقف القبر أو المواقف الّتي بعده إلى أن ينتهي إلى الموقف النهائيّ؛ وهو العرض الأكبر على الله؛ أي: موقف الحساب. ولا يبعد شمولها رؤية الجحيم أيضاً. وبعد ما أوردناه من معنى الساق وتصريح اللّغويّين بأنّه بمعنى الشدّة وشدة الأمر، يجب الأخذ به. ولا محصّل للوسوسة في هذا المعنى وخلطه بما ذكروه من أنّ الساق هو ما بين الرجلين والركبتين وغيرها من المعاني.

قوله تعالى: «وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)».

الظّاهر أنّه توبيخ وتبكيت عليهم. وأشار إلى ذلك في المجمع ١٠/ ٣٣٩.

قوله تعالى: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ».

قال في مجمع البحرين ٤/٣٢١: قوله: « خاشعةً أبصارهم»؛ أي: لايستطيعون النظر من هول ذلك اليوم.

قوله تعالى: « تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ».

أي: يغشاهم الذلّة وتحيط بهم. قال في مجمع البحرين ٥/١٧٤: قوله « وترهقهم ذلة»؛ أي: تغشاهم. وقال في لسان العرب ٥/٣٤٤: ... الرهق: غشيان الشيء. رهقه ــ بالكسر ــ يرهقه رهقاً؛ أي: غشيه.

قوله تعالى: وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمونَ(٤٣)».

توبيخ وعتاب عليهم بأنّهم يدعون إلى السجّود والطّاعة لأمرالله وهم يستطيعون؛ ولايجيبون إليه.

قوله تعالى: «فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(٤٤)».

تسلية لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أن لايشغلنّ قلبه بأمر المشركين ولايهتمّ بشأنهم. وتهديد للكفّار والمشركين بأنّه تعالى سينتقم منهم بالاستدراج بحيث لايشعرون النّعمة من النّقمة.

قوله تعالى: « ومن يكذّب بهذا الحديث». المراد منهم كفّار قريش وأعداء رسوله ـ صلّى الله عليه وآله. والظّاهر أنّ المراد من الحديث هو القرآن. قال تعالى:

«أم يقولون تقوّله بل لايؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين».
(الطور/٣٣ و٣٤)

والوجه في التعبير عن القرآن بالحديث؛ أي: الجديد الّذي لم يسبق مثله، سيأتي ـ إن شاء الله ـ في تفسير قوله تعالى: « فبأيّ حديث بعده يؤمنون». (المرسلات/٥٠)

قوله تعالى: « سنستدرجهم من حيث لايعلمون». الاستدراج توفير النعمة على العاصي عند معصيته مرّةً بعد مرّةٍ، بحيث لايشعرون موقع النعمة من النقمة. قال تعالى:

«ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين». (آل عمران/ ١٧٨)

«وقال موسى ربّنا إنّك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدّنيا ربّنا ليضلّوا عن سبيلك».(يونس/ ٨٨)

قوله تعالى: « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(٤٥)».

تفسير للاستدراج، وبيان له. أي: أُوْفِر النعمة عليهم. والتعبير بالكيد من حيث إنّهم لا يشعرون النعمة من النقمة، حتّى يأخذهم الله بذنوبهم ويقطع أدبارهم.

قوله تعالى: « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ(٤٦)».

تأييد وتسديد لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بعد تسليته. وملخّص المعنى: إنّ الله قد أعزّك وأغناك عنهم وعمّا في أيديهم، وهم أفقر الناس أموالًا وأفقرهم شأنًا وظهورهم مثقلة من غرامات الناس.

قوله تعالى: « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(٤٧)».

تأييد آخر لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بأنّه ليس عندهم علم من الغيب وكمال وغيرهما ممّا تحتاج إليهم، وقد أغناك الله بما علّمك هذا القرآن، وأيّدك بالرسالة والنبوّة وبالبيّنات وبروح منه؛ وهم أجهل الناس بالغيب وبالنسبة إلى الأسرار المستترة تحت حجب الغيوب.

قوله تعالى: « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ».

بيان: الظّاهر أنّ المراد من الحكم، ليس هو الحكم الشرعيّ المولويّ. بل الظّاهر أنّ المراد هو عزمه تعالى، على رسوله وعلى جميع أنبيائه ورسله الكرام، بالقيام الكامل والوفاء الصّادق في تحمّل أثقال النبوّة والرسالة الخطيرة، والتحفّظ والمراقبة على شؤونها الجليلة، والاهتمام الأكيد في بلاغ أوامره تعالى وزواجره، وبذل الجهد في الدفاع عن حريم قدس توحيده تعالى.

قوله تعالى: « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(٤٨)».

أي: إيّاك أن تكون كصاحب الحوت، يونس النبيّ ـ على نبيّنا وآله وعليه السّلام ـ إذ جرى بينه وبين الله تعالى وبين عباده تعالى ماجرى،

ونادى ربّه في الظّلمات مستجيرًا ومستغيثًا: «لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين». (الأنبياء /٨٧) فاستجاب ـ سبحانه ـ دعاءه؛ وتاب عليه بفضله وكرامته ونجّاه من الغمّ.

قوله تعالى: «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(٤٩)».
ولكنّ الله تعالى قبل عذره، واستجاب دعوته، وتاب عليه بكرامته، ونبذ بالعراء غير مذموم. والعراء: ساحل البحر والفضاء العريض.

قوله تعالى: «فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)».
قد فسّر الاجتباء بالاصطفاء والاختيار وقيل بترادفهما. واضطرب كلام بعض الأعيان في تفسيره ولم يأت بشيء مبين يطمئنّ إليه النّفس.

أقول: تفسير الاجتباء بالاختيار والاصطفاء ضعيف جدّاً. ولايجوز الالتزام بترادفها. ففي الزّيارة الجامعة الكبيرة قال: «اصطفاكم بعلمه. وارتضاكم لغيبه. واختاركم لسرّه. واجتباكم بقدرته.» فإفراد ذكر الاجتباء يدلّ على عدم الترادف بينها. وقال تعالى: «يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب».(الشورى/١٣). فإنّ تعدية الاجتباء بإلى لايلائم مع الاختيار والاصطفاء.

قال في الجوامع/٤٢٨: «يجتبي إليه». الضّمير للدّين. أي: يجتلب إليه بالتوفيق من يشاء.

وقريب منه ما في الكشّاف ٤٦٤/٣. وقال الرّازي في تفسيره ١٥٧/٢٧: اشتقاق لفظ الاجتباء يدلّ على الضمّ والجمع. فمنه: جبى الخراج واجتباه. وجبى الماء في الحوض. فقوله: «الله يجتبي إليه»؛ أي: يضمّه إليه ويقرّبه منه، تقريب الإكرام والرّحمة.

وهذا هو الظّاهر من الآية الكريمة والمتناسب بعبارة الزّيارة الجامعة. ويؤيّد ذلك ما في مجمع البحرين ٨/١: «ثمّ اجتباه ربّه» (طه /١٢٢)، أي: اختاره واصطفاه وقرّبه إليه.

قوله تعالى: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)».

بيان: الآية الكريمة مسوقة لبيان شدّة بغض المشركين والمنافقين على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ حسدًا وغيظًا لما أكرم الله رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بمواهب جليلة كريمة.

قوله تعالى: «وإن يكاد». الأشبه أنّ الواولعطف هذه الآية المباركة بما قبلها من مقالات المشركين. و«إن» مخفّفة من الثقيلة. واللّام في قوله «ليزلقونك» بعد «إن» لتأكيد مفاد الآية المباركة.

والمعنى: قد قرب الّذين كفروا أن يصرعوك عن منزلتك العالية وجلالتك، ويهلكوك ــ أي: يتمنّون هلاكك ــ بنظرة البغضاء والحسد إليك عند ما سمعوا قراءتك القرآن، لأجل إقبال الناس إليك واهتدائهم بهداية قرآنك. ويرمونك بالجنون بغضاً وحسداً؛ ويعيّرونك به لإسقاطك عن مقام كرامتك.

قوله تعالى: «وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)».

ثم ردّالله عليهم بأنّ قراءة القرآن وهداية الناس بأنواره ومعارفه، لا دلالة فيها على جنونه ـ صلّى الله عليه وآله ـ وليست من علامات الجنون؛ بل القرآن الكريم في مقام أرفع وأجلّ ممّا يقولون. أنزله الله تعالى على حبيبه وصفيّه ذكراً للعالمين وهدايةً للنّاس أجمعين إلى يوم القيامة، رغماً لأنوف الحاسدين؛ ولوكره الكافرون.

والظّاهر من كلام المجمع ١٠/ ٣٤١، أنّه اتّفق المفسّرون على أنّ في الآية دلالةً على إصابة العين وأنكره الجبائيّ.

أقول: قدوردت عدّة كثيرة من الروايات في إصابة العين: منها ما في البحار ٦٣/ ٢٠: عن الشهاب: قال ـ صلّى الله عليه وآله ـ:

«إنّ العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر».

وفيه /٢٦، عن جامع الأخبار مثله. وغير ذلك من الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ من أرادها، فليراجعها.

وفي دفع إصابة العين عوذات ذكرها العلّامة المجلسي (ره) في البحار ٩٥/ ١٢٧، عن طبّ الأئمّة مسندا، عن عبدالله بن محمّد البجليّ، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال:

«من أعجبه شيء من أخيه المؤمن، فليكبّر عليه. فإنّ العين حقّ.»

وفيه أيضا / ١٣٣، عن الجوامع للطبرسيّ: عن النبي - صلّى الله عليه وآله :

من رأى شيئاً يعجبه فقال: «الله الله. ما شاء الله. لا قوّة إلّا بالله.» لم يضرّه شيء.

٦٩. سورة الحاقّة

في رواية عن ابن عبّاس أنّها مكيّة؛ وهي السّورة السّابعة والسّبعون من القرآن، نزلت بعد سورة الملك. (انظر: مجمع البيان ٤٠٥/١٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: «ٱلْحَآقَّةُ (١)».

بيان: «الحاقّة» اسم فاعل من حَقَّ يَحِقُّ؛ أي: ثابت تكويناً أو تشريعاً. والمراد منها القيامة. فقد قضى الله ـ سبحانه ـ قضاءاً حتماً أن يأتي بهذا اليوم مع

جميع الأحوال والأهوال الّتي حكم وقضى بتحقّقها طبق ماأخبر تعالى في كلامه الحقّ المبين من دون تأويل. وهي من أعظم الحوادث. بل هي أعظم حادثة تقع في العالم.

قوله تعالى: « مَا الْحَاقَّةُ(٢) ».

« ما» للاستفهام، تهويلاً لأمرها، وتفخيما لشأنها.

قوله تعالى: « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(٣) ».

قال في المجمع ٣٤٣/٩: أي: كأنّك لَست تعلمها إذ لم تعاينها ولم ترما فيها من الأهوال.

قوله تعالى: « كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ(٤) ».

شرع تعالى عاقبة المكذّبين بالقيامة القارعة بشدائدها وأهوالها وما حلّ بساحتهم من نقماته تعالى.

قال في مروج الذهب ٤٢/٢ - ٤٣: ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح... بعث الله صالحاً نبيًّا وهو غلام حدث لثمود على حين فترة كانت بينه وبين هود نحو من مائة سنة. فدعاهم إلى الله.

فثمود هم قوم صالح النبيّ. كذّبوه بعد ما جاءهم بالبيّنات السّاطعة والآيات المعجزة. فأهلكهم الله بالصّاعقة.

قوله تعالى: « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ(٥) ».

المراد بـ« الطّاغية» الصاعقة الطّاغية. كما قال الله تعالى:

«وفي ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربّهم فأخذتهم الصّاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين». (الذاريات / ٤٣-٤٥)

قال في مروج الذهب ٢/ ٤٠: « وكان عاد رجلاً جبارا عظيم الخلقة. وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح.» فبعث الله اليهم هوداً. قال تعالى:

«وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتّقون * قال الملأ الّذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة وإنّا

لنظنّك من الكاذبين * قال ياقوم ليس بي سفاهة ولكنّي رسول من ربّ العالمين * أبلّغكم رسالات ربّي وأنا لكم ناصح أمين». (الأعراف/٦٥-٦٨)

قوله تعالى: «وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِم سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧)».

بيان: قال في مجمع البحرين ٣/٣٦٣: قوله: «فأهلكوا بريح صرصر عاتية»؛ أي: الريح الباردة.

وقال فيه أيضاً ٦/٤١: قوله: «ثمانية أيّام حسوماً»؛ أي: تباعاً متواليةً... وقيل: حسوماً مصدر حسمتهم حسوماً؛ أي: قطعتهم. وتقديره: ذات حسوم.

وقال فيه أيضاً ٤/٢٤ قوله: «أعجاز نخل خاوية»؛ أي: أصول نخل بالية.

وملخّص المعنى: فأهلك قوم هود بريح باردة شديدة البرد، أو شديدة الجري والحركة؛ سلّطها الله ـ سبحانه ـ على هؤلاء القوم، حسب تسخيره تعالى بلحاظ تقديره العليم الحكيم، سبع ليال وثمانية أيّام متوالية متتابعة. فكانت تقرعهم وتجعلهم مصروعين في الأرض، كأنّهم أصول نخل بالية سقطت على الأرض عند هبوب الرياح الشّديدة عليها.

والظّاهر أنّ هذه الريح كما أنّها كانت شديدة الجري والحركة تقلعهم من الأرض وتجعلهم مصروعين في الارض، كذلك كانت شديدة البرد تجعل كلّ ما أتت عليه كالرميم. قال تعالى:

«وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الرّيح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرّميم». (الذاريات/ ٤١-٤٢)

قوله تعالى «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)».

الفاء للتفريع. أي: بعد حلول سطواته تعالى على قوم عاد، فهل ترى لهم من باقية؟! والجواب منفيّ.

قوله تعالى: «وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالخَاطِئَةِ» (٩)».

قال في مجمع البحرين ٥/٢٥٤: والإفك: أسوأ الكذب وأبلغه.

قال في لسان العرب ١٦٦/١: والإفك: الإثم. والإفك: الكذب.

قوله تعالى: «وجاء فرعون...»؛ أي: ارتكب فرعون بجنايات وآثام من دعوى الألوهيّة ودعوة الناس إليها واستضلالهم واستعبادهم. وكذلك من قبله من الأمم الطّاغية بعد قوم لوط.

قوله تعالى: «والمؤتفكات» ـ من باب افتعال ـ أي: الّذين ارتكبوا الكذب والإثم وأصرّوا وأداموا عليها؛ مثل قوم لوط.

قوله تعالى: «بالخاطئة»؛ أي: بالإثم والخطيئة أيّ خطأ كان من الكذب والإثم وهو أكبر جناية وأقبح فاحشة.

قوله تعالى: «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً(١٠)».

بيان: رسول ـ على وزن فعول، صفة مشبّهة من رَسِلَ يَرْسَلُ ـ أي: من كان واجداً للرّسالة. والنبي ـ على وزن فعيل من نَبَأَ ينبأ ـ أي: من كان واجداً للنّبأ. ولا عناية ولا دلالة فيها بشيء من البلاغ وعدمه في معنى اللّفظين. ويقعان مفعولين لبعث وأرسل. قال تعالى:

«كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيّن مبشّرين ومنذرين». (البقرة/٢١٣)

«إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً». (المزّمل/١٥)

فعلى هذا، يكون عصيان أمر رسول باعتبار ماسيجيء به عند كونه مرسلاً؛ مثل من قتل قتيلاً، أو باعتبار نفي الرسالة وإنكارها. والظّاهر بقرينة المورد هو إنكار رسالة الرسل، بناءاً على زعمهم الفاسد من استحالة كون البشر مبعوثاً من قبل الله تعالى بعنوان الرسالة والنبوّة.

قوله تعالى: «أخذةً رابيةً». قال في مجمع البحرين ١٧٤/١: أي: شديدةً زائدةً في الشدّة على الأخذات، كمازادت قبائحهم في القبح.

قوله تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً...».

بيان: شرع تعالى بذكر حادثة عظيمة في العالم، لم تقع حادثة مثلها في الهول والوحشة، بحسب ما بأيدينا من المدارك ؛ وهي طوفان نوح. أهلك الله -سبحانه- بها أمّة نوح. ومن العجيب أيضاً ما صنع نوح النبيّ السّفينة الّتي نجّاه الله وقومَه المؤمنين بها من الهلاك وهيّأها قبل الطّوفان بأمر الله -سبحانه. وهذه من الغيوب الّتي اصطفى الله تعالى نوحا بعلمها، ولا طريق لأحد غيره من العلم بها والقيام بالعمل على طبقها.

قال تعالى: «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون» .(هود/٣٧)؛ أي: لا تشفع لهم عندي، ولا تعتذر لهم من ذنوبهم، ولا تجادل عنهم.

وهذه الحادثة الكبيرة عظة واعتبار لجميع من عقلها وعرفها وعلم موقعها إلى يوم القيامة. ويختصّ هذا الاتّعاظ والاعتبار بمن كان له أُذن واعية وقلب سليم. وأمّا غيرهم، فيمرّون بها لا غبين غافلين.

وهل هذه العقوبة والعذاب على من تمّ عليه الحجّة، وسمع الدعوة والإنذار والتحذير، واستكبر عنها وأدبر؟ أو هي عامّة شاملة لجميع أهل الارض؟ الظّاهر هو الثاني.

في كتاب كمال الدين للصدوق(ره)/٢١٣-٢٢٠، بإسناده إلى محمّدبن الفضل، عن أبي حمزة الثماليّ، عن أبي جعفر-عليه السّلام- حديث طويل فيه يقول -عليه السّلام-:

«وكان بين آدم وبين نوح -عليهم السّلام- عشرة آباء كلّهم أنبياء الله...

وإنّ الأنبياء بعثوا خاصّة وعامّة. فأمّا نوح، فإنّه أرسل إلى من في الأرض بنبوّة عامّة ورسالة عامّة.»

وحيث إنّ التذكرة ليست إلاّ إرشاداً وهدايةً إلى أمور وجدانيّة معلومة عندالناس وهم غافلون عنها، فلا محالة لا يختصّ بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم؛ بل تذكرة باقية ببقاء القرآن وسلطانه في العالم يقرؤون في القرآن هذه الحادثة الكبيرة، ويتذكّرون موارد العبرة والاستبصار فيها. فهي بلاغ وتذكرة إلى

يوم القيامة، فينتفعون بهذه الحادثة وما فيها. وفيها تحذير وإنذار عن ارتكاب ما ارتكبه قوم نوح، وما تهاونوا ولم يتدبّروا في دعوة نوح وفي شؤونها الخطيرة.

قوله تعالى: «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ(١٢)».

أقول: وفي هذه الآية المباركة تصريح بما ذكرنا من التذكرة ومرتبتها الخطيرة، وأنّ جميع الناس مسؤولون في قبال هذه الحقيقة القرآنيّة ونظائرها في القرآن الكريم.

وقدوردت في روايات كثيرة أنّ «أذن واعية» أذن عليّ أمير المؤمنين ـ عليه السّلام. (انظر: البحار ٤٦/٣٥، ٤٠/١٨٩و١٤٣) وواضح أنّ هذه الرّوايات لبيان مصداق بارز لهذه الآية الكريمة لا اختصاصها به ـ عليه السّلام. فإنّ الأئمّة من آل الرسول وأمّهم فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ أذن واعية، وكذلك من دونهم من أوليائهم الموحّدين والسّالكين سبيلهم والمقتفين آثارهم والتّابعين منهجهم.

وحيث إنّ الله ـ سبحانه ـ شكور وفيّ، شكر الله سعي نوح وقال في كتابه الكريم:

«قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك». (هود/٤٨)

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ

حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)

قوله تعالى: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣)».

بيان: الظّاهر أنّ الغرض في هذه الآية تذكير الناس وتحذيرهم عن الركون إلى الدّنيا والإقبال عليها وإعراضهم عن الحقائق القدسيّة والمعارف الدينيّة.

ونفخ الصور من جملة أشراط السّاعة وعلامات وقوع القيامة. والمراد به النّفخة الأولى الّتي بها يموت الناس أجمعون. والشاهد على ذلك ذكر انحلال الأرض والجبال بعد هذه النفخة.

قوله تعالى: «وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)».

أي: حملت الأرض والجبال بيد قدرته تعالى، وتضرب بعضها ببعض، فتنحلّ وتتلاشى.

قوله تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ (١٥)».

يحتمل أن يكون المراد من هذه الواقعة موت الناس أجمعين بالنّفخة الأولى.

ويشهد على ذلك أنّ انشقاق السّماء قبل وقوع القيامة.

وقيل المراد من الواقعة هي القيامة. (مجمع البيان ٣٤٦/١٠)

أقول: بناءاً على هذا القول، يلزم تقديم القيامة على انشقاق السّماء. ولعلّه كان لغرض في المقام. والله يعلم.

قوله تعالى: «وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَومَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦)».

أي: ينحلّ نظامها ونظام ما فيها من الكواكب والأقمار والشموس، فصارت يومئذ واهيةً؛ أي: ضعيفةً مسترخيةً تنشقّ انشقاقاً بعد انشقاق، وصارت كما كانت قبل خلقتها. ولا احتياج إلى القول بأنّ قطعات السّماء المنشقّة تقع على الأرض وتتراكم فيها. وأين الأرض اليوم فقد دكّت ودقّت؟!

والآية الكريمة قريبة المفاد من قوله تعالى: «يوم تمور السّماء مَوْراً * وتسير الجبال سيراً». (الطور/ ٩ و١٠؛ ومار يَمُور: مثل ماج يموج، وزناً ومعناً.)

الظّاهر من الآيات الكريمة والروايات المباركة أنّ الله تعالى بعد إيجاد الدنيا يفنيها. وليس إفناؤها بأعجب من إيجادها. ولا استعجاب عند الفقيه والمفسّر بحسب هذه الآيات والروايات في فناء الدنيا وانحلالها.

في نهج البلاغة/ ٢٧٦، الخطبة ١٨٦: قال ـ عليه السّلام ـ:

«... وإنّ الله ـ سبحانه ـ يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان. عُدِمَتْ عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السّنون والسّاعات.»

وفيها أيضاً (ص ٢٧٥):

«وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها.»

قوله تعالى: «وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا»؛ أي: إلى جوانبها.

والظّاهر أنّ المراد من الملك جنس الملك من دون تعرّض إلى كثرتها وقلّتها وعددها، ومن دون تعرّض إلى قبيلها وأصنافها. والأشبه أنّ كل ذلك خارج عن الغرض المسوق له الآية الكريمة.

قوله تعالى: «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ(١٧)»..

الظّاهر أنّ ضمير «فوقهم» راجع إلى الملائكة. والمراد من الفوق من حيث الشأن والرتبة.

أقول: قد تكرّر ذكر لفظ العرش كثيرا في القرآن الكريم، وكذلك في عدّة من الروايات الشريفة في معنى العرش وشرحه. وبعد السّكوت عن متشابهاتها والأخذ بمحكماتها، هو العلم الّذي لايقدّر أحد قدره بحسب الرواية التى رواها العلاّمة المجلسي -قدّس سره- في البحار ٢٩/٥٨، عن التوحيد مسنداً، عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله -عليه السّلام- في قول الله -عزوجلّ-: «وسع كرسيّه السّموات والأرض» فقال:

«السموات والأرض وما بينها في الكرسيّ. والعرش هوالعلم الّذي لا يقدّر أحد قدره.»

فحملة العرش هم الّذين يفيض تعالى عليهم من هذا العلم ويصطفيهم بهذه الكرامة الكبرى، فيكونون عالمين بهذا العلم على مقدار ما أفاض الله -سبحانه- من العلم على المعلومات . وظاهر الآية الكريمة هو حمل العرش كلّه لابعضه. والله يعلم حقائق كتابه.

وقد ورد في الروايات أنّ حملة العرش ثمانية، أربعة من الأوّلين، وأربعة من الآخرين.

في البرهان ٣٧٧/٤، عن محمّدبن العبّاس مسنداً، عن محمّدبن مسلم قال:

سمعت أبا جعفر-عليه السّلام- يقول في قول الله -عزّوجلّ-: «الّذين يحملون العرش ومن حوله» قال: يعني محمّداً وعليّاً والحسن والحسين -عليهم السّلام- ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى. يعني هؤلاء الّذين حول العرش.

وفيه أيضاً عن محمّدبن يعقوب مسنداً، عن أبي حمزة، عن أبي عبد الله -عليه السّلام- قال:

«حملة العرش — والعرش العلم — أربعة منّا، وأربعة ممّن شاء الله.»

قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ(١٨)».

أي: تعرضون بأعمالكم على الله، لاتخفى منكم أعمال خافية. وهذا الموقف من أهول المواقف في يوم القيامة. ومن خصائص ذلك أنّ القاضي والمحاسب للأعمال هوعين الشّاهد عليها.

وفي البحار ٨٥/٧٧، في وصيّة النبيّ -صلّى الله عليه وآله- لأبي ذرّ:

«يا أباذرّ، تجهّز للعرض الأكبر يوم تعرض لاتخفى على الله خافية.»

قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ(١٩)».

قال في مجمع البحرين ٤٦٨/١: قوله تعالى «هاؤم اقرؤوا كتابيه»؛ أي: خذوا كتابي وانظروا ما فيه، لتقفوا على نجاتي وفوزي. يقال للرجل «ها»؛ أي: خذ وللاثنين «هاؤما» وللرجال: «هاؤم».

قال في لسان العرب ١٠/١٥: قال الله -عزّوجلّ-: «هاؤم اقرؤوا كتابيه». جاء في التفسير: أنّ الرجل من المؤمنين يعطى كتابه بيمينه. فإذا قرأه، رأى فيه تبشيره بالجنّة. فيعطيه أصحابه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابي. أي: خذوه واقرؤوا ما فيه، لتعلموا فوزي بالجنّة.

قوله تعالى: «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠)».

قال في مجمع البحرين ٢٧٩/٦. وقد جاء الظنّ بمعنى العلم. قال تعالى: «ألا يظنّ أولئك انّهم مبعوثون». (٤/٨٣) وعن بعضهم أنه قال: يقع الظّن لمعان أربعة: ... والآخر: اليقين الّذي لاشك فيه... وأمّا معنى اليقين؛ فمنه قوله تعالى: «وأنّا ظنّنا أنْ لن نعجزالله في الأرض ولن نعجزه هَرَباً».(١٢/٧٢) ومعناه: علمنا. وقال تعالى «ورأى المجرمون النّار فظنّوا أنّهم مواقعوها».(٥٤/١٨) ومعناه: فعلموا بغير شكّ.

قوله تعالى: «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(٢١)».

قال في لسان العرب ٤٩٧/٩: والعيشة: ضرب من العيش. يقال: عاش عيشة صدق وعيشة سوء.

أقول: نسبة الرّاضية للعيشة بعناية فاعل العيشة.

قوله تعالى: «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢)»

قال في لسان العرب ٢/٣٨٥ «الجنّة: الحديقة ذات الشّجر والنخل.» والظّاهر أنّ كونها عاليةً لاعتبار شأنها وموقعها حيث إنّها دار صدق ومقعد صدق عند مليك مقتدر.

قوله تعالى: «قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣)».

قال في لسان العرب ٢٢٨/١١: قطف الشيء...: قطعه... والقِطف: اسم الثمار المقطوفة. والجمع: قطوف... «قطوفها دانية»؛ أي: ثمارها قريبة التّناول يقطفها القاعد والقائم.

قوله تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ(٢٤)».

بيان: الأمر بالأكل والشّرب ترخيص على سياق التشريف والتكريم. فسبحانه من إله ما أشكره! فشكر سعيهم وجزاهم بأحسن الوجوه، بما قدّموا من الصّالحات في الدنيا.

قوله تعالى: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦)».

الشمال: ضدّ اليمين من حيث الشّأن والمقام والشآمة. فقد أوتي كتاب عمله بشماله، استخفافاً بشأن الكتاب وحامله. وعند ذلك يهجم عليه حسرات مافات من سيّئات ما قدّم وخسارات ما يستقبله من العذاب والنكال، فيقول ويتمنّى: ياليتني لم أوت كتابيه، ولم أدرِما حسابيه، ولم أدر ما في كتاب جزاء العمل من قضائه تعالى الحكم العدل!

قوله تعالى: «يَالَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ(٢٧)».

قيل: إنّ ضمير «ليتها» راجع إلى الموت الناقل من الدنيا ويتمنّى العدم إلى الأبد وأن لايبعث للحساب والجزاء. (مجمع البيان ٣٤٧/١٠)

قوله تعالى: «مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَه(٢٨)».

أي: ما أغنى عنّي مالي في النجاة من العذاب.

قوله تعالى: « هَلَكَ عَنّـي سُلْطَانِيَه(٢٩)» .

أي: بطل عنّـي سلطانـي وتسلّطي.

والظّـاهر من الآيـتين أنّ هؤلاء كانـوا مـن الفراعـنة والجبـابرة المترفين فـي الدنيا؛ أرباب الثروة والسّطوة.

قوله تعالى: « خُـذُوه فَـغُـلُّوهُ(٣٠)» .

أمر تعالى خزنة النار وملائكة العذاب أن يأخذوه و يغلّوه.

قوله تعالى: « ثُـمَّ الـجَـحيمَ صَلُّـوهُ(٣١)» .

لا يبعـد أن يكـون المراد مـن قوله تعالى: « ثـمّ الـجـحيم صلّـوه» ؛ أي: ألقوه فـي النار.

قوله تعالى: « ثُـمّ فـي سِلْسِلَـةٍ ذَرْعُهَـا سَبْـعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(٣٢)» .

ثمّ أمر تعالى بجعله فـي سلسلة ــ أي: فـي قيد ــ كان طولها سبعين ذراعاً. والذراع: ما بين المرفق ورؤوس الأصابع.

قوله تعالى: « فاسلكوه» ؛ أي: اجعلوه بحيث كانت مـحيطةً به.

قوله تعالى: « إنَّـهُ كَانَ لاَ يُـؤْمِنُ بِالله الْـعَظِيمِ(٣٣)» .

الآية الكريمة مسوقة فـي مرحلة الـتعليل لـما قضى الله ـ سبحانه ـ وحكم من العذاب والنكال على هـذا الـعاصـي بأنّه كان لا يؤمن ولا يقـرّ بالله العظيم عظيمَ الشأن والـجلالة والكبرياء.

قوله تعالى: وَلاَ يَـحُضُّ عَـلَى طَعَام الْمسكِينِ(٣٤)» .

أي: لا يرغب على إطعام المسكين.

قوله تعالى: « فَلَيْسَ لَـهُ الْـيَـوْمَ هَاهُـنَا حَميمٌ(٣٥)» .

أي: فليس له اليوم هاهنا قريب ينفعه و يدفع عنه.

قوله تعالى: « وَلاَ طَعَامٌ إلاّ مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦)» .

قال في لسان العرب ١٠/ ٧١: والغسلين في القرآن العزيز: مايسيل من جلود

أهل النار، كالقيح وغيره، كأنه يغسل عنهم.

قوله تعالى: «لَا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ(٣٧)».

قال الراغب في مفرداته/١٥١: والخاطئ: هو القاصد للذنب. وعلى ذلك قوله: «ولا طعام إلا من غسلين لايأكله إلاّ الخاطئون». وقد يسمّى الذنب خاطئةً في قوله تعالى: «والمؤتفكات بالخاطئة»(الحاقة/٩)؛ أي: الذنب العظيم.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: «فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ(٣٩)».

قوله: «لا» ليست زائدةً، بل نفي وإبطال للشّائعات الباطلة من المكذّبين حول القرآن الكريم. قال تعالى:

«يقول الّذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين». (الأنعام/٢٥)

«وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربّكم قالوا أساطير الأوّلين». (النحل/٢٤)

«وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً». (الفرقان/٤)

«أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون». (الطور/٣٣)

ثمّ أقسم تعالى بمايراه الناس وبما لا يرون. قد ذكرنا فيما تقدّم في تفسير قوله تعالى: «ن والقلم ومايسطرون» وأشرنا إلى عدّة من الروايات الدالّة على أنّ الله تعالى أن يقسم بماشاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلاّ بالله. وذكرنا ثمّة وجه ذلك.

وقوله تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)».

جواب للقسم. وفي الإتيان بـ «إنّ» المؤكّدة ولام التأكيد عناية بالغة لتثبيت موقع القرآن الكريم وأنّه قول جبرئيل الأمين المكين عندالله والمقرّب لديه ـ سبحانه.

والرسول صفة مشبّهة؛ أي: من كان واجداً للرسالة وحاملاً إيّاها، سواء كان من رسل أهل الأرض أو من رسل أهل السّماء، فيحمل رسل السّماء هذه الرسالة الإلٰهيّة إلى من شاء الله من خلقه وأراد. قال تعالى:

«وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنّه عليّ حكيم». (الشورى/ ٥١)

قيل: إنّ المراد من قول الرسول في قوله تعالى «إنّه لقول رسول كريم» هو قول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله. (تفسير الرازي ١١٦/٣٠) ولا بأس به؛ إلاّ أنّ هذا القول الّذي نسب إلى رسول الله عين مايتلقّاه من قول جبرئيل الأمين. وكيف كان، فالآية الكريمة نظيرة قوله تعالى:

«فلا أقسم بالخنّس * الجوار الكنّس * واللّيل إذا عسعس * والصّبح إذا تنفّس * إنّه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثَمّ أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم». (التكوير/ ١٥-٢٥)

قوله تعالى: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (٤١)».

وممّن قال ذلك القول: «وما هو بقول شاعر» هو وليدبنْ مغيرة المخزوميّ حين قام بمبارزة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله. والقصّة كما أوردها في البرهان ٤٠١/٤، في المدّثر، عن عليّ بن إبراهيم: أنّه اجتمعت قريش

إليه فقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الّذي يقول محمّد؟ أشعر هو؟ أم كهانة؟ أم خطب؟ فقال: دعوني أسمع كلامه. فدنا من رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقال: يا محمّد، أنشدني من شعرك . قال: ما هو شعر؛ ولكن كلام الله الّذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله. فقال: اتل عليّ منه شيئاً. فقرأ عليه رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ حم سجدة.

فلمّا بلغ قوله: «فإن أعرضوا» يا محمّد يعني قريشاً «فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود». فاقشعرّ الوليد، وقامت كلّ شعرة على رأسه ولحيته. ومرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك . فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم، إنّ أباعبد شمس صبا إلى دين محمّد! أما تراه لم يرجع إلينا؟! فغدا أبوجهل إلى الوليد فقال: يا عمّ، نكست رؤوسنا وفضحتنا، وأشمتّ بناعدّونا، وصبوت إلى دين محمّد! فقال: ما صبوت إلى دينه، ولكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود. فقال له أبوجهل: أخطب هو؟ قال: لا. إنّ الخطب كلام متّصل، وهذا الكلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضاً. قال: أفشعر هو؟ قال: لا. أما إنّي قد (لقد) سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها، وما هو بشعر.

وفي الجوامع/٥١٧: وروي أنّ الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ. إنّ له الحلاوة. وإنّ عليه لطلاوة. وإنّ أعلاه لمثمر. وإنّ أسفله لمغدق. وإنّه يعلو وما يعلى.

أقول: إنّ الله ـ سبحانه ـ قد نصر رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ على أعدائه، وجعل كلمته العليا، وجعل كلمة الّذين كفروا السفلى. وقد تجلّى القرآن الكريم بأتمّ مجاليه ومظاهره، واستبان عظمته وتعاليه علوّاً يعلو ولا يعلى عليه ويغلب ولا يغلب. فقد فضح الله وليداً وأذلّه وخذله ونكس رأسه. وبفضيحته، افتضح قريش، وفشى ذلك في محافلهم ومجالسهم. وقد أهلك الله تعالى وليداً باختلاقه وافترائه على القرآن الكريم أنّه سحر وأرضى قريشاً بذلك . وقدّر ذلك بنكراه وشيطنته تقديراً عجيبا؛ حيث ذكر الله

ـ سبحانه ـ في كتابه: «فقتل كيف قدّر * ثمّ قتل كيف قدّر» . (المدّثّر/ ١٩ و ٢٠) وهذه القصّة قد أيّدها وأثبتها الآيات الكريمة في سورة المدّثّر.

قوله تعالى: « وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢) » ؛ أي: ما تأمّلون حقّ التأمّل في آياته، ولا تهتمّون بالتذكّر فيما يجب التذكّر فيه، وتحرمون من أنوار القرآن.

فإن قلت: فالمستفاد بناءاً على ما ذكر، أنّ المراد من « قول رسول كريم» هو القرآن المقروّ والمتلوّ. فما تقول في قوله تعالى: «إنّه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لايمسّه إلاّ المطهّرون * تنزيل من ربّ العالمين»؟ (الواقعة/٧٧ـ ٨٠) فقد قيل: إنّ كون القرآن في كتاب مكنون كونه مجرّداً فيه بتجرّد الكتاب المكنون.

قلت: كلاّ! هذا تأويل بارد لا يجوز القول به؛ لعدم دليل عليه بحسب الكتاب والسنّة. والمراد من كون القرآن في كتاب مكنون، كونه معلوماً بالوجود العلميّ لا بالوجود العينيّ، وأنّه معلوم بالعلم المصون المعصوم بذاته. فالقرآن مقروّ ومتلوّ سواءٌ كان عند الله أو في كتاب مكنون أو في قبضة جبرئيل الأمين. وقد أشبعنا الكلام في ذلك في باب الوضوء في كتابنا بدائع الكلام عند البحث عن قوله تعالى: « لا يمسّه إلاّ المطهّرون» أنّ المراد من المسّ هو المسّ الحسّيّ. فليس في القرآن الكريم إطلاق المسّ على العلم والدرك الحقيقيّ.

قوله تعالى: « تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٣) » .

أي: القرآن المقروّ والمتلوّ بعينه تنزيل من ربّ العالمين، وبعينه يلقيه جبرئيل إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله.

قوله تعالى: « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(٤٤) » .

قال الرازيّ في تفسيره ٢٩/١١٨: قرئ: « ولو تُقُوّلَ» على البناء للمفعول. هذا جواب قولهم: إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين» (الأنعام/٢٥) وقولهم: « إن هذا إلاّ إفك افتراه» . (الفرقان/٤) وقول الوليد: « إن هذا إلاّ سحر يؤثر * إن

هذا إلاّ قول البشر». (المدّثر/٢٤و٢٥) وغير ذلك من الأقوال. الّتي ذكرها القرآن الكريم عن المشركين.

قوله تعالى: «لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥)»؛ أي: بقوّة وشدّة.

قال في لسان العرب ١٥/ ٤٥٩: قال أبومنصور: اليمين في كلام العرب على وجوه: يقال لليد اليمنى يمين. واليمين: القوّة والقدرة.

قوله تعالى: «ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦)».

قال في مجمع البحرين ٣٢٤/٦: هو كما تقدّم: عرق يتعلّق بالقلب، إذا قطع مات صاحبه. ويقال: هو عرق مستبطن أبيض غليظ كأنه قصبة يتعلّق بالقلب يسقي كلّ عرق في الإنسان.

قوله تعالى: «فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧)».

أي: لا يقدر أحد أن يكون مانعاً ودافعاً عن حلول بأسنا ونقمتنا في ساحة المتقوّل.

قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ(٤٨)».

بيان: قوله تعالى: «وإنّه لتذكرة» عطف على قوله: «تنزيل من ربّ العالمين». وواضح أنّ أساس القرآن في تعليماته وبلاغه إنّما هو بالتذكير بالحقائق، وخاصّةً في معرفته تعالى وتوحيده ونعوته ـ سبحانه. والرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ هو المذكّر بالحقائق والمكارم والفضائل وقد كانوا يعرفونها عرفاناً بسيطاً. فبالتذكّر والذكر يعرفون أنّهم يعرفون.

قوله تعالى «للمتّقين» الجمع المحلّى باللاّم شامل لجميع أنواع المتّقين حسب مراتب عرفانهم ودرجات كمالاتهم. وواضح أنّه لادلالة في الآية الكريمة على أنّ القرآن تذكرة للمتّقين فقط. فإنّ ثبوت شيء لشيء لاينافي ثبوته لشيء آخر. فالقرآن تذكرة للمتّقين، وتثبيت للعارفين، وإيقاظ للمهتدين، وحجّة على المعاندين؛ وهكذا. فعلى عهدة الفقيه والمفسّر توضيح العناية الواردة في نعوت القرآن الكريم بحسب الأغراض المسوق لها الكلام.

قوله تعالى: «وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ(٤٩)»؛ أي: بعضكم مكذّبون بهذه البيّنة الواضحة بعد ما تمّت الحجّة البالغة عليهم.

قوله تعالى: «وإنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠)».

القرآن حسرة على الكافرين. فإنّه بأنواره وحججه الصريحة أبطل حجج الكافرين. فصار القرآن الكريم موجباً لإحقاق الحقّ وخذلان الكافرين، وصاروا متحسّرين على مافات منهم من أُمنيّاتهم الكاذبة.

ويمكن أن يقال: إنّهم لـمّا كفروا بالقرآن، فإذا بعثوا من قبورهم للحساب والجزاء قالوا: «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون» (يس/٥٢)، فصاروا على حسرة دائمة وندامة ثابتة.

قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ(٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(٥٢)».

الحقّ: الأمر الثابت. ولعلّ إضافة الحقّ إلى اليقين، من باب إضافة الصّفة إلى الموصوف. أي: إنّه اليقين الحقّ.

قوله: «سبّح» أمر من باب التفعيل. لو قلنا إنّ متعلّق التسبيح هو الاسم، يكون الباء زائدةً، فيكون المراد من تسبيح الاسم تقديس المسمّى وتنزيهه ـ جلّ ثناؤه. ولو قلنا إنّ الباء للتّعدية، كان المعنى: سبحّ ربّك بأسمائه الحسنى. والظّاهر هو الأوّل.

٧٠. سورة المعارج

في رواية عن ابن عبّاس أنّها مكّيّة؛ و هي السّورة الثامنة و السّبعون من القرآن، نزلت بعد سورة الحاقّة. (انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)».

قال في المغني ١/ ١٤١، في تعداد معاني الباء: والتاسع: المجاوزة، كعن. فقيل: تختصّ بالسؤال؛ نحو: «فاسأل به خبيراً». [الفرقان/ ٥٩]

بيان: الآية الكريمة ظاهرة في أنّ السائل عن العذاب الّذي يهدّد القرآن الكريم به الكافرين والمشركين إنّما كان يسأله على نحو الاستهزاء والتعنّت، لا لأجل التفهّم والتعلّم. فالآية الكريمة نظيرة قوله تعالى:

«قتل الخرّاصون * الّذين هم في غمرة ساهون * يسألون أيّان يوم الدّين * يوم هم على النّار يفتنون * ذوقوا فتنتكم هذا الّذي كنتم به تستعجلون». (الذّاريات/ ١٠-١٤)

وقوله تعالى: «سأل سائل بعذاب واقع» الباء في موضع عن. أي: سأل عن العذاب الواقع.

قوله تعالى: «لِلْكَـافِرِين».

اللاّم لبيان الاستحقاق. أو بمعنى «على» على ما ذكره ابن هشام في المغني ١/ ٢٧٥ في تعداد معاني اللام: أحدها: الاستحقاق. وهي الواقعة بين معنى وذات. نحو: الحمدلله، والعزّةلله، والملك لله، والأمرلله ... والتاسع: موافقة «على» في الاستعلاء الحقيقيّ. نحو: «يخرّون للأذقان» [الإسراء/ ١٠٧] «دعانا لجنبه» [يونس/ ١٢] «وتلّه للجبين». [الصّافّات/ ١٠٣].

قوله تعالى: «لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ(٢)».

أي: فلا محالة يكون واقعاً، وقد قضى الله ـ سبحانه ـ أن يأتيهم بهذا العذاب. وهو ـ سبحانه ـ لا يستعجل بعجلة المستعجلين استهزاءاً.

قوله تعالى: «مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ(٣)».

تمجيد وتعظيم‌لله بأنّه ـ سبحانه ـ واجد ومالك لهذه المعارج. والظّاهر أنّ المراد من المعارج ليست هي المدارج المحسوسة. فإنّ المدارج المحسوسة في عداد غيرها من المحسوسات، لا وزن لها ولا اعتداد بشأنها في قبال المعارج المعنويّة والمنازل القدسيّة. بل هي الغاية الأسنى والمقصد الأعلى، فيعطيها تعالى لأوليائه وأحبّائه، ويصطفيهم بهذه الموهبة الجليلة حسب درجات معارجهم

وقربهم منه ـ سبحانه ـ كيف شاء وأراد.

وهذا الّذي ذكرناه، هوالقدر المتيقّن والأرجح في تفسير الآية. ونرجو من الله أن يرزقنا سنداً بيّناً وسبيلاً واضحاً لهذا التفسير الّذي ذكرناه.

قوله تعالى: «تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤)».

قد اضطربت كلمات المفسّرين في تفسير الآية، وذكروا فيها وجوهاً كثيرة. وليس في هذه الوجوه ما يعتمد عليه من دليل عقليّ أو شرعيّ. فالأولى التوقّف في تفسير هذه الآية وإيكال علمها إلى الله وإلى أوليائه. ونظيرة هذه الآية قوله تعالى:

«يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لايتكلّمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صواباً». (النبأ/٣٨)

«يدبّر الأمر من السّماء إلى الارض ثمّ يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون». (السجدة/٥)

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً(٥)».

أقول: الإتيان بالفاء دليل على أنّ الآية الكريمة مرتبطة بما في صدر الآية وبما يحكيه تعالى عن سؤال المستهزئين المستعجلين. فالآية الكريمة تسلية وتأييد لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله. وفيها إشعار بأنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ هو الغالب على المستعجلين بحسب البرهان وبحسب التكوين أيضاً.

قوله تعالى: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً(٧)».

أي: إنّهم يرونه بعيداً، إنكاراً وتعريضاً بأنّه لايجيء ولا يتحقّق هذا الوعد أبداً. وإنّا نراه قريباً. فإنّ كلّ ماهو آتٍ، فهو قريب.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ(٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ(٩)».

قال في لسان العرب ٢٠٩/١٣: والمهل: اسم يجمع معدنيّات الجواهر. والمهل: ما ذاب من صفر أو حديد.

وفيه أيضا ٩/٤٥٤: العهن: الصّوف المصبوغ ألواناً. فالآيتان فيها تصريح بموقف وقوع الوعد وحلول نقمته وسطوته تعالى على السّائلين والمستعجلين.

والظّاهر أنّ قوله تعالى: «يوم تكون السّماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن» من أشراط السّاعة لامن أفزاع القيامة. فإنّ القيامة يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّموات.؛ أي: تبدّل أرض الدنيا بأرض جديدة غير أرض الدنيا؛ وكذلك الجبال والسّموات.

قوله تعالى: «وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً(١٠)».

قد تقدّم تفسيره في سورة الحاقّة أنّ المرادمن الحميم القريب لا الصّديق. أي: لا يمكن له السؤال عن حال قريبه لهجوم شدائد أشراط الساعة عليه. ولكلّ امرئ شأن عظيم يومئذ يغنيه ويشغله.

قوله تعالى: «يُبَصَّرُونَهُمْ».

قال في مجمع البحرين ٣/٢٢٥: قوله: «يبصّرونهم» ـ بالتشديد ـ أي: يبصّرون الأحمّاء والأقرباء فلا يخفون عليهم، فلا يمنعهم من المسألة أنّ بعضهم لا يبصر بعضاً، ولكنّهم لم يتمكّنوا من تساؤلهم لتشاغلهم.

قوله تعالى: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْيَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ(١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ(١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ(١٤)».

الظّاهر أنّ الآيات الكريمة تفيد شدّة العذاب في يوم القيامة. وتفيد أيضاً ازدياد المصائب والكربات فوق مايفيد قوله تعالى: «لا يسأل حميم حميماً».

قوله تعالى: «يودّ المجرم...»؛ أي: يودّ ويتمّنى أن يفتدي للتخلّص من العذاب في هذا اليوم بأبنائه الّذين هم أعزّ شيء عنده، وبـ «صاحبته»؛ أي: زوجته الّتي كانت سكناًله و**أنيسةً** به، وبـ «أخيه» (الّذي هو أقرب أحمّائه رحماً منه، و«فصيلته»؛ أي: عشيرته التي كانوا يحمونه ويقضون حوائجه عند الحاجة؛ بل يودّ أن يفتدي لتخلّصه بـجميع من في الأرض.

قال في لسان العرب ١٠/٢٧٣: فصيلة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون.

وقيل: أقرب آبائه إليه.

قوله تعالى: «كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ(١٥)».

قال الراغب في مفرداته ٤٧٠: اللّظى: اللّهب الخالص. وقد لَظِيَتِ النّار وتَلَظَّت. قال تعالى: «نارًا تلظّى» [اللّيل/١٤]؛ أي: تتلظّى.

بيان: «الضّمير راجع إلى قوله: «لظى» دلّ عليها ذكر العذاب؛ وهي النار الصّافية الّتي تتوقّد. قال تعالى: «أنذرتكم نارًا تلظّى». فعليه يكون «كلاّ» منوطةً بما بعدها، لا بما قبلها، كي يكون ردعاً لتمنّي المجرم تخلّصه من النار بالفدية. فلا بدّ أن يكون «كلاّ» بمعنى حقّاً، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحيّة، على ما ذكره ابن هشام في المغني ١/ ٢٥٠. ولا بدّ من التحفّظ على المواقف. وهذا الموقف ــ أي: موقف دخول المجرم في النار ــ متأخّر عن موقف القيامة الّتي هي موقف الحساب.

قوله تعالى: «نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ(١٦)».

قال في لسان العرب ١٤/١٠٦: نزع الشيء ينزعه نزعاً، فهو منزوع ونزيع، وانتزعه فانتزع: اقتلعه فاقتلع.

قال الراغب في مفرداته/٢٧٨: الشوى: الأطراف؛ كاليد والرِّجل.

قوله تعالى: «تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ(١٧)».

أي: تطلب بحسب التكوين الكفّار والعصاة الّذين أعرضوا عن دعوة الحقّ، استكبارًا واستخفافاً بالحقّ وأهله.

قوله تعالى: «وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ(١٨)».

أي: جمع المال من كلّ وجه لا يعتني بحلاله وحرامه.

قوله: «فأوعى»؛ أي: أوعاه في المخازن المأمونة المحفوظة لادّخار تلك الأموال.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا

ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: « إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) ».

قال في لسان العرب ١٥/١١٥: الهلع: الحرص. وقيل: الجزع وقلّة الصبر. وقيل: هو أسوأ الجزع وأفحشه.

نعم؛ إنّ الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسّه الخير من المال والمقام والجاه، يمنع ويبخل أن يستفيد منه شخص آخر. وإذا مسّه الشرّ من البلايا والشدائد، يجزع ولم يصبر على شيء ممّا يصيبه، ويظهر ضعفه وهوان نفسه وخلوّه عن جميع الكمالات والمعارف.

قوله تعالى: « إلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) ».

هل هو استثناء من قوله تعالى: « إنّ الإنسان خلق هلوعاً »؟ أو استثناء من جميع المعاصي؟ ولعلّ الأشبه هو الثاني.

قوله تعالى: « الّذينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ».

الظّاهر أنّ المراد من إدامة الصّلاة، هو التحفّظ الشّديد على إتيانها على نحو الاستمرار بحيث لا يفوت من المكلّف شيء منها.

قوله تعالى: « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ(٢٤) ». أي: مقدار معيّن يعطي يوماً فيوماً ماتيسّر وتمكّن بحسب وسعه وجدته؛ وهكذا. ونظيرة هذه الآية قوله تعالى:

«إنّ المتّقين في جنّات وعيون * آخذين ما آتاهم ربّهم إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون * وبالأسحارهم يستغفرون * وفي أموالهم حقّ للسّائل والمحروم». (الذاريات/١٥-١٩)

بيان: الظّاهر من سياق الآيتين، والمتناسب للغرض المسوق له الكلام في المقام، أن المراد من الصّلاة وأداء الحقّ المعلوم، هو الصلاة والحقّ المندوبين. ضرورة أنّ أداء الصّلاة والزكاة المفروضتين شرط للدخول في الاسلام. وأمّا لوكان المراد هو التقرّب والتوسّل إلى تحصيل كراماته تعالى الّتي لها شأن خاصّ عند الله ـ سبحانه ـ فلا محالة يكون المراد هو النوافل فقط. ولايزال يتقرّب العبد إليه تعالى بالنوافل حتّى يكون الله ـ سبحانه وجلّ مجده ـ هو الّذي يحبّه. في الوسائل ٣/٥٣، مسنداً عن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ في حديث: إنّ الله ـ جلّ جلاله ـ قال:

« ما يتقرّب إليّ عبد من عبادي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه. وإنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتى أحبّه. فإذا أحببته، كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ولسانه الّذي ينطق به، ويده الّتي يبطش بها. إن دعاني، أجبته. وإن سألني، أعطيته.»

فإن قلت: ما تقول في إطلاق الصّلاة وإطلاق الحقّ المعلوم في الآيتين الشامل للفرائض والنوافل؟

قلت: كلاّ! ضرورة أنّ مصبّ الإطلاق في أمثال المقام إنّما هو الغرض الّذي سيق له الكلام. أمّا ما كان خارجاً عن الغرض، فلا محصّل لدعوى الإطلاق فيه. ويشهد على ذلك ما روي في الكافي ٣/ ٢٦٩ مسنداً، عن الفضيل قال:

«سألت أبا جعفر - عليه السّلام - عن قول الله - عزّ وجلّ -: «الّذين هم على صلاتهم يحافظون» [المؤمنون/٩]. قال: هي الفريضة.
قلت: «الّذين هم على صلاتهم دائمون». قال: هي النافلة.

وفيه أيضاً /٤٩٨، مسنداً، عن سماعة بن مهران، عن أبي عبدالله - عليه السّلام - قال:

إنّ الله - عزّ وجلّ - فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضةً لا يحمدون إلاّ بأدائها؛ وهي الزكاة. بها حقنوا دماءهم وبها سمّوا مسلمين. ولكنّ الله - عزّ وجلّ - فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة، فقال - عزّ وجلّ -: «والّذين في أموالهم حقّ معلوم». فالحق المعلوم غير الزكاة، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله؛ يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله. فيؤدّي الّذي فرض على نفسه إن شاء في كلّ يوم، وإن شاء في كلّ جمعة، وإن شاء في كلّ شهرٍ.

وفيه أيضاً/٤٩٩، مسنداً، عن أبي بصير قال:

كنّا عند أبي عبدالله - عليه السّلام - ومعنا بعض أصحاب الأموال. فذكروا الزكاة. فقال أبوعبدالله - عليه السّلام -: إنّ الزكاة ليس يحمد بها صاحبها. وإنّما هو شيء ظاهر إنّما حقن بها دمه وسمّي بها مسلماً. ولو لم يؤدّها، لم تقبل له صلاة. وإنّ عليكم في أموالكم غير الزكاة.
فقلت: أصلحك الله؛ وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال: سبحان الله! أما تسمع قول الله - عزّ وجلّ - يقول في كتابه: «والّذين في أموالهم حقّ معلوم للسّائل والمحروم»؟!
قال: قلت: ماذا الحقّ المعلوم الّذي علينا؟ قال: هو الشيء يعمله الرجل في ماله يعطيه في اليوم، أو في الجمعة، أو في الشّهر؛ قلّ أو كثر، غير أنّه يدوم عليه.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦)».

واضح أنّ التصديق بيوم الدين، متوقّف على العلم به. فلا محالة يكون

التصديق بيوم الدين بعد العلم به، من الأحكام الضروريةِ العقليّة.

والمراد من يوم الدين إمّا أن يكون موقف الحساب، فيكون المعنى المصدّقين بيوم الحساب ويوم القيامة. وإمّا أن يكون المراد هو الآخرة الّتي ذكرها في آيات كثيرة في القرآن الكريم في مقابل الدنيا. ومبدأ الآخرة من حين انتقاله بالموت إليها. فالقبر أوّل منزل من منازل الآخرة، ثمّ موقف بعد موقف؛ حتّى ينتهي إلى الموقف النهائيّ، وهو العرض الأكبر على الله؛ أي: الحساب.

قوله تعالى: « وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ(٢٧) ».

الخوف والخشية والإشفاق، إنّما يكون بالعلم بمورد التصديق الّذي هو من أجلّ العلوم القرآنيّة وأشرف المعارف الإلٰهيّة. قال تعالى:

«أولئك الّذين يدعون يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إنّ عذاب ربّك كان محذوراً ».(الإسراء/٥٧)

«رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار ».(النور/٣٧)

قوله تعالى: « إنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(٢٨) ».

والسرّ في ذلك أنّ المؤمن لا يزال بين الخوف والرّجاء، وبين الرغبة والرهبة، وهؤلاء الرجال الكرام لا يطمئنّون من قبول أعمالهم. وهذا الخوف لعدم الاطمئنان بقبول الأعمال كمال آخر.

قوله تعالى: « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) ».

الظّاهر أنّ المراد في الآية الكريمة التحفّظ والتحذّر أن لا يضعوا فروجهم في الموارد المحرّمة على المكلّفين. وظاهر الآية يتعلّق بالرّجال.

قوله تعالى: « إلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ»؛ أي: زوجاتهم الّتي استحلّوا بالنكاح والعقد الشرعيّ. ويدخل فيه الازدواج بالعقد المنقطع أيضاً.

قوله تعالى: « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ...(٣٠) »؛ أي: الإماء الّتي يتملّكونها طبق القوانين المقرّرة في شرع الإسلام. فلا لوم عليهم لعدم ارتكاب شيء من

المحرّمات.

قوله تعالى: «فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٣١)».

أي: من طلب وسعى في ارتكاب ما سوى ذلك، فأولئك هم المتجاوزون لحدود الله وحريم أحكامه؛ ولو كان مثل الاستمناء باليد.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٣٢)».

الظاهر بحسب النظر البدويّ، أنّ المراد من الأمانات هي الأموال الّتي يستودعها الناس بعضهم عند بعض لحفظها وحراستها. والمراد من العهد، العقود الجارية بين الناس في المعاملات والتعهّدات الواقعة بينهم وغيرها. ويشمل العقد الشرعيّ أيضاً؛ مثل النذر والعهد وغيره.

ولا يبعد شمول الأمانات والعهد لجميع الأحكام الدينيّة الشرعيّة والعقليّة؛ مثل الإيمان بالله، وتوحيده، والإتيان بجميع الواجبات؛ وهكذا. فإنّها أمانات الله عند خلقه. قال مولانا زين العابدين ـ صلوات الله عليه ـ في صحيفته، في ذكر التوبة وطلبها:

«ولك يا ربّ شرطي ألاّ أعود في مكروهك؛ وضماني ألاّ أرجع في مذمومك؛ وعهدي أن أهجر جميع معاصيك».

قال السيّد ـ قدّس سرّه ـ في رياض السالكين/٣٢٨: الثّاني: لا يخفى أنّه لا يليق بغير المعصوم قراءة هذه الفقرات من الدعاء على إطلاقها. لأنّها مضمون لا يفي به إلاّ من عصمه الله من جميع المعاصي صغيرها وكبيرها. وأمّا غيره فما أقلّ وفاءه بهذا الشرط والضمان والعهد.

أقول: هذا الّذي ذكره (قده) ضعيف. فإنّ الفقرات المذكورة ليست ممّا يجب عليه بالالتزام؛ بل هي واجبات ضروريّة في أصل الإيمان على كلّ من عرف الله ووحّده. وهذا الّذي ذكره ـ عليه السّلام ـ تجديد لما كان واجباً وثابتاً بحسب أصل الإيمان.

وفي البحار ٩٩/٢١٨و٢٢٦، في الدعاء عند لمس الحجر الأسود في الركن العراقيّ:

«أمانتي أدّيتها. وميثاقي تعاهدته».

قوله تعالى: « وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهادَاتِهِمْ قَائِمُونَ(٣٣) ».

الظّاهر من الآية الكريمة ـ وخاصّةً بقرينة مايعطف عليها، وجوب أداء الشّهادة، وتحريم كتمانها. قال تعالى:

«ولا تكتموا الشّهادة ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه». (البقرة/٢٨٣).

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٣٤)».

المحافظة: الاهتمام الأكيد بشأن الصلاة مقابل التضييع والاستخفاف بها. والمراد التذكير والإرشاد إلى المراقبة والمواظبة للصلاة وحدودها، والتماس مافيها من أسرارها وأنوارها ودرك فوائدها. فإنّها منهاج الأنبياء المقرّبين وقرّة عين سيّد المرسلين ومعراج المؤمنين. في الوسائل ٣/٢٥ـ مسنداً عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر ـ عليه السّلام ـ يقول:

دخل رجل مسجدًا فيه رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فخفّف سجوده دون ماينبغي، ودون مايكون من السجود.

فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ نقركنقر الغراب! لومات هذا على هذا، مات على غيردين محمّد.

قوله تعالى: « أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(٣٥) ».

الظّاهر أنّ « اولئك » إشارة إلى المحافظين على صلواتهم وجميع ما عطف عليها من الأصناف المذكورة في الآيات السّابقة.

قوله: « في جنّات مكرمون»؛ أي: بساتين مشجّرة ناضرة بهيّة مكرمون بكرامات الله ـ سبحانه.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: « فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) ».

قال الراغب في مفرداته/٥٤١: هطع الرجل ببصره: إذا صوّبه... قال: « مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتدّ إليهم طرفهم» [إبراهيم/٤٣] « مهطعين إلى الدّاع». [القمر/٨]

قوله تعالى: « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (٣٧) ».

قال الراغب في مفرداته/٣٤٦: عزين؛ أي: جماعات في تفرقة.

قال في لسان العرب ١٩٥/٩: قوله تعالى: « عن اليمين وعن الشمال عزين»: حلقاً حلقاً وجماعةً جماعةً. وعزون: جمع عزة. فكانوا عن يمينه وعن شماله جماعات في تفرقة... وأصلها عزوة، فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس؛ كثبين و برين في جمع ثبة و برة.

قوله تعالى: « أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) ».

الاستفهام إنكاريّ. أي: لا ينبغي ولا يجوز أن يتمنّى كلّ واحد واحد منهم أن يدخلهم الله في جنّته الّتي مقام المطهّرين ومقعد صدق عند مليك مقتدر. هيهات! هيهات! فلا مناسبة بينهم و بين الجنّة.

قوله تعالى: « كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ».

ذكر المفسّرون ما خلاصته: أي: من الأشياء القذرة، فلم يأتوا بشيء من صالحات الأعمال كي يتحوّلوا من قذارتهم إلى الطّهارة، ومن خباثتهم إلى النّظافة.

قوله تعالى: فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ(٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمسبوقِينَ(٤١)».

قد أقسم تعالى بنفسه القدوس؛ ربّ المشارق والمغارب. ثمّ أتى بـ «إنّ» المشدّدة ولام التأكيد، للاهتمام وللعناية البالغة بأنّه تعالى قادر على أن يبدّل خيرا من الكفّار بهم. ولا يمكن ولا يعقل ذلك إلّا أن يكون هذا الخير معلوماً ومقدورا في مرتبة الموجودين وأن يكون الله تعالى عالماً بمصالحهم؛ وكذلك عالماً وقادراً على إذهابهم.

قوله تعالى: «وما نحن بمسبوقين»؛ أي: بمغلوبين. أي: لا يسبق أمر غيرنا أمرنا، ولا يتقدّم أمره أمرنا.

الآية الكريمة في سياق إبراز العظمة والكبرياء. ولا دلالة فيها على أنّ الكفّار فيهم شيء من الخير. لأنّ أفعل التفضيل قد استعمل في غير مورد التفاضل؛ كما في قوله تعالى:

«قال ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه». (يوسف/٣٣)

في البرهان ٣٨٥/١: الطبرسيّ في الاحتجاج، عن الأصبغ بن نباتة قال:

خطبنا أميرالمؤمنين -عليه السّلام- على منبر الكوفة. فحمد الله وأثنى عليه. ثمّ قال: أيها النّاس، سلوني! فإنّ بين جوانحي علمًا جمّاً.
فقام إليه ابن الكوّا... قال: يا أميرالمؤمنين -عليه السّلام- وجدت كتاب الله ينقض بعضه بعضاً!
قال: ثكلتك أمّك يا بن الكوّا! كتاب الله يصدّق بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً. فسل عمّا بدالك.
قال: يا أميرالمؤمنين، سمعته يقول: «ربّ المشارق والمغارب». وقال في آية اخرى: «ربّ المشرقين وربّ المغربين». [الرحمن/١٧] وقال في آية أخرى: «ربّ المشرق والمغرب». [الشعراء/٨]
قال: ثكلتك أمّك يا بن الكوّا! هذا المشرق. وهذا المغرب. وقوله: «ربّ المشرقين وربّ المغربين» فإنّ مشرق الشّتاء على حدة، ومشرق الصّيف على حدة. أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟!

وأمّا قوله: «ربّ المشارق وربّ المغارب» فإنّ لها ثلاثمائة وستّين برجاً تطلع كلّ يوم من برج وتغرب في آخر. فلا تعود إليه إلّا من قابل في ذلك اليوم.

قوله تعالى: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢)».

تهديد منه تعالى لهؤلاء الكفّار. فقضى الله -سبحانه- قضاءاً حتماً أن يخذ لهم ولا ينصرهم. وتوعّدهم أيضاً أن يجزيهم يوم يوعدون على استكبارهم وطغيانهم.

قوله تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)».

أي: يخرجون من القبور مسرعين، كأنّهم يسرعون ويسعون إلى علامة نصبت لهم.

في مجمع البحرين ٤/ ٢٣٣: قوله تعالى: «كأنّهم إلى نصب يوفضون»؛ أي: يسعون ويسرعون إلى الداعي.

قوله تعالى: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)».

أي: خاشعةً أبصارهم ناظرين إلى الأرض، فلا يرفعون أبصارهم من شدّة الهول والوحشة.

٧١. سورة نوح

في رواية عن ابن عبّاس أنّها مكّيّة نزلت بعد سورة النحل؛ و هي السورة السبعون من القرآن.(انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

بيان :

قد استقصينا الكلام في قصّة نوح وماجرى بينه و بين قومه وما صار إليه عاقبة أمرهم، في سورة الحاقّة.

قوله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١)» .

أي: أرسلناه بعد ما صار واجداً وحاملاً للنبوّة والرّسالات الإلٰهيّة، وأمرناه أن أنذر قومك .

قال في المجمع ١٠/ ٣٦٠: معناه: أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.

أقول: لا احتياج إلى هذا التوجيه. ضرورة أنّ فيهم من كانوا مستغرقين في المعاصي العقليّة وخاصّة كفرهم بالله وظلمهم على من دونهم واستكبارهم واستذلالهم عبادالله وغيرها من المعاصي العقليّة. **فإنّ الإنذار** والتبشير من شؤون النبوّة والرسالة. فالأنبياء والرسل إذا وردوا حوزة بلاغهم يبشّرون المؤمنين بالكرامة والجنّة، وينذرون العاصين بالعذاب والنقمة؛ سواء كان عصيانهم قبل البعث أو بعد البعث.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢)».

قوله: «مبين» اسم فاعل من أبان يبين، من باب الإفعال، وصفة لقوله: «نذير». أي: نذير لكم على نحو الصراحة من دون إجمال وإبهام، ولا أخاف لومة لائم. قال تعالى:

«الّذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً». (الأحزاب/ ٣٩)

قوله تعالى: «أنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ(٣)».

بيان: تنقيح البحث في المقام يحتاج إلى تقديم أمور:

الأمر الأوّل: إنّ العبادة في اللّغة بمعنى التذلّل والخضوع. وتتحقّق العبادة بامتثال أمر المولى الحقّ المبين وإخلاصها له ـ سبحانه ـ فقط. كذلك تتحقّق العبادة أيضاً في إتيان العبادات الذاتيّة؛ مثل السّجدة وذكر الله ـ سبحانه ـ وتمجيده بأسمائه الحسنى، وتقديسه وتنزيهه عن كلّ مالايليق بساحته ـ سبحانه. فعلى هذا يكون أمر الأنبياء بالعبادة أمراً إرشاديّاً طريقيّاً.

وكذلك الكلام في ترك المعاصي. فإنّ ترك المعاصي عبادة للّه ـ سبحانه. وقد وعدالله تعالى في كتابه الكريم ثواباً و جزاءً حسناً على ذلك. قال تعالى:

«إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم وندخلكم مُدخلاً كريماً». (النساء/ ٣١)

وفي الرواية المرويّة عن الباقر ـ عليه السّلام ـ قال:

ما عبدالله بشيء أفضل من عفّة بطن وفرج.(البحار ٧١/ ٢٦٨)

وهذا من عجائب فضله تعالى على عباده المطيعين.

الأمر الثاني: الكلام في باب التقوى نظير الكلام في باب العبادة. قال تعالى:

«اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون». (آل عمران/ ١٠٢)

قال في القاموس ٤/ ٤٠١: واتّقَيْتُ الشيء وتَقَيْتُهُ أتّقيه وأتْقِيه تُقًى وتَقيّةً وتِقاءاً ككساء ـ: حَذِرْتُه. والاسم: التقوى. أصله: تَقْيا، قَلبُوه للفرق بين الاسم والصّفة.

والتقوى عبارة عن الاجتناب والاحتراز من إساءة الأدب في ساحته تعالى والحياء منه ـ جلّ ثناؤه ـ ومراعاة جلاله وكبريائه.

الأمر الثالث: قوله تعالى: «وأطيعونِ». لايخفى أنّ أمرالله ـ سبحانه ـ عباده بإطاعة الأنبياء والرسل، أمر مولويّ تعبّديّ. فلا يجب إطاعة أحد من أولياء الله من حيث نفسهم ولشخصهم، إلاّ بعد أمرالله تعالى وإيجابه على الناس. فالواجب إطاعة الله تعالى في إطاعة أنبيائه ورسله. وإطلاق قول نوح ـ عليه السّلام ـ: «وأطيعون» كاشف قطعيّ عن أمره ـ سبحانه ـ بإطاعة نوح ـ عليه السّلام.

قوله تعالى: «يَغفِرْلكم مِنْ ذُنوبِكُمْ» بمنزلة الجواب والجزاء لقوله تعالى: «أن اعبدوا الله ...» وجزاء حسن بتفضّله تعالى على الحسنات المتقدّمة. ضرورة أنّ من عبد الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم، وكان حفيظاً ومراقباً على نفسه ويتّقيه تعالى، فقد بلغ مقام المتّقين وطاب وطهر، ويغفرالله له بفضله ماتقدّم من ذنوبه.

والاستشكال في المقام بأنّ قوله: «يغفرلكم» مطلق يشمل ما تقدّم من ذنوبه وما تأخّر، غير صحيح. ضرورة أنّ القضايا في أمثال المقام من باب القضايا الحقيقية. فالحكم فيها متوقّف على تحقّق الموضوع المقدّر. والموضوع في المقام هو **تحقّق الذنب من المؤمن المطيع المتّقي، فلا يشمل بالضرورة الذنوب الآتية كي يكون إغراءاً بالعصيان. قال تعالى:**

«إنّ الحسنات يُذهبن السيّئات ذلك ذكرى للذّاكرين». (هود/ ١١٤)

أقول: فالحسنات والسيّئات في الآيه الكريمة المحلّاة بالالف والّلام تفيد العموم في كلا الموردين إلّا ما خرج بالدليل القطعيّ.

في البرهان ٢٣٦/٢: محمّدبن يعقوب بإسناده عن الفضيل بن عثمان المراديّ قال: سمعت أبا عبدالله ـ عليه السّلام ـ يقول: قال رسول الله ـ صلىّ الله عليه وآله ـ:

« أربع من كنّ فيه لم يهلك على الله بعدهنّ إلاّ هالك:
يهمّ العبد بالحسنة فيعملها. فإن لم يعملها، كتب له حسنة بحسن نيّته. وإن هو عملها، كتب الله له عشرا.
ويهمّ بالسيّئة أن يعملها. فإن لم يعملها، لم يكتب عليه شيء. وإن هو عملها، أُجّل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات ـ وهو صاحب الشمال ـ: لا تعجل. عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها ـ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: « إنّ الحسنات يذهبن السيّئات» ـ أو استغفار.
فإن قال: « أستغفر الله الّذي لاإله إلاّ هو، عالم الغيب والشّهادة، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، ذوالجلال والإكرام؛ وأتوب إليه» لم يكتب عليه شيء. وإن مضت سبع ساعات، ولم يتبعها بحسنة أو استغفار، قال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات: اكتب على الشقيّ المحروم.»

وعنه بإسناده عن إبراهيم بن عمر اليماني، عمّن حدّثه، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في قول الله ـ عزّوجلّ ـ: « إنّ الحسنات يذهبن السيّئات» قال:

« صلوات المؤمن باللّيل يذهبن بما عمل من ذنب النهار.»

والروايات في تفسير هذه الآية كثيرة... من أرادها، فليراجعها.

قوله تعالى: «وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى...(٤)».

عطف على قوله تعالى: « يغفر لكم...».

المشهور أنّ الأجل أجلان : أجل مسمّى، وأجلٌ غير مسمّى. وذكر بعض المفسرين أن الأجل المسمّى هو الأجل المحتوم. فأمّا تحقيق البيان

عندنا، فوكول إلى كتابنا: ((توحيد الامامية))

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ
فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾
يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾
وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ
مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ
لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾
مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ

ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

بيان :

هذه الآيات الكريمة دعاء ومناجاة لنوح ـ عليه السّلام ـ مع ربّه ـ سبحانه. والظّاهر أنّ الغرض المسوق له الكلام في المقام، إظهار اليأس من إيمانهم بالكلّيّة؛ وقد أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله وتوحيده وعبادته ـ سبحانه ـ مع جهده الشديد والوفاء الصادق منه بعهده وميثاقه بينه وبين ربّه، في تحمّل أثقال النبوّة والرسالة الخطيرة والصبر على شدائدها ومشاقّها. جزاه الله ـ سبحانه ـ أحسن جزاء المحسنين. وموقف هذه المناجاة في أواخر دعوته وقطع رجائه عن إجابة دعوته.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنّي دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلاً وَنَهاراً(٥)».

أي: قمت فيهم برهةً من دهري وعمري، ودعوتهم بالدعوة الحسنى ليلاً ونهاراً.

قوله تعالى: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائي إلاّ فِرَاراً(٦)».

أي: فلم يزد دعوتي ومجادلاتي البالغة معهم، إلاّ فرارهم منّي ومن دعوتي.

قوله تعالى: «وَإنّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ...(٧)».

هذه الآية تذكر لجاجهم وعنادهم واستخفافهم بنوح وبدعوته.

قوله تعالى: «جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِم» استخفافاً بي وبدعوتي.

قوله تعالى: «وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ».

أي: يسترون رؤوسهم ووجوههم بلباسهم كي لا يرونني مواجهة، تشديداً لاستخفافهم بي وبدعوتي.

قوله تعالى: «وأصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(٧)».

أي: وأصرّوا فيما تقدّم من فعلهم الشنيع، وأظهروا استكبارهم واستعلاءهم عليَّ وعلى دعوتي.

قوله تعالى: «ثُمَّ إنّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً(٨)».

هذا بيان نوع آخر من أنحاء دعوته. قوله: «جهاراً» أي جهراً على النحوالعاديّ المتعارف لاإعلاء الصوت.

قوله تعالى: «ثُمّ إنّي أعْلَنْتُ لَهُمْ...(٩)».

أي: ثمّ إنّي أعلنت حقيقة دعوتي وأصولها وموقعها وشؤونها الخطيرة في مواقف شتّى وموارد مختلفة.

قوله تعالى: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠)».

أي: أوضحت وبيّنت لهم وجوب الاستغفار والإنابة من ذنوبهم وعتوّهم. وعرّفت لهم شؤون ربّ العالمين وسعة رحمته ورأفته على التوّابين والمستغفرين؛ وأنّه تعالى لواستغفروه من ذنوبهم ورجعوا إليه عن عتوّهم وكفرهم، لوجدوه تعالى توّاباً غفّاراً.

قوله تعالى: «يُرْسِلِ السَّماء عَلَيكُمْ مِدْرَاراً(١١)».

هذه الآية جواب لقوله تعالى: «استغفروا...». أي: استغفروا من ذنوبكم، فيرسل الله تعالى من السّماء عليكم مطراً مدراراً؛ أي: كثيراً وافراً.

قوله تعالى: «وَيُمْدِدْكُمْ بِأمْوَالٍ وَبَنينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجْعَلْ لَكُمْ أنْهَاراً(١٢)».

أي: يعطيكم ويؤيّدكم بتوفير الأموال والبنين، ويجعل لكم بساتين

مشجّرةً ناضرةً بهيّة. ويعطيكم في جنّاتكم عيوناً وأنهاراً جاريةً تزداد في حسن جنّاتكم وصفائها وازدياد فوائدها.

في البرهان ٣٨٧/٤، عن الكلينيّ مسنداً عن بعض أصحابنا قال:

شكى الأبرش الكلبيّ إلى أبي جعفر - عليه السّلام - أنّه قال لا يولد له وقال: علّمني شيئاً.

قال: استغفرالله في كلّ يوم أو في كلّ ليلة مائة مرّة. فإنّ الله يقول: «استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً - إلى قوله: - يمددكم بأموال وبنين».

وفيه عنه مسنداً، عن سعيد بن يسار قال:

قلت لأبي عبدالله - عليه السلام -: لا يولدلي.

قال: استغفر ربّك في السّحرمائة مرّة. فإن نسيته، فاقضه.

وفي معناهما روايات كثيرة. وفي نور الثقلين ٤٢٣/٥ عن نهج البلاغة، عن أميرالمؤمنين - عليه السلام - قال:

«وقد جعل الله - سبحانه - الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق. فقال - سبحانه -: «استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السّماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين». فرحم الله امرأً استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيّته.»

وقوله تعالى: «مَالَكُمْ لَا تَرجُونَ لِلّهِ وَقَاراً(١٣)».

ثمّ شرع - صلوات الله عليه - في دعوتهم إلى الله، وتذكيرهم به ورفع غفلاتهم، وقال عتاباً وتوبيخاً لهم بقوله: «مالكم...»؛ أي: أيُّ حجّة ودليل لكم أنكّم لا تعتنون لشأنه - سبحانه - ولمقامه الكبير احتراماً وتعظيماً؟! وقد عرفتموه - سبحانه - في آناء عمركم في البأساء والضرّاء، حيث دعوتموه لنجاتكم ودفع الشدائد عنكم، فنجّاكم من الهلاك؛ ثمّ إنّكم أشركتم وكفرتم بنعمه تعالى.

قال في لسان العرب ١٤٣/٥: رجِيَ: إذا دُهِش - إلى أن قال: - وقد يكون الرَّجوُ والرَّجاء بمعنى الخوف. ابن سيده: والرّجاء: الخوف. وفي التنزيل العزيز: «مالكم لا ترجون لله وقاراً». وفيه/٣١٥: وامّا قوله تعالى:

«مالكم لا ترجون لله قاراً» فإنّ الفرّاء قال: مالكم لا تخافون لله عظمةً. ووقّرت الرّجل: إذا عظّمته.

قوله تعالى: «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً(١٤)».

ثمّ استدلّ ـ عليه السّلام ـ بآيات بيّنة وشواهد نيّرة على ظهوره تعالى وتجلّيه بآياته على العقول، وقال: «وقد خلقكم أطواراً»؛ أي: خلقكم مع كثرة جماعاتكم لايشبه بعض بعضاً في دقائق خلقتكم وتنظيم أعضائكم؛ حتّى في أصواتكم ولهجاتكم.

وفي تفسير الآية الكريمة وجوه أُخر أعرضنا عن ذكرها.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰواتٍ طِبَاقاً(١٥)».

أي: ألم تعلموا وتشاهدوا أنّ الله خلق السّموات طباقاً؟! أي: يطابق بعضها بعضاً. لأنّ قوله تعالى: «طباقاً» من باب المفاعلة تدلّ على ذلك.

فالآية الكريمة للتذكير والتنبيه على كيفيّة خلقه السّموات السّبع طباقاً، وليست من باب الاستدلال. وعلى ما ذكرنا يجب على الناس التذكّر والتنبّه والتعلّم، كي يعلموا ذلك. ولعلّ ذلك كان مأثوراً عندهم عن الأنبياء السّابقين. وفي الآية شهادة على أنّ نوحاً ـ صلوات الله عليه ـ كان عالماً بذلك.

قوله تعالى: «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً(١٦)».

أي: جعل القمر ـ هذا الجسم النوريّ الكبير ـ في السّموات نوراً فيها. وجعل الشمس سراجاً فيها. والآية الكريمة نظيرة قوله تعالى:

«تبارك الّذي جعل في السّماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً». (الفرقان/ ٦١)

قوله تعالى: «وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً(١٧)».

هذه الآية الكريمة تذكير وإرشاد لهؤلاء الغافلين بحجّة قاطعة، وآية ساطعة على أنّه تعالى كيف خلق الإنسان من الأرض ـ وبالمآل من التراب ـ على منهاج سنّته المقدّسة الإلٰهيّة من طريق التناسل. فيتغذّى الإنسان من الغذاء الّذي يتكوّن

من الأرض، فيحصل الدم من الغذاء. ثمّ يصير الدم نطفةً، فيسير النطفة إلى الرحم ثمّ يخرج إلى الدنيا، فيصير على سنّته المقدّسة إنساناً سويّاً تامّاً راشداً عاقلاً.

قوله تعالى: «ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُم إخرَاجاً(١٨)».

أي: ثمّ يعيدكم بالموت إلى الأرض. ثمّ يبعثكم من الأرض إليه تعالى بالجزاء والحساب. قال تعالى:

«منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نُخْرجكم تارةً أخرى». (طه/٥٥).

قوله تعالى: «وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِساطاً(١٩)».

أي: جعل فيها جميع ما تحتاجون إليه وتتمتّعون منه في شؤون الحياة. وخاصّةً جعلها بساطاً لكم ـ أي: فراشاً ومهاداً ـ فتسكنون في بيوت ومساكن ترضونها.

قوله تعالى: «لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً(٢٠)».

أي: لتسلكوا فيها في أسفاركم ويوم ظعنكم طرقاً فجاجاً.

قال في لسان العرب ١٠/١٨٥: الفجّ: الطريق الواسع بين جبلين وجمعه فجاج. قال تعالى: «وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق». [الحجّ/٢٧] وفيه/١٨٦: الفجّ: الطريق الواسع في الجبل. وكلّ طريق بعد، فهو فجّ.

قوله تعالى: «قَالَ نُوحٌ ربِّ إنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلاّ خَسَاراً(٢١)».

ثمّ شكا ـ عليه السّلام ـ إلى ربّه ـ سبحانه ـ من شأن جمهور عوامّ قومه: أنّهم عصوا أمري، ولم يقبلوا منّي شيئاً، واتّبعوا قول الفراعنة والجبابرة الّذين لم يزدهم مالهم وولدهم إلاّ خساراً. وقدّموا اتّباع أمر هؤلاء الجبابرة والمستكبرين مخالفةً لأمري؛ مع أنّهم يعرفون أنّ هؤلاء المستكبرين لايعرفون ولايعقلون شيئاً من الحقائق إلاّ ما كان إشباعاً لأهوائهم وشهواتهم.

قوله تعالى: « وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً(٢٢)».

هذه السنّة الخبيثة السيّئة مستندة إلى جميع القوم. وقد ارتكبوا في إطفاء نوره وإبطال حجّته القيّمة حيلةً ومكراً كبّاراً.

قال في اللسان ١٢/١٢: « كَبُرَ كِبَراً وكُبْراً فهو كبير وكُبار وكُبّار بالتشديد: إذا أفرط». ولعلّ العناية في الكبّار إلى كثرة الماكرين.

قوله تعالى: « وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَاتَذَرُنَّ وَدّاً ولَا سُواعاً ولَا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونسراً(٢٣)».

أي: وتواصوا بعضهم بعضاً وقالوا: لا تتركوا عبادة آلهتكم بقول نوح. وذكروا أسماء أصنامهم وَدّاً وسُواعاً ويَغُوث وَيَعُوق وَنَسْراً. يريدون بذلك أن يخدعوا أراذل القوم وسفهاءهم. وهذه الخدعة مثل ما ارتكبها كفّار قريش في مقابل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ:

«ويقولون أإنّا لتاركو آلهتنا لِشاعر مجنون». (الصافات/٣٦)

قوله تعالى: « وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَاتَزِدِ الظَّالِمِينَ إلّا ضَلالاً(٢٤)».

أي: وقد أضلّوا بهذه البلاغات الكاذبة المشومة خلقاً كثيراً. ثمّ دعا -صلوات الله عليه- بالهلاك على الظّالمين، بما طغوا واستكبروا في مقابل دعوته الحقّة.

قوله تعالى: « مِمَّا خَطِيئَاتِهِم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً».

« من» في قوله تعالى « ممّا» بمعنى اللّام. أي: لأجل خطيئاتهم وجناياتهم، أغرقوا.

قيل: هذا القول من نوح-صلوات الله عليه- إخبار عن نبأغيبيّ. فإنّه يعلم أنّه -سبحانه- يؤاخذهم بطغيانهم وكفرانهم ويهلكهم بالغرق. وفي إخبار نوح بصيغة الماضي في قوله تعالى: « أغرقوا فأدخلوا» عناية لتحقّق الأمر و نفاذ قضائه تعالى وحلول بأسه وسطوته تعالى في ساحتهم.

والظّاهر أنّ هذا القول من كلامه تعالى وإخبار منه تعالى لرسوله -صلّى الله عليه وآله.

قوله تعالى: « فَلَم يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً(٢٥)».

أي: لم يجدوا أنصاراً من دون الله يدفعون عنهم ماقضى الله ـ سبحانه ـ وكتب عليهم من الذلّة والهوان.

قوله تعالى: « وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً(٢٦) ».

دعا ـ عليه السّلام ـ على قومه بالهلاك والتبار وقال: لا تدع على وجه الأرض من الكافرين ساكن دار.

قوله تعالى: « إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً(٢٧) ».

أي: فإن أمهلتهم ولم تهلكهم، يُضلّوا ما في الارض من عبادك ، ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً؛ أي: شديد الكفر.

وقال في القاموس ١٠٧/٢: الفَجْر: الانبعاث في المعاصي والزنا.

قوله تعالى: « رَبِّ اغْفِرْلِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً(٢٨) ».

ثمّ دعا لنفسه ولوالديه، ولمن دخل في بيته وحزبه وآمن بدعوته الحقّة، ولجميع المؤمنين والمؤمنات من تقدّم على نوح ومن تأخّر عنه. ثمّ دعا على الظالمين وقال: « لا تزد الظّالمين إلاّ تباراً»؛ أي: هلاكاً. وتَبار مصدر ثلاثيّ مجرّد. قال في لسان العرب ١٣/٢: تَبِرَ الشيء، يَتْبَرُ تَباراً؛ أي: هلاكاً.

٧٢. سورة الجنّ

في رواية عن ابن عبّاس أنّها مكّية؛ و هي السورة الثامنة و الثلاثون من القرآن، نزلت بعد سورة الأعراف. (انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

وقدورد في القرآن الكريم لفظ الجنّ بعنايات مختلفة وأغراض شتّى في ضمن اثنتين وعشرين آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ
وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ

بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أحداً(٢)».

قال في مجمع البحرين ٣/ ٥٠ ما خلاصته: النفر ــ بالتحريك ــ: هم عدّة رجال. قيل: من ثلاثة إلى عشرة. وقيل: إلى سبعة. ولا يقال نَفَر فيما زاد على العشرة.

أمر الله تعالى رسوله وصفيّه محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله ـ أن يجهر و يعلن في قومه أنّه اجتمع جماعة من الجنّ عنده، فاستمعوا القرآن منه ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقالوا: يا قومنا، إنّا سمعنا قرآناً عجباً يبهر العقول في شأنه وعظمته. يهدي بنوره الصريح و بلاغه المبين إلى الرشد. ويخرج القارئ والمستمع من ظلم الضّلالة إلى فضاء نورالحقّ والرشد. فآمنّا به و بدعوته الحقّة من وحدانيّته تعالى ومباينته مع جميع ماسواه من الخلق وقدسه ونزاهته عن الشريك. فلن نشرك بربّنا أحداً أبداً. فنخلص الوحدانيّة له تعالى. ونوجّه عبادتنا له ـ سبحانه ـ مخلصين موحّدين.

الظّاهر أنّ موقف هذا الاجتماع والاستماع والإحتفال ما يحكيه تعالى في قوله تعالى:

«وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلمّا حضروه قالوا أنصتوا فلمّا قضي ولّوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً اُنزل من بعد موسى مصدّقاً لمابين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم». (الأحقاف/٢٩-٣٠)

«صرفنا»؛ أي: سخّرناهم لك ليحضروا عندك ويستمعوا القرآن منك.

وقصّته كما في البرهان ٤/١٧٨، عن الاحتجاج[1] للطبرسيّ، عن أميرالمؤمنين -عليه السّلام- وقد سأله يهوديٌّ وقال: فإنّ هذا سليمان؛ سخّرت له الشياطين، يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل. قال له علي -عليه السّلام-:

«لقد كان كذلك. ولقد أعطي محمّد -صلّى الله عليه وآله- أفضل من هذا.

إنّ الشياطين سخّرت لسليمان وهي مقيمة على كفرها؛ وسخّرت لنبوّة محمّد -صلّى الله عليه وآله- الشياطين بالإيمان.

فأقبل إليه من الجنّ تسعة من أشرافهم،... هم الّذين يقول الله -تبارك وتعالى اسمه- فيهم: «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن» وهم التسعة. فأقبل إليه الجنّ والنبيّ -صلّى الله عليه وآله- ببطن النخل فاعتذروا بأنّهم «ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً». [الجنّ/٧]

ولقد أقبل إليه واحد وسبعون ألفاً منهم فبايعوه على الصّوم والصلاة والزكاة والحجّ والجهاد ونصح المسلمين. واعتذروا بأنّهم قالوا على الله شططاً.

وهذا أفضل ممّا أعطي سليمان. سبحان من سخّرها لنبوّة محمّد -صلّى الله عليه وآله- بعد أن كانت تتمرّد وتزعم أنّ لله ولداً. ولقد شمل مبعثه من الجنّ والإنس مالايحصى.»

١- قال في الوسائل ٢٠/٥٧: ونروي كتاب الاحتجاج للطبرسيّ بالإسناد الأوّل، عن محمّدبن عليّ بن شهرآشوب المازندراني، عن الشيخ الجليل أحمدبن علي بن أبي طالب الطبرسيّ.

أقول: الآيات الكريمة تدلّ على أنه ـ صلّى الله عليه وآله ـ مبعوث إلى دعوة الجنّ والإنس.

قوله تعالى: «وَ انَّهُ تَعالَى جَدُّ رَبِّنَا».

قوله: «وانّه» الظّاهر أنّه عطف على قوله تعالى: «إنّا سمعنا قرآناً عجبا».
ويمكن أن يكون عطفاً على الضمير في قوله تعالى: «آمنّا به».

أقول: لامحصّل باختيار الكسر أو الفتح في «انّ» في جميع الآيات التالية؛ بل على عهدة المفسّر تشخيص صحّة الكسر أوالفتح في كلّ واحد واحد من الآيات.

قال الراغب في مفرداته/٨٦: سمّي الفيض الإلهيّ جَدّاً. قال تعالى: «وأنّه تعالى جدّ ربّنا»؛ أي: فيضه. وقيل: عظمته. وإضافته إليه على سبيل اختصاصه بملكه.

وفي مجمع البحرين ٣/ ٢٠: قوله تعالى: «جدّ ربّنا»؛ أي: عظمة ربّنا. من قولهم: «جدَّ الرجل في صدور الناس وفي عيونهم؛ أي: عظم. وعن أبي عبيدة: «جدُّ ربّنا»؛ أي: سلطانه. يقال: زال جدُّ القوم؛ أي: زال ملكهم.

فعلى هذا تكون قوله تعالى: «تعالى جدّ ربّنا» تمجيداً له ـ سبحانه ـ بعلوّ عظمته وسلطانه وجلاله.

وورد في بعض الروايات: قالته الجنّ بجهالة. (انظر: البرهان ٤/ ٣٩١؛ مجمع البيان ١٠/ ٣٦٨)

قوله تعالى: «مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً(٣)».
تنزيه وتقديس لله ـ سبحانه ـ عن اتّخاذ الولد والصاحبة.

قوله تعالى: «وانّه كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً(٤)».
عطف على سابقته. وتبرئة لطائفة الجنّ من قول سفيهم على الله شططاً.
قال الراغب في مفرداته/ ٢٦٧: «شططاً»؛ أي: قولاً بعيداً عن الحقّ.
وفي مجمع البحرين ٤/ ٢٥٨: «شططاً»؛ أي: جوراً وعلوّاً في القول

وغيره.

لعلّ المراد من سفيههم هو إبليس ـ لعنه الله ـ استكبر عن طاعة الله ـ سبحانه ـ وادّعى أنّه أولى وأحقّ بكرامة الله من آدم ـ عليه السّلام ـ من غير دليل وأبى عن السجدة لآدم وجعله قبلةً لسجدته وجمع على نفسه الخسارة والخذلان الأبديّ.

في مروج الذهب ٤٣/١، عن عليّ ـ صلوات الله عليه ـ في خطبته الكريمة:

«فجعل الله آدم محراباً وكعبةً وباباً وقبلةً أسجد إليها الأبرار والروحانيّين الأنوار.»

قوله تعالى: «وَ اَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً(٥)».

الظّاهر أنّ قوله تعالى: «وَ انّا ظننّا» بالكسر عطف على سابقته. والمعنى: إنّا قد كنّا مطمئنّين بأنّ طائفة الإنس وكذلك الجنّ لايتقوّلون على الله الكذب.

ذكر المفسّرون أنّ هذا القول من الجنّ بعد نزول القرآن وبعد ماتبيّن الحقّ من الباطل والصّدق من الكذب. (تفسير الطبري ٦٧/٢٩-٦٨، مجمع البيان ٣٦٩/١٠) فعليه يكون هذا القول اعتذاراً منهم عن ارتكاب ما ارتكب سفيهم.

قوله تعالى: «وانّه كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦)».

إخبار عمّاجرت من السّنّة السّيئة من استعاذة رجال من الإنس برجال من الجنّ.

وقيل: إنّهم كانوا إذا نزلوا الوادي في سفرهم ليلاً يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرّسفهاء قومه. (مجمع البيان ٣٦٩/١٠)

في البرهان ٣٩١/٤: عن زرارة قال: سألت أباجعفر عن قول الله: «وانّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً». قال:

قال: كان الجنّ ينزلون على قوم من الإنس يعوذون برجال من الجنّ

فزادوهم رهقاً.

قال: كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الّذي يوحي إليه الشّيطان يقول: قل لشيطانك: فلان (إنّ فلاناً ـ خ) قد عاذبك.

قوله تعالى: «فزادوهم رهقاً».

قال في مجمع البحرين ١٧٤/٥: قوله تعالى « فزادوهم رهقا»؛ أي: ذلّة وضعفاً. وقيل: سفهاً. وقيل: طغياناً. وقيل: إثماً. وقيل: ما يرهقه ويغشاه من المكروه.

أقول: قوله تعالى: «فزادوهم رهقا»؛ أي: زاد رجال الجنّ طغياناً واستكباراً وعلوّاً على جماعة الإنس. وأمّا قول مجمع البحرين: «فزادوهم ذلّة وضعفاً» فالظّاهر أنّ هذه الذلّة والضعف إنّما هو للمستعيذين الّذين تركوا الاستعاذه بالله واستعاذوا بفسقة الجنّ.

قوله تعالى: «وَانَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً(٧)».

أي: إنّ رجالاً من الإنس ظنّوا كما ظننتم ــ يا معشر الجنّ ــ أن لن يبعث الله أحداً رسولاً ونبيّاً.

قوله تعالى: «وَانَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨)».

قوله: «لمسنا» قال في مجمع البحرين ١٠٤/٤: قوله ـ عليه السّلام ـ: من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً؛ أي: يطلب. واستعار له اللّمس.

قال في المفردات/٤٧٥: اللّمس: إدراك بظاهر البشرة؛ كالمسّ. ويعبّر به عن الطّلب؛ كقول الشاعر: وألمسه فلا أجده. وقال تعالى: «وانّا لمسنا السّماء».

قوله: «حرساً». قال في لسان العرب ١٢١/٣: حرس الشيء: ... حفظه. وهم الحرّاس والحرس والأحراس.

قوله: «شُهُباً»: قال في لسان العرب ٢٢٢/٧: وفي حديث استراق السمع: فربما أدركه الشهاب، قبل أن يلقيها. يعني الكلمة المسترقة. وأراد

بالشهاب: الّذي ينقضّ باللّيل شبه الكوكب. وهو في الأصل: الشعلة من النار.

فالمعنى: إنّا كنّا نلتمس ونطلب الصّعود إلى السّماء، ووجدناها ملئت حفظةً وحرساً شديداً ــ أي: قويّاً في أمر المحافظة والمراقبة والمدافعة ــ وشهباً.

قوله تعالى: «وَ انَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ».

هذا من كلام الجنّ أيضاً. ومعناه: إنّه كان من عادتنا المستمرّة أن نقعد من السّماء مقاعد لاستراق السمع.

قوله تعالى: «فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً(٩)»؛ أي: يرصد به.

في نورالثقلين ٤٣٦/٥: في كتاب الاحتجاج للطبرسيّ حديث طويل عن أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ يذكر فيه مناقب الرسول ـ صلّى الله عليه وآله. وفيه:

«ولقد رأيت الملائكة ليلة ولد تصعد وتنزل، وتسبّح وتقدّس، وتضطرب النجوم وتتساقط علامةً لميلاده.

ولقدهمّ إبليس بالظعن في السّماء لما رأى من الأعاجيب في تلك اللّيلة. وكان له مقعد في السماء الثالثة، والشياطين يسترقون السّمع. فلّما رأوا العجائب، أرادوا أن يسترقوا السمع؛ فإذاهم قد حجبوا عن السّموات كلّها، ورموا بالشهب، جلالةً لنبوّة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله.»

وفيه أيضاً: وعن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في حديث طويل:

«وأمّا أخبار السماء؛ فإنّ الشّياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك، وهي لا تحجب ولا ترجم بالنجوم. وإنّما منعت من استراق السمع لئلاّيقع في الأرض سبب يشاكل الوحي من خبرالسماء.»

قوله تعالى: «وَانَّا لاَنَدْري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فيِ الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً(١٠)».

أي: إنّا بعد ما حجبنا عن أخبار السّماء، ومنعنا عن الصّعود إلى السّماء، لانعلم أشرّ أرادالله بمن في الارض، أم أراد بهم ربّهم رشداً؛ أي: صلاحاً

وهدايةً ونجاحاً.

في البرهان ٣٩٢/٤، عن علي بن إبراهيم مسنداً، عن الحسن بن زياد قال: سمعت أبا عبدالله -عليه السّلام- يقول في قوله: «انّا لاندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربّهم رشداً» فقال:

«لا! بل والله شرّ أريد بهم حين بايعوا معاويةِ وتركوا الحسن بن عليّ -عليه السّلام.»

يمكن أن يقال: إنّ المراد في هذا الحديث بيان لمصداق بارز من الّذين أراد بهم ربّهم شرّاً، جزاءاً على عصيانهم وكفرانهم.

قوله تعالى: «وَانَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِك كُنَّا طَرائقَ قِدَداً(١١)».

أي: إنّ بعضاً منّا -أي: طائفة الجنّ- صالحون، وبعضاً منّا غير صالحين. وتفسير «دون» بحسب الرتبة ضعيف.

قال في المفردات/٣١٣: جمع طريقة طرائق. قال: «كنّا طرائق قدداً» إشارة إلى اختلافهم في درجاتهم.

قال في مجمع البحرين ١٢٤/٣: قوله تعالى: «طرائق قدداً؛ أي: فرقاً مختلفة الأهواء.

أقول: الظّاهر أنّ ما ذكره المجمع أقرب إلى الصحّة.

قوله تعالى: «وانّا ظَنَنَّا أنْ لَنْ نُعْجِزَ الله في الأرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً(١٢)».

هذا قول من استمع الوحي وآمن برسول الله -صلّى الله عليه وآله. والآية بمعنى: انّا نعلم أن لايمكننا أن نفوت منه تعالى فيما يريد بنا أمراً في الأرض، ولانفوت منه تعالى هرباً من قدرته وملكه.

قوله تعالى: «وَانَّا لمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا به».

عطف على سابقته. ومعناه: إنّا لمّا سمعنا الهدى آمنّا به، والتزمنا بامتثال جميع ما أمرالله تعالى وفرضه حتّى الولاية لأوليائه -سبحانه. والتزمنا

أيضاً الاجتناب عن جميع ما حرّم الله تعالى ونهاه حتّى البراءة من أعدائه.

قوله تعالى: «فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ...».

تفريع ممّا تقدّم من الإيمان به تعالى على النحو الّذي قدّمناه.

قوله تعالى: «فَلاَ يَخافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً(١٣)»

قال في لسان العرب ٣٣٠/١: البخس: النقص... وقوله -عزّوجلّ-: «فلا يخاف بخساً»؛ أي: لاينقص من ثواب عمله.

أقول: فإنّه -سبحانه- وفيّ شكور لايضيع لديه أجرالمحسنين، ولا يضيّع إيمان المؤمنين.

قوله تعالى: «ولا رَهَقاً»؛ أي: لا يغشاه الذلّة والعذاب، ولا الخسارة والتبار.

قوله تعالى: «وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحرَّوْا رشَداً(١٤)».

أي: وإنّ بعضاً منّا المسلمون، وبعضاً منّا القاسطون. وامّا قوله تعالى «فمن أسلم...»؛ أي: فمن تصدّى وجهد في طلب الإيمان، وتحلّى بحلية الإيمان والإسلام، فأولئك الّذين جدّوا وسعوا في طلب الإيمان، وصاروا راشدين.

قال في مجمع البحرين ٩٨/١: قوله تعالى: «اولئك تحرّوا رشداً»؛ أي: طلبوا الحقّ. والتحرّي والتوخّي: القصد والاجتهاد في الطلب.

قوله تعالى: «وَأَمَّا القاسِطُون فكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥)».

أي: وأمّا الّذين عدلوا وتجاوزا عن الحقّ المبين، فكانوا — أي: صاروا — مستحقّين لعذاب الله ونقمته أن يلقوا في النار فيحرقون كما يحرق الحطب. كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً.

لايبعد أن يكون الحطب مرادفاً للوقود. قال تعالى:

«فاتّقوا النّار الّتي وقودها النّاس والحجارة». (البقرة/٢٤)

قوله تعالى: « وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» .

لمّا فرغ الله تعالى عن مكالمة الجنّ المتفرّعة من استماع الوحي، أراد تعالى أن يبيّن ما يترتّب على الاستقامة على الهدى. فقال: « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءاً غدقاً» . والآية الكريمة قضيّة حقيقيّة مفروضة الوجود لا تختصّ بقوم دون قوم. ولا وجه لاختلاف الأقوال الّتي ذكرها في المجمع ٣٧١/١٠.

والمراد من الطّريقة هو الدّين الذي ارتضاه لأنبيائه ورسله، من التوحيد إلى آخر أبواب الطاعة. أي: لو استقاموا على هذه الطريقة، لأسقيناهم ماءاً غدقاً.

قال في لسان العرب ٢٤/١٠: الغَدَق: المطر الكثير العامّ... والغدق أيضاً: الماء الكثير وإن لم يكن مطراً.

الظّاهر أنّ المراد بالمطر الكثير أو الماء الكثير، ما يوجب الثروة والسعة في المعاش الّذي يوجب الافتتان.

والأنسب بالمقام بالأوّليّة والأولويّة، أنّ المجازاة على الاستدامة والاستقامة على دين الحقّ، هو الثّواب المعنويّ ومزيد الهداية وإفاضة العلوم الحقّة والمعارف الالهيّة؛ نظيرة قوله تعالى:

«ويزيد الله الّذين اهتدوا هدًى والباقيات الصّالحات خير عند ربّك ثواباً وخير مردّاً ». (مريم/٧٦)

ويشهد على ذلك ما في نور الثقلين ٥/ ٤٣٩، عن بريد العجليّ، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- قال:

« معناه: لأفدناهم علماً كثيراً يتعلّمونه من الأئمّة.»

وفي البرهان ٣٩٢/٤، عن محمّدبن العبّاس مسنداً، روايتان نحوه.

وفي نور الثقلين ٥/ ٤٣٨، عن أصول الكافي: أحمدبن مهران، عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسنيّ، عن موسى بن محمّد، عن يونس بن يعقوب، عمّن ذكره، عن أبي جعفر -عليه السّلام- في قول الله: « وأن لو استقاموا على الطّريقة لأسقيناهم ماءاً غدقاً»:

يعني: لو استقاموا على ولاية أميرالمؤمنين عليّ والأوصياء من ولده ـ عليهم السّلام ـ وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيم، «لأسقيناهم ماءاً غدقاً». يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان. و«الطريقة» هي الإيمان بولاية عليّ والأوصياء ـ عليهم السلام.»

وفيه عن تفسير القمّي مسنداً عن الباقر ـ عليه السّلام ـ نحوه.

ولاينافي ما في هذه الروايات من المثوبات المعنويّة، تفسيرَ الغدق بالمطر الكثير والماء الكثير الموجب للافتتان.

ولا يبعد أن يقال: إنّ الاستقامة على الدين موجبة للخيرات الماديّة أيضاً. والشواهد على ذلك كثيرة في الآيات الكريمة؛ مثل قوله تعالى:

«فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً * يرسل السّماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين * ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارا». (نوح/ ١٠ ــ ١٣)

هذا إن كانت هذه الروايات مسوقةً لتفسير الآية. وأمّا إن قلنا إنّها من باب التأويل ومن المصاديق المعنوية، فعليه يستقيم ايضاً ويكفيك ارتباط قوله تعالى: «لنفتنهم» بقوله تعالى: «لأسقيناهم ماءاً غدقاً».

قوله تعالى: «لنفتنهم فيه». اللاّم بمنزلة التعليل لما ذكر الله تعالى من النعم المعنويّة والظّاهريّة في الآية الكريمة. فلا بدّ للمؤمن من القيام بوظائف النعمة وشكرها ووضع كلّ نعمة في محالّها، لئلاّ يصير نعم الله تعالى عليه وبالاً ونقمة.

قوله تعالى: «وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧)».

كلمة الإعراض تصريح بعدم الاعتناء بذكر الله والإدبار عنه؛ بخلاف ترك الذكر. فعليه تفيد الآية الكريمة أنّ الإعراض عن الذكر من المعاصي الّتي تستوجب عذاباً صعداً.

الظّاهر من لسان العرب ٤٣٧/٧، أنّ الصّعد مصدر بمعنى الفاعل. قال: الصعد: المشقّة. و«عذاب صَعَد» ــ بالتحريك ــ أي: شديد. وقوله تعالى: «نسلكه عذابا صعدا». معناه ــ والله أعلم ــ: عذاباً شاقّاً؛ أي: ذاصعد ومشقّة.

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: «وَانَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أحداً (١٨)».

اختلف المفسّرون في تفسير الآية ــ كما في تفسير الرازي ٣٠/ ١٦٢-١٦٣ ــ على أقوال:

الأوّل: انّ المراد من المساجد هي المساجد الموضوعة لعبادة الله ـ سبحانه. وقد نهى الله ـ سبحانه ـ أن يعبد فيها غيره.

الثاني: الأرض كلّها مسجد؛ لقوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ: «جعلت لي الأرض مسجداً».

الثالث: انّها المسجد الحرام. فإنّه قبلة المساجد.

الرابع: إنّ المراد السّجود. فإنّ المساجد جمع مسجد وهو مصدر، فيكون المساجد كلّها لله.

والخامس: انّ المراد الأعضاء السّبعة الّتي يسجد بها.

ولايخفى أنّ الأقوال ماعدا الأوّل والأخير بعيدة عن حريم الآية وأجنبيّة عن سياقها؛ ولاينبغي الخوض فيها و التعرّض لها.

وأمّا القول الأوّل؛ فمآله بملاحظة التفريع في قوله: «فلا تدعوا...» هو النهي عن عبادة غيرالله والشرك به في المساجد خاصّةً. فلا يصلح هذا التفريع إلاّ بتقدير الظّرف. أي: «لا تدعوا مع الله أحداً فيها». والأصل عدم التقدير؛ لا سيّما مع عدم ملاءمته لظاهر الآية.

وأمّا القول الأخير؛ فرجعه النّهي عن عبادة غيرالله والشرك به تعالى مطلقاً؛ متفرّعاً من أنّ الأعضاء السبعةلله خاصّةً، فلا يجوز التصرّف فيه بالعبادة في غير ما قرّر له؛ بناءاً على أنّ المساجد جمع مسجَد ـ بالفتح لا بالكسر ـ كما هو معنى القول الأوّل. وفي القاموس ١/ ٣٠٠: مسجد ـ كمسكن ـ: الجبهة والآراب السبعة. ج: مساجد. والظّاهر أنّ المساجد ليست هي المساجد المتّخذة للصّلاة فيها؛ بقرينة قوله تعالى: «فلا تدعوا مع الله أحداً». بل المراد من المساجد، الأعضاء السبعة الّتي يسجد بها بوضعها على الأرض.

أقول: إطلاق المساجد على الأعضاء السّبعة إطلاق شائع. في الوسائل ٢/ ٧٤٧، قال الراوي:

سألت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ عن الحنوط للميّت.

فقال: اجعله في مساجده

ونحوه في غيره من الروايات.

فأجود الأقوال هو القول الأخير. فإنّ فيه النّهي عن الشرك على إطلاقه من حيث كونه في المسجد. وفيه أيضاً عدم الاحتياج إلى تقدير كلمة «فيها». وفيه استقامة التفريع المذكور في قوله تعالى: «فلا تدعوا...» مع صدر الآية وكمال ملاءمته به.

وفي الكافي ۳/ ۳۱۲ بسند حسن، عن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في حديث طويل، وفيه:

وسجد [أي أبو عبدالله] على ثمانية: أعظم الكفّين، والرّكبتين، وأنامل إبهامي الرجلين، والجبهة، والأنف.

وقال: سبعة منها فرض يسجد عليها. وهي الّتي ذكرها الله تعالى في كتابه فقال: « وانّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً» وهي: الجبهة، والكفّان، والرّكبتان، والإبهامان. ووضع الأنف على الأرض سنّة.

في نور الثقلين ٥/ ٤٣٩ ، عن العيّاشيّ، عن أبي جعفر أنّه سأله المعتصم عن السارق من أيّ موضع يجب أن يقطع. فقال: « إنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكفّ.» فقال: وما الحجّة في ذلك ؟ قال:

قول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ: السجود على سبعة أجزاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين. فإذا قطعت عن الكرسوع[1] أوالمرفق، لم يدع له يد يسجد عليها. وقال الله: « إنّ المساجد لله » يعني به هذه الأعضاء السّبعة الّتي يسجد عليها « فلا تدعوا مع الله أحداً» . وما كان لله فلا يقطع.

أقول: لا يخفى ما في الحديث من التصريح بالمقصود. وقد صرّح ـ عليه السّلام ـ أنّ قوله تعالى: « السّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما» (المائدة/۳۸) لايمكن الأخذ بإطلاق اليد فيها؛ فإنّها مخصّصة بهذه الآية. فيكون المراد من اليد ما سوى الكفّ وخارجاً عنه. وهي الأصابع من أصولها.

قوله تعالى: « لله »؛ أي بالاستحقاق والاختصاص. ومنشأ هذا الاستحقاق والاختصاص أنّه ـ سبحانه ـ يملك ملكاً ذاتيّاً حقيقيّاً بجميع ماسواه؛ فلا يجوز لأحد التصرّف في ملكه، إلّا بعد الإذن والتشريع منه

۱ــ الكرسوع ــ كعصفور ــ: طرف الزند الّذي يلي الخنصر الناتئ عند الرسغ. (القاموس المحيط ۷۸/۳)

تعالىٰ. وأمّا المساجد السّبعة؛ فلها شأن بخصوصها. فانّه قد سبق الحكم من الله -سبحانه- بعدم جواز السّجود لغيرالله تعالى واختصاص هذا التكريم والتشريف لله تعالى فقط. فلا يمكن ورود حكم آخر لهذا المورد منافياً ومبايناً للتشريع الخاصّ السّابق.

فتحصّل من هذا البيان، أنّ هذا الاختصاص والاستحقاق غير الاختصاص التكوينيّ والمالكيّة الحقيقيّة إيجاداً أوإبقاءاً. وإنّما هذا حقّ واقعيّ استخلصه تعالى لنفسه وارتضاه لذاته ــ جلّ مجده وثناؤه.

وأمّا السّجود لآدم؛ فليست سجدة عبادة له من دون الله أو مع الله. قال عليّ أميرالمؤمنين -عليه السّلام- في خطبة رواها العلامة المسعوديّ في مبتدأ كتابه مروج الذهب ١/٤٣ :

« ... فلمّا خلق الله آدم، أبان فضله للملائكة، وأراهم ما خصّه به من سابق العلم، من حيث عرّفه عند استنبائه إيّاه أسماء الأشياء. فجعل الله آدم محراباً وكعبةً وباباً وقبلةً أسجد إليها الأبرار والروحانيّين الأنوار....»

وليست سجدة يعقوب وبنيه سجدةً ليوسف؛ بل سجدوا لله، شكراً لما جمع الله شملهم وقرّ عينهم بيوسف وبعزّة المُلك .

في تفسير العيّاشي ١٩٧/٢: عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- في قول الله : « رفع أبويه على العرش» قال: العرش السرير. وفي قوله: « وخرّوا له سجّداً» [يوسف/ ١٠٠] قال: كان سجودهم ذلك عبادةً لله. وورد في معناها أيضاً روايات اخرى وفي بعضها: كان سجودهم شكراً لله. وفي بعضها الآخر: طاعةً لله.

قوله تعالى : « وَانَّهُ لَمّـا قام عَبْدُالله يَـدْعُوه كادُوا يكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩) » .

« وانّه» عطف على سابقتها. « وانّه لمّا قام عبدالله » ؛ أي: الداعي ــ يعني رسول الله صلّى الله عليه وآله ــ يدعوهم إلى الإيمان بالله وولايته وولاية أوليائه، قاموا ــ يعني أهل دعوته قريش ــ يتعاونون على مخالفته لبداً؛ أي: مجتمعةً.

وفي نورالثقلين ٥/ ٤٤٠، عن تفسير عليّ بن إبراهيم: حدّثني أبي، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا ـ عليه السّلام ـ قال:

«وانّه لمّا قام عبد الله يدعوه» يعني محمّداً يدعوهم إلى ولاية عليّ «كادوا» قريش «يكونون عليه لبدًا» يتعاونون عليه.

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحداً (٢٠)».

أمر الله ـ سبحانه ـ رسوله وصفيّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ أن يقول: «قل...». والظّاهر أنّ موقع هذه الآية الكريمة بعد مجادلات جرت بينه ـ صلّى الله عليه وآله ـ وبين أعدائه المانعين عن دعوته الحقّه.

قوله تعالى: «قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (٢١)».

هذه الآية الكريمة جواب عمّا يتوقّعون منه ـ صلّى الله عليه وآله ـ أن ينصرف ويترك بعض ما يدعوهم إليه. فأمر الله ـ سبحانه ـ أن يقول: «قل لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً» بل إنّما أنا عبد مأمور.

قوله تعالى: «قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢)».

هذه الآية الكريمة تتميم للجواب السّابق. أي: قل: إنّي لن يجيرني من الله أحد إذا خالفت أمره ـ سبحانه ـ في دعوة الناس إلى الله. ولن أجد من دون الله ملتحداً؛ أي: ملجأ ينجيني من الله تعالى.

قال في المفردات/٤٦٨: والتحد إلى كذا: مال إليه. قال تعالى: «ولن تجد من دونه ملتحداً»؛ أي: التجاءاً أو موضع التجاء.

قوله تعالى: «إلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللّهِ وَرِسَالاَتِهِ».

يمكن أن يقال: إنّها توضيح لقوله: «ملتحداً». أي: لا أجد ملتحداً غير بلاغي من الله ورسالاته.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣)».

تهديد من الله ـ سبحانه ـ لأعدائه وأعداء رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ

المنحرفين عن دعوته.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً(٢٤)».

الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها من التهديد بالخلود في النّار. أي: حتى إذا رأوا ما يوعدون؛ إمّا العذاب وإمّا السّاعة، فسيعلمون عند ذلك من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً.

قوله تعالى: «قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيَ أَمَداً(٢٥)».

الظّاهر أنّ قوله تعالى: «ما توعدون»؛ أي: خلود النار وقيام الساعة. ولعلّه يشمل الرجعة أيضاً.

قال في المفردات/ ٢٠: الأمد: مدة لها حدّ مجهول، إذا أُطلق.

قوله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً(٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ».

بيان: قد مجّد تعالى نفسه في هذه الآية وغيرها من الآيات الكثيرة بأنّه عالم الغيب متفرّد بذلك. قال تعالى:

«وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلاّ هو». (الأنعام/٥٩)

«قل لايعلم من في السّموات والأرض الغيب إلاّ الله». (النمل/٦٥)

«يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولايحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء». (البقرة/٢٥٥)

هذه وغيرها من الآيات الكثيرة في هذا الباب تدلّ على أنّه لايعلم الغيب إلاّ الله تعالى ثمّ استثنى تعالى من هذا النفي الصّريح بقوله: «إلاّ من ارتضى من رسول». ونظيرة الآية قوله تعالى:

«وما كان ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء» (آل عمران / ١٧٩)

أي: ولكنّ الله يجتبي ويصطفي لتعليم الغيب من رسله من يشاء.

قوله تعالى: «فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ».

قد اختلف الأقوال والوجوه في هذه الآية.

أقول: لا يخفى أن ما حمّله الله تعالى من العلم بالغيوب لرسوله، علمٌ صريح وعيان حقيقيّ بجميع ما علّمه تعالى رسوله. فعليه يكون المراد من قوله تعالى: «يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً» أنّه محفوظ ومصون من جميع جوانبه وأبعاد وجوده الشريف بحفظة كرام من الملائكة، أو بعناية وعصمة وصيانة من ربّه تعالى. فهذه العناية والصّيانة لأجل عدم تخلّل مانع من تبليغ الرسالة. والله يتمّ إحسانه على رسوله ويحفظه ويؤيّده ويعصمه بعنايته البالغة، ليعلم تعالى أنّ الرسل جميعاً قد أبلغوا رسالات ربّهم.

قوله تعالى: «وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِم وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨)».

يمكن أن يقال: حيث إنّ الله ـ سبحانه ـ مالك بالحقيقة وبالذات لما ملّكهم من العلم، والأنبياء يملكون هذا العلم بتمليكه تعالى في طوله؛ فهو ـ سبحانه ـ محيط ومالك لما ملّكهم، وما لديهم من العلم غير منعزل عنه تعالى. «وأحصى كلّ شيء عدداً»؛ أي: غير ما علّمه الأنبياء.

وحيث إنّ دعوة الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ وبلاغه، لابدّ أن تجري إلى آخر الدهر، فلايتمّ دعوته إلاّ بدعوة أوصيائه الصدّيقين. فلا محالة يملكون هذا العلم وهذا التبليغ بتمليكه تعالى عنه ـ صلّى الله عليه وآله.

في نور الثقلين ٥/٤٤٤، عن الخرائج والجرائح: روى محمّد بن الفضل الهاشميّ عن الرضا ـ عليه السّلام ـ نظر إلى ابن هذاب فقال: إن أنا أخبرتك أنّك ستبتلى في هذه الأيّام بدم ذي رحم لك لكنت مصدّقاً لي؟ قال: لا! فإنّ الغيب لايعلمه إلاّ الله تعالى. قال ـ عليه السّلام ـ:

«أو ليس أنّه يقول: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول»؟! فرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ عند الله مرتضى. ونحن ورثة ذلك الرّسول الّذي أطلعه الله على مايشاء من غيبه، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.»

وفيه/ ٤٤٢، عن علّي بن إبراهيم، عن الصّالح بن السنديّ، عن جعفر بن بشير، عن ضريس قال: سمعت أبا جعفر ـ عليه السّلام ـ يقول:

«إنّ لله ـ عزّ و جلّ ـ علمين: علم مبذول، وعلم مكفوف. فأمّا المبذول؛ فإنّه ليس من شيء تعلمه الملائكة والرسل، إلّا نحن نعلمه...»

وفيه أيضاً، عن أبي عليّ الأشعريّ مسنداً، عن أبي بصير، عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال:

«إنّ لله عزّ وجلّ علمين: علم لايعلمه إلاّ هو؛ وعلم علّمه ملائكته ورسله ـ عليهم السّلام. فما علّمه ملائكته ورسله، فنحن نعلمه.»

وفيه/ ٤٤١: في أصول الكافي مسنداً، عن سدير الصيرفي قال: سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر ـ عليه السّلام ـ عن قوله ـ جلّ ذكره ـ: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً» فقال أبوجعفر ـ عليه السّلام ـ:

«إلّا من ارتضى من رسول». وكان ـ والله ـ محمّد ممّن ارتضاه.
وأمّا قوله: «عالم الغيب»؛ فإنّ الله ـ عزّوجلّ ـ عالم بما غاب عن خلقه فيما يقدّر من شيء ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه، وقبل أن يقضيه إلى الملائكة. فذلك ــ يا حمران! ــ علم موقوف عنده، إليه فيه المشيّة. فيقضيه إذا أراد، ويبدوله فلا يمضيه.
فأمّا العلم الّذي يقدّره الله ـ عزّ وجلّ ـ ويقضيه ويمضيه، فهو العلم الّذي انتهى إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ثمّ إلينا.

٧٣. سورة المزّمّل

في رواية عن ابن‌عبّاس أنّها مكّيّة، وهي السورة الثالثة من القرآن. (انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل (١)».

قال في زبدة البيان/٩٤: أصل المزّمّل: المتزمّل؛ مِن تزمّل. أُدغم التاء في الزاء، لقرب المخرج؛ كما هو المشهور.

أقول: زمّل؛ أي: لفّ. والمتزمّل: المتلفّف. واللّفُّ. أعمّ من التلفّف. فإنّ التلفف صادق عند مالفّ الإنسان نفسه بثوبه وشِبهه، واللّفّ صادق عند مالفّ الإنسان نفسه، أولفَّهُ غيره بالثّوب ونحوه.

والمراد من المزّمّل هو رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يتزمّل بثيابه حين

المنام؛ كماقيل. (تفسير الرازي ٣٠/ ١٧١)

أقول: لادلالة ولاظهور في الآية الكريمة على ذلك ؛ بل هي مطلقة شاملةٌ بالتفافه بثياب نومه والتفافه بثياب شخصه وكسائه. ولايبعد أنّ ذلك كان لأجل تكرّر الاحتياج المتعارف إلى الاشتمال بكسائه والالتفاف بثيابه وغيره أيضاً حتّى صار ذلك بمنزلة التسمية به. ويؤيّد ذلك ما في البرهان ٢٨/٣ في تفسير قوله تعالى: «طٰهٰ ۞ ما أنزلْنا عَلَيك ...» (طه / ١ و٢) عن سعدبن عبدالله مسنداً، عن الكلبي، عن أبي عبدالله ـ صلوات الله عليه ـ قال: يا كلبي، كم لمحمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ من اسم في القرآن؟ قلت: اسمان أو ثلاثة. فقال:

> يا كلبي، له عشرة أسماء: «وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل» [آل عمران/ ١٤٤]. وقوله: «ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد» [الصف/ ٦] ... «يا أيّها المدّثّر» و«يا أيّها المزّمّل» ...

وذكر الزّمخشريّ في توجيه مخاطبته تعالى رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بقوله ـ سبحانه ـ: «يا أيّها المزّمّل» وجوهاً ثلاثة؛ أحدها:

قال في الكشّاف ١٧٤/٤: وكان رسول الله (ص) نائماً بالليل متزمّلاً في قطيفةٍ فنبّه ونودي بمايهجن إليه الحالة الّتي كان عليها من التزمّل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النّوم، كما يفعل مَن لايهمّه أمر ولايعنيه شأن ــ إلى أن قال: ــ فذمّه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس. وأمر بأن يختار على الهجود التهجّد، وعلى التزمّل التشمّر والتخفّف للعبادة والمجاهدة في الله. لاجرم أنّ رسول الله (ص) قد تَشَمّر لذلك مع أصحابه حقّ التشمّر؛ وأقبلوا إلى إحياء لياليهم، ورفضوا لَهُ الرّقاد والدّعة، وتجاهدوا فيه، حتّى انتفخت اقدامهم واصفرّت ألوانهم.

أقول: قد أساء الزّمخشريّ الأدب لساحة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ونسب إليه ما لايليق بشأنه العظيم؛ من البطالة والإهمال في وظيفته، حتّى استوجب بذلك الذمّ والتوبيخ من الله ـ سبحانه! وقد ذكرنا في صدرالبيان أنّه لا دلالة ولا إشارة في الآية الكريمة على شيء من ذلك ؛ بل هي

خطابٌ مقارن ومصادف لحال التفافه -صلّى الله عليه وآله- بثيابه أو كسائه على حسب الاحتياج المتعارف إلى الالتفاف والاشتمال. ولا دلالة في الآية على أنّ الخطاب إليه في حال كونه نائماً.

وأعجب من ذلك، القصّة الخرافيّة أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- وأصحابه حدّوا واجتهدوا في القيام، حتّى انتفخت أقدامهم واصفرّت ألوانهم؛ مع أنّه لا شاهد على ذلك من ناحية الآية الكريمة. فإنّ رسول الله وأصحابه كانت لهم مشاغل كثيرة وحوائج مهمّة خطيرة؛ فإنّهم كانوا رهبان اللّيل وأُسود النّهار.

وثانيها؛ قال في الكشّاف: وقيل: كان متزمّلاً في مرط لعائشة يصلّي. فهو على هذا ليس بتهجين؛ بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله الّتي كان عليها، وأُمر أن يدوم على ذلك ويواظب عليه. وعن عائشة (رض) أنّها سئلت: ما كان تزميله؟ قالت: كان مرطاً طوله أربع عشرة ذراعاً؛ نصفه علَيَّ وأنا نائمة، ونصفه عليه وهو يصلّي.

أقول: السّورة مكيّة. وهي نزلت على رسول الله -صلّى الله عليه وآله- ولمّا يتزوّج بعائشة وإنّما تزوّج بها بعد وفاة خديجة -رضي الله عنها.

قال المسعوديّ في كتابه مروج الذهب، ٢/٢٨٣: وتزوّج بعائشة (رض) قبل **الهجرة** بسنتين. وقيل: تزوّجها بعد وفاة خديجة. ودخل بها بعد **الهجرة** بسبعة أشهر وتسعة أيّام.

وفي البحار ١٩/١٢٩ قال: قال في المنتقى، في حوادث السّنة الأولى من الهجرة — إلى أن قال: — وفي هذه السّنة بنى رسول الله -صلّى الله عليه وآله- بعائشة في شوّال بعد الهجرة بسبعة أشهر. وقيل: في السنة الثانية. والأوّل أصحّ. وكان زوّجها قبل الهجرة بثلاث سنين.

وفيه ٢٢/٢٣٥: قال ابن أبي الحديد: تزوّجها رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- قبل الهجرة بسنتين، بعد وفاة خديجة -رضي الله عنها- وهي بنت سبع سنين. وبنى عليها بالمدينة، وهي بنت تسع سنين وعشرة أشهر. وكانت قبله تذكر لجبير بن مطعم. وكان نكاحه إيّاها في شوّال وبناؤه عليها في

شوّال.

أقول: وعلى ذلك شواهد كثيرة. وفيما ذكرناه كفاية للباحث الخبير.

وثالثها؛ قال في الكشّاف: قيل: دخل على خديجة، وقدجئث فرقاً أوّل ما أتاهُ جبرئيل وبوادره ترعد؛ فقال: زمّلوني! زمّلوني! وحسب أنّه عرض له. فبينا هوعلى ذلك ، إذ ناداه جبرئيل: «يا أيّها المزّمّل».

أقول: هذا القول رديّ باطل. والقائل لابدّ أن يلتزم بإبطال الحجّة بين الله ـسبحانه ـ وبين أنبيائه ورسله؛ إذ لادليل عنده على أنّه نبيّ أو رسول؛ وكذلك ليلتزم بإبطال الحجّة بين الرّسول وأهل دعوته. إذ لادليل عنده على رسالته، حتّى يعتمد عليه أهل دعوته. فلايجوز له ادّعاء النبوّة والبلاغ والتعليم.

والحقّ المبين فى هذا الباب، حسب الكتاب والسّنن الكثيرة عن أئمّة أهل البيت الطّاهرين، أنّه ما اتّخذالله أحداً نبيّاً أو رسولاً، إلّا يؤيّده بروح القدس، مقارناً بالرساله والنبوّة؛ ولعلّه متقدّماً أيضاً. والمراد بروح القدس هو العلم الصّريح والعيان المصون والمعصوم عن الخطأ والنسيان والسّهو واللّهو. فبهذا العلم يعرف ملك الوحي بالحقيقة. وبه يعرف ما يأخذه عن الملك وعن الله ـ سبحانه ـ وبه يحفظ النّبوّة والرّسالة، ويتحمّلها. وبه يبلّغها ويعلّمها.

في البحار ٢٥/٥٨ ، عن البصائر، مسنداً عن المفضل، عن أبي عبدالله ـ صلوات الله عليه ـ:

«... وروح القدس، وبه حمل النّبوّة... وروح القدس لاينام، ولايغفل، ولايلهو، ولا يسهو...».

بيان: قول الزمخشريّ: «جئث» ؛ أي: فزع. وقوله: «بوادره» ؛ أي: بين عنق الإنسان ومنكبه.

قوله تعالى: «قُمِ اللَّيْلَ إلّا قَليلاً (٢) نِصفَهُ أوِ انْقُصْ مِنْهُ قَليلاً (٣) أوْزِدْ عَلَيْه».

بيان: قد تقرّر في محلّه أنّ الخطابات الواردة في القرآن الكريمة عامّةٌ تفيد مفاد القضيّة الحقيقيّة، وإن كان المخاطب هو شخص الرّسول ـ صلّى الله عليه

وآله؛ كما في قوله تعالى:

«أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق اللّيل وقرآن الفجر». (الإسراء / ٧٨)

وسواء كان في الواجبات، أو المحرّمات العقليّة الإرشاديّة، أو في الأحكام التعبّديّة؛ كما في قوله تعالى:

«لئن أشركت ليحبطنّ عملك». (الزمر / ٦٥)

أي: يجب الصّلاة عند دلوك الشّمس على كلّ من كان واجداً لشرائط التكليف. ويحبط عمل كلّ من أشرك بالله. إلّا أن يقوم دليلٌ قاطع على اختصاص الخطاب به ـ صلّى الله عليه وآله ـ كما في قوله تعالى:

«فتهجّد به نافلةً لك». (الإسراء / ٧٩)

فعلى هذا يكون المراد في قوله تعالى: «قُم الليل...»، هو إنشاء الحكم وتشريعه عليه ـ صلّى الله عليه وآله ـ وعلى المؤمنين أيضاً. ثمّ على فرض أنّ الآية الكريمة في مقام تشريع الحكم وإنشائه على المكلّفين، لاظهور ولا دلالة فيها أزيد على استحباب قيام اللّيل بالتخيير بين القليل و بين الأقلّ من القليل و بين الأزيد منه. وفيها إشارة إلى أنّ الأمر بقيام اللّيل أمر موسّعٌ من أصله، لأنّ استحباب قيام اللّيل مستفاد من أدلّةٍ أخرى مقيّدة لإطلاق الوجوب المستفاد من قوله تعالى: «قم الليل».

وقوله تعالى: «إلّا قليلاً» استثناء من «اللّيل». وقوله: «نصفه» بدلٌ من «قليلاً». والضّمير في قوله تعالى: «منه» و«عليه» يرجع إلى النصف. أي: انقص من القليل قليلاً، أو زد على القليل.

وهناك أقوال كثيرة غير خالية من التكلّف. والأظهر في تفسير الآية الكريمة ماذكرناه. ويأتي مزيد توضيح لذلك في قوله تعالى: «إنّ ربكَ يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليّل». (المزّمل / ٢٠)

قوله تعالى: «وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرتيلاً (٤)».

قال في القاموس ٣/ ٣٨١: الرَّتَل ـ محرّكةً ـ حُسن تناسق الشيء... رتّل الكلام ترتيلاً: أحسن تأليفه. وترتّل فيه: ترسّل.

في نورالثقلين ٥/٤٤٦، عن الكافي مسنداً، عن أبي عبدالله ـ صلوات الله عليه ـ في قوله تعالى: «ورتّل القرآن ترتيلاً»: قال: قال أميرالمؤمنين ـ عليه السلام ـ:

«بيّنه بياناً. ولاتهذّه هذّالشِعْر. ولاتنثره نثر الرّمل. ولكن أفزعوا قلوبكم القاسية. ولا يكن همّ أحدكم آخر السّورة.»

وفيه أيضاً مسنداً، عن عليّ بن أبي حمزة قال: قال أبوعبدالله ـ عليه السّلام ـ:

«إنّ القرآن لايقرأ هَذرمة؛ ولكن يُرتّل ترتيلاً. فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنّة فقف عندها؛ واسأل الله ـ عزّوجلّ ـ الجنّة. وإذا مررت بآية فيها ذكرُ النّار، فقف عندها؛ وتعوّذ بالله من النّار.»

قوله تعالىٰ: «إنّا سَنُلْقي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقيلاً(٥)».

قال في القاموس ٣/٣٤٢: «والثَقَل ـ محرّكة ـ: متاع المسافر وحَشَمه، وكلّ شيء نفيس. ومنه الحديث: إنيّ تارك فيكم الثّقلين؛ كتاب الله، وعترتي.»

أقول: الأشبه بالمقام أنّ المراد بالقول الثقيل هو القرآن المبين. فإنّ له عندالله ـ سبحانه ـ وعندالراسخين في العلم وزناً لايساويه شيء، وموضعاً لايُدانيه أمر. وقد قال ـ صلّى الله عليه وآله ـ:

«إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم. بهما لن تضلّوا أبداً حتّى يردا عليّ الحوض.» (البحار ٢٣/١٠٦-١١٨)

فالقرآن الكريم أكبر الثّقلين وأعظم الخليفتين. فبناءً على أنّ السّورة المباركة نزلت في أوائل الرّسالة والنبوّة، تكون الآية الكريمة أجلّ بشارة بأشرف كرامة يكرم تعالى بها حبيبه وصفيّه ـ صلّى الله عليه وآله.

وذكر المفسّرون في المقام أقوالاً. من أرادها، فليراجعها.

وذكر بعضهم في تسمية القرآن الكريم بالقول وجوهاً استحسانيّةً لا دليل في استناد هذه التسمية إليها. فالمتّبع في هذا الباب، هو الأخذ بالمعنى

اللّغويّ وتفسير الآية على طبقه.

وذكر بعضهم أنّ قوله تعالىٰ: «إنّا سُنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً» في مرحلة التعليل لقوله تعالىٰ: «قم اللّيل». أي: إنّ الأمر بقيام اللّيل وتشريعه على رسول الله -صلّى الله عليه وآله- لأجل إعداده واستعداده لتلقّي القرآن وحمله. (تفسير الرازي ١٧٤/٣٠)

أقول: يرد عليه أنّه لادليل على ذلك من ظاهر الآية. هذا أوّلاً.

وثانياً: قد ذكرنا في تفسير المقام أنّ الأمر بقيام اللّيل في الآية الكريمة عامّ يشمل رسول الله -صلّى الله عليه وآله- وغيره من المسلمين أيضاً.

وثالثاً: انّه قد نزلت آيات من القرآن قبل نزول هذه الآية. ولايمكن الالتزام بأنّه -صلّى الله عليه وآله- قد كان مستعدّاً لتلقّي القرآن بعضه، ولم يكن مستعدّاً بما بقي منه إلّا بمعونة قيام اللّيل.

فتحصّل في المقام أنّ الأمر بقيام اللّيل في الآية ليس إلّا كغيره من الأوامر الدالّة على الترغيب والتشويق بقيام اللّيل بالنسبة إليه -صلّى الله عليه وآله- وإلى غيره من المسلمين.

قوله تعالى: «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وطأً وَأَقْوَمُ قيلاً (٦)».

أقول: الظّاهر: أنّ النّاشئة في اللّيل. كما في قوله تعالى:

«بل مكر اللّيل والنّهار». (سبأ / ٣٢)

والناشئة مأخوذة من نشأ بمعنى: حدث. «وناشئة اللّيل» أي: الحادثة في الليل وقد كانت مسبوقةً بعدمها وليست أمراً مستمرّاً في اللّيل، بل أمر حادث جديد في اللّيل.

قال في القاموس ٣٠/١: «ناشئة... أو أوّل النهار واللّيل. أو أوّل ساعات اللّيل، أو كلّ ساعة قامها قائم باللّيل. أو القومة بعد النومة.»

أقول: ما ذكره القاموس بيان لمصاديق المعنى اللّغوي. والمتناسب بالمقام هوالمعنى الأخير؛ أي: القومة بعد النومة. والمعنى بحسب الظّاهر: إنّ العبادة الحادثة في جوف اللّيل عند ما هدأت الأصوات، ونامت العيون، وتفرّغت القلوب، وأخذ البدن من نوم اللّيل جماماً وقوّةً ونشاطاً ورغبةً، كانت القلوب فيها

أشدّ موافقةً وأتمّ مواطئةً مع اللّسان. وحيث إنّ القلوب الخاشعة الخاضعة حاكمة على الألسنة، تكون الناشئة أقوم وأصوب وأصدق مقالاً أيضاً.

في نور الثقلين ٥/ ٤٤٨، عن التّهذيب مسندا، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- في قول الله -عزّ وجلّ-: «إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً» قال:

«يعني بقوله: «أقوم قيلاً» قيام الرجل عن فراشه، يريد به الله -عزّ وجلّ- ولا يريد به غيره.»

أقول: الظّاهر أنّ الآية في مقام الحثّ والترّغيب على إتيان صلاة اللّيل، وعلى العبادة فيها؛ وفي مقام الأمر بالثبات للّذين يصلّونها. وفيها إشارة إلى أنّ ناشئة اللّيل، لكونها مستورةً في ظلمة اللّيل، أبعد عن الرّياء وأقرب للاخلاص؛ خاصّةً بقرينة قوله -عليه السّلام-: قيام الرجل عن فراشه...

قوله تعالى: «إنّ لَكَ في النّهار سَبْحاً طويلاً (٧)».

قيل: إنّ السّبح بمعنى الفراغ. قال في القاموس ١/٢٢٦: السبح: الفراغ، والتصرّف في المعاش، والحفر في الأرض، والنوم، والسّكون، والتقلّب والانتشار في الأرض.

أقول: ويمكن تأييد ذلك بما رواه في نورالثقلين ٥/ ٤٤٩، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر -عليه السّلام- في قوله تعالى: «إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً» يقول: «فراغاً طويلاً لنومك وحاجتك.»

ويمكن أن يقال: إنّ الآية الكريمة مسوقة في مقام التشكّر والتقدير عمّا كان يفعله رسول الله -صلّى الله عليه وآله- من التسبيح والتقديس، وأنّه كان من المسبّحين لله -سبحانه- في طيّ نهاره.

وعليه يكون في الآية حثٌّ وترغيبٌ إيّاه -صلّى الله عليه وآله- على إدامة ما كان مداوماً عليه من التسبيح لله -سبحانه. وكذلك تذكرة وإرشاد لأولي الألباب والأبصار أن يستنّوا بسنّته الكريمة الفاضلة في تسبيح الله -سبحانه- في أثناء نهارهم.

قوله تعالى : « وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ».

تنقيح البحث يقع في ضمن مسائل:

الأولى : إنّه قد أمرالله -سبحانه- رسوله وصفيّه بذكراسمه الكريم. وواضح أنّ ذكر اسمه تعالى من الأمور الحسنة الضّروريّة، ومن العبادات الذاتيّة الّتي لايحتاج التعبّد فيها إلى أمر مولوّي شرعيّ؛ وإنّما يحتاج إلى قصد الإخلاص في إتيانها.

الثانية : إنّ الأوامر الإرشاديّة لا إطلاق فيها ولا تقييد، وإنّما تدور مدار الأمر المرشد إليه بحسب درك العقل سعةً وضيقاً؛ سواء كان من حيث الموضوع والمكلّف، أو من حيث المتعلّق. فالموضوع هو الإنسان الواجد لشرائط التّكليف. فلا فرق في حسن الذّكر بالنسبة إلى قوم دون آخرين، ولا إلى شخص دون غيره. والمتّعلق هو ذكر اسم الرّب بأيّ نوع من أنواع الذكّر؛ سواء كان ذكراً قلبيّاً أو لسانيّاً أو كلاهما معاً وجهراً وإخفاتاً ويشمل أيضاً ذكر واحد من أسمائه تعالى أو جميعها أو ماشاء وأراد منها. وكذلك لافرق بين اسم دون غيره من الأسماء؛ سواء كانت حاكيةً عن ذاته أو صفاته أو أفعاله الحكيمة. فعليه يكون ذكر اسم الربّ عبارةً عن تحميده وتعظيمه وتكبيره وتهليله وتنزيهه على الإطلاق أو في صلاة ودعاء وقراءة قرآن وغيرها.

الثالثة: إنّ الذكر قد يكون منبعثاً وناشئاً من القلب وفي القلب؛ كما في قوله تعالى: « واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول» (الأعراف /٢٠٥) ويجري إلى اللّسان أحياناً. وقد يكون باللّسان أيضاً، ويصل إلى القلب أحياناً، إذا كان مستغرقاً فيه ومشتغلاً به. وقد يكون باللّسان فقط، ولايصل إلى القلب.

فقوله تعالى: « واذكر اسم ربّك » تذكرة وإرشاد إلى كلّ من عقل وأدرك هذا الحكم؛ من غير فرق بين نبيّ أو رسول أو صدّيق أو مؤمن عارف أو عاميّ جاهل. غاية الأمر أنّ ذكر اسمه تعالى على هذا الوصف الوسيع، إنّما يتمكّن منه الصدّيقون وأعاظم الموحّدين ممّن يحصي أسماءه تعالى، ويعرف مفادها من شؤون ذاته وصفات، وأفعاله، ومن دونهم على قدر معارفهم

وكمالاتهم بالنّسبة إليه ـ سبحانه ـ من حيث ذاته وصفاته وأفعاله.

وأنت بعد الإحاطة بما ذكرنا، تعرف ضعف الأقوال المذكوره في المقام:

أحدها: قال الزمخشريّ في الكشّاف ١٧٦/٤، في قوله تعالى: «واذكر اسم ربّك»: دُم على ذكره في ليلك ونهارك واحرص عليه. وذكرالله يتناول كلّ ما كان من ذكر طيّب؛ تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك ممّا كان رسول الله (ص) يستغرق به ساعات ليله ونهاره.

ثانيها: ما ذكرهُ بعضهم أنّ قوله تعالىٰ: «واذكر اسم ربّك» الظّاهر أنّه يصف صلاة اللّيل. فهو كالعطف التّفسيريّ على قوله: «ورتّل القرآن ترتيلاً». وعلى هذا فالمراد بذكر اسم الرّب تعالىٰ الذّكر اللّفظيّ بمواطأة من القلب. وكذا المراد بالتبتّل، التبتّل مع اللّفظ.

ثالثها ورابعها وخامسها: ما قال في المجمع ٣٧٩/١٠: «واذكر اسم ربكّ» يعني أسماء الله تعالى الّتي تُعبد بالدعاء بها. وقيل: اقرأ «بسم الله الرّحمن الرّحيم» في ابتداء صلاتك، توصلك بركة قراءتها إلى ربّك وتَقْطعك من كلّ ما سواه. وقيل: واقصد بعملك وجه ربّك.

وجه الضّعف أنّ القول الخامس ليس من الذّكر في شيء.

وأمّا الأقوال الأربعة، فلما ذكرنا أنّ الأمر بذكر اسمه تعالى أمر إرشاديّ، وحُسن ذكر اسمه تعالى بجميع أنواعه من ضروريّات العقول من غير استثناء شيء منها، فلا سبيل لأن يقال: إنّ المراد في الآية هو الذّكر اللّفظيّ. وثانياً لو فرضنا أنّ الأمر بالذّكر مولوي، فلا يخفى أنّه على إطلاقه شامل لجميع أنواع الذّكر. فتخصيص الذكر المطلق ببعض الأنواع، تخصيص بلا مخصّص. ولا شاهد ولا دليل من ظاهر الآية على ذلك.

ما ذكره في القول الثاني أنّ قوله تعالى «واذكر اسم ربّك» تصف صلاة اللّيل في نهاية الضّعف.

قوله تعالى: «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨)».

قال في القاموس ٣٣٢/٣: وتبتّل إلى الله وبتّل: انقطع وأخلص.

وفي نورالثّقلين ٥/٤٤٩، عن معاني الأخبار بإسناده إلى عليّ بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر ـ عليه السّلام ـ قال:

التبتّل أنّ تقلب كفّيك في الدعاء إذا دعوت.

وفي الوسائل ٤/١١٠١، مسندا، عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أباعبدالله ـ عليه السّلام ـ يقول: مرّ بي رجلٌ وأنا أدعو في صلاتي بيساري. فقال: يا عبدالله! بيمينك! فقلت: يا عبدالله! إنّ لله ـ تبارك وتعالى ـ حقّاً على هذه كحقّه على هذه. وقال:

«الرّغبة؛ تبسط يديك، وتظهر باطنها. والرّهبة؛ تظهر ظهرهما. والتضرّع؛ تحرّك السبّابة اليمنى يميناً وشمالاً. والتبتّل؛ تحرّك السبّابة اليسرى، ترفعها في السماء رسلاً وتضعها. والابتهال؛ تبسط يدك وذراعك إلى السّماء. والابتهال حين ترى أسباب البكاء.»

وفيه عنه أيضاً بإسناده عن أبي إسحاق، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ إلى أن قال: وقوله: «وتبتّل إليه تبتيلا» قال:

«الدّعاء بأصبع واحدة تشير بها.»

وفيه عنه أيضاً مسنداً، عن محمّدبن مسلم وزرارة قالا: قلنا لأبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ: كيف المسألة إلى الله تبارك وتعالى؟ قال:

«تبسط كفّيك ـ إلى أن قال: ـ التبتّل الإيماء بالأصبع. والتضرّع تحريك الأصبع...»

وفيه عند بإسناده عن مروك بيّاع اللّؤلؤ، عمّن ذكره، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال:

... وهكذا التبتّل ـ ويرفع أصابعه مرّةً، ويضعها مرّةً.

بيان: لاتنافي بين هذه الروايات الواردة في تفسير التبتّل. ضرورة أنّه لاتنافي بين مثبتٍ ومثبت آخر. وإنّما التنافي بين المثبت والنّافي. وبهذا البيان يندفع التنافي بين هذه الروايات، وبين مايستفاد من عبارة القاموس أن التبتّل بمعنى الانقطاع والإخلاص. ووجه الاندفاع أنّ الرّوايات مسوقة لبيان مصاديق الإخلاص والانقطاع المذكور في عبارة القاموس.

ولايخفى أنّ قوله تعالىٰ: «وتبتّل» فعل أمر مأخوذ من تبتّل من باب التفعّل، وهو لازم قد صار متعدّياً بـ «إلى» في قوله تعالى: «وتبتّل إليه».

وقد استشكل المفسّرون في ذلك ما خلاصته: انّ حقّ الكلام في المقام أن يقال: تبتّل إليه تبتّلاً، أو يقال: بتّل نفسك إليه تبتيلاً. وقالوا في توجيه ذلك وجوهاً ضعيفة لايجوز الاعتماد عليها في باب التفسير.

قال في الكشّاف ١٧٧/٤: فإن قلت: كيف قيل: تبتيلاً مكان تبتّلا؟ قلت: لأنّ معنى تبتّل بتّل نفسك فجيء به على معناه مراعاةً لحقّ الفواصل. وقريب منه عبارة غيره من المفسّرين.

أقول: الظّاهر أن الإشكال مندفع من أصله. فإنّ قوله تعالى: «تبتّل» وإن كان فعلاً لازماً، إلاّ أنّه قد صار متعدّياً بـ «إلى» في قوله تعالى: «و تبتّل إليه». فعلى هذا يكون «تبتيلاً» في الآية الكريمة مفعولاً مطلقاً للفعل المتعدّي بحسب الواقع. ولو قال: تبتّل نفسك تبتيلاً، أوقال: تبتّل تبتيلاً، لأخلّ بالمعنى المسوق له الآية الكريمة، ولما يفيد التبتّل إليه تعالىٰ.

قوله تعالى: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

بيان: قد بسطنا الكلام في تفسير الرّب في تفسير «ربّ العالمين» في سورة الفاتحة. والظّاهر بحسب ما تقدّم من البيان أنّ معناه هو القيام بتنظيم أمر الخلقة إيجاداً وإبقاءاً في جميع شوؤنه تنظيماً علميّاً حسب حكمته البالغة.

وليس لفظ الربّ مأخوذاً من التّربية. فإنّ التربية ناقص يائيّ من باب التفعيل، واسم الفاعل منه مربّي بكسر الباء، واسم المفعول منه مربّى بفتحها. والرّب مأخوذ من رَبَبَ ثلاثيّ مجرّد مضاعف، واسم الفاعل منه ــ أي الصّفة المشبّهة ــ ربب، مثل خشن أو حسن، واسم المفعول منه مربوب. نعم، لايبعد أن يقال: إنّ التّربية من جملة معاني الربوبيّة، لو دلّ عليه دليلٌ بحسب اللغة.

وقوله تعالى: «رَبّ المشرق والمغرب»؛ فمن قرأه بالضم، فعلى أنّه خبر لمبتدأ محذوف. ومن قرأه بالكسر، فعلى أنّه مجرور بحرف القسم المحذوف، وتقديره: و ربّ المشرق والمغرب،وجوابه قوله تعالى «لا إله إلاّ هو». وقيل:

بناءاً على أنّه بدل من لفظ الربّ في قوله تعالى: « واذكر اسم ربّك ».

والظّاهر هوالوجه الأوّل؛ أي: قراءة الضم. ولادليل على القول الثّاني.

وأمّا الثالث ـ أي: جعلُه بدلاً عن الرّبّ في قوله: « اسم ربّك » ـ فساقط عن أصله. لأنّ العناية في إضافة الرّب إلى المشرق والمغرب، هي تمجيده تعالى نفسه بربوبيّته تعالى على المشرق والمغرب، والعناية في الإضافة في قوله « اسم ربكّ » هو تشريفه تعالى رسوله وإبراز العطف والحنان له ـ صلّى الله عليه وآله ـ بانتسابه إلى نفسه القدّوس. وبناءاً على ما قيل أنّ المبدّل فيه في حكم السّقوط في الكلام، يفوت العناية الملحوظة في إضافة الرّب إلى كاف الخطاب في قوله: « واذكر اسم ربّك » والعناية غير العناية، والغرض غيرالغرض.

وواضح أنّ إضافة الرّبّ إلى المشرق والمغرب، ليست لغرض التّعريف والتخصيص ـ فإنّ أسماء الله كلّها معارف ـ بل الغرض منها تمجيده تعالى على نفسه القدّوس بربوبيّته على المشرق والمغرب. ولاينافي ذلك عموم ربوبيّته تعالٰى على جميع ما سواه تعالى. فإنّ ثبوت شيء لاينافي ثبوت ما سواهُ.

فإن قلت: فما تقول فيما قاله بعض المفسّرين: إنّ الغرض من هذه الإضافة ـ أي إضافة لفظ الرّب إلى المشرق والمغرب ـ دفع ما يتوهّم من إضافة لفظ الرّب إلى كاف الخطاب في قوله تعالى: « واذكر اسم ربّك » في الآية السّابقة . فإنّه يوهم أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ اتّخذ الله ـ سبحانه ـ ربّاً لنفسه فقط دون غيره، فأزال هذا التوهّم بقوله: « ربّ المشرق».

قلت: إنّ هذا ليس بشيء. فإنّ هذا التوهّم متوقّف على أنّ إضافة الرّبّ إلى كاف الخطاب تفيد التخصيص؛ وقد عرفت بطلان ذلك من أصله. فليس قوله تعالى: «ربّ المشرق» مسوقةً لإبطال هذا التوهّم. كما أنّه في قولنا «إلٰهي وربّي» ليس الغرض من الإضافه أنّه إلهٌ وربّ لهذا القائل فقط، بل غرضه انتساب نفسه إلى ربّه تعالى، وخضوعه إلى جنابه تعالى، وإقراره بإلهيّته. والفرق بين هذه الإضافة في الآية المبحوثة وبين الإضافة في قوله

تعالى: «واذكر اسم ربّك أنّ الغرض في قوله تعالى: «ربّ المشرق والمغرب» تمجيده تعالى نفسه بربوبيّته تعالى على المشرق والمغرب؛ وفي الآية السّابقة تشريفه تعالى وتكريمه - سبحانه - رسوله الأعظم بانتسابه إلى نفسه القدّوس.

وقد اضطربت الأقوال في تفسير المشرق والمغرب. فقال بعض المفسّرين: و«ربّ المشرق والمغرب» بمعنى العالم كلّه. لأنّ المشرق والمغرب جهتان نسبيّتان تشملان جهات العالم المشهود.

وقال في المجمع ١٠/٣٧٩: «ربّ المشرق والمغرب»؛ أي: ربّ العالم بما فيه. لأنّه بين المشرق والمغرب. وقيل: ربّ مشرق الشمس ومغربها، والمراد أوّل النّهار وآخره. فأضاف النّصف الأوّل من النّهار إلى المشرق، والنصف الآخر منه إلى المغرب. وقيل: مالك المشرق والمغرب؛ أي: المتصرّف فيما بينهما والمدبّر لما بينهما.

أقول: لم يثبت لديّ دليل لهذه الأقوال؛ إذ لادليل على أنّ الغرض من المشرق والمغرب في الآية بيان أن ربوبيّته تعالى على العالم كلّه، لأنّ المشرق والمغرب محيطان به، أو أنّهما في مقام بيان حيث ربوبيّته تعالى لأوّل النهار وآخره، أو حيث كونه متصرّفاً فيما بينهما ومدبّراً لما بينهما. بل هذه الأقوال نوع من التّأويل، وأجنبيّة عن معنى المشرق والمغرب من حيث نفسهما وأن يكون عنواناً للبحث.

والظّاهر أنّ المشرق والمغرب من حيث إنّه مشرق ومغرب لهماجهات وعنايات في نظام الخلقة ومن جملة أفعاله الحكيميّة القيّمة، ومن آياته البيّنات على ربوبيّته تعالى. فبالمشرق والمغرب يتحقّق الفصول والأيّام والليالي. وبهما يتنظم أمر العالم ومصالح العباد ومعائشهم وحوائجهم. فعلى هذا تكون العناية في المقام إلى حقيقة أصل المشرق والمغرب، من حيث كونهما مشرقاً ومغرباً، لا إلى جميع أنواعهما وأفرادهما؛ إلاّ أن يقال: إنّ الألف واللام فيهما للاستغراق.

وأمّا التصريح بالأفراد والعناية إليها بهذا اللّحاظ، فهو الّذي قال تعالى:

«فلا أُقسم بربّ المشارق والمغارب». (المعارج / ٤٠).

وفي تفسير نورالثقلين ٥/ ٤٢٠، عن كتاب معاني الأخبار، باسناده إلى عبدالله بن أبي حمّاد، رفعه إلى أميرالمؤمنين في قول الله عزّ وجلّ: «ربّ المشارق والمغارب» قال:

«لها ثلاثمائة وستّون مشرقاً، وثلاثمائة وستّون مغرباً. فيومها الّذي تشرق فيه، لاتعود فيه إلّا من قابل.»

وفيه أيضاً، عن الاحتجاج للطبرسيّ عن أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ حديث طويل يقول فيه لابن الكوّاء:

«وأمّا قوله: «ربّ المشارق والمغارب» فإنّ لها ثلاثمائة وستين برجاً. تطلع كلّ يوم من برج وتغيب في آخر. فلا تعود فيه إلّا من قابل في ذلك اليوم.»

وقال تعالى:

«ربّ المشرقين وربّ المغربين». (الرحمن / ١٧)

في نورالثقلين ٥/ ١٩٠، عن الاحتجاج للطبرسيّ ـ رحمه الله ـ عن أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ حديث طويل، وفيه:

«وأمّا قوله: «وربّ المشرقين وربّ المغربين» قال: مشرق الشّتاء على حدّه ومشرق الصيف على حدّه. أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟!»

فإن قلت: فما تقول فيما ذكره بعضهم في وجه إضافة الربّ إلى المشرق والمغرب، حيث قال: وإنّما اختصّا بالذكر، بمناسبة ما تقدّم من ذكر اللّيل والنّهار المرتبطين بالشروق والغروب.

قلت: لايخفى ضعف هذا الوجه. إذ لادليل ولاشاهد على ذلك من ظاهر الآية. والأولى إيكال العلم بوجه هذه الإضافة إلى الله ـ سبحانه ـ وإلى أوليائه.

قوله تعالى: «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ».

تنزيه وتقديس للربّ تعالى عن الشريك والمثل والضّدّ والنّدّ.

وقوله تعالى: «إلّا» ليس بمعنى الاستثناء في هذا المقام. وقد عرفت غير مرّة أنّ أسماءه تعالى معارف. ولامحصّل لورود الاستثناء على «إله» وهو أمر شخصي ومعرفة. فقوله: «إلّا» بمعنى الغير، والمعنى: لا إله غيره.

وكذلك الكلام في جميع التهليلات الواردة في الكتاب والسنّة والأدعية المأثورة عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ وعن الأئمّة الطّاهرين. فإنّ ما بعد «إلّا» في هذه التّهليلات ضمير مرفوع أو اسم ظاهر من اسمائه تعالى مرفوع.

قال في القاموس ٤/٤٠٧: «إلاّ» للاستثناء. «فشربوا منه إلاّ قليلاً». [البقرة/ ٢٤٩] ونصب ما بعدها بها. «مافعلوه إلا قليلٌ منهم». [النساء/٦٦] ورفع ما بعدها على أنّه بدل بعض. وتكون صفةً بمنزلة غير، فيوصف بها وبتاليها جمعٌ منكّر أو شبهه؛ نحو: «لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا». [الأنبياء/ ٢٢]

وقال في المغني ٩٨/١: إلاّ ـ بالكسر والتشديد ـ على أربعة أوجه: أحدها أن تكون للاستثناء... الثاني: أن تكون صفةً بمنزلة غير فيوصف بها وبتاليها جمع منكر أو شبهه. فمثال الجمع المنكّر: «لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا».

أقول: والضمير بعد «إلّا» في قوله: «لا إله إلّا هو» راجع إلى الربّ في قوله تعالى: «ربّ المشرق والمغرب» لتفيد الآية الكريمة أنّ الّذى توحّد بالألوهيّة هو الّذي توحّد بالرّبوبيّة.

قوله تعالى: «فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً(٩)».

تفريع على ما تقدّم من توحّده تعالى بالرّبوبيّة ـ أي في تنظيم أمر العالم ـ على ماسيأتي من البيان في معنى الوكيل.

قد أمرالله تعالى رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أن يتّخذ ربّه تعالى وكيلاً. وقد ذكرنا أن الله ـ سبحانه ـ إذا خاطب رسوله بشخصه ـ كما في كثير من الآيات ـ فالخطاب عامّ في حكم القضيّة الحقيقيّة؛ يشمله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وغيره من المسلمين، مالم يقم دليل قاطع على اختصاص الخطاب به ـ

صلّى الله عليه وآله.

هذا في الأحكام الشرعيّة المولويّة. وأمّا في الأحكام الضروريّة العقليّة ـ كما في هذه الآية المبحوثة ـ فالأوامر والنواهي العقليّة إرشاد وتذكير إلى مايدركه العقل. فلا فرق فيها بين الرّسول والمؤمن والكافر إذا تمّت عليه الحجّة.

قوله تعالى: «وَكيلاً». قال في القاموس ٤/٦٦: وَكَلَ إليه الأمر وكلاً ووُكُولا: سلّمه وتركه.

فالوكيل هو الّذي وكل إليه الأمر. وهذا المعنى بحسب المجتمع البشريّ: إقامة الإنسان غيره مقام نفسه، ليعمل ما كان على نفسه وعهدته من الأعمال، لولا وكيله. وأمّا بالنسبة إليه تعالى، أن يتوصّل العبد في نيل حوائجه وإنجاح مقاصده إلى ربّه. ولاينافي ذلك سعي العبد وطلبه لتحصيل مآربه طبق سنن الأسباب والعلل العاديّة. فإنّ ذلك وظيفة شرعيّة وعقليّة على كلّ أحد؛ إلّا أنّ بلوغ الحاجة ونيل المقصود منوط ومتوقّف على إذن الله تعالىٰ.

والفرق بين المعنيين: أنّ الوكيل بحسب المجتمع البشريّ من أقامه الإنسان مقام نفسه. ولولا توكيل الغير إيّاه، لما تحقّق مفهوم ومصداق للوكيل في ظرف الخارج. أمّا بالنسبة إليه تعالى، فهو ـ سبحانه ـ وكيل لجميع ما سواه سواء وكّله أحد في مورد أولم يوكّله أحد من الأزل إلى الأبد.

والوجه في ذلك أنّ الوكيل من جملة أسمائه تعالى الحسنى الّتي تحكي عن نعوت ذاته وصفاته وأفعاله. ومفاد تلك الأسماء ليست في حدّ الشأنيّة والإمكان، بل مُحقّقة و فعليّة لايحتاج تحقّقها وفعليّتها إلى إضافة تلك الأسماء إلى متعلّقاتها. فهو ـ سبحانه ـ إلهٌ إذ لا مألوه، وعالم إذ لا معلوم، وربّ إذ لا مربوب، وجواد إن أعطى وإن منع، ووكيل إذ لا موكّل ولا إيكال. فكلّ ما مسّ عليه يد الخلقة والربوبيّة، فالله ـ سبحانه ـ وكيل عليه كما أنّه وكيل عليه في ظرف تحقّق تلك المتعلّقات أيضاً.

قال الفيض (قده) في علم اليقين ١/١٣٥ نقلاً عن بعض العرفاء: الوكيل

هو الموكول إليه الأمور. فإنّه كان مستحقاً لأن توكّل إليه الأمور كلّها بذاته لا بالتّوكيل والتّفويض، مليّاً بالقيام بها، وفيّاً بإتمامها؛ فهو الوكيل المطلق، وليس إلا الله ـ سبحانه.

وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ:

«فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل». (آل عمران/١٧٣)

«خالق كلّ شيء فاعبدوه وهو على كلّ شيء وكيل». (الأنعام/١٠٢)

«إنّما أنت نذير والله على كلّ شيء وكيل». (هود/١٢)

فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل». (يوسف/٦٦)

«الله خالق كلّ شيء وهو على كلّ شيء وكيل». (الزمر/٦١)

أقول: قد تبيّن من جميع ما ذكرنا أنّ الوكيل بهذا المعنى لايتّصف به غيره ـ سبحانه ـ كما أنّ الوكيل بالمعنى الّذي في المجتمع، لايجوز أن ينسب إليه تعالى. وهذا دليل واضح على صحّة الاشتراك اللّفظيّ في أسمائه تعالى وأسماء ما سواه. قال تعالى:

«وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل». (الأنعام/١٠٧)

«ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل». (يونس/١٠٧)

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ

ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ».

عطف على قوله تعالى: «فاتّخذه وكيلاً».

والصبر - كغيره من الأفعال - له أحكام خمسة. والآية الكريمة مسوقة في مقام الإرشاد والتذكير بوجوب الصبر على رسول الله - صلّى الله عليه وآله - وعلى كلّ مؤمن في مجاهدة أعدائه، في سبيل إثبات التوحيد وإحقاق الحقّ ونقض الكفر والشرك وإزهاق الباطل.

فمن الواجب من أنواع الصبر صبران: الأوّل: الصبر عن المعاصي، بالكفّ والاتّقاء عن ارتكابها. والثاني: الصبر على الطّاعات وتحمّل الشّدائد والمشاقّ في إتيانها وفي سبيل امتثالها.

والمراد في المقام هو الثّاني. يأمر تعالى رسوله - صلّى الله عليه وآله - بالصبر على ماينال من الإيذاء من جبابرة قومه بتكذيبهم والإنكار بما جاء به من الحقّ المبين. فانّهم رموه - صلّى الله عليه وآله - بأنّه ساحر وكاهن وشاعر مجنون واختلقوا على القرآن الكريم أنّه أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرةً وأصيلا، وقالوا: إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون.

قوله تعالى: «وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً(١٠)».

أي: اتركهم وجانبهم، لا بالخشونة لتكافئهم بمثل ما يقولون فيك من سوء القول، بل بالرّفق والمداراة؛ مراعاةً لِما أدّبك الله - سبحانه - بكرائم الأخلاق، ولئلّا يختلّ عليك أمر دعوتك وبلاغك.

أقول: الصبر مع الهجر الجميل الّذي ذكره تعالى مرتبة فاضلة من المبارزة والمجاهدة في سبيل الله أعداءه المستكبرين.

في تفسير نورالثقلين ٥/ ٤٥٠: عليّ بن إبراهيم، عن أبيه وعليّ بن محمّد القاشاني، جميعاً عن القاسم بن محمّد الاصبهاني، عن سليمان بن داود المنقري،

عن حفص بن غياث قال:

قال أبوعبدالله ـعـليه السّلام ـ: يا حفص، إنّ من صبر صبر قليلاً. وإنّ من جزع جزع قليلاً.

ثمّ قال: عليك بـالصبر في جميع أمورك. فإنّ الله ـعزّ وجلّ ـ بعث محمّداً فأمره بالصبروالرّفق فقال: «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً وذرنـي والمكذّبين أولي النـعمة». فصبر حتّى نالوه بالعظائم، ورموه بها.

أقول: ورواه في الكـافـي ٨٨/٢ بـالإسـنـاد المتقـدّم عـن أبـي عـبدالله ـعليه السّلام ـ بوجه أبسط.

وفي الكافي ٩١/٢ مسنداً، عن عمرو بن شمراليماني، يرفع الحديث إلى عليّ ـعليه السّلام ـ قال: قال رسول الله ـصلّى الله عليه وآله ـ:

«الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطّاعة، وصبر عن المعصية.»

قوله تعالى: «وذَرْنـي وَالـمُكَذِّبين أُولي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَليلاً(١١)».

تهديد للمكذّبين. والظّاهر أنّ هذا التهديد لهم إنّما هو بتعذيبهم في الدّنيا؛ أي: إنّه تعالى يستأصلهم ويقطع أدبارهم. لأنّ قوله تعالى: «ذرني والمكذبيّن»؛ أي: كِلْ أمرهم إليّ ولاتشغل نفسك بهم، ولا تهتمّ بشأنهم؛ فإنّا نكفيك ونخلّصك من شرّهم.

وفي هذا تسليةٌ لرسول الله ـصلّى الله عليه وآله ـ عمّا يرد عليه بسببهم من الأحزان، بأنّه ينتقم لرسوله منهم. وفيه بشارةٌ له على هلاك أعدائه الصادّين عن سبيل دعوته. ويشهد على ذلك قوله تعالى: «ومهّلهم قليلاً». لوضوح أنّ الله ـسبحانه ـ يأمر رسوله ان يمهّل أعداءه المكذّبين قليلاً، وهذه المهلة القليلة إنّما تناسب هذه الحياة الدّنيا، وقد انقضت مدّة الإمهال بموتهم واستيصالهم بنقمة الله تعالى.

والظّاهر أنّ الأمر بالإمهال من الله تعالى لرسوله، مع أنّ أمر المهلة ليس إلّا بيده ـسبحانه ـ قد كان تشريفًا لرسول الله ـصلّى الله عليه وآله. وواضح أنّ

الإمهال من الله -سبحانه- لهؤلاء المكذّبين، ليس من باب كرامة الله تعالى لهم، بل هذا لحكمة بالغة عندالله تعالى.

وعن بعض المفسّرين: إنّ هذه المهلة كانت إلى غزوة بدر. (تفسير الرازي ٣٠/١٨٠)

وهذا في غاية الضّعف. فإنّ الظّاهر أنّ المراد في الآية الكريمة ظهور دولة الحقّ وعلوّ كلمة التّوحيد وإحقاقه، وسقوط دولة الشرك وإزهاقه وزهوقه، لا بيان هلاك عدّة من جبابرة قريش في يوم بدر، وبعبارة أخرى بيان مصداق من فتوح أهل الإسلام.

قوله تعالى: «إنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً(١٢) وَطَعاماً ذاغُصَّةٍ وَعَذاباً أليماً(١٣)».

هذا تهديد ثان للمكذّبين، بتعذيبهم في نار الآخرة وبما فيها من ألوان العذاب. وقد كان هذا التّهديد مترقّباً بعد عذاب الاستيصال في الدّنيا.

والتّعبير بقوله: «لدينا»؛ أي: في وسعنا ومقدورنا. وفيه إشعار أيضاً بأنّ نارالجحيم مخلوقة موجودة الآن.

قوله تعالى: «أنكالاً». قال في القاموس ٤/ ٦٠: النِّكل -بالكسر-: القيد الشديد. ج: أنكال. أو: قيد من نار وضرب من اللجم أو لجام البريد وحديدة اللّجام والزّمام.

قوله تعالى: «وطعاماً ذا غصّة». قال في القاموس ٢/ ٣١٠: «الغُصّة -بالضمّ-: الشجا. ج: غصص. وما اعترض في الحلق فأشرق.

أقول: وعليه فالمعنى بحسب الظّاهر: انّا أعتدنا للمكذّبين قيوداً شديدةً، أو قيوداً من النّار، أو لجاماً وزماماً فيها حديدة، واعتدنا لهم ايضاً طعاماً يعترض في حلقهم فيشقّه.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكانَتِ الجِبالُ كَثيباً مَهيلاً(١٤)».

بيان: الآية الكريمة من جملة الآيات الأخرى الكثيرة الّتي تدلّ على

انحلال عوالم الدنيا وبطلان تركيبها ورجوعها إلى بسائطها. ومفاد هذه الآيات من أشراط السّاعة وعلامات قيام القيامة ــ وسيجيء إن شاء الله إشباع الكلام في ذلك في سورة الانشقاق ــ متّفق في بيان هذه الحقيقة الأصيلة القرآنيّة. إلا أنّه يجب التنبّه أنّ كلّ واحد من هذه الآيات ليس في بيان هذه الحقيقة بجميع جزئيّاتها ومراتبها، بل كلّ واحد منها بحسب العنايات المسوقة لها الآية، لبيان ناحية خاصّة منها، أو لبيان مرتبة خاصّة من مراتبها. وبهذا البيان يعلم أنّه لا اختلاف بين هذه الآيات وبين قوله تعالىٰ: «يوم ترجف الأرض والجبال...»، فإنّه لبيان المراحل الأولى من انحلال الأرض والجبال، لا لبيان انحلال جميع حقائق الدّنيا وسمائها ونجومها وغيرها.

وذكر جمع من المفسّرين أنّ «يوم» في قوله تعالىٰ «يوم ترجف الأرض» ظرف لِقوله: «إنّ لدينا أنكالاً». (تفسير الرازي ٣٠/١٨١)

ويرد عليه أنّ قوله تعالى: «إنّ لدينا...» ليس في مقام الإخبار عن تحقق النكال في المستقبل، بل هي مسوقة لبيان أنّه تعالىٰ أعدّ لهم ذلك، وهو ـ سبحانه ـ متمكّن ومقتدر للانتقام منهم.

وثانياً: أنّ النكال ليس مقارناً بالرّجفة. فإنّ رجفة الأرض إنّما هي في الدّنيا عند ما أراد تعالى انحلال هذه العوالم المشهودة. ثمّ بعده حشر الأموات، وبعده سوق الناس إلى موقف الحساب، وبعد الحساب أخذهم بالنكال. فلا محصّل لكون «يوم» ظرفاً للنكال في القيامة في الجحيم. فهذه الآية الكريمة بمنزلة قوله تعالىٰ:

«يا أيّها الناس اتّقوا ربّكمْ إنّ زلزلة السّاعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى النّاس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد». (الحجّ/١ و٢)

بل الآية الكريمة إنذار وتحذير للنّاس ــ خاصّة جبابرة قريش ــ بالأهوال والشّدائد الواقعة في الدّنيا عند رجفة السّاعة.

فتبيّن أنّ موضع قوله: «يوم ترجف» غير مرتبط بما تقدّمها من الآيات.

قال في القاموس ٣/١٤٢: رجف: حرّك وتحرّك، واضطرب شديداً...

والأرضُ: زلزلت.

وفيه ١/١٢٢: والكثيب: التلّ من الرّمل. ج: أكثبة وكُثُبٌ وكُثبان.

وفيه ٤/٧١: هال عليه التراب يهيل هيلاً، وأهاله فانهال، وهيّله فتهيّل: صبّه فانصبّ.

قوله تعالى: «إنّا أرْسَلْنا إلَيْكم رَسُولاً شَاهِداً عَلَيكُمْ كَمَا أرْسَلْنا إلَى فِرعَوْنَ رسولاً(١٥)».

الرّسول صفة مشبّهة مأخوذة من الفعل اللاّزم؛ أي: رسل يرسل. ويقع مفعولاً لبعث وأرسل. ومعنى الآية: بعثنا إليكم رجلاً واجداً لرسالاتنا، ومتحمّلاً للعلوم والحقائق بوساطة رسل السّماء. وقوله تعالى: «شاهداً عَلَيكم»؛ أي: يرى ويشهد بالعلم والعيان أعمالكم في الدنيا، ويؤدّي الشهادة عليكم بما علم من أعمالكم يوم القيامة في موقف الحكم والقضاء.

أقول: هذه الآية بيان للسّنّة الحكيميّة من بعث الرّسل إلى النّاس وإلى الفراعنة، وخاصّةً إلى جبابرة قريش. وليس المراد تشبيه سيّدنا رسول الله -صلّى الله عليه وآله- بموسى -عليه السّلام- وتشبيه جبابرة قريش بفرعون المصري.

قوله تعالى: «فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبيلاً(١٦)».

تهديد وتحذير لفراعنة قريش وفراعنة أهل دعوة القرآن، بماجرت عليه السنّة العادلة الحقّة من تعذيب العصاة والطغاة بسطواته ونقماته؛ «ولن تجد لسنّة الله تبديلاً» (الأحزاب/٦٢).

قوله تعالى: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُم يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً(١٧)».

أي: كيف تتّقون أنفسكم من العذاب ــ وإن شئت فقل: كيف تدفعون عن أنفسكم العذاب ــ ذلك اليوم.

والشيب: الشعر؛ وبياضه بسبب الشدّة والوحشة والدّهشة، أو لطول ذلك اليوم. والأوّل أظهر.

قوله تعالى: «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ».

الضّمير راجع إلى اليوم. أي: تشقّ السّماء بسبب شدائد ذلك اليوم. وفي الآية دلالة على أنّ هذه الحادثة القارعة ليست من الحوادث الواقعة في الجحيم، بل في الدّنيا وأواخر أيّام الدنيا.

قوله تعالى: «كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨)».

الظّاهر أنّ المراد من الوعد هي القوارع الكبار قبل القيامة، وبعدها وقوع القيامة، وما فيها من أنواع الدّواهي والشّدائد.

وإطلاق الوعد، وإن كان بحسب الغالب مورد الخيرات والنعم، إلاّ أنّ إطلاقها في مورد الشرور ـ مثل جهنّم ونظائرها ـ غير عزيز في القرآن الكريم. قال تعالى:

«هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون». (يس/٦٣)

قوله تعالى: «إنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاء اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبيلاً (١٩)».

قوله تعالى: «هذه» إشارة إلى جميع الآيات الكريمة في السّورة المباركة. فإنّ فيها تسبيح الربّ تعالى، وذكر اسمه الكريم. وفيها تذكرة بتوحّده تعالى بربوبيّته على المشرق والمغرب، وتوحّده في الإلٰهيّة، وكونه وكيلاً على كلّ شيء، وأنّه المرجع للجميع. وفيها أمر بالصّبر على إيذاء الأعداء في سبيل الدّعوة إلى الحقّ ونشر التوحيد وإحقاقه، والهجر الجميل. وفيها الآيات القارعة للإنذار والتّحذير.

وقوله: «فمن شاء...» إرشاد إلى وجوب التذكّر.

أي: فمن شاء الاتّعاظ والاهتداء بهذه المواعظ والزّواجر، اتّخذ إلى قرب ربّه وابتغاء مرضاته سبيلاً. والسّبيل المتّخذ إلى الله ـ سبحانه ـ هي الطّاعة والتقوى طبق الشرائع الحقّة الإلهيّة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ

عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

بيان:

تحرير البحث في المقام يحتاج إلى بيان أمور:

الأوّل: الآية الكريمة في مقام التقدير والتشكّر عمّا كان رسول الله -صلّى الله عليه وآله- وطائفة من المؤمنين مداومين عليه باللّيل بالعبادة من الصّلاة وقراءة القرآن وغيرهما؛ وفي مقام بيان التخفيف والإرفاق في عبادة اللّيل، على ما سيأتي من البيان ــ إن شاء الله.

الثّاني: الآية الكريمة قابلة الانطباق بالآية المتقدّمة في صدر السّورة. فإنّ قوله تعالى: «أدنى من ثلثي اللّيل» قابل الانطباق على النصف ومازاد عليه. وقوله: «وثلثه» ممكن الانطباق على ما كان ناقصاً من النصف.

الثّالث: ما استظهرنا في صدر السوّرة عن رواية ابن عبّاس من أنّ السوّرة نازلة بمكّة في أوائل النبوّة وأنها السورة الثالثة من القرآن، غير ملائمة بظاهر الآيات. فإنّها صريحة في أنّ رسول الله وعدّة من أصحابه كانوا مداومين على قيام اللّيل. وضروريّ أنّه لم يكن في أوائل النبوّة من آمن به أحد من قريش وكان -صلّى الله عليه وآله- يكتم أمره ثلاث سنين؛ على ما صرّح به بعض الرّوايات في تفسير قوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين». (الحجر/٩٤) وصرّح به المسعوديّ في كتابه مروج الذهب ٢٧٥/٢. فلا بدّ من الالتزام بأنّ السّورة ليست من أوائل ما نزلت، أو أنّها نازلة متفرّقةً ونجوماً، ونزلت هذه الآية في السنين المتأخّرة. والله العالم.

الرابع: الآية الكريمة صريحة في أنّ الذين يقومون معه ـ صلّى الله عليه وآله ـ باللّيل طائفة من المؤمنين لاجميعهم. ففي هذا دلالة واضحة على أنّ هذا القيام كان مندوباً إليه من قبله تعالى. ولو كان فرضاً، لما تركه أحد من المسلمين.

وفي هذا شهادة على ما قوّينا في صدر السّورة أنّ قوله تعالى: «قم اللّيل» بقرينة قوله: «إلاّ قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه» ظاهر في الاستحباب، وأنّ هذه العبادة ليست ممّا يختصّ به رسول الله، بل يشمله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وغيره أيضاً. وقام بامتثالها هو ـ صلّى الله عليه وآله ـ وطائفة من المؤمنين لاجميعهم. وليس في هذا تشنيع على غير القائمين معه ـ صلّى الله عليه وآله ـ بل يكون دليلاً على عدم الوجوب.

الخامس: قد اتّضح ممّا ذكرنا ضعف ما قيل: إنّ الآية ناسخة لفرض قيام اللّيل في قوله: «قم اللّيل...». إذ لا دلالة فيها على كون صلاة اللّيل فريضةً، ولا دلالة فيها على أنّها صلاة اللّيل بخصوصها؛ بل المراد العبادة والاجتهاد والتهجّد على الإطلاق، ويشمل صلاة اللّيل أيضاً. وسيأتي مزيد توضيح لذلك في تفسير قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن».

قوله تعالىٰ: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ ...».

قد تقدّم في تفسير قوله تعالىٰ: «واذكر اسم ربّك» أنّ في إضافة الربّ إلى كاف الخطاب تشريفاً وتكريماً لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله. وكذلك الأمر في مخاطبته ـ صلّى الله عليه واله ـ بقوله: «أنّك» بخصوصه وإفراده عن غيره من المؤمنين.

قوله تعالىٰ: «وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ».

أي: إنّ الله ـ سبحانه ـ يقدّر اللّيل والنّهار وما لهما من السّاعات والدّقائق واللّحظات و الآناء، بتقدير العليم الحكيم. ولا يقدر على تقدير تلك المقادير إلاّ الله تعالىٰ.

قيل: إنّ هذه الجملة في مرحلة التّعليل لقوله تعالى: «إنّ ربّك

يعلم...» . أي: إنّ الّذي يقدّر اللّيل و النّهار، يعلم أنّك تقوم.

ولا يخفى ما فيه من الضّعف. إذ لا ريب أنّ الّذي يقدّر تلك المقادير، لا يخفى عليه خافية؛ وهو لا يلائم التعليل المذكور. بل الظّاهر أنّ ذلك في مرحلة التمهيد و التعليل لقوله تعالى: «أن لن تحصوه» . أي: إنّ الّذي يقدّر اللّيل والنّهار وما لهما من الأجزاء والأبعاض، هو الّذي يقدر على التحقيق على إحصائها بعلمه.

قوله تعالى : «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ»

قد تفضّل ـ سبحانه ـ على عباده القائمين باللّيل، و بيّن العذر لهم، وأنّهم مستحقّون للتخفيف والتّسهيل في هذا الباب؛ إذ قال ـ سبحانه ـ : «علم أن لن تحصوه» . و الظّاهر أنّ المراد أنّهم لن يحصوه إلّا بالعسر و المشقّة.

قوله تعالى : «فَتَابَ عَلَيْكُمْ» .

الفاء للتفريع. أي: إذا كان إحصاء ساعات اللّيل متعسّراً عليكم، أو غير مقدور بالنسبة إلى عدّة منكم، فقد أدرككم العناية الإلٰهيّة، فتاب عليكم؛ أي: عاد ورجع بفضله ورحمته عليكم، فرضي منكم بالميسور من قراءة القرآن وقبل القليل من الكثير.

فمعنى التوبة في مورد إطلاقها على الله ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين الفضل الحادث والرّحمة الجديدة، وعلى أوليائه الكرام الكرامة الحسنى، وعلى عباده التّائبين من ذنوبهم المغفرة لذنوبهم. و التوّاب من جملة أسمائه تعالى الحسنى. و يتعدّى التّوبة في مورد إطلاقها على الله تعالى بلفظ «على» . قال تعالى:

«لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والانصار». (التوبة/١١٧)
«إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم». (البقرة/١٦٠)

و المراد من التوبة عند إطلاقها على العباد عند رجوعهم إليه تعالى: النّدم على ذنوبهم، والعزم على ترك معاصيهم وتحكيم ميثاق العبوديّة بينهم و بينه تعالى، والتعهّد بالوفاء بالعهد الّذي عاهدوه تعالى في مرحلة الإيمان به ـ سبحانه.

قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآن».

تفريعٌ ممّا تقدّم من تعسّر إحصاء المؤمنين لمقادير اللّيل، ورجوعه تعالى إليهم بفضله الجديد بالتخفيف الّذي يريده تعالى منهم، وهو الميسور من قراءة القرآن؛ فقبل اليسير من الكثير.

وليس الأمر باليسير، ترخيصاً في ترك الكثير. وإنّما هو أمر باليسير، مع بقاء الكثير على حكمه السّابق من الاستحباب. فمن شاء استقلّ؛ ومن شاء استكثر.

ومن توهّم أنّ الأمر باليسير، ترخيص في ترك الكثير، فضعيفٌ جدّاً. وقياس ذلك بقوله تعالىٰ: «فالآن باشروهنّ» (البقرة/١٨٧) قياس مع الفارق. فإنّ قوله تعالى: «باشروهنّ» ترخيص في مباشرة النساء في ليالي شهر رمضان بعد ما كان حراماً؛ بخلاف الأمر بقراءة ما تيسّر من القرآن، فإنّه تعبّد بأمر جديد.

وكذلك ما ذكره الجصّاص في كتابه احكام القرآن ٣/ ٤٦٩، قال: انتظمت الآية معاني. أحدها: أنّه نسخ به قيام اللّيل المفروض قد كان بدياً.

ومن هنا يعلم وهن ماذكره الزمخشريّ في الكشّاف ٤/١٧٩: وهذا ناسخ للأوّل. ثمّ نُسخا جميعًا بالصّلوات الخمس.

وأمّا المراد من القراءة في المقام؛ فقد قيل: هي قراءة القرآن بعينه. وقيل: المراد من القراءة هي الصلاة. قيل: إنّ وجه استعمال القراءة في الصّلاة أنّها من أعظم أجزاء الصّلاة. فيكون من باب استعمال الجزء في الكلّ. (تفسير الرازي ٣٠/١٨٦)

أقول: المندوب إليه في صدر السّورة المباركة هو القيام باللّيل نصفه، أو مازاد عليه، أو ما ينقص منه. وكذلك في قوله تعالى: «إنّ ربك يعلم أنّك تقوم ...». وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالىٰ: «قم اللّيل» أنّ الظّاهر هو القيام بالعبادة سواء كان بالصّلاة أو بقراءة القرآن؛ إلّا أنّ الصّلاة هو القدر المتيقّن من قيام اللّيل لشيوع إطلاق القيام على الصّلاة، والقائمين على المصلّين.

فعلى هذا قوله تعالى: «فاقرؤوا..» في مقام التّخفيف عمّا كان مندوباً إليه في صدر السّورة. فالمعنى: اقرؤوا ما تيسّر من الصّلاة ومن العبادات. ولا استبعاد في إطلاق القراءة على الصّلاة، كما في قوله تعالىٰ:

أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق اللّيل وقرآن الفجر».
(الإسراء/ ٧٨)

وقد فسّر «قرآن الفجر» بفريضة الصّبح. وكذلك الكلام في قوله تعالىٰ:

«ومن اللّيل فتهجّد به نافلةً لك».(الإسراء / ٧٩)

أي: فتهجّد بالقرآن نافلةً لك . وقد فسّر التهجّد بالقرآن بنوافل اللّيل. (مجمع البيان ٦/٤٣٤)

قال الجصّاص في احكام القرآن ٣/ ٤٦٩ قد انتظمت هذه الآية معاني... والثّاني: دلالتها على لزوم فرض القراءة في الصّلاة بقوله تعالىٰ: «فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن». والثّالث: دلالتها على جواز الصلاة بقليل القراءة.

والرابع: أنّه من ترك قراءة فاتحة الكتاب، وقرأ غيرها، أجزأه. وقد بيّنّا ذلك فيا سلف. فإن قيل: إنّما نزل ذلك في صلاة اللّيل، وهي منسوخة. قيل له: إنّما نسخ فرضها، ولم ينسخ شرائطها وسائر أحكامها. وأيضاً قد أمرنا بالقراءة بعد ذكر التسبيح بقوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسّر منه» . فإن قيل: فإنّما أمر بذلك في التطوّع. فلا يجوز الاستدلال به على وجوبها في الصّلاة المكتوبة. قيل له: إذا ثبت وجوبها في التطوّع، فالفرض مثله. لأنّ أحداً لم يفرّق بينها. وأيضاً فإنّ قوله تعالىٰ: «فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن» يقتضي الوجوب. لأنّه أمر، والأمر على الوجوب، ولاموضع يلزم قراءة القرآن إلّا في الصّلاة.

أقول: ويرد عليه أنّ الآية الكريمة مسوقة في مقام الارفاق على النّاس، وفي سياق التخفيف عمّا كان مندوباً إليه من قبل. أي: صلّوا ما تيسّر من الصّلاة. أو: اقرؤوا ما تيسّر من القرآن؛ أي القراءة بعينها. وليست الآية مسوقةً

في مقام بيان جزئيّة القراءة بما تيسّر أو شرطيّتها للصلاة. فلا محصّل للتمسّك بإطلاق قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن» لإثبات جزئيّة ما تيسّر من القرآن للصّلاة. ولو قام ألف دليل على جزئيّة القراءة وشرطيّتها للصّلاة، لما كانت هذه الآية من جملتها؛ سواء كانت في الصلاة الفريضة أو المندوبة.

قوله تعالى: «عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى ...».

ذكر تعالى شيئاً من المصالح والحكم الموجبة للتخفيف في قيام اللّيل؛ وهو المرض، والضّرب في الأرض لطلب الرّزق، والجهاد والقتال في سبيل الله؛ سواء كان الضّرب في الأرض أو القتال على حدّ السّفر الشرعيّ أو لا؛ إلاّ أن يكون هناك دليل قاطع على تقييد إطلاق الآية في طلب الرّزق أو القتال.

ولا يخفى أنّ هذه الأعذار الثلاثة لا يُبتلى بها عامّة النّاس، بل يُبتلى بعض الناس ببعض تلك الأعذار كما قال تعالى: «علم أن سيكون منكم ...»؛ أي: قوم منكم مرضى، وقوم آخرون يضربون في الأرض، وقوم يقاتلون. و مع ذلك كلّه لا يُبتلى بتلك الأعذار إلاّ عدّة من النّاس. والّذين يبتلون بها لا يبتلون بها على الدّوام. إلّا أنّ ابتلاء بعض الناس بتلك الأعذار الثلاثة كافية في التخفيف عن الجميع، والإرفاق على العموم. فلهذا يعمّ هذا الترخيص والتخفيف. فإن لم يكن مريضاً، ولا مسافراً، ولا مقاتلاً أيضاً، فيرخّص لهم في قراءة اليسير من القرآن.

قوله تعالى: «فَاقْرؤوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ»؛ أي: من القرآن.

قيل: إنّ تكرار قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسّر منه» لتأكيد الحكم السّابق؛ أي: التخفيف المستفاد من قوله: «فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن».

أقول: لا ريب أنّ قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسّر منه» تفريع من هذه الأعذار الثلاثة الموجبة للتخفيف. وعليه مسّت الحاجة إلى ذكر قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسّر منه»

وأمّا قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن» فقد ذكرنا أنّه متفرّع

ومترتّب على تعسّر إحصاء مقادير اللّيل والنّهار. فلا تكرار ولاتأكيد في المقام.

قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ».

أقول: قد تقدّم في صدر السّورة ما استظهرناه عن رواية ابن عبّاس من أنّ هٰذه السّورة المباركة هي السّورة الثالثة من القرآن، نزلت على رسول الله في أوائل أمره. وعليه يشكل الالتزام بأنّ هذه الآية الدّالّة على إيتاء الزكاة نزلت في أوائل بعثته ـ صلّى الله عليه وآله. فإنّ الزكاة إنّما نزل حكمها في المدينة. فلا بدّ من الالتزام بأنّ آية الزكاة نزلت فيها، أو بتوجيهات اخر.

وقد قيل: إنّ آخر السورة نزل بعد مضيّ سنة من نزول السّورة المباركة. ولايخفى أنّ ذلك لايرفع الإشكال أيضاً. والله العالم.

وهل الآية الكريمة مسوقة للإرشاد إلى وجوب امتثال ما كان مشروعاً وواجباً من قبل هذه الآية؟ أو إنّها مسوقة لتشريع الصلاة والزكاة ابتداءً؟ فالله ـ سبحانه ـ هو العالم.

قوله تعالى: «وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا».

واضحٌ أنّ المراد ليس ما هو المتعارف من إقراض المؤمنين بعضهم بعضًا. بل الظّاهر أنّ المستقرض هو الله والمقرض هم المؤمنون. فالأشبه ـ سيّما بقرينة وقوعه بعد الأمر بالزكاة ـ هي الإنفاقات الحسنة والصّدقات المطلقة للمضطرّين من أهل الإيمان، وأنّ المراد من كونه حسنًا أن يكون خالصاً لله ـ سبحانه ـ وأن يكون من طيّب ماله بالشرائط المقرّرة في آداب الصّدقة؛ على ما تقدّم في قوله تعالى: «لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى». (البقرة/٢٦٤)

قوله تعالى: «وَما تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ».

الأشبه أنّ الآية الكريمة مرتبطة بالآية المتقدّمة والإقراض الحسن. ولايمتنع صدقه على غيره من الطّاعات والقربات.

قوله تعالى: «هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً».

أقول: الظّاهر أنّ المراد من الخير هو الثّواب الّذي وعده تعالى لأهل

الإحسان. والتّفاضل إنّما هو بين هذا الخير والأجر الأعظم، وبين عين المال الّذي أنفقه في سبيل الله. لأن المقترض هوالله ـ سبحانه ـ فيؤدّي ما اقترضوه أداءاً وافياً بماشاء وأراد. كما قال تعالى:

«مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء». (البقرة / ٦١)

وفي الصحيفة المباركة السجّاديّة في دعائه يوم الجمعة قال ـ عليه السّلام ـ:

«يا من يثمرالحسنة حتّى ينميها».

قوله تعالى: «وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)».

الاستغفار: طلب العفو من الله ـ سبحانه ـ والاستخلاص من مؤاخذة ما اجترم من الآثام. وهذا من الواجبات البديهيّة العقليّة. هذا أوّلاً؛ وثانياً: مع أنّ المجرم كان عاقاً ظلوماً، والاستغفار رجوع عن الذّنب، قد أكثر تعالى في كتابه من الإرشاد والتذكرة إلى وجوب الاستغفار، وتطهير المجرمين أنفسهم، والتخلّص من تبعات الذنب.

وكفى به فضيلةً أنّه أمان من الله ـ سبحانه ـ من سخطه وعذابه في الأرض. قال تعالى:

«وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون». (الأنفال / ٣٣)

وفي تفسير العيّاشي ٢/ ٥٤، عن عبدالله بن محمّد الجعفي قال: سمعت أبا جعفر ـ عليه السّلام ـ يقول:

كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ والاستغفار حصنين لكم من العذاب. فمضى أكبر الحصنين، وبقي الاستغفار. فأكثروا منه. فإنّه منجاة[1] للذنوب. وإن شئتم فاقرؤوا: «وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون».

قال تعالى:

١ ـ كنزالدقائق ٥/ ٣٣٤: ممحاة.

«كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون * وبالأسحارهم يستغفرون».
(الذّاريات /١٧و١٨)

وفي الكافي ٣٢٥/٣: عليّ بن محمّد، عن سهل، عن احمدبن عبدالعزيز قال: حدّثني بعض أصحابنا قال:

كان أبوالحسن الأوّل ـ عليه السّلام ـ إذا رفع رأسه من آخر ركعة الوتر قال:

« هذا مقام من حسناته نعمة منك ، وشكره ضعيف، وذنبه عظيم، وليس له إلّا دفعك ورحمتك . فإنك قلت في كتابك المنزل على نبيّك المرسل ـ صلّى الله عليه وآله ـ: «كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون وبالأسحارهم يستغفرون» . طال هجوعي وقلّ قيامي! وهذا السحر، وأنا أستغفرك لذنبي، استغفار من لم يجد لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.»

ثمّ يخرّ ساجداً ـ صلوات الله عليه.

٧٤. سورة المدّثّر

في رواية عن ابن‌عبّاس أنّها مكيّة؛ وهي السّورة الرابعة من القرآن.
(أنظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

بيان:

قد أمرالله ـ سبحانه ـ رسوله بالإنذار والتحذير عمّا يواجهه البشر ويستقبله من جزاء ما عمل في الدنيا. وهذا المعنى مساوق وملازم لدعوة الناس إلى الإيمان بالآخرة، وتحذيرهم عن مجازاة السيّئات بالسيّئات من العقاب والهوان.

وأمر تعالى بتكبيرالله ـ سبحانه ـ أي: أنّه تعالى أكبر وأجلّ من أن يوصف بصفات من سواه وما سواه من خلقه، على ما سيجيء ـ إن‌شاءالله تعالى.

وقد قيل: إنّ السّورة المباركة كانت أوّل ما نزلت على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله. واستدلّوا على ذلك بروايات.

منها ما في نورالثقلين ٥/٤٥٢ قال: قال الأوزاعي: سمعت يحيى بن كثير

يقول: سألت جابر بن عبدالله: أيّ القرآن أنزل قبل؟ قال: «يا أيّها المدّثّر». فقلتُ: أو «اقرأ»؟ فقال جابر: أحدّثكم ما حدّثنا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله. قال: جاورت بحراء شهراً. فلمّا قضيت جواري، نزلتُ فاستبطنت الوادي. فنودي. فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالى فلم أرأحداً. ثمّ نوديت. فرفعت رأسي. فإذا هو على العرش في الهواء؛ يعني جبرئيل ـ عليه السلام. فقلتُ: دثّروني! دثّروني! فصبّوا عليّ ماءً. فأنزل الله: «يا أيّها المدّثّر».

وفيه أيضاً في رواية أخرى: فجئثت منه فرقاً، حتّى هويت إلى الأرض. فقلت: زمّلوني! زمّلوني! فنزل: «يا أيّها المدّثّر قم فأنذر».

وفي الكشّاف ٤/ ١٨٠ قال: وروى جابر بن عبدالله عن رسول الله (ص): كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمّد! إنّك رسول الله. فنظرت عن يميني ويساري، فلم أرشيئاً. فنظرت فوقي، فرأيت شيئاً.

وفي رواية عائشة: فنظرت فوقي. فإذا به قاعد على عرش بين السّماء والأرض ـ يعني الملك الّذي ناداه. فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت: دثّروني! دثّروني! فنزل جبرئيل وقال: «يا أيّها المدّثّر».

وعن الزّهري: أوّل ما نزل سورة «اقرأ باسم ربّك» إلى قوله: «مالم يعلم». فحزن رسول الله (ص) وجعل يعلو شواهق الجبال. فأتاه جبرئيل فقال: إنّك نبيّ الله. رجع إلى خديجة فقال: دثّروني، وصبّوا عليّ ماءً بارداً. فنزل «يا أيّها المدّثّر».

وفيه ٤/١٧٤: وقيل: دخل على خديجة وقد جئث فرقاً أوّل ما أتاه جبرئيل وبوادره ترعد؛ وقال: زمّلوني! زمّلوني! وحسب أنّه عرض له. فبينا هو على ذلك، إذ ناداه جبرئيل: «يا أيّها المزّمّل».

أقول: هذه الروايات ونظائرها، لاوزن لها ولا اعتبار بها. إذهي مرسلات تاريخيّة لا دليل على التعبّد بها؛ ولايجوز الاعتماد عليها. فلا تفيد علماً ولاتوجب عملاً في شيء من الأحكام، فضلاً عن مثل المقام الّذي هو من مُعظم المسائل الدينيّة وأصولها.

على أنّ فيها إهانةً واستخفافاً بمقام النبوّة والرسالة؛ من حيث إنّه

-صلّى الله عليه وآله- لم يعرف جبرئيل، وقد اضطرب واستوحش منه، عند أوّل مارآه، ثمّ استأنس به بتكرار ملاقاته، ولم يكن له حجّة بينه وبين ربّه على رسالته ونبوّته، ولم يكن له حجّة على أنّ من يأتيه ملك مقرّب أو غيره، وإنّما كان ملاقاته إيّاه من قبيل الأمور العاديّة ، فيصيبه ما يصيب الأشخاص من الخوف والاضطراب وعدم السّكون والاعتماد في أمره.

وفي سيرة ابن هشام ١/٢٤٩-٢٥٥ ما يُقْضى منه العجب أنّه كان في ترديد وريب من أمره حتّى سألت خديجة- رضي الله عنها- من ورقة؛ وغيرها من القصص المذكورة فيها.

أقول: وليس الأمر على ما زعموا، وقد صرّح -سبحانه- أنّه تعالى أيّد رسوله بروح القدس. وهو عبارةٌ عن العلم المفاض على الإنسان الرسول والنبيّ والصّدّيق. وهذا هو العلم والعيان الحقيقيّ المصون المعصوم بذاته، يستحيل دخول الريب فيه. قال تعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا...» (الشورى/٥٢) وغيرها من الآيات. فبهذا العلم الصّريح يعرف -صلّى الله عليه وآله- جبرئيل عياناً ويكلّمه مشافهةً. وبهذاالعلم يأخذ عنه ما يأخذ وكذلك يأخذ عن الله -سبحانه. وبهذا العلم يحفظ ما يأخذ. وبه يبلّغ ما يبلّغ.

وكذلك الكلام بعينه في الإنسان النبيّ. وهو الّذي يأخذ النّبأ من الله مستقيماً بلا واسطة الملك، فيعرف بهذا العلم عياناً وبداهةً أنّه نبيّ. ويعرف أنّ ما أُوحي إليه إنّما هو من الله -سبحانه- لا ريب فيه ولا ترديد، بل كلّها أحكام إلهيّة وشرائع حقّة؛ فلا يغفل، فلا ينسى، فلا يخطئ، فلا يسهو، فلا يضلّ.

وكذلك الكلام بعينه في الصدّيق المحدَّث. وهو الإنسان الّذي يحدّثه الملك، فيعرف صوته، ولا يرى شخصه. فيعرف أنّ كلّ ما يحدّثه من المعارف والحقائق و العلوم، إنّما يفاض إليه من الله -سبحانه. وهذا في غير الأحكام والشرائع. ومن هذا القبيل مصحف فاطمة الصدّيقة -صلوات الله عليها.

وتفسير الرسالة والنبوّة والتحديث، بهذا المعنى الّذي ذكرناه، قد جاء

به الكتاب والسنّة. وتفرّد بذلك التفسير أئمّة أهل البيت -عليهم السّلام- ومن يتّبع منهجهم، لم يشاركْهُم أحد فيه ممّن يدّعي العلم والعرفان. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأمّا ما زعموامن اضطرابه ووحشته عند أوّل ما رأى جبرئيل، فمختلق عليه -صلّى الله عليه وآله- ولا دليل على ذلك . ولا وجه لخوفه ودهشته من جبرئيل. لأن الله -سبحانه- ما جعله رسولاً ولانبيّاً، إلّا مقارناً بإفاضة روح القدس إليه وتأييده به. فيعرف -صلّى الله عليه وآله- مقام شخصه بالنسبة إلى جبرئيل، ومقام جبرئيل بالنسبة إليه، وكذلك ما يوحى إليهِ من الوحي بواسطة جبرئيل أو ما يأخذه عن الله -سبحانه- بلا واسطة.

وفي عدّة من الروايات أنّ جبرئيل -عليه السّلام- كان يستأذن عليه، ويقعدبين يديه. (أنظر: البحار ١٨/٢٤٨، ٢٥٦، ٢٦٣، ١٩٦)

وأمّا الكلام في خوفه وخشيته عن الله -سبحانه- سيّما إذا تجلّى له ربّه عند أخذ الوحي بلاواسطة فهو حقيقة أخرى خارج عن محلّ البحث. وهو من باب السّكينة من الربّ وطمأنيته القلب، ومن أشرف مراحل الإيمان والعرفان؛ ليس فيه دغدغة ولا حيرة ولا اضطراب.

في البحار ١٨/٢٥٦، عن التوحيد مسنداً، عن عبيدبن زرارة، عن أبيه قال: قلت لأبي عبدالله -عليه السّلام-: جعلت فداك ؛ الغشية الّتي كانت تصيب رسول الله -صلّى الله عليه وآله- إذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال: ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد. ذاك إذا تجلّى الله له. قال: ثم قال: تلك النبوّة يا زرارة. وأقبل يتخشّع.

وفيه أيضاً عن العلل مسنداً عن عمرو بن جميع، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- قال: كان جبرئيل إذا أتى النبيّ -صلّى الله عليه وآله- يقعد بين يديه قعدة العبد. وكان لايدخل حتّى يستأذنه.

أقول: وأنت بعد الإحاطة بجميع ما ذكرناه، تعرف أنّه ليس في شيء من تلك الروايات ونظائرها ما يدلّ على أنّ سورة المدّثّر أوّل ما نزل من القرآن. وأمّا رواية جابربن عبدالله المتقدّمة، فهي قاصرة عن معارضة ما هوأقوى

سندًا وأظهر دلالةً على أنّ أوّل ما نزل من القرآن سورة العلق. وسيجيء ـإن شاء الله ـ إشباع الكلام في أنّ أوّل ما نزل هي سورة العلق أو الفاتحة أو غيرهما.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)».

بيان: المدّثّر اسم فاعل من باب التفعّل. أصله متدثّر؛ قُلبت التاء دالاً وأدغمت في الدال. قال في القاموس ٢/٢٧: تدثّر بالثوب: اشتمل به... والدثار ـ بالكسر ـ: ما فوق الشّعار من الثياب.

وقوله تعالى: «يا أيّها المدّثّر» المراد به شخص الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وهو المخاطب. ولم يعلم وجه مخاطبة الله ـ سبحانه ـ رسوله بوصف التدثّر.

وذكر الرازي في توضيح ذلك وجوهاً ما خلاصتها: أحدها: إنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ في بدو أمره، رأى الملك قاعداً على عرش بين السّماء والأرض فناداه: يا محمد! أنت رسول الله. فخاف منه. ورجع إلى خديجة وقال: دثّروني، وصبّوا عليّ ماءاً بارداً. فنزل عليه جبرئيل وقال: «يا أيّها المدّثّر». وثانيها: إنّ قريشاً كذّبوه بأنواع من التكذيب وقالوا: إنّه ساحر. فبلغ ذلك إلى رسول الله فجلس حزيناً متدثّراً بثوبه. فنزل جبرئيل وناداه: «يا أيّها المدّثّر». وثالثها: إنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان نائماً متدثّراً بثيابه. فجاء جبرئيل أيقظه وناداه: «يا أيّها المدّثّر». (تفسير الرازيّ ٣٠/ ١٨٩)

أقول: لايخفى أنّ ما ذكره من شأن النزول، لا اعتماد عليه ولا اعتبار به فلا يصلح التشبّث به في تفسير «المدّثّر» وفي إثبات أنّ السّورة أوّل ما نزل من القرآن. والوجه الثاني يناقض الوجه الأوّل. فإنّ الوجه الأوّل مبنيّ على أنّ السّورة أوّل ما نزل من القرآن وما استقرّ بعدُ أمر رسالته ودعوته؛ والوجه الثاني مبنيّ على قيامه بالدعوة ومجاهدته وإصراره في مبارزة المشركين.

وقيل: إنّ المراد بالتدثّر هو التلبّس بحمل الرسالة والنبّوة وتحمّل شدائدها. (تفسير الرازيّ ٣٠/ ١٩٠) وهذا تأويل بلا دليل.

وما قال بعض المفسّرين من أنّ المتدثّر هو الّذي يتدثّر بثيابه لينام اوليستدفئ (تفسير الرازيّ ٣٠/ ١٨٩، مجمع البيان ١٠/٣٨٣) لاوجه ولا دليل على أخذ المنام و الاستدفاء في مفهوم التدثّر والدّثار. بل الظّاهر أنّ الدّثار هو الثياب فوق الشّعار.

قال في الكشّاف ٤/ ١٨٠: المدّثّر لابس الدّثار؛ وهو مافوق الشعار، وهو الثوب الّذي يلي الجسد. ومنه قوله (ص): الأنصار شعار. والنّاس دثار.

وهذا بعينه مفاد عبارة القاموس المتقدّمة. وهذا هو المؤيّد بإطلاق الآية الّذي ليس فيه دلالة على أخذ النوم في مفاد المدّثّر.

أقول: إذا قلنا: إنّ الدثار هو الثوب المتعارف غير الشّعار ـــ على أنواعه من العباء و نظائره ـــ فيكون معنى قوله تعالى: «يا أيّها المدّثّر» أي: لابس الدثار. وإذا تكرّر ذلك من شخص في غالب حالاته وأوقاته، فيصحّ مخاطبته بذلك الوصف، كأنّه صار عنواناً واسمًا له. فلا يبعد أن يكون خطابه تعالى لرسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «يا أيّها المدّثّر» من هذا القبيل. كما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: «يا أيّها المزّمّل» أنّ المزّمّل اسم من أسماء رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله.

ففي البرهان ٣/٢٨، في تفسير قوله تعالى: «طه ما أنزلنا عليك ...» عن سعد بن عبدالله مسنداً، عن الكلبيّ، عن أبي عبدالله ـ صلوات الله عليه ـ قال:

> قال: يا كلبي، كم لمحمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ من اسم في القرآن؟
>
> قلت: اسمان أو ثلاثة.
>
> فقال: يا كلبي، له عشرة أسماء: «وما محمّدٌ إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل». [آل عمران /١٤٤] وقوله: «ومبشّرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» [الصف /٦] ... «يا أيّها المدّثّر» و«يا أيّها المزّمّل» ...

قوله تعالى: «قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)».

قيل: معناه: قم من مضجعك . (تفسير الرازي ٣٠/ ١٩)
أقول: وليس بواضح. إذ لادليل على أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان حين النزول مضطجعاً. وليس قوله تعالى: «المدّثّر» قرينةً على اضطجاعه متدثّراً بدثار نومه، لاحتمال أن يكون المراد من المدّثّر لابس الدّثار.

وقيل: إنّ المراد من قوله: «قم»؛ أي: العزم والجدّ القاطع على الإنذار والبلاغ والمجاهدة في إحقاق الحقّ وإبطال الشرك . فتكون الآية في سياق قوله تعالى: «فاصدع بما تؤمرو أعرض عن المشركين* إنّا كفيناك المستهزئين» . (الحجر/٩٤ و٩٥) وقد وردت في تفسير هذه الآية روايات عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ أنّه تعالى أمر رسوله بإجهار الدّعوة بعد ما كان يكتم أمره ثلاث سنين (البرهان ٢/ ٣٥٥) وصرّح به المسعوديّ في مروج الذهب ٢/ ٢٧٥. وفي ذلك دلالة على نقض ما قيل إنّ سورة المدّثّر كانت أوّل ما نزل من القرآن على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ مع أنّه مخالف صريح لما يشتمل عليه السّورة المباركة من الإخبار بمبارزة الوليد مع رسول الله وتكذيب القرآن المبين. ومن المعلوم أنّه نزلت آيات عديدة قبل هذه المبارزة، إلّا أن نلتزم أنّ أوائل السّورة نزلت عند أوّل ما شرع ـ صلّى الله عليه وآله ـ بالدّعوة والإجهار بها، وبقيّة السورة نزلت بعد ذلك .

قوله تعالى: «فأنذر» .

الظّاهر بقرينة حذف المتعلّق، هوالعموم؛ أي: إنذارجميع الناس في شرق الأرض وغربها، المؤمن والكافر، سواء في عصر الحضور أو بعده إلى انقضاء الدّنيا، لأنّ رسالته ونبوّته ـ صلّى الله عليه وآله ـ تعمّ جميع أهل العالم إلى يوم القيامة.

وواضح أنّ إنذار الناس من عذاب الآخرة ونارها، مساوق لدعوة النّاس إلى الإيمان بالمعاد واليوم الآخر. وقد تكاثرت بذلك نصوص القرآن المبين كقوله تعالى:

«وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ». (الأنعام/ ١٩)

وأمّاما قيل: «إنّ المراد: أنذرقومك» استدلالاً بقوله تعالى: «وأنذرعشيرتك

الأقربين» (الشّعراء/٢١٤) فضعيف غايته. لوضوح أنّ النّسبة بين هذه الآية وبين الآيات الدالّة على العموم، نسبة العامّ والخاصّ. فلا يجوز في أمثال المقام حمل العامّ على الخاصّ، وتخصيص العامّ به. فإنّ ذلك متوقّف على ثبوت التنافي بينهما بالنّفي والإثبات. وإنّما ذكر العشيرة هناك لعناية خاصّة بذكرها مثل حق القرابة برسول الله ـ صلّى الله عليه وآله.

وكذلك الكلام في كل مورد يكون العامّ والخاصّ كلاهما مثبتين؛ مثل قوله تعالى: «لتنذر أمّ القرى ومن حولها». (الأنعام/٩٢) فعلى عهدة المفسّر التجزية والتحليل، وتحقيق العناية المسوقة لها الآيات.

وقال الرازيّ: وهاهنا قول ثالث. وهو أنّ المراد: فاشتغل بفعل الإنذار. كأنّه تعالى يقول له: تهيّأ لهذه الحرفة، فإنّه فرق بين أن يقال: تعلّم صنعة المناظرة، وبين أن يقال: ناظر زيدا. (تفسير الرازى ٣٠/ ١٩٠)

أقول: الآية الكريمة قويّة الظهور في أنّه تعالى أمر رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بإنذار النّاس، وأجنبيّة عمّا توهّمه الرازي. ولا محصّل لتهيّؤ رسول الله بحرفة الإنذار.

قوله تعالى: «وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣)».

أي: قم فكبّر ربّك. عطف على قوله: «فأنذر».

وفي المجمع ١٠/٣٨٤ ما ملخصه: وفائدة تقديم المفعول التخصيص. لأنّك إذا قلت: «ربّك فكبّر» يفيد وجوب تكبير الرب وعدم جواز تكبير غيره. وإذا قلت: «كبّر ربّك» لم يدلّ على عدم جواز تكبير غير الربّ.

ومعنى تكبيره تعالى، تعظيمه وتجليله بحسن الثناء عليه، بأسمائه الّتي سمّى نفسه بها، وكذلك تسبيحه وتنزيهه تعالى عمّا قال فيه المشركون والملحدون. ولمّا كان تكبيره ـ سبحانه ـ بهذا المعنى أمرًا حسنًا بضرورة من العقل، فلا محالة يكون الأمر بالتّكبير أمراً إرشاديّاً.

وقد تقرّر في محلّه أنّ الأمر الإرشاديّ لا إطلاق فيها ولا تقييد؛ بل يدور مدار الأمر المرشد إليه سعةً وضيقاً ووجوباً وندباً. مثلاً يكون الأمر في مورد الإيمان بالله وتوحيده، لمن عرف الله وتوحيده، تذكيراً إلى ما هو واجب بذاته.

ويكون في مورد الإحسان إلى النّاس وأمثاله، أمراً مرغوباً ومندوباً إليه.

ففي مورد الآية المبحوثة ، لمّا كانت السّورة المباركة من أوائل مانزلت على رسول الله - صلّى الله عليه وآله - وفي طليعة دعوته الحقّة تقريباً، وكانت الآية معطوفةً على قوله تعالى: «قم فأنذر»، يكون المعنى: وربّك فعظّمه وسبّحه ونزّهه عمّا قال فيه كلّ مشرك وملحد. وبعبارة أخرى: يكون معنى قوله تعالى: «وربّك فكبّر»: الله أكبر وأجلّ وأعلى من أن يوصف ويتصوّر ويتوهّم. فهو بعينه دعوة إلى الله العزيز القدّوس، وكسرٌ للاصنام، وخلع للأضداد والأنداد.

في البحار ١٨/١٩٦ في حديث:

«... توجّه إلى خديجة. فكان كلّ شيء يسجد له ويقول بلسان فصيح: السّلام عليك يا نبيّ الله!

فلمّا دخل الدار، صارت الدار منوّرةً. فقالت خديجةَ: وما هذا النّور؟

قال: هذا نور النبوّة. قولي: لا إله إلا الله. محمّد رسول الله. فقالت: طا لما عرفت ذلك. ثمّ أسلمت.

فقال: يا خديجة، إنّي لأجد برداً. فدثّرت عليه. فنام، فنودي: «يا أيّها المدّثّر» - الآية. فقام وجعل إصبعه في أذنه، وقال: الله اكبر! الله اكبر! فكان كلّ موجود يسمعه يوافقه.»

أقول: لاخلاف ولاخفاء عند أولي الابصار في أنّ الله - سبحانه - أجلّ من أن يقاس بشيء من الموجودات في ذاته وفي صفاته ونعوته - سبحانه. فلا تفاضل بينه تعالى وبين من سواه من خلقه، كي يكون هوالله - سبحانه - أكبر من الجميع. فإنّ ذلك متوقّف على أن يكون - سبحانه - في مرتبة ما سواه وفي عرضه. فعلى هذا، لابدّ من تجريد صيغة أفعل من التفاضل في صفاته تعالى وترفيعه وتقديسه - سبحانه - من أن يكون في عرض ما سواه من خلقه. وهذه الرواية وإن كانت مرسلةً، إلّا أنّها موافقة لظاهر الآية. ولها شواهد كثيرة في الكتاب والسنّة والخطب المباركة المسوقة لنفي الصّفات عنه تعالى.

وقال تعالى:

«وقل الحمد لله الّذي لم يتخّذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبّره تكبيراً». (الإسراء / ١١١)

بيان: الآية المباركة مسوقة في مقام تنزيه تعالى وتقديسه عن اتّخاذ الولد والشريك، ونفي الوليّ عنه تعالى من حيث المهانة والفاقة. وقد شرحنا هذه التنزيهات في كتابنا بدائع الكلام/٢٦٧.

وأمّا قوله تعالى: «وكبّره تكبيراً» فعطف على قوله تعالى: «وقل الحمد لله» في صدر الآية. والظاهر من هذا التكبير بقرينة ما سبق من التقديسات، الإطلاق في هذا التكبير، وتنزيهه تعالى عن صفات المخلوقين، وعن كلّ ما يقول فيه تعالى المشركون والملحدون. وبعبارة أخرى: هذا التكبير لإفادة العموم والإطلاق بعد تقديسه عن اتّخاذ الولد والشّريك والوليّ.

في الفقيه ٢/ ٢٣٩ بإسناده إلى سليمان بن مهران، قال: فقلت: فكيف صار التكبير يذهب بالصّفاط هناك ؟ قال أبوعبدالله ـ عليه السّلام ـ:

«لأنّ قول العبد: «الله اكبر» معناه: الله اكبر من أن يكون مثل الأصنام المنحوتة والآلهة المعبودة دونه.»

بيان: الرّواية الشّريفة ناصّة على ما استظهرناه من أنّ قوله تعالى: «فكبّره تكبيراً» أعمّ من التنزيهات الثلاثة المتقدّمة ـ أي: اتّخاذ الولد والشريك والوليّ ـ وشامل لها ولغيرها؛ كما نصّ عليه بقوله: «الله اكبر من أن يكون مثل الأصنام المنحوتة والآلهة المعبودة دونه» بل يشمل جميع التوصيفات الموجبة للتشبيه والإلحاد في ذاته تعالى وصفاته وأفعاله. فإنّ الظّاهر من قوله: «مثل الأصنام» من باب المثال.

وفي الكافي ١١٧/١ مسندًا، عن ابن محبوب، عمّن ذكره، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال:

«قال رجل عنده: الله اكبر.

فقال: الله اكبر من أيّ شيء؟

فقال: من كلّ شيء.

فقال أبوعبدالله ـ عليه السّلام ـ: حدّدته.

فقال الرجل: كيف أقول؟

قال: قل: الله اكبر من أن يوصف.

وفيه ١١٨/١ مسنداً عن جميع بن عمير قال:

قال أبوعبدالله ـ عليه السّلام ـ: أي شيء الله اكبر؟

فقلت: الله اكبر من كلّ شيء.

قال: فكان ثمّ شيء فيكون اكبر منه؟!

فقلت: وما هو؟

قال: اكبر من أن يوصف.

أقول: لايخفى أنّ هذين الحديثين ليسا متعرّضين لتفسير الآيتين؛ أي: «ربّك فكبّر» و «كبّره تكبيراً». بل الغرض من ذكرهما هاهنا أنّ أفعل في صفاته تعالى منسلخة عن التفاضل. وفيهما تأييد وشهادة على ما يدلّ عليه رواية الفقيه المتقدمة.

فإن قلت: فماتقول فيما ذكره بعضهم أنّ الآيتين مسوقتان لإفادة إيجاب التكبير في الصّلاة؟ قال في كنز العرفان ١١٧/١: دلّت الآيتان على وجوب شيء من التكبير. ولا خلاف في عدم الوجوب في غير الصلاة. فيكون الوجوب في الصلاة. وهو المطلوب.

قلت: يرد عليه أوّلًا: أنّ الأمر بصيغة «افعل» ليست موضوعةً للوجوب بحسب اللّغة والّذي يمكن أن يقال أنّ إطلاق الأمر يقتضي الوجوب.

وثانياً: أنّ مورد التكبير من المستقلات العقليّة ولفظة «فكّبر» أو «كبّره تكبيراً» إرشاد وتذكير إلى وجوب تنزيهه تعالى وتقديسه تعالى عن كلّ ما يصفه الجاهلون من صفات خلقه، على ما مرّمن البيان. فليس الأمر بالتكبير في الآيتين أمراً مولوياً في مقام جعل جزئيّة التكبير أوشرطيّته في الصّلاة. بل الأمر بتكبيره تعالى وتسبيحه تعالى، من العبادات الذاتيّة مثل السّجود ونظائره، من دون احتياج إلى جعل جاعل.

نعم، يمكن أن يجعل الشّارع هذه الحقيقة الواجبة بذاتها، جزءاً أو شرطاً في الصّلاة على سبيل الوجوب أو الاستحباب؛ إلا أنّ هذا يحتاج إلى عناية

زائدة بالبيـان التشريعيّ المولوي. وهذا الأمر الإرشاديّ غيرصالح لجعل جزئـيّة التكبير أو شرطيّته في الصّلاة؛ ولا يمكن أن يقال أنّ قوله تعالى: « فكبّر» أو « كبّره تكبيراً» في عين أنّه إرشاديّ مسوق لتقديس الصّانع ـ جلّ ثناؤه ـ متكفّل للجعل المولويّ جزئيّة التكبير للصّلاة أيضاً.

قوله تعالى: « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)».

فيه مسائل: أحدها: إنّ الطّهارة لغةً بمعنى النظافة. وهي على مراتبها بالشدّة والضّعف من المحسّنات الضروريّة العقليّة. وعلى فرض أنّ الأمر، أمر مولويّ، لا دليل في المقام على أنّ الخطاب خطاب لشخص رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ مالم يقم دليل قاطع آخر على ذلك. فعليه لايكون الأمر بتنظيف اللّباس من باب القضايا الشخصيّة، بل هي من القضايا الحقيقيّة، شاملة له ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولغيره من المكلّفين أيضاً.

وثانيها: إنّ في تقديم قوله تعالى: « وثيابك » على قوله تعالى: « فطهّر» إشعاراً باختصاص هذا التّنظيف باللّباس فقط، دون البدن والمأكل والمشرب والمسكن وغيرها من المصارف؛ مع أنّ الطهارة في غير اللّباس أيضاً مطلوبة و مرغوبة فيها. ولعلّ العناية في هذا الاختصاص، هو الأمر بتنظيف خاصّ للثّياب مثل التّشمير. وتشهد على ذلك وتؤيّده الآية التالية: « والرّجز فاهجر» الدالّة على وجوب التحذّر والاجتناب عن جميع القذارات والخبائث سواء كان في الثياب أو غيرها من المصارف.

قد اتّضح ممّا ذكرنا أنّ تطهير الثياب من النجاسات إنّما يستفاد من قوله تعالى: « والرّجز فاهجر». فإنّها صريحة في أنّ النجاسات والخبائث كلّها يجب تطهيرها عن الثياب والبدن والمأكول والمشروب وغيرها من المصارف، أخذاً بعموم قوله تعالى: « والرجز» المحلّى بالألف واللّام المفيدة للاستغراق. وأمّا وجوب الاجتناب، فيستفاد من إطلاق الأمر في قوله تعالى: « والرجز فاهجر» إلى أن يرد توضيح وتفصيل وتقييد للآية من أدلّةٍ أخرى، على ما سيجيء ـ ان شاء الله.

فلا ريب أنّ قوله تعالى: « فثيابك فطهّر» لايدلّ على أزيد من الأمر

بالتنظيف الخاصّ؛ كالتشمير والغسل من الأوساخ الّتي لم تبلغ حدّ القذارة.

ويستشهد على ما استظهرنا من البيان، بعدّة من الروايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت -عليهم السّلام-:

في الوسائل ٣/٣٦٤ مسنداً، عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- في قول الله عزّوجلّ: «وثيابك فطهّر» قال: فشمّر.

وفيه ٣/٣٦٥، عن الكافي مسنداً، عن سلمة بيّاع القلانس قال:

كنت عند أبي جعفر -عليه السّلام- إذ دخل عليه أبو عبدالله -عليه السّلام. فقال أبو جعفر: يا بنيّ، ألا تطهّر قميصك ؟!

فذهب. فظننّا أنّ ثوبه قد أصابه شيء. فرجع. فقال: إنّه هكذا. فقلنا: جُعلنا فداك؛ ما لقميصه؟

قال: كان قميصه طويلاً. فأمرته أنّ يقصّره. إنّ الله -عزّوجلّ- يقول: «وثيابك فطهّر».

وفي نورالثقلين ٥/ ٤٥٣، عن الخصال، فيما علّم أميرالمؤمنين -عليه السّلام- أصحابه من الأربعمائة:

«تشمير الثياب طهورها. قال الله -تبارك وتعالى-: «وثيابك فطهّر»؛ يعني: فشمّر.»

وفي البرهان ٤/ ٤٠٠، مسنداً، عن معلّى بن خنيس، عن أبي عبدالله قال:

إنّ عليّاً- عليه السّلام- كان عندكم. فأتى بني ديوان فاشترى ثلاثه أثواب بدينار: القميص إلى فوق الكعب، والإزار إلى نصف السّاق، والرّداء من بين يديه إلى ثدييْه ومن خلفه إلى إليتية. ثمّ رفع يده إلى السّماء؛ فلم يزل يحمد الله على ما كساه حتّى دخل منزله. ثمّ قال: هذا اللبّاس الّذي ينبغي للمسلمين أنّ يلبسوه.

قال أبو عبدالله -عليه السّلام-: ولكن لا يقدرون أن يلبسوا هذا اليوم. ولو فعلنا، لقالوا: مجنون! ولقالوا: مراء! والله تعالى يقول: «وثيابك فطهّر». قال: وثيابك ارفعها ولا تجرّها. فإذا قام قائمنا، كان على هذا اللّباس.

وفيه أيضاً مسنداً، عن رجل من أهل اليمامة كان مع أبي الحسن ـ عليه السّلام ـ أيّام حبس ببغداد قال: قال لي أبوالحسن ـ عليه السّلام ـ:

«إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قال لنبيّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ: «وثيابك فطهّر». وكانت ثيابه طاهرةً، وإنّما أمره بالتشمير.»

وفي مجمع البيان: ١٠/٣٨٥ وروى أبو بصير، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال: قال أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ:

«غسل الثياب يذهب الهمّ والحزن. وهو طهور للصلاة. وتشمير الثياب طهورها. وقد قال الله ـ سبحانه ـ: «وثيابك فطهّر»؛ أي: فشمّر.»

أقول: لايخفى أيضاً أنّ تفسير قوله تعالى: «وثيابك فطهّر» بالتّشمير في هذه الروايات من باب بيان المصداق البارز، لامن باب بيان تمام المراد. بل يمكن أن يكون هنا للآية مصداق آخر للنّظافة؛ مثل الطهارة من الوسخ والعرق والغبار وغيرها.

وفي الآية الكريمة أقوال أخر أعرضنا عن إيرادها في هذا المقام. والعمدة منها أنّ المراد الطهارة عن النجاسات لأجل الصلاة. قال في كنزالعرفان ١/٥٤: الأكثر على أنّ المراد الطّهارة من النجاسات.

وهو صريح الجصّاص في كتابه أحكام القرآن ٣/٤٧٠.

وخلاصة ما استدلّوا لذلك وجوه:

الأوّل: إنّ الأمر حقيقة في الوجوب. ولاشيء من الطّهارة واجبة بذاتها إجماعاً إلّا لأجل الصّلاة.

الثاني: إنّ المراد في قوله تعالى: «وربّك فكبّر» تكبيرة الإحرام. وهذا قرينة على أنّ المراد بالطّهارة هي الطّهارة لأجل الصّلاة.

الثالث: إنّ الله ـ سبحانه ـ أمر رسوله بتطهير ثيابه في مقابل ما كان عليه المشركون من أنّهم كانوا لايغسلون ثيابهم من النجاسة.

الرابع: إنّ قوله تعالى: «والرجز فاهجر» بناءاً على أنّ المراد من الرّجز القذر، عطف تفسير وتأكيد لقوله تعالى: «وثيابك فطهّر». فيكون المراد

هي الطّهارة الشرعيّة عن النجاسات.

الخامس: أقول: ويمكن أن يقال: إنّ الأمر وإنّ لم يُفد الوجوب بحسب اللّغة، إلاّ أنّه يفيد الوجوب من ناحية إطلاق الأمر، كما هو المقرّر في علم الأصول.

أقول: أما الجواب عن الوجه الأوّل؛ فنقول: ليس الأمر بحسب اللّغة للوجوب. ومعنى الطّهارة في اللّغة هي النظافة لا الطّهارة الشرعيّة المقرّرة في الفقه الإسلاميّ. فإنّ ذلك متوقّف على القول بالحقيقة الشرعيّة أو المتشرّعة في لفظ الطّهارة. بل الآية إرشاد إلى حسن النظافة بحسب إدراك العقل.

أمّا الوجه الثاني؛ أي: إنّ المراد في الآية الطّهارة الشرعيّة لأجل الصّلاة، بقرينة قوله تعالى: «وربّك فكبّر» فالمراد منه تكبيرة الإحرام في الصلاة. فيناسبه أن يكون المراد من قوله: «فَطهّر» هي الطهارة في الصّلاة.

قلت: قد عرفت أنّ قوله تعالى: «وربّك فكبّر» أي: إنّه تعالى أكبر من أن يوصف. فيكون المراد تنزيهه -سبحانه- وتقديسه عن صفات المخلوقين. فلا يمكن أن يقال: إنّ قوله تعالى: «وربّك فكبّر» مسوق لجعل التكبير جزءاً للصّلاة. وكذلك لايصلح أن يكون قوله تعالى: «وثيابك فطهّر» لبيان شرطيّة الطهارة للصّلاة

وأمّا الوجه الثالث؛ فإنّ الأمر وإنّ كان متوجّهاً لشخص رسول الله -صلّى الله عليه وآله- إلاّ أنّ الحكم عقليّ والقضيّة حقيقيّة والأمر إرشاد إلى حسن النظافة بالنسبة إلى جميع العقلاء؛ المؤمن والكافر. ولايصلح أن يقال: إنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- مأمور بغسل ثيابه، في مقابل المشركين وفي مقابل سنن الجاهليّة فإنّهم كانوا لايغسلون ثيابهم.

وأمّا الوجه الرابع؛ فيرد عليه أنّ الآيتين ليستا متّحدتي المفاد، كي تكون الثانية تفسيراً للأولى، وتأكيداً لها. والثانية تأمر بالاجتناب عن جميع الأقذار والخبائث، بحسب الإطلاق في متعلّق الأمر في جميع المصارف حتّى الثياب أيضاً، فتكون قرينةً على أنّ الأمر في الآية الأولى في مورد نظافة الثياب عن الأوساخ فقط.

وأمّا الوجه الخامس؛ فيرد عليه أنّ دلالة الأمر على الوجوب من ناحية إطلاق الأمر وإن كان حقّاً في حدّ نفسه لكنّه يرد عليه أيضاً ما ذكرناه مراراً من أنّ الأمر بتطهير اللّباس أمر إرشاديّ، ولا محصّل للإطلاق والتقييد في الأوامر الإرشادية.

وعلى فرض كون الأمر مولويّا، يكفي في تقييد الآية قوله تعالى: «والرجز فاهجر». فيجب الاجتناب عن النجاسات في اللّباس. ويتعيّن أنّ الأمر بالتّطهير في هذه الآية، هو موارد الاستحباب. بالإضافة إلى أنّ الروايات المفسّرة لها بالتشمير في بعضها دلالة على أنّ هذه الآية مسوقة في بيان مايصلح للمرء المسلم أنّ يتّخذ من الثياب المطلوب في الإسلام من حيث تحصيل الطهارة بالتشمير والتغسيل.

قوله تعالى: «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥)».

قال في القاموس ١٧٦/٢: الرجز - بالكسر والضمّ -: القذر، وعبادة الأوثان، والعذاب، والشرك.

أقول: الأظهر من بين هذه المعاني، هو المعنى الأوّل في هذا المقام؛ لشدّة المناسبة بين هذه الآية الّتى تأمر باجتناب الرّجز، وبين قوله تعالى: «وثيابك فطهّر» الّذي يأمر بنظافة الثياب.

في البرهان ٤/ ٤٠٠، عن عليّ بن إبراهيم: قوله: «والرّجز فاهجر» فالرجز: الخبيث.

أقول: وقوله: «الرجز» بالألف واللام يفيد العموم؛ أي: عموم ما يستقذره الناس من الخبائث.

والظّاهر عمومه وشموله للنّجاسات التعبّديّة؛ أيضاً؛ مثل الميتة الطّريّة، والذبائح الفاقدة للشّرائط الشرعيّة من التّسمية وغيرها، وأنواع الخمر الّتي لايستقذرها الناس. فإنّ النجاسة التشريعية مثل النجاسة التكوينيّة من حيث جهة تشريعها.

قوله تعالى: «فاهجر». قال في القاموس ١٥٧/٢: هجره هَجراً - بالفتح - وهجرانا - بالكسر -: صَرَمَهُ. والشيء: تركه. كأهْجَرَهُ. وفي الصّوم:

اعتزل فيه عن النكاح. وهمايهتجران و يتهاجران: يتقاطعان.

وإطلاق الأمر في قوله -سبحانه-: «فاهجر» يفيد الوجوب. والإطلاق في الهجر يفيد المنع على الإطلاق؛ أي بالنسبة إلى جميع أنواع الهجر من الأكل والشرب والتداوي والافتراش واللّباس وغيرذلك من المصارف كلّها. فلايجوز الانتفاع بشيء من الأعيان النجسة؛ سواء كانت عرفيّة عقلائيّةً أو تعبّديّةً تشريعيّة إلاّ أنّ الآية الكريمة في معرض التقييد؛ فعلى عهدة الفقيه الفحص والبحث عن المقيّدات. فإن أصاب شيئا منها؛ وإلاّ يأخذ بإطلاقها.

قوله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ(٦)».

بيان: قدنهى -سبحانه- عن المنّ، ولم يذكر متعلّق المنّ أنّه في العطيّة أو في الصّدقة الواجبة أو المندوبة، أو المنّ على الله -سبحانه- في طاعاته وقرباته؛ مثل قوله تعالى: «قل لاتمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان». (الحجرات/١٧) فالظّاهر هو الإطلاق وشمول الآية الكريمة لمطلق المنّ بعد الإحسان والخير.

وهل النهي في الآية الكريمة تشريعيّ مولويّ؟ أو إرشاد وتذكرة لِلعاقل إلى رداءة عادة المنّ وأنّه من عادة السّفَلَة، وليس تكدير العطاء بالمنّ من سنّة الكرام الأحرار المتأدّبين بآداب الله -سبحانه؟ ففي الصّحيفة السجّادية، الدعاء ١٣ قال -عليه السّلام-:

«يا من لايبيع نعمه بالأثمان، ويا من لايكدّر عطاياه بالامتنان.»

أقول: واضح عند أولي الألباب أنّ المنّ على أهل الحاجة احتقار لهم واستعظام لنفسه؛ و هو قبيح بالضرورة.

وفي المجمع ٣٨٥/١٠ قال في تفسير المقام: هذا للنبيّ -صلّى الله عليه وآله- خاصّةً. أدّبه الله -سبحانه- بأكرم الآداب وأشرفها. عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والنخعي والضحّاك.

أقول: الظّاهر من عبارة المجمع أنّه يرى ذلك من الفضائل لا من العزائم. ولايخفى ما فيه من الضّعف. ويشكل الجمع بينه و بين إخلاص العمل لِلّه والتقرّب إلى الله بهذا العمل الرديّ، سيّما مع اقترانه بتعبيس الوجه والانتقاص

من أهل الحاجة، وهو الأذى على ما فسّره في المجمع ٣٧٦/٢ بعمل المفسدين في تفسير الأذى في قوله تعالى:« يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالّذي ينفق ماله رئاء الناس». (البقرة/٢٦٤)

ثم إنّ ما ذكره في المجمع: « هذا للنّبي خاصّة» غيرسديد. فإنّ الظاهر من كلامه أنّ ارتكاب ذلك من المقبّحات البديهيّة عند العاقل. فكيف يختصّ بالنّبيّ ـ صلّى الله عليه وآله؟! والأحكام العقليّة الضروريّة لافرق فيها بين شخص وشخص؛ وإنّما كان موضوعها العاقل وكلّ من عرف وعقل.

وبهذا ينقدح القول بأنّ النّهي عن المنّ حكم تشريعيّ مولويّ. فكما أنّه ـ سبحانه ـ يؤدّب بذلك رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كذلك يؤدّب به أفاضل أمّته وجميع المؤمنين وجميع أهل دعوته. ولا سبيل إلى أن يقال: إنّ النهيّ خاصّ بالنبيّ. فالقول بهذا الاختصاص، تخصيص بلا مخصّص. وعليه،تكون الآية الكريمة مسوقةً على نحو القضيّة الحقيقيّة شاملةً له ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولغيره.

ومن أراد التفصيل فليراجع تفسير قوله تعالى: « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى» (البقرة/٢٦٤) وما ورد في ذيلها من الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت ـ عليه السّلام.

قوله تعالى: « تستكثر» ـ بالرفع ـ قيل فيه وجوه وأقوال. وأحسن ما قيل في هذا الباب وجهان:

الأوّل: إنّه حال من الفاعل في قوله تعالى: « لا تمنن». أي: لا تمنن مستكثراً بعطائك تظهر أنّه كثير، سواء كان كثيراً أو قليلاً.

والثاني: إنّه بدل من «لاتمنن». أي: لا تمنن بأن تستكثر عطاءك وتزعم أنّه كثير. فعلى هذا يكون المستكثر بعينه مصداقاً للمانّ ويتحقّق المنّ المذموم بالاستكثار. (تفسير الرازي ١٩٣/٣٠)

في البرهان ٤/ ٤٠٠، عن الكافي مسنداً، عن ابن القدّاح، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال: قال في قوله تعالى: « لا تمنن تستكثر». قال:

تستكثر ما عملت من خيرلله.

أقول: الحديث الشّريف ينطبق على الوجهين المذكورين؛ إلاّ أنّ الأوفق بظاهر الآية، هو الثاني. ولا يخفى أيضاً انطباق الحديث بما ذكرناه من الإطلاق في قوله: «لاتمنن».

وقيل: معناه: لاتعط عطيّةً لتُعطى أكثر منها. (مجمع البيان ١٠/٣٨٥)

وهذا الوجه ضعيف. فلا دليل له من ظاهر لفظ الآية. لأنّه منقطع عن قوله: «لاتمنن» ومتوقّف على أن يكون «تستكثر» نهياً مستقلاً ومنقطعاً عمّا قبله. وكذلك الأقوال الّتي تناسب ذلك وتشترك في وجه الاستظهار. وأوهن من الجميع ما أورده الشيخ في تبيانه ١٠/١٧٣، قال: لاتمنن ما أعطاك الله من النبوّة والقرآن، مستكثراً به الأجر من الناس.

ومحصّل الكلام في الفرق بين ما اخترناه وبين ما ذكره القوم: إنّه بناءاً على ما ذكرناه، يوجد نهي واحد وتحريم واحد. وعلى ما ذكروه، يوجد نهي عن المنّ ونهي آخر عن الاستكثار مستقلاً. فتحصّل في المقام أنّ الآية الكريمة، ظاهرة في المنع عن المنّ بالإستكثار.

وهل المنع المذكور ـ سواء كان المنّ بالاستكثار أو بطريقٍ آخر ـ يوجب بطلان العمل من أصله، أو حبط ثوابه، أو لايوجب شيئاً منها؟ مقتضى ما ذكرناه من أنّ العمل المذموم بذاته أو بالنهي المولويّ تحريماً **أوتنزيهاً**،**ممّا لا يتقرّب** به إلى الله ـ سبحانه ـ هو البطلان رأساً، إذا كان العمل من حيث صحّته وترتّب الأثر عليه مشروطاً بقصد الأمرو تحقّق الإخلاص فيه؛ مثل الزكاة الفريضة، على ما هو المعروف من كونها مشروطة بالنيّة وقصد القربة والإخلاص.

قال تعالى:

«لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالّذي يُنفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شيء ممّا كسبوا والله لايهدي القوم الكافرين».
(البقره/٢٦٤)

بيان: قال المولى المحقّق الأردبيليّ -قدّس سرّه- في زبدة البيان/٢٠٣: لاتحبطوا أجر الصّدقة بكلّ واحدٍ من المنّ والأذى، كإبطال المرائي إنفاقه الّذي لايريد به رضى الله ولا ثواب الآخرة.

أقول: الظّاهر أنّ مراده من إحباط الأجر، إحباط الأجر بإحباط العمل. فإنّ الآية الكريمة ظاهرة في بطلان عمل الصّدقات. وفيها تَوبيخ شديد على من تصدّق وأبطله بالمنّ والأذى وجعله مثل الرياء الّذي هوالشرك الأصغر. ولا يبعد الاستشهاد بها على حرمة المنّ والأذى، بل هي صريحة في ذلك.

فتعيّن أنّ متعلّق التحريم والإبطال هي الصّدقة بالمنّ والأذى. وإن شئت فقل: المنّ بالصّدقة، مثل إنفاق المرائي ماله رئاء الناس، أي رئاءه بالإنفاق. فليس المراد تحريم المنّ والأذى بعد الصّدقة، كما هو مفاد قوله تعالى: «الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثمّ لايتبعون ما أنفقوا منّاً ولاأذىً لهم أجرهم عند ربّهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون». (البقرة/٢٦٢) فكم فرقاً بين مفاد الآيتين، وبين المنّ بعد الصّدقة الصحيحة الثابت ثوابها.

فلا محالة تكون الآيتان ظاهرتين في بطلان الصّدقة وبطلان ثوابها أيضاً ببطلان أصلها؛ بخلاف قوله تعالى: «الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثمّ لايتبعون ماانفقوا منّا ...». فلا دلالة فيها على بطلان أصل الصّدقة بل يمكن الاستظهار بها على بطلان ثوابها. وقد تقرّر في محلّه أنّ كلّ عمل صحيح أُتي به بقصد الأمر وبقصد الاخلاص، يشترط في قبوله وترتّب الثواب عليه التقوى. قال تعالى: «إنّما يتقبّل الله من المتّقين». (المائدة/٢٧)

في تفسير العيّاشي ١٤٧/١، عن المفضّل بن صالح، عن بعض أصحابه، عن جعفربن محمّد، عن أبي جعفر -عليه السّلام- في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى...» قال: نزلت في عثمان. وجرت في معاوية وأتباعهما.

أقول: فيه دلالة على أنّ المراد من المرائي الّذي ينفق ماله هوالمنافق لاالكافر. لأنّ الكفّار بحسب الظاهر لايتصدّقون بشيء حتّى يكون رئاءاً أو غير رئاء.

ولايخفى أنّ ما ذكرنا من الإطلاق في قوله تعالى: «لا تمنن تستكثر» في معرض التخصيص؛ وعلى عهدة الفقيه، الفحص والبحث عن المقيّدات. وإن أصاب بشيء منها، فذاك ؛ والاّ فالمرجع هو الإطلاق في هذه الآية ونظائرها.

قوله تعالى: «ولِرَبِّك فَاصْبِرْ (٧)».

بيان: لا كلام في فضيلة الصّبر ووجوبه أحياناً عقلاً، وأنّ الصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. والآية الكريمة مطلقة من حيث متعلّق الصّبر وشاملة لجميع أنواع الصّبر؛ أي: إرشاد وتذكرة إلى فضيلة جميع أنواع الصّبر: الصّبر على المصيبة والصّبر على الطّاعة والصّبر عن المعاصي. فيجب عقلاً القيام والمجاهدة لإيجاد الصّبر.

والظّاهر أنّ توجيه الخطاب إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله - بعناية اهتمام خاصّ في حقّه - صلّى الله عليه وآله - في الصبر على حمل أثقال النبوّة والرسالة وأحمالها الخطيرة. فلا يفيد اختصاص الامر به - صلّى الله عليه وآله.

وقد تقرّر في محلّه أنّ جميع خطابات القرآن المسوقة في حقّه، شاملة له ولغيره من المكلّفين أيضاً بوساطته - صلّى الله عليه وآله - مثل قوله تعالى: «أقم الصّلاة لدلوك الشمس إلى غسق اللّيل» (الإسراء / ٧٨) وغيره من الآيات؛ إلاّ أن يقوم دليل قاطع على اختصاص الخطاب به - صلّى الله عليه وآله.

وقد عرفت أيضاً أنّ الصبر سنّة حسنة عقلية، وفريضة عقليّة أحياناً. فلا محصّل لاختصاص الأمر بالصّبر برسول الله - صلّى الله عليه وآله.

ولمّا كان الصّبر بما هو صبر، من أشرف ما يمكن أن يتقرّب به إلى الله - سبحانه - فلا محالة يحتاج تحقّق العبادة والعبوديّة فيه إلى قصد وجوبه الذاتيّ أو حسنه، وإلى قصد الإخلاص فيه؛ كما في غيره من العبادات المولويّة. غاية الأمر أنّ العبادة في العبادات الشرعيّة التعبّديّة، تتحقّق بقصد أمرها ويحتاج إلى قصد الاخلاص فيها أيضاً؛ وفي المقام - سواء كان واجباً بذاته أو حسناً - يكفي الإتيان لوجوبها الذاتيّ ثم قصد الإخلاص فيها. و يصرّح بما ذكرنا من قصد الاخلاص قوله تعالى: «ولربّك فاصبر». أي: لرضاء ربّك

وكرامةمن ربّك فاصبر. ولا يبعد أنّ يقال: إنّ الإخلاص فيه إرشاديّ. وهذاالّذي ذكرناه، هو الأجود في هذا الباب. وفي تفسير الآية أقوال أخرى أعرضنا عن إيرادها.

قوله تعالى: «فَإذا نُقِرَ في النّاقُور (٨)».

بيان: تنقيح البحث في المقام يحتاج إلى بيان أمرين:

الأوّل: قال في القاموس ١٤٧/٢: نقر... وفي الناقور؛ أي الصّور: نفخ. أقول: لعلّ التعبير من النفّخ بالنّقر، لما في النّقر من شدّة القرع كما في الصّيحة القارعة الهائلة. فعليه يكون المراد في المقام بالنقر في الناقور أي: فإذا نفخ في الصّور.

الثاني: هل المراد بهذه النقرة والصّيحة هي الّتي بها يموتون، أو الّتي بهايحيون؟ قال تعالى:

«فنفخ في الصّور فصعق من في السّموات والأرض إلّا من شاءالله ثمّ نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون». (الزمر/٦٨)

«ما ينظرون إلّا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يخصّمون * فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون * فنفخ في الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون». (يس/٤٩ - ٥١)

ففيه وجهان:

الأوّل: الظّاهر أنّ المراد هي النفخة الأولى. أي: إنّ الناس يموتون من شدّة النّقر والصّيحة يصاح بها عليهم.

الوجه الثاني: إنّ المراد هي النفخة الثانية بها يحيون ويبعثون من القبور إلى عرصات القيامة، ويساقون إلى مواقف الحساب وغيرها من المواقف الهائلة.

واحتجّ بعضهم على ذلك بقوله تعالى: «فذلك يومئذ يوم عسير» إذ ليست في النفخة الأولى إلّا الموت بالنقرة، ولا يشعرون بعد الموت بشيء من الشدائد إلى أن يبعثون.

ويمكن أنّ يستشكل على ذلك بأنّ بعد النّفخة الأولى شدائد ومصائب

كثيرة. كما قال تعالى:

«يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة السّاعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى النّاس سكارىٰ وماهم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد». (الحجّ/١ و٢)

أقول: هذه الآية الكريمة ونظائرها من الآيات الكثيرة، لا دلالة فيها أنّ هذه الحوادث الهائلة بعد النفخة الأولى وموت الخلق أجمعين. بل صريح هذه الآية وغيرها وظاهر بعضها: أنّ هذه الحوادث القارعة و المصائب الفاجعة من أشراط الساعة وعلامات قيام القيامة.

ومنه يُعلم وهن ما قيل أنّ النفخات ثلاث، واستدلّ على النفخة الأولى بقوله تعالى: «يا أيّها الناس اتّقوا...». (تفسير الرازيّ ٢٧/١٨) فالأشبه في المقام أنّ المراد من هذه النفخة هي النفخة الثانية. فإنّ اكثر التهديدات الواردة في القرآن الكريم على الكفّار والمجرمين بأنواع من الشدائد، إنّما وردت في مواقف القيامة بعد الحشر والنشر إلى أن يدخلوا النّار.

قوله تعالى: «فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(٩)».

أقول: الظّاهر أنّ الإشارة في قوله تعالى: «فذلك» إلى مصدر مقدّر؛ وهو النقر المستفاد من قوله: «فإذا نقر في النّاقور».

قال في الجوامع/ ٥١٧: لا يجوز وقوع «يومئذٍ» ظرفاً لـ«عسير» لأنّ الصّفة لا تعمل فيما قبل الموصوف. وإنّما يتعلّق بـ «ذلك» لأنّ «ذلك» كناية عن المصدر. والتقدير: فذلك النقر في ذلك اليوم، نقر يوم عسير.

قوله تعالى: «عَلَى الكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(١٠)».

قال في المجمع ٣٨٥/١٠: «غير يسير» غير هيّن ولا سهل. وهو بمعنى قوله: «عسير» إلاّ أنّه أعاده بلفظ آخر للتّأكيد.

وفي الجوامع/ ٥١٧: وإنّما قال: «غير يسير» ــ وقوله: «عسير» يغني عنه ــ ليؤذن أنّه لا يكون عليهم يسيراً كما يكون على المؤمنين، فيكون جمعاً بين وعيد الكافرين ووعد المؤمنين.

أقول: الظّاهر أنّ قوله: «فذلك يومئذٍ يوم عسير» لبيان هول يوم النقر

وشدّته. وقوله: «على الكافرين غير يسير» مسوق لتهديد الكافرين؛ أي: إنّ نقر اليوم عسير غير سهل ولا هيّن على الكافرين.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

بيان:

قامت قريش وفي رأسهم وليدبن المغيرة المخزومي؛ وحيد قريش على زعمه، بمبارزة القرآن بأنواع من التكذيب، على ما سيجيء تفصيل القصّة بحسب النقل المستفيض. وأبى الله إلّا أنّ يتمّ نوره، ويجعل كلمته العليا وكلمة الّذين كفروا السّفلى.

قوله تعالى: «ذَرْني».

تسلية لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه ينصره ويحقّ الحقّ ويبطل الباطل. أي: دع عنك أمر الوليد؛ وذرني وحدي وإيّاه؛ ولاتشاغل نفسك بشأنه وَكِلْ أمره إليّ ـ وفيه تهديد شديد على الوليد. فإنّي أنتقم منه وأمحقه وأقطع دابره.

قوله تعالى: «وَحِيداً(١١)».

قيل فيه وجوه:

الأوّل: إنّه حال من الياء في قوله: «ذرني». أي: ذَرْني وحدي ومن خلقت.

الثاني: إنّه حال من الفاعل في «خلقت». أي: خلقته متوحّداً لاشريك لي.

الثالث: إنّه حال من المفعول. أي: خلقته وكان فرداً وحيداً، لامال له ولابنون.

الرابع: أنّ يكون «وحيداً» مفعولاً ثانياً لـ «خلقت».

حكى الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ١٩٨ عن أبي سعيد الضرير: الوحيد الّذي لاأب له. وهو إشارة إلى الطّعن في نسبه.

وفي المجمع ١٠/ ٣٨٧: روى العيّاشيّ بإسناده، عن زرارة وحمران ومحمّدبن مسلم، عن أبي عبدالله وأبي جعفر ـ عليهما السّلام ـ: أنّ الوحيد ولد الزّنا. وقال زرارة: ذكر لأبي جعفر ـ عليه السّلام ـ عن أحد بني هشام أنّه قال في خطبته: أنا ابن الوحيد. قال: يا ويله! لوعلم ما الوحيد، ما فخر بها. قلنا له: وما هو؟ قال: من لايعرف له أب.

أقول: أجود الوجوه هو الأوّل؛ وبعده الثاني. وأمّا رواية المجمع، فلم يعلم أنّها في تفسير الآية. وما خلق الله الوليد وحيداً بهذا المعنى. وهذا المعنى من مصاديق المعنى اللّغويّ بضرب من العناية.

الخامس: إنّه منصوب. وتقديره: ومن خلقت؛ أعني وحيداً. وقد سمّى نفسه ولقّبه الوحيد، وكان يقول: لانظيرلي في العرب. وكان يكسو الكعبة

وحده سنة، وقريش كلّهم سنة أخرى. وقَدْ أُورد على هذا القول أنّ ذلك تصديق من الله ـ سبحانه ـ على كونه وحيداً على زعمه الفاسد. وأجاب الرازيّ عن هذا الإشكال بوجوه ضعيفة أعرضنا عن إيرادها في المقام.

قوله تعالى: «وجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً(١٢)».

الأشبه أنّ هذه الآيات في سياق الاحتجاج، وفي مقام التّوبيخ والتّشنيع على الوليد بتكاثر نعمه تعالى وإحسانه ـ سبحانه ـ عليه، وفي مقابلته بالكفران والطّغيان.

وقوله تعالى: «مالاً ممدوداً»؛ أي: يمدّ المال بعضه بعضاً لاينقطع في عرض السّنة من فوائد أملاكه ومستغلاته وبساتينه وأغنامه وأحشامه وغيرها، متعاقباً أو في عرض واحد. أو: يمدّ أصول أمواله بعضها بعضاً من النقود والتجارات والأملاك والقرى والبساتين.

وقيل: المراد المدّ المكانيّ. أي: كان ماله ممدوداً مابين مكّة إلى الطائف من البساتين والمزارع والأغنام والأحشام ذهاباً وإياباً. (تفسير الرازيّ ٣٠/ ١٩٨)

قوله تعالى: «وَبَنِينَ شُهُوداً(١٣)».

أي: كانوا حاضرين غير غائبين بالمسافرة وغيره، وكان يتمتّع ويتلذّذ بلقائهم وحضورهم، ولا يتفجّع ولا يحزن بغيابهم ومسافرتهم، لغنائهم عن المسافرة للتكسّب وغيره.

قوله تعالى: «وَمَهّدْتُ لَهُ تَمْهيداً(١٤)».

أي: بسطت له من سعة المال ورفاه العيش والعزّ والجاه مايتلذّذ به وتقرّ عينه.

قوله تعالى: «ثُمَّ يَطْمَعُ أنّ أزيد(١٥)».

لايبعد أن يقال: الآية المباركة في سياق الآيات السابقة أنّه كان في عين استغراقه بالنّعم، كان يَتَوقّع ويتمنّى ويطمع الزيادة.

وذكر الرّازي في تفسيره ٣٠/ ١٩٩، قال: لفظ «ثم» هاهنا معناه التّعجّب ـ إلى أن قال: ـ نظيره قوله تعالى: «الحمدلله الّذي خلق

السّموات والأرض وجعل الظّلمات والنّور ثمّ الّذين كفروا بربّهم يعدلون».
[الأنعام/١] فمعنى «ثمّ» هاهنا للإنكار والتعجّب.

أقول: كم فرقاً بين المقيس والمقيس عليه. ضرورة أنّ قوله تعالى: «الحمدلله ...» قد حمد تعالى نفسه وأثنى عليه، بخلق ما هو من أكبر آياته من خلق السّموات والأرض وجعل الظّلمات والنّور الّتي تشهد على ألوهيّته وربوبيّته؛ وقد تجلّى -سبحانه- بهذه الآيات على آفاق العقول. ثمّ ذكر -سبحانه- على سبيل الإنكار والتوبيخ إنكارهم وجحودهم هذه الآيات البيّنة والبراهين الساطعة. ولا دلالة فيها على شيء من التعجّب.

وأمّا الآية المبحوثة ، فقد ذكرنا أنّه تعالى ذكر فيها تكاثر نعمه على إنسان مشرك ظلوم جهول إملاءاً واستدراجاً، على سبيل الاحتجاج والتوبيخ. وقوله: «ثم يطمع أنّ أزيد» قد وقع في سياق التوبيخ والتّشنيع، لا على سبيل الحكاية فقط فليس بين الآيتين مناسبة ولا مشاركة بوجه أصلاً.

قوله تعالى: «كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦)».

قد ذكر المفسّرون أنّ «كلاّ» لِلردع، وقوله: «إنّه كان...»، في مرحلة التعليل لهذا الرّدع.

أقول: هذا غير واضح. إذ قد عرفت أنّ الآيات الأربع السّابقة مسوقة للاحتجاج والتوبيخ، لا على سبيل الحكاية فقط. فلا يستقيم أن يردع ويمنع عنه. هذا أوّلاً.

وأمّا ثانياً؛ فما ذكره المفسّرون من أنّ قوله تعالى: «إنّه كان لآياتنا عنيداً» تعليل لِلرّدع المذكور، غير واضح. فإنّ كونه عنيداً لآيات الله-سبحانه- قد كان لايزال معه، فليس أمرًا جديدا؛ فلا بُدّ أن يكون هذا الردع والمنع من أوّل ما كلّف بالإيمان بالله وبتوحيده والتسليم لأمره -سبحانه.

والّذي يمكن أن يقال: إنّ قوله تعالى: «إنّه كان لآياتنا عنيداً» تعليل لقوله تعالى: «ذرني وَمَنْ خلقت وحيداً». أي هذا تهديد شديد وإعلام منه تعالى إيّاه أنّه قد حان أن ينتقم منه، ويأخذه أخذ عزيز مقتدر، ويجعله موعظةً للمتّقين وعبرةً لقوم يعقلون. وعلى هذا يكون قوله: «كلاّ» لِلاستفتاح؛ كما ذكره

ابن هشام في المغني ١/ ٢٥٠.

وقد ذكرنا في الأبحاث السّابقة شرحاً شافياً في هذا الباب، وأنّه لاينحصر استعمال «كلاّ» في مورد الردع فقط؛ بل استعمل في القرآن الكريم كثيراً في غير مورد الردع. منها قوله تعالى: «اقرأ باسم ربّك الّذى خلق -إلى قوله:- علّم الإنسان مالم يعلم* كلاّ إنّ الإنسان ليطغى». (العلق/١-٦) ومنها قوله تعالى: «في أيّ صورة ماشاء ركّبك * كلّا بل تكذّبون بالدين» (الانفطار/٨و٩) وغيرها من الآيات سواء كانت من الآيات المكّيّة أو المدنيّة.

وقد كفى -سبحانه- في اهلاكه وليداً في الدنيا بقوله: «إنّا كفيناك المستهزئين» (الحجر/٩٥). وهو منهم، على ماجاء في الخصال/ ٢٧٩ بإسناده عن عبدالرحمن الإيلي، عن موسى بن جعفر، عن آبائه عن الحسين بن عليّ -عليه السلام- قال:

«إنّ أميرالمؤمنين -عليه السّلام- قال ليهوديّ من يهود الشّام وأحبارهم فيما أجابه عنه من جواب مسائله:

فأمّا المستهزئون؛ فقال الله -عزّوجلّ- له: «إنّا كفيناك المستهزئين».

فقتل الله خمستهم، قد قتل كلّ واحد منهم بغير قتلة صاحبه في يوم واحد. أمّا الوليد بن المغيرة؛ فإنّه مرّ بنبل لرجل من بني خزاعة، قد راشه في الطّريق. فأصابته شظية منه، فانقطع أكحله حتّى أدماه. فمات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد...»

أقول: وفي معناه روايات أخرى رواها في نور الثقلين ٣/ ٣٢.

قوله تعالى: «سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧)»

قال في القاموس ٣/ ٢٣٩: رهقه ـ كفرح ـ: غشيه ولحقه أو دنا منه.

أقول: الظّاهر أنّ المناسب بالمقام، هو المعنى الثالث. أي: سأُرهقه وأُدنيه صعوداً.

وفي القاموس ١/ ٣٠٧: الصعود ـ بالفتح ـ: ضدّ الهبوط ... وجبل في جهنّم.

أقول: وهذا تهديد وتوعيد من الله -سبحانه- وليداً بعذاب الآخرة وعذاب النّار، بعد تهديده -سبحانه- إيّاه في الدّنيا، بهلاكه وبسلب نعمائه وبالانتقام منه، بإنفاذ ما أوعده تعالى في قوله: «ذرني ومن خلقت وحيداً».

في نورالثقلين ٤٥٧/٥، عن روضة الواعظين للمفيد (ره): قال الباقر -عليه السّلام-: إنّ في جهنّم جبلاً يقال له: صعود. وإنّ في الصعود لوادياً يقال له: سقر. وإنّ في السّقر لَجُبّاً يقال له: هبهب. كلّما كشف غطاء ذلك الجبّ، ضَجَّ أهل النّار من حرّه. وذلك منازل الجبّارين.

قوله تعالى: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨)».

الظّاهر أنّ الآيات في بيان عناده وخصامه مع الحقّ المبين. وقد كان الرّجل من أهل الشّيطنة والنُّكرى، ومِنْ دهاة العرب.

أي: فكّر في طريق الحيلة وفي إبطال كلمة الحقّ. فأضمر وقدّر في نفسه ما يقول في ذلك، وما يلقي بين الناس من المغالطة وقول الزّور والافتراء على القرآن الكريم، ويصرف الناس ويصدّهم عن سبيل الله -سبحانه.

قوله تعالى: «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)».

هذا دعاء منه تعالى عليه بهلاكه وقتله. ودعاؤه تعالى على شخص أو قوم، عين إرادته وإعمال قدرته القاهرة النافذة في حقّه سواء كان بهلاك الدنيا، أو بعذاب الآخرة.

قيل: إنّ ذلك القول منه تعالى على نحو الاستهزاء والاحتقار بمكيدته وشيطنته. فإنّ كلمته تعالى هي العليا، وبراهين القرآن تعلو ولا يعلى عليها. وماكيد الكافرين إلاّ في ضلال.

وقيل: إنّ ذلك تعجيب واستعظام أنّه كيف صرف الناس وأضلّهم عن سبيل الحقّ بكلمته الكاذبة. (تفسير الرازي ٢٠٠/٣٠).

ولعلّ في التعبير بالقتل إشعاراً بأنّ هلاكه ليس على سبيل العادة والسنّة الطبيعيّة الجارية بأمره تعالى، بل يرميه -سبحانه- بسهم من سهام سخطه،

ويهلكه ويسلب نعماءه، انتقاماً ومجازاةً على لجاجه وخصامه.

قوله تعالى: «ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠)».

قد قيل: إنّ تكرار ذلك تأكيدٌ للدّعاء بقتله والعناية البالغة بهلاكه. وفي هذا دلالة على أنّ قوله تعالى: «فقتل كيف قدّر» ليس لاحتقار كيده وللاستهزاء بسعيه وتقديره، بل تعجيباً واهتماماً لمكره وإضلاله الناس.

قوله تعالى: «ثُمَّ نَظَرَ(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢)».

أقول: الظّاهر أنّ هذا النّظر ليس لغرض التفهّم ولتفريق الحقّ من الباطل فإنّ الآيات المتقدّمة صريحة في أنّ اللّعين قد أبرم كيده، واستحقّ البأس الشديد من الله ـ سبحانه ـ وقد حكم بهلاكه. بل يمكن أن يقال: إنّ هذا النّظر في إحكام ما قَدّره وإنفاذ ما دبّره.

والمعنى: إنّه نظر عابساً وباسراً. والعبوس هو انقباض الوجه، وهو خلاف الانبساط والبشاشة.

قال في القاموس ١/ ٣٧١: بسر: أعجل وعبس وقهر. والقرحة: نكأها قبل النضج.

أقول: لايناسب شيء ممّا ذكره في تفسير المقام.

قال الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٠١: قال اللّيث: عبس يعبس فهو عابس: إذا قطب ما بين عينيه. فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه، قيل: كلح. فإن اهتمّ لذلك وفكّر فيه، قيل: بسر. فإن غضب مع ذلك، قيل: بسل.

قوله تعالى: «ثمّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣)»؛ أي: أعرض عمّا يجب عليه الإقبال فيه من الحقّ، وترفّع على ما يجب عليه التواضع عنده والإيمان والإذعان بما جاء به القرآن الكريم.

ولعلّ وجه عبوسه وبسوره، لشدّة غضبه وغيظه على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وعلى القرآن الكريم، حيث إنّه وقع في مقابل أمر عظيم؛ أو لأنّ مخالفته ومبارزته مع القرآن الكريم مكابرة مع صريح وجدانه وعرفانه الحقّ المبين، وقد قامت عنده الحجّة الواضحة الإلٰهيّة.

قوله تعالى: «فَقَالَ إِنْ هَذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤)».

هذا هو تقديره الفاسد ونظره الميشوم؛ حيث رمى بشيطنته ومغالطته أنّه سحر يؤثر. وقوله: «يؤثر» مأخوذ من الإيثار، وهو الاختيار. ذكره في القاموس ٣٦٢/١. والمعنى: إنّه اختار هذا السّحر على غيره من أنواع السّحر. والظّاهر أنّ المراد: إنّه سحر مأخوذ من الأقوام الماضين الآخرين.

قوله تعالى: «إِنْ هٰذا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ(٢٥)».

أقول: قد فكّر اللّعين وقدّر أنه سحر يؤثر. والسّحر مع أنّه عمل عاديّ، خارج عن وسع قريش الأمّيّ الّذين ليس لهم بصيرة في السحر، ولهذا لم يعرفوا كذب قول وليد بأنّ القرآن سحر يؤثر، فلا محالة قد وقعوا في ضلال مبين. وبقوله: إن هذا الاّ قول البشر أوقعهم في ضلال عجيب. وأشاع هذه الكلمة الكاذبة بينهم. فقتله ـ سبحانه ـ وجعله موعظةً للمتّقين وعبرةً لمن اعتبر.

أقول: قد وردت في عدّة من الروايات كيفيّة مبارزة الوليد القرآن الكريم وخذلانه وعجزه واعترافه بأنّه ليس من جملة ما يتداوله خطباء العرب وشعراؤهم ولايشبه شيئاً من ذلك. (انظر: نورالثقلين ٤٥٥/٥)

ففي السّيرة النبويّة لابن هشام ٢٨٨/١ قال: ثمّ إنّ الوليدبن المغيرة اجتمع إليه نفرمن قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضرالموسم. فقال لهم: يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا. فاجمعوا فيه رأياً واحداً. ولاتختلفوا، فيكذّب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت ــ يا أبا عبدشمس ــ فقُلْ وأقِم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم فقولوا، أسمع.

قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله، ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهّان؛ فما هو بزمزمة الكاهن ولاسجعه.

قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنْقه ولاتخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كلّه؛ رجزه

وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه؛ فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر. لقد رأينا السُّحّار وسحرَهم؛ فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوةً. وإنّ أصله لغَدْق. وإنّ فرعه لجناة ــ إلى أن قال: ــ وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقولٍ هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بِسُبُل النّاس، حين قدموا الموسم، لايمرّبهم أحد إلّا حذّروه إيّاه وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليدبن المغيرة وفي ذلك من قوله: «ذرني ومن خلقت وحيداً* وجعلت له مالاً ممدوداً* وبنين شهوداً* ومهّدتُ له تمهيداً* ثم يطمع أن أزيد* كلّا إنّه كان لآياتنا عنيداً»؛ أي: خصيماً.

وفي البرهان ٤/ ٤٠١، عن عليّ بن إبراهيم: أنّها نزلت في الوليدبن مغيرة. وكان شيخاً كبيراً مجرّباً من دهاة العرب. وكان من المستهزئين برسول الله ـ صلّى الله عليه وآله. وكان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ــ يقعد في الحجرة ويقرأ القرآن. فاجتمعت قريش إلى الوليدبن المغيرة فقالوا: يا أبا عبدشمس، ما هذا الّذي يقول محمّد؟ أشعرٌ هو؟ أم كهانة؟ ام خطب؟ فقال: دعوني أسمع كلامه.

فدنا من رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقال: يا محمّد، أنشدني من شعرك. قال: ما هو شعر؛ ولكن كلام الله الّذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله. فقال: أتل عليَّ منه شيئاً. فقرأ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ حم السجدة. فلمّا بلغ قوله: «فإن أعرضوا» يا محمّد ــ يعني قريشاً ــ «فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود». [فصّلت/ ١٣] فاقشعرّ الوليد، وقامت كلّ شعرة على رأسه ولحيته، ومرّ إلى بيته، ولم يرجع إلى قريش من ذلك.

فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم، إنّ أبا عبدشمس صبا إلى دين محمّد. أما تراه لم يرجع إلينا؟! فغدا أبوجهل إلى الوليد فقال: يا عمّ،

نكست رؤوسنا وفضحتنا، وأشمت بنا عدوّنا، وصبوت إلى دين محمّد؟! فقال: ما صبوت إلى دينه، ولكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود. فقال له أبوجهل: أخطب هو؟ قال: لا إنّ الخطب كلام متّصل، وهذا الكلام منثور ولا يشبه بعضه بعضاً. قال: أفشعرٌ هو؟ قال: لا. أما إنّي قد (لقد) سمعت أشعار العرب؛ بسيطها ومديدها ورملها ورجزها. وما هو بشعر. قال: فما هو؟ قال: دعني أفكّر فيه.

فلمّا كان من الغد، قالوا له: يا أبا عبدشمس ما تقول فيما قلنا؟ قال: قولوا: هو سحر. فإنّه آخذ بقلوب الناس. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ على رسول الله في ذلك: «ذرني و من خلقت وحيداً...».

قوله تعالى: «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)».

قال في القاموس ٤/ ٣٥٢: صلى اللّحم يصليه صلياً: شواه، أو ألقاه في النار.

وفيه أيضا ٢/ ٥٠: سقر ــ محرّكةً مَعْرِفةً ــ: جهنّمُ ــ أعاذنا الله تعالى منها.

والظاهر أنّه أراد بقوله: معرفة أنّ سقر غيرمنصرف للعلميّة والتأنيث. فالمعنى: سألقيه في سقر وأُدخله إيّاها وأشويه بها.

قوله تعالى: «وَما أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ (٢٧)».

إعظام لأمرها، وبيان لشدّة حرّها، وأنّ أهوالها أشدّ وأدهى.

وقوله تعالى: «سأُصليه...» تهديد آخر على الوليد، بعد تهديده تعالى إيّاه بهلاكه في الدنيا بقوله ـ سبحانه ـ: «ذرني...»؛ وبعد تهديده تعالى إيّاه بعذاب الآخرة بقوله: «سأرهقه صعوداً». ولا يبعد أن يقال: إنّ الفرق بينها باختلاف مواقف العذاب ومواطنه. فإنّ لجهنّم مواقف ودركات. والظّاهر أنّ قوله تعالى هذا أشدّ لحناً من قوله ـ سبحانه ـ: «سأرهقه صعوداً». فعلى هذا لايمكن الالتزام بما ذكره بعض المفسّرين أنّ قوله: «سأصليه سقر» بدل من قوله تعالى: «سأرهقه صعوداً». لإمكان أن يكون كلّ واحدة من الآيتين ناظرة إلى موقف ودرك مستقلّ غيرالآخر، فلا غناء بذكر الثاني عن الاوّل.

وفي نور الثقلين ٥/٤٥٧، عن أصول الكافي، مسنداً عن ابن بكير، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال:

«إنّ في جهنّم لوادياً للمتكبّرين يقال له: سقر. شكا إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ شدّة حرّه، وسأله أن يأذن له أن يتنفّس. فتنفّس فأحرق جهنّم.»

أقول: وقد تقدّم حديث روضة الواعظين للمفيد الثاني (قده) عن الباقر ـ عليه السّلام ـ:

«إنّ في جهنّم لجبلاً يقال له: صعود. وانّ في الصّعود لوادياً يقال له: سقر.»

قوله تعالى: «لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)».

قيل: إنّ اللّفظين مترادفان. والغرض من التكرار التأكيد والمبالغة.

وقيل: ماالفرق بين متعلّق قوله تعالى: «لاتبقي» وبين متعلّق قوله تعالى: «لاتذر». واختلفوا في ذلك على وجوه:

الأوّل: لاتبقي من الدّم واللّحم والعظم شيئاً. وإذا أعيدوا خلقاً جديداً، فلا تذر أن تعاود إحراقهم بأشدّ ممّا كانت وهكذا أبداً.

الثاني: لاتبقي من أبدان المعذّبين شيئاً. ثمّ إنّ تلك النّيران لاتذر من قوّتها وشدّتها شيئاً إلاّ وتستعمل تلك القوّة والشدّة في تعذيبهم.

الثالث: لاتبقي أحداً إلاّ أحرقته. ولاتذر شيئاً مِنْ أبدان المستحقّين وأجزائها. (تفسير الرازي ٣٠/٢٠٢ ملخّصاً)

أقول: الظّاهر هو الوجه الأخير. والوجوه السّابقة تحتاج إلى تكلّف ومؤونة.

قوله تعالى: «لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩)».

بيان: المستفاد من عبارة القاموس ١/٢٤٧ أنّ لوّح قد استعمل بمعنى غيّر ولمع وبرز وبرق وظهر وأهلك وأحمى.

وفي الكشّاف ٤/١٨٣: قيل: تلفح الجلد لفحةً، فتدعه أشدّ سواداً من اللّيل. والبشر: أعالي الجلود.

وقيل: البشر: جمع لبشرة بمعنى: ظاهر الجلد. أقول: كلا الوجهين في تفسير الآية الكريمة غير واضح.

وفي تفسير الرازي ٣٠/٢٠٢ عن الحسن والأصمّ: أنّ معنى اللّواحة أنّها تلوح لِلبشر من مسيرة خمسمائة عام. وهو كقوله: «وبرّزت الجحيم لمن يرى». (النّازعات/٣٦)

أقول: ويرد عليه أوّلا: انّ المستفاد من بعض الأدلّة أنّ نار الجحيم ليس لها نور، ولا فيها بروز، كي يلمع عن بعيد أو قريب؛ بل هي سوداء مظلمة. ففي الصّحيفة السّجاديّة، الدعاء ٣٢، قال ـ عليه السّلام ـ:

«وأعوذبك من نار نورها ظلمة، وهيّنها أليم، وبعيدها قريب.»

ثانياً: انّ قوله تعالى: «برّزت الجحيم لمن يرى» وقوله تعالى: «وبرّزت الجحيم للغاوين» (الشعراء/٩١) وقوله تعالى: «لترونّها عين اليقين» (التكاثر/٧) ونظائرها من الآيات، الظّاهر أنّ تلك الآيات مسوقة لبيان كشف الغطاء ورفع الحجاب بين أهل الدنيا وبين الحقائق الأخرويّة ومشاهدتها بعين العيان العلميّ لابعناية البروز والظهور الحسّيّ الماسّة بأبدان الناس كما توهمه هذا القائل.

وثالثاً: إنّ قوله تعالى: «لوّاحةٌ للبشر» نعت وصفة لسقر الّتي من عوالم النار، وهي الموقف النهائيّ من مواقف الآخرة، وهي دار الخلود للكفّار والمستكبرين. فليس في هذا الموقف عناية البروز والظهور؛ فإنّ المعذّبين في هذا الموقف مستقرّون في وسط النار.

وأمّا قوله تعالى: «وبرّزت الجحيم ...» ونظائرها من الآيات، فسيجيء تفسير الآية والبحث عن موطن ذلك البروز وعن حقيقة ذلك البروز.

إذا تُقرّر ذلك، فالأشبه في تفسير الآية أن يقال: إنّ قوله تعالى: «لوّاحة للبشر»؛ أي: مهلكة للناس الكافرين.

فان قلت: كيف يمكن أن يقال أنّ معنى اللوّاحة المهلكة بعد قوله تعالى: «لاتبقي ولاتذر»؟ فما يبقى منها شيء حتّى تهلكه سقر!

قلت: كلّا! فإنّها صفة بعد صفة. وليست الآية مسوقةً لبيان ما يقع في السّقر طبق السنّة الجارية فيها.

فاتّضح في المقام أنّ تفسير اللوّاحة بالّلامعة واللائحة والبارزة، في نهاية الضّعف. والأنسب تفسيرها بالإحراق والإهلاك . ولعلّ تفسيرها بالاهلاك هو الأشبه. فعليه يمكن أن يقال: قوله تعالى: «لوّاحة للبشر» بعد قوله تعالى: «لاتبقي ولاتذر» بمنزلة البدل عن الآية السّابقة وتصريح بمفادها.

قوله تعالى: «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠)».

أي: إنّ الموكّلين على سقر والّذين يتولّون أمرها بأمر الله ـ سبحانه ـ تسعة عشر ملكاً.

والضمير في قوله تعالى: «عليها» عائد إلى سقر. وسقر موطن خاصّ من مواطن جهنّم. وصرّح بعض الروايات أنّها وادٍ من أودية جهنّم. وليس المراد من الضّمير هي الجحيم ونارها على إطلاقها وعرضها العريض.

ولاوجه أيضاً لما تكلّفه بعض المفسّرين أنّ المراد عليها تسعة عشرصنفاً من الملائكة، أوصفّاً، أو مالكاً معه ثمانية عشر. (تفسير الرازي ٣٠/٢٠٣)

قوله تعالى: «وما جَعَلْنَا أَصْحَابَ النار إلّا مَلائكةً».

أقول: الآية الكريمة ناصّة على أنّ التّميز في قوله تعالى: «تسعة عشر» هو ملكاً. وفيها دلالة على أنّ المتولّي لأمر سقر وغيرها من طبقات النّار ودركاتها الملائكة.

ولا يخفى أنّ اطلاق اسم المالك على خزنة النار في الكتاب والسنّة ـ كما في قوله تعالى: «يا مالك ليقض علينا ربّك» (الزّخرف/٧٧)ـ ليس فيه دلالة على أنّ الخزنة غير الملائكة. فإنّ إطلاق اسم المالك على هؤلاء الخزنة الكرام، إنّما هو بعناية أنّهم يملكون الأمر والنهي والرتق والفتق في عوالم النار، بتمليكه تعالى إيّاهم، فهم يملكون ويأمرون وينهون بأمره تعالى وإذنه ـ سبحانه.

قوله تعالى : « وَما جَعَلْنا عِدَّتَهم إلّا فِتْنَةً لِلَّذين كَفَروا وَلِيَسْتَيْقِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذينَ آمَنُوا إِيماناً » .

بيان : ذكر تعالى أنّه ـ سبحانه ـ ما جعل عدّة الموكّلين بالنّار إلّا فتنةً للكافرين، وامتحاناً واختباراً لهم، وموجباً لاستيقان أهل الكتاب وازدياد إيمان المؤمنين، إلى آخر الغايات المذكورة في هذه الآيات. ولايخفى أنّ ترتّب الغايات المذكورة، ليست منوطةً بجعله تعالى هذه العدّة متولّية على النّار بحسب الواقع ونفس الأمر؛ وإنّما يترتّب على ذكر العدّة في القرآن الكريم وإعلامه على أهل العالم.

ولعلّ الوجه في كون هذا العدد موجباً للافتتان أنّ أهل التعبّد والتسليم يعرفون أنّ الله ـ سبحانه ـ عالم حكيم قدّوس، لايفعل إلّا ما هو الأصلح. وهذا بخلاف الكفّار الجاهلين بنعوته تعالى الحسنى وسننه الحميدة الجميلة، يخوضون فيه بالقيل والقال والسخريّة والإلحاد والتّكذيب والتكلّم بما يجوز وما لايجوز ولاينبغي.

قوله تعالى : « وليستيقِن الَّذينَ أُوتوا الكتاب ويزداد الّذين آمنوا إيماناً » .

أقول: يمكن أن يقال: إنّ الاستيقان هو التحرّي والتصدّي لتحصيل اليقين. أي: أهل الكتاب المترصّدون لطلب الحقّ، عرفوا أنّ هذه الحقيقة الغيبيّة المذكورة موافقة لما يجدونه في كتبهم وأسفارهم.

ويجوز أن يقال: إنّ الاستيقان في الآية الكريمة ليس بمعنى الطّلب والتحرّي، بل المراد هو تقرّر اليقين وحصوله في النفس؛ مثل مستيقن ومستكبر ونظائرها. وذلك للتوافق والتصادق بين القرآن الكريم وما بين أيديهم من الكتب الإلٰهيّة.

وقوله تعالى: « ويزداد الّذين آمنوا إيماناً» عطف على قوله: « ليستيقن الّذين...» . والظّاهر أنّه ليس المراد منه المؤمنين من أهل الكتاب، بل الظاهر أنّ المراد أنّهم المؤمنون من غيرهم. وإن أبيت ذلك ، فالمرجع هو الإطلاق في قوله تعالى: « آمنوا» .

فلا دليل لما يمكن أن يتوهّم أنّ السّبب لازدياد إيمان المؤمنين هو استيقان

أهل الكتاب. بل الظاهر أنّ جعل هذه العلّة كما أنّه موجب لاستيقان أهل الكتاب و افتتان الكافرين، كذلك موجب لازدياد إيمان المؤمنين أيضاً.

ولعلّ الوجه في ذلك أنّ المؤمنين بالقرآن الكريم لافرق عندهم من حيث الإيمان بالقرآن بين محكمات الآيات و بين متشابهاته، فلسان حالهم أنّهم «يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا». (آل عمران/٧) فيذعنون لهذه العلّة تعبّداً، و يصدّقونها بالتّسليم الخالص بعد إخبارالله ـ سبحانه. فيزيدهم الله إيماناً على إيمانهم، ونوراً على نورهم. قال تعالى:

«والّذين اهتدوا زادهم هدى».(محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ/١٧)

قوله تعالى: «وَلا يَرْتابَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ و الْمُؤمِنون».

بيان: قال الرازي في تفسيره ٢٠٦/٣٠: لمّا أثبت الاستيقان لأهل الكتاب، وأثبت زيادة الإيمان للمؤمنين، فما الفائدة بعد ذلك «ولا يرتاب الّذين أوتوا الكتاب والمؤمنون»؟ والجواب: إنّ المطلوب إذا كان غامضاً دقيق الحجّة، كثير الشبهة، وإن اجتهد الإنسان وحصل له اليقين، يمكن أن يغفل عن مقدّمة من مقدّمات ذلك الدليل الدقيق، فيعود الشك والشبهة. فإثبات اليقين في بعض الأحوال، لاينافي طروّ الارتياب بعد ذلك. فالمقصود من إعادة هذا الكلام، هو أنّه حصل لهم يقين جازم بحيث لايحصل عقيبه البتّة شكّ ولا ارتياب.

أقول: قد زعم الرازي أنّ عدم الارتياب عين اليقين وزيادة الإيمان. وغفل أنّ الارتياب من باب الافتعال، هو قبول الريب وتلقينه وإلقاؤه في النفس. فلا محالة يكون الارتياب فعلاً عمديّاً للمكلّف.

فالاستيقان و الارتياب كلاهما أمران وجوديّان متضادّان. فالاستيقان يترتّب عليه وجوب الامتثال؟ بعد تحقّق اليقين، لوجوب الإيمان بالله ـ سبحانه ـ وبما عرف من الحقّ. وقد تقرّر في محلّه أنّ الإيمان بالله ـ سبحانه ـ وبما عرفه من الحقّ واجب بالوجوب الضروريّ العقليّ، وكذلك الارتياب بعد تحقّق اليقين حرام بالضرورة العقليّة.

في البحار ٣٩/٢، في كلام لأميرالمؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ قال:

«لاترتابوا، فَتَشُكّوا. ولاتشكّوا، فتكفروا. ولاتُرَخّصوا لأنفسكم، فتدهنوا.»

فتبيّن في المقام أنّ كلاً من الجملتين مباين للآخر، من حيث مفادهما ومن حيث الوجوب والتحريم المستفاد منها.

قوله تعالى: «وَلِيَقولَ الّذينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالكافِرُونَ مَاذَا أرادَ اللّهُ بِهَذا مَثَلاً».

بيان: قيل: إنّ اللام في قوله تعالى: «وليقول» لِلْعاقبة؛ مثل قوله تعالى: «فالتَقَطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً». (مجمع البيان ٣٨٩/١٠ والآية في القصص/٨)

أقول: هذا غيرواضح. وقياس المقام بهذه الآية المذكورة، في غيرمحلّه. فإنّ عاقبة أمر اللّقيط مع فرعون وآل فرعون قد كان من جهل آل فرعون بأمر اللّقيط وبشؤونه. ففي الآية المذكورة كان مدلول اللّام بحسب عنايته تعالى وحكمته وتدبيره في أمر اللّقيط، هي العاقبة بخلاف الآية المبحوثة فإنّ الظّاهر أنّ اللّام فيها للغاية، وهي قريبة السياق ممّا قبلها. وعطف هذه الجملة على سابقتها يفيد أنّ هذا المورد من جلة الغايات المذكورة.

قوله تعالى: «في قلوبهم مرض».

قيل: إنّ المرض هو النّفاق. واستشكل عليه بأنّ السّورة مكّيّة ولانفاق اليوم بمكّة. فإنّ النفاق إنّما يكون من خوف السّيف، ولاسيف اليوم بمكّة. وأجيب عنه: أنّ سبب النفاق غيرمنحصر في خوف السّيف، بل قد يكون لأغراض أخرى مثل أن تكون الآية للاخبار عمّا سيكون من النّفاق. وهذا من باب الإخبار عن الغيب الّذي يتحقّق في المدينة. (تفسير الرازى ٢٠٧/٣٠)

أقول: الإشكال مندفع من أصله ولااحتياج إلى الجواب. فإنّ القضيّة في هذه الآية ونظائرها من القضايا الحقيقيّة، وموضوع الحكم فيها لايكون أمراً موجوداً شخصيّاً بحسب الخارج، بل يكون مفروضاً مقدّراً.

وقيل: إنّ المراد من المرض، الشكّ. وفي التّبيان ١٨٢/١٠: الشك والنفاق.

أقول: ويمكن أن يكون المراد بـ «الكافرون»؛ أي: الكافرون بالمعصية لا بالإلحاد؛ كما في قوله تعالى: «ولله على النّاس حجّ البيت ــ إلى قوله تعالى: ــ وَمَنْ كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين». (آل عمران/ ٩٧) والشاكّ والكافر الجاحد لا يعتقد صانعاً كي يقول: «ماذا أراد الله بهذا مثلاً».

فالأشبه بالمقام: إنّ المراد من المريض هو المنافق الّذي يظهر بلسانه ما ليس في قلبه. والمراد من الكافر هو الكافر بالمعصية الّذي لا ينكر الصّانع ـ سبحانه ـ في الظّاهر. والمثل في اللغة بمعنى: النعت والصّفة. أي: أيّ شيء أراد الله بهذا التّوصيف ــ أي: توصيف خزنة النّار ــ بهذا العدد. وهم يقولون ذلك على سبيل الاعتراض والإنكار.

فإن قلت: كيف يجوز أن يقال: إنّ الله ـ سبحانه ـ جعل هذا القول الّذي هو بمعنى الاعتراض والإنكار من المنافقين والكافرين، غايةً لجعل هذا العدد؟

قلت: أمّا جعله غايةً بالأصالة، فلا يجوز القول بذلك. أمّا القول بكونه غايةً بالعرض، فلا بأس به بعد اعتراضهم وبعد مرتبة العصيان والإنكار. فإنّه جعل هذا القول منهم غايةً لجعله خذلاناً وهواناً عليهم وجزاءاً على عصيانهم.

وهذا الوجه قريب من الوجه الّذي ذكروه أن اللام في قوله تعالى: «ليقول» للعاقبة. والفرق بين الوجهين: إنّه بناءاً على القول بالعاقبة، يعدم لحاظ العناية من حيث الهوان والخذلان، بخلاف ما قرّرناه؛ فإنّ فيه العناية إلى جهة الخذلان والمجازاة على سوء صنيعهم. ويشهد على ذلك ذيل الآية الكريمة: «كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء». ضرورة أنّ هذا الإضلال العمديّ من الله ـ سبحانه ـ ليس بعنوانه الأوّلي وبالأصالة، وسبب ذلك الحرمان هو العصيان.

فإن قلت: كيف يفترض هذا القول من الكافرين، فإنّهم لا يعتقدون وجود الصّانع؟

قلت: يفترض هذا القول من المشركين؛ عبدة الأصنام الّذين يعبدون الأصنام ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. ويفترض أيضاً بناءاً على ما ذكرنا من شيوع إطلاق الكافر على من ارتكب من كبار المعاصي؛ مثل تارك

الحجّ. ويفترض من المنافقين المنكرين بقلوبهم المتظاهرين بألسنتهم.

قوله تعالى: «كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ».

بيان: الكاف في قوله تعالى: «كذلك» لِلتشبيه. و«ذلك» إشارة إلى قوله تعالى: «وما جعلنا عدّتهم -إلى قوله تعالى: -ماذا أراد الله بهذا مثلاً» وإلى مايفيده الآية الكريمة من الغايات الحسنة الجليلة، من هداياته وكراماته لأقوام، وخذلانه وحرمانه أقواماً آخرين.

والمستفاد من محكمات الكتاب الكريم أنّ الإضلال المنسوب إليه تعالى، ليس بعنوانه الأوّلي وبالأصالة ومستقيماً؛ وإنّما يكون ذلك بعد قيام الحجّة ووضوح المحجّة، بعد إنكار ماعرف وعصيان ما عقل. فلا يطرد ـ سبحانه ـ من كرامته وهدايته إلاّ الفاسقين؛ ولايهين ولايخذل إلاّ الكافرين، جزاءاً على كفرهم وفسوقهم. قال تعالى:

«كذلك يجعل الله الرجس على الّذين لا يؤمنون». (الأنعام/١٢٥)

«وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون». (التوبة/١٢٥)

«كذلك حقّت كلمة ربّك على الّذين فسقوا أنّهم لايؤمنون». (يونس/٦)

«في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً». (البقرة/١٠)

«يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلاّ الفاسقين». (البقرة/٢٦)

«فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم». (الصف/٥)

والآيات المباركة في ذلك الباب كثيرة. وفيما أوردناه كفاية لأولي الأبصار. فعن بيّنة يحيى من يحيى، واهتدى من اهتدى. وعن بيّنة واضحة ضلّ من ضلّ، وهلك من هلك. كلّ ذلك مع بقاء الحجّة الإلهيّة عليه مع كفره وعصيانه. فيجب بضرورة من العقل الرجوع إلى جنابه ـ سبحانه ـ والاعتذار والاستغفار عن عصيانه وطغيانه؛ كي يتوب الله ـ سبحانه ـ عليه برحمته وبهدايته. فإنّ الظّالمين والفاسقين مع أنّهم ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، إلاّ أنّ فيهم من حججه تعالى ما يقرعهم، وقد حصل منها ما يدحض

وساوسهم ورين قلوبهم؛ كما أشرنا إليه فيما تقدّم.

وأمّا الكلام في طرف الهداية؛ فمن آمن واهتدى وأذعن وأخلص فيما عمل، أقبل الله ـ سبحانه ـ إليه بكرامته وهدايته، فيزيدهم إيماناً على إيمانهم، وهدايةً على هدايتهم. قال تعالى:

«والّذين اهتدوازادهم هدًى وآتاهم تقواهم».(محمد ـ صلّى الله عليه وآله/١٧)

فسبحانه من إله ما أحمد سنّته وأجمل صُنعه بالنسبة إلى أوليائه وأهل الوفاء به!

وقوله تعالى: «يهدي من يشاء» لا دلالة فيها على أنّ من النّاس من لم يشأ الله هدايته. وأقصى مايدلّ عليه الآية أنّ هدايته تعالى معلّقة وموقوفة على مشيّته. وكذلك الكلام في قوله تعالى: «يضلّ من يشاء».

فتحصّل في المقام أنّ كفر الكافرين وريب المنافقين يبتني ويستند إلى سوء اختيارهم.

قوله تعالى: «وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُوَ».

يعلم أحد ولايعرف تلك الجنود بجميعها، من حيث حقائقها وأنواعها وأشخاصها وأعدادها والشؤون الّتي وكّلت تلك الجنود بإنفاذ أمره تعالى فيها، إلّا الله ـ سبحانه ـ أو من علّمه إيّاها.

ولعلّ في الآية الكريمة تعريضاً بيّناً على الّذين في قلوبهم مرض وعلى الكافرين، لامتناعهم عن التعبّد بهذا العدد القليل في قوله تعالى: «عليها تسعة عشر». وقوله تعالى هذا توصيف خزنة النّار في سقر. والمعنى أنّ الأمر في جنوده تعالى وفي شأنها الخطير، أعظم من أن يدركوه بهذه الأفهام المحدودة الضّعيفة، وأجنبيّ عمّا توهّمه هؤلاء الكفّار من استبعادهم في توصيف جنوده بهذه العدّة القليلة منحصراً.

والجنود هي العساكر الّتي يستنصر بها الأمراء والملوك على أعدائهم، ويستعدّون بها في الدّفاع والامتناع عن أنفسهم وحريمهم. وربّنا ـ جلّ ثناؤه ـ غنيٌّ عن الاستنصار والاستمداد عن الغير؛ وهو السّلطان الممتنع بغير جنود ولا

أعوان. والوجه في إضافة الجند إليه تعالى أنّ من سنته القيّمة أن جعل لأفعاله الحكيمة أسباباً ووسائط من خلقه، يسلّط من يشاء من خلقه على من يشاء منه؛ سواء كانت هذه الأفعال في سبيل فضله وإحسانه، أو في سبيل قهره وانتقامه. فأتقن بذلك نظام خلقه. وقد سخّر الشّمس والقمر والرياح والمياه والأمطار والهواء وغيرها من الأسباب ما لايحصيه إلا الله في هلاك الأمم الطّاغية واستيصال الأقوام الظالمة.

إذا تقرّر ذلك، فنقول: هل المراد بالجنود هي الوسائط الواقعة في كلا الطّرفين من أفعاله تعالى - أي الفضل والإحسان، أو القهر والانتقام - أو المراد بها هي الوسائط الواقعة في طريق القهر والعدل فقط؟ والقدر المسلّم من الآيات هو الثاني. قال تعالى:

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنّهم لهم المنصورون * وإنّ جندنا لهم الغالبون». (الصّافّات / ١٧١-١٧٣)

فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها». (الأحزاب/ ٩)

«ثمّ أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها». (التوبة/ ٢٦)

«فأنزل سكينته على رسوله وأيّده بجنود لم تروها». (التوبة/ ٤٠)

«هوالّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السّموات والأرض». (الفتح/ ٤)

فاتّضح ممّا ذكرناه أنّ الجنود المنسوبة إلى الملوك والملوك، مخلوقون في عرض سواء، مركوزون في حاقّ الفقر والذلّة، يتناصرون أيّاماً حسب إمهاله تعالى وإملائه - سبحانه - لهم. أمّا الجنود المنسوبة إليه تعالى، فإنّه - سبحانه - خلقهم، وجعلهم وسائط لأفعاله وإنفاذ قضائه الحكيم في خلقه بأمره وباذنه في سبيل قهره وبطشه - على ما أشرنا إليه من ظواهر بعض الآيات - أو في سبيل فضله وإحسانه. سواء قلنا: إنّ اولئك الجنود مختارون مستطيعون لإنفاذ أمره - سبحانه -؛ أو قلنا: إنّهم مضطرّون مقهورون ومثاءم مثل القلم في يد الكاتب؛ أو قلنا: إنّ بعضاً من تلك الوسائط مختارون وبعضاً منها مضطرّون مقهورون.

أقول: القدر المتيقّن من تلك الوسائط أنّ الملائكة الكرام والرّسل العظام واولياءه تعالى المجاهدين في سبيل الله، عباد مختارون مكرمون، ويفعلون ما يؤمرون حسب اختيارهم، ولا يعصون الله حسب عصمتهم وطهارتهم. وأمّا القول باختيار ما سواهم، فيحتاج إلى فحص بالغ من الكتاب والسّنة. فإن ظفر بشيء، فهو المطلوب؛ وإلّا فيو كل علمه إلى الله ـ سبحانه.

وأمّا إطلاق الجنود على تلك الوسائط، فلا يبعد أن يكون من باب الاشتراك اللّفظي. والله العالم.

قوله تعالى: «وَما هِيَ إلّا ذِكْرىٰ لِلْبَشَرِ(٣١)».

قال في المجمع ١٠/٣٨٩:

ثمّ رجع إلى ذكر سقر، فقال: «وما هي إلّا ذكرى للبشر»؛ أي: تذكرة وموعظة للعالم، ليتذكّروا فيجتنبوا ما يستوجبون به ذلك.

وقيل: معناه: وما هذه النّار في الدنيا، إلّا تذكرة للبشر من نار الآخرة؛ حتّى يتفكّروا فيها، فيحذروا نار الآخرة.

وقيل: ما هذه السّورة إلّا تذكرة للنّاس.

وقيل: ما هذه الملائكة التسعة عشر، إلّا عبرة للخلق، يستدلّون بها على كمال قدرة الله تعالى، فينزجرون عن المعاصي.

أقول: القول الثاني ساقط جدّاً.

وأمّا القول الرابع، فيرد عليه أنّ التذكره والذكرىٰ والعبرة والاعتبار، إنّما هو في الأمور الفطريّة الإرشاديّة. وأمّا في مورد سقر وغيرها من عوالم النّار وكذا في مورد الملائكة وكونهم وسائط لأفعاله تعالى وكونهم تسعة عشر، فلا محصّل للتذكّر والاعتبار فيها وفي نظائرها. ضرورة أنّ تلك الموارد من جملة الغيوب الّتي ضرب الله عليها الحجاب العمديّ، فلا يمكن نيل تلك الغيوب وعيانها ومشاهدتها مثل ماناله النّاس من الأمور الفطريّة والحقائق الإرشاديّة. وكذلك لامطمع في نيلها ومشاهدتها طبق السنّة الجارية في باب التعاليم في العلوم الطبيعيّة، على ما هو المتعارف. فالسّبيل الوحيد في العلم والإيقان بهذه الحقائق الغيبيّة، هو إخباره تعالى بها على ألسنة أنبيائه

ورسله. فلا بدّ من الإيمان بها وتصديقها بإخبار الله ـ سبحانه. فينحصر السّبيل في الشّريعة الإلٰهيّة في هذا الباب، بالتعبّد والتمسك بمحكمات الكتاب والسنّة، والإيمان القاطع بوجودها. وأمّا العيان الحقيقي، فبعد كشف الغطاء ورفع الحجاب بالموت وبالدخول في الآخرة.

وأمّا القول الثالث ــ أي: رجوع الضّمير إلى السّورة المباركة ــ فلا استبعاد فيه. فإنّ السّورة المباركة غير خالية من الاحكام الفطريّة والمستقلّات العقليّة؛ إلّا أنّه لا دليل عليه من ظاهر الآية الكريمة.

والأشبه أن يقال: إنّ هذه الآية الكريمة في مقام إبطال قول الوليد على ما حكى الله تعالى عنه من قوله: «إن هذا الّا سحر يؤثر ۞ إن هذا إلا قول البشر». فردّ الله ـ سبحانه ـ عليه، وقال ـ جلّ ثناؤه ـ: «وما هي إلّا ذكرى للبشر». وقول الوليد: «إن هذا إلّا سحر» إشارة إلى القرآن أو إلى الآيات الّتي تلاها رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في ملأ من قريش ومنهم الوليد؛ فبهت، ورجع إلى بيته على ما حكي في التاريخ. ثم إنّ الوليد فكّر في شأن القرآن وإعجازه، وفي إنكاره وتكذيب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقدّر ما فكّر، وألقى على قومه وأمرهم أن يقولوا: «إن هذا إلّا سحر يؤثر».

كَلَّا

وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: «كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ(٣٤)».

بيان: ظاهر عبارات عدّة من المفسّرين على ما ظفرنا بها أنّ «كلّا» في أمثال هذا المقام للرّدع والزجر. وبديهيّ أنّ القول بالرّدع لايستقيم إلاّ أن يكون ما قبل «كلّا» قولاً منكراً، أو فعلا رديّاً، كي يكون «كلّا» ردعاً عنه. والآية المبحوثة ليست من هذا القبيل كما هو واضح. وقد تكلّف بعضهم في إثبات معنى الرّدع في الآية، وفي توضيحه وتوجيه بالوجوه الضّعيفة الّتي لاجدوىٰ لإيرادها في المقام.

قال ابن هشام في المغني ٢٤٩/١ ما خلاصته: إنّ بعضهم قد أفرطوا في هذا الباب وقالوا: إنّ «كلّا» في السّور المكّيّة كلّها للرّدع والزّجر. فإنّ المخاطبة فيها مع أهل العتوّ والعصيان. ثمّ أورد عليه أنّه لايمكن الالتزام بذلك على الإطلاق، لجواز اختلاف المقامات في باب المخاطبة والمحاورة.

ولايجوز القول بالرّدع في قوله تعالى: «في أيّ صورة ماشاء ركّبك كلاّ بل تكذّبون» [الانفطار/ ٨و٩] وفي قوله تعالى: «لاتحرّك به لسانك لتعجل به ــ إلى قوله تعالى: ــ ثمّ إنّ علينا بيانه * كلاّ بل تحبّون العاجلة». [القيامة /١٧ ـ ٢٠] فعن الكسائيّ ومتابعيه أنّها بمعنى «حقّاً» وعن أبي حاتم أنّها بمعنى «ألا» الاستفتاحيّة. وعن النضربن شميل أنّها بمعنى «نعم». وقول أبي حاتم عندي أولى.

أقول: الظّاهر أنّ «كلّا» في هذا المقام بمعنى «حقّاً» أريد بها تأكيد مفاد الجملة، ثمّ تأكيدها بالقسم، ثمّ تأكيدها بـ «إنّ» المشدّدة، ثمّ تأكيدها باللّام المؤكّدة.

وقد أقسم تعالى بالقمر وباللّيل إذا أدبر؛ أي: تولّى وكاد أن ينقضي، وينطبق على أواخر اللّيل. وأقسم بالصّبح أيضاً إذا أسفر؛ أي: انكشف وضاء. قال في مرآة الانوار/١٧٨: «السّفر ــ بسكون الفاء ــ: الكشف

والوضوح.» والظّاهر أنّ المراد هو انكشافه الصّريح. فعليه يكون مورد القسم مرتبةً خاصة من مراتب الصّبح، ويكون قوله تعالى: «إذا أسفر» للتقييد، لا للتّوضيح.

قوله تعالى: «إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥)».

هذا جواب للقسم. والضّمير في قوله تعالى: «إنّها» عائد إلى القرآن. والوجه في تأنيث الضمير لعلّه لما تقدّم في قوله تعالى: «وما هي». أي من باب رجوعها إلى القرآن المشتمل على الآيات، أوالّتي تلاها رسول الله عند الوليد وفي مقام الرّدّ على مقالته ونُظَرائه من أهل الإلحاد والعناد في شأن القرآن، على ما يحكيه تعالى عنه في قوله تعالى: «إن هذا إلّا سحر يؤثر، إن هذا إلّا قول البشر».

والكبر: جمع كبرى. وهذه الجملة مؤكّدة بالتّأكيدات الثلاثة ـ بإنّ المشدّدة ولام التأكيد والإبتداء بالجملة الاسميّة ونعت ثان وتوصيف آخر للقرآن الكريم. أي: إنّها لإحدى حججه تعالى الكبر. والألف والّلام في قوله تعالى: «الكبر» للعموم؛ جيء بها لمراعاة المطابقة بينه وبين موصوفه المحذوف؛ أي: عموم حججه تعالى الكبر، سواء كانت أشخاصاً بعينها؛ مثل الأنبياء والرّسل والصدّيقين، أو الآيات والبيّنات الأخرى؛ مثل الكتب والصّحف النازلة على الرسل والأنبياء.

فالمعنى بحسب الظّاهر: إنّه ليس الأمر على ما زعمه الوليد في شأن القرآن الكريم. بل الحقّ المبين أنّ القرآن ليس إلا ذكرى للبشر، وأنّ القرآن لإحدى حجج الله تعالى الكبر، وإحدى بيّناته الحقّة الباهرة.

قوله تعالى: «نَذيراً لِلْبَشَرِ(٣٦)».

أقول: تحرير البحث في المقام يحتاج إلى بيان أمور:

الأمر الأوّل: إنّ قوله تعالى: «نذيراً» ــ على وزن فعيل ــ مأخوذ من النذر، لازم يتعدّى بالّلام أو بهمزة باب الإفعال. فلا حاجة إلى تأويله بالمنذر، كما فعله بعض المفسرين. (مجمع البيان ٣٩١/١٠)

الأمر الثّاني: قيل: إنّ «نذيراً» تميز من «إحدى». أي: إنّ سقر لإحدى الدواهي الكبر، من حيث كونها نذيراً.

وقيل: إنّه حال من سقر. أي: من أكبر الدواهي والمصائب حال كونها نذيراً. (تفسير الرازي ٣٠/ ٢٠٩)

أقول: يرد على كلا الوجهين: أنّ سقر من جملة عوالم النّار، ومن جملة الغيوب الّتي هي موجودة عينيّة خارجيّة، ومن أشدّ الدواهي على الإطلاق في جميع شؤونها، ولامحصّل لتقييد كبرها بحيث كونها نذيراً، ولالكونها داهيةً كبيرةً حال كونها نذيراً. هذا أوّلاً.

وثانياً: انّ سقر وغيرها من عوالم النّار وما فيها من جملة ما ينذر ويهدّد بها الكفّار والعصاة. ولايصحّ توصيف سقر ونظائرها من الأمور الشداد، بكونها نذيراً ومنذراً. وإنّما يتّصف بالنذير والمنذر الرجال والأشخاص، أوالكتب والصّحف أيضاً بضرب من العناية. وكذلك الكلام في جميع ما ينذر به الناس في الدنيا من سطواته تعالى وبأسه وبطشه على المجرمين والظّالمين من الصاعقة والصّيحة، وطرده تعالى المجرمين عن ساحته الكريمة.

وقوله تعالى: «للبشر» جنس محلّى بلام الاستغراق أي: كلّ من يعقل ويعرف التخويف والإنذار.

إن قلت: إنّ الإنذار إنّما هو في مورد الكفّار والعصاة. فما بال المحسنين والمؤمنين وما وجه توجيه الإنذار إليهم؟! وإنّما ذلك موطن البشرى والإحسان والكرامة عليهم!

قلت: الإنذار والتبشير في مرتبة مقدّمة على الإحسان والعصيان، كي يؤمنوا ويحسنوا ويرتدعوا عن الكفرو العصيان. والآيات المباركات في توجيه الإنذار إلى جميع النّاس ــ المؤمن والكافر، والصالح والفاجر ــ كثيرة في القرآن الكريم. وما يتراءى في بعض الآيات من توجيه الإنذار إلى المؤمنين والمسلمين، إنّما هو في مقام المدح والثّناء على المؤمنين والصّالحين، من حيث تأثير الإنذار في إصلاحهم وقبولهم دعوة الحقّ. قال تعالى:

«إنّما أنت منذر من يخشاها». (النازعات/ ٤٥)

«إنّما تنذر من اتّبع الذكر وخشي الرّحمنٰ بالغيب». (يس/١١)

وكذلك الكلام في الآيات الواردة في ذمّ الكافرين والفاجرين وتوبيخهم لأجل ردّهم دعوة الحق قال تعالى:

«وما تغني الآيات والنّذر عن قوم لايؤمنون». (يونس/١٠١)

وفي تفسير الرازيّ ٣٠/ ٢٠٩ قال: وفي قراءة أُبيّ: «نذيرٌ» بالرفع؛ خبر أوبحذف المبتدأ.

أقول: لوقام دليل على اعتبار قراءة أُبيّ، لكان أولى بسياق الآية.

قوله تعالى: «لِمَنْ شَاء مِنْكُمْ أن يَتَقَدَّمَ أَوْيَتَأَخَّرَ(٣٧)».

بيان: الظّاهر أنّ الآية الكريمة متّصلة بما قبلها. فاللّام الجارّة متعلّقة بقوله تعالى: «نذيراً» والمجرور مفعوله ومنصوب به محلاًّ، وهو بدل من «البشر».

قال المفسّرون: إنّ المراد بالتقدّم، أي إلى الإيمان والطّاعة. والتأخّر هو التخلّف عن الإيمان والطّاعة وهو الكفرو المعاصي. (انظر: مجمع البيان ١٠/٣٦١؛ تفسير الرازي ٣٠/٢٠٩) واستشهد الطبرسي -قدّس سرّه- بما روي في الكافي ٢/٤٣٤ عن الكاظم -عليه السّلام- في قوله تعالى: «لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر» قال:

«من تقدّم إلى ولايتنا، أُخّر عن سقر. ومن تأخّر عنّا، تقدّم إلى سقر.»

قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهينةٌ(٣٨)».

بيان: يمكن أن يقال: إنّه شاع استعمال لفظ النّفس في القرآن الكريم في موارد:

منها: إطلاقه على الرّوح؛ مثل قوله تعالى: «يا أيّتها النّفس المطمئنّة ٭ ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة». (الفجر/٢٧و٢٨)

منها: إطلاقه على القلب؛ مثل قوله تعالى: «وتخفي في نفسك ما الله مبديه». (الأحزاب/٣٧) وقوله تعالى: «واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم

فاحذروه» . (البقرة/٢٣٥) وغيرها من الموارد.

وقد شاع إطلاق النفس في اصطلاح اهل الفلسفة والعرفان على الرّوح المجرّدة بالمعنى المعروف عندهم. واختلط ذلك بالمعاني اللّغويّة الواردة في الكتاب والسنّة.

أقول: الظّاهر في الآية الكريمة أنّ المراد بالنّفس هو الإنسان الواجد لجميع شرائط التكليف. والباء في قوله تعالى: «بما كسبت» للمقابلة أوللسّببيّة. وقوله تعالى: «رهينة»؛ أي: مرهونة ومأخوذة.

قال الشّيخ (قده) في التّبيان ١٠/١٨٥: الرهن: أخذ الشيء بأمر، على أن لايردّ إلاّ بالخروج منه.

فالمعنى: إنّ كلّ إنسان أجرم وعصى، مرهونة بتبعات ذنوبه وآثار أعماله، حتّى يخرج ويتخلّص منها بتكفيرها بحسنات أعماله أو بعفوه تعالى بفضله.

قال الزمخشريّ في الكشّاف ١٨٦/٤: «رهينة» ليست بتأنيث رهين في قوله: «كلّ امرئ بما كسب رهين» (الطور/٢١) لتأنيث النفس. لأنّه لو قُصدت الصّفة، لقيل: رهين. لأنّ فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكّرو المؤنّث. وإنّما هي اسم بمعنى الرّهن كالشتيمة بمعنى الشتم. كأنّه قيل: كلّ نفس بما كسبت رهن.

أقول: قد أورد كلام الزمخشريّ بعض من تأخّر عنه، من غير اعتراض وإنكار عليه، كأنّهم قد رضوا به. (تفسير الرازي ٢١١/٣٠) ولا يخفى ما فيه من الضّعف. فإنّ تلك القاعدة ونظائرها سماعيّة ومنشأ تلك القواعد هو استقراء كلام العرب الموثوق بعربيّتهم. فيدور الأمر بين نقض تلك القاعدة من حيث عدم حصول الاستقراء الكامل والفحص البالغ، وبين توجيه الآية وصرفها عن ظاهرها لوجود تلك القاعدة العليلة. ولا ترجيح لتقديم القاعدة و تأويل الآية لأجلها.

وظاهر قوله تعالى: «بما كسبت» هو الإطلاق في «ما». أي: في مقابل ما عملت من طاعة أو معصية. وهو صريح عبارة التبيان ١٠/١٨٥ ومجمع البيان ١٠/٣٩١.

أقول: يجب تقييد هذا الإطلاق بقوله: «رهينة». ضرورة أنّ أهل الإيمان والتقوى غير مرهون ممّا يكون مرهوناً به أهل العصيان، بل أولياؤه تعالى المتقون عتقاء في ساحة الأمن والأمان من الله ـ سبحانه ـ وفي حريم كرامته تعالى.

فعلى هذا يكون المراد ممّا كسبت،ما كسبت بالمعاصي، واجتمعت عليه من تبعات الذنوب وآثار أعمالها، أي استحقاق الأخذ والعقوبة والحرمان والخذلان والهوان والشقاء وحبط الحسنات. فهذه النفس العاصية رهان مقبوضة عندالله ـ سبحانه ـ بهذه التبعات، بأمرالله تعالى وإرادته وقضائه العدل الحكيم، حتّى يفكّها ويطلقها بصالح الأعمال، أو تدركها الرّحمة الإلهيّة، فيكفّر عنه آثار سيّئاته تفضّلاً، إن كانت من أهل التوحيد.

وقيل: إنّ المراد بكون النّفس رهينةً بما عملت، أي: رهينة في مقابل حقّ ثابتلله تعالى على جميع عباده الواجدين لشرائط التّكليف؛ وهو حقّ العبوديّةلله ـ سبحانه ـ والإيمان به تعالى والعمل بما يتوجّه إليه من التّكاليف بضرورة من العقل و النقل. فمن آمن و أطاع و أصلح، فقد فكّ و أطلق من الرّهان، و وفى بالعهد الثابت و الميثاق المأخوذ الثابت. ومن كفر وأجرم، ومات على ذلك، فهو محبوس عند الله تعالى و محبوس في مقابل العهد الثابت دائماً.

أقول: هذا النبيان، وإن كان حقّاً في حدّ نفسه، إلّا أنّه خارج عن مفاد الآية الكريمة. فإنّ مفادها أنّ كلّ نفس رهينة في مقابل ما كسبت واجتمعت وتراكمت عليها من آثار الذنوب وتبعات المعاصي، إلى أن تتخلّص منها؛ لأنّها رهينة في مقابل ماضيّعت من حقّ الله تعالى إلى أن تؤدّي حقّ الله، وتوفّي دينه ـ جلّ ثناؤه.

قوله تعالى: «إلّا أَصْحابَ الْيَمين».

بيان: قال في القاموس ٢٧٨/٤: اليمين: ضدّ اليسار،ج: أيْمُن وأيمان و أيامُن وأيامين، والبركة، والقوّة... «كنتم تأتوننا عن اليمين» [الصافّات/٢٨] أي: تخدعوننا بأقوى الأسباب.

أقول: الظّاهر بقرينة الآية التاليه : «في جنّات يتساءلون» أنّ المراد بأصحاب اليمين أولو البركة أو القوّة أو المنزلة الجليلة، أو المعاني الثلاثة كلّها. وقد ذكر تعالى أصحاب اليمين في غير موضع في القرآن الكريم. قال تعالى:

«وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * في سدر مخضود * وطلح منضود * وظلّ ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنّا أنشأناهنّ إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً * عرباً أترابا * لأصحاب اليمين». (الواقعة / ٢٧ - ٣٨)

في المجمع ١٠/ ٢٩١، قال: قال الباقر - عليه السّلام -:

« نحن وشيعتنا أصحاب اليمين.»

وفي مرآة الأنوار/ ٣٤٧، قال: وفي رواية الأصبغ بن نباتة عن علي - عليه السّلام - قال:

« أصحاب اليمين هم المؤمنون حقّاً. وأمّا السّابقون، فهم الأنبياء والأوصياء.»

وفي البرهان ٤/ ٢٧٤، عن عليّ بن إبراهيم، بإسناده عن حذيفة بن اليمان:

« إنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله - أرسل إلى بلال، فأمره أن ينادي بالصّلاة قبل وقت كلّ يوم، في رجب لثلاث عشر خلت منه... فأقبل رسول الله - صلّى الله عليه وآله - يمشي حتّى انتهى إلى باب من أبواب المسجد. فأخذ بعضادتيه. وفي المسجد مكان يسمّى السّدّة. فسلّم ثمّ قال: هل تسمعون يا أهل السدّة فقالوا: سمعنا وأطعنا. فقال: هل تبلّغون؟ فقالوا: ضمنّا ذلك لك يا رسول الله. ثمّ قال رسول الله - صلّى الله عليه وآله -:

« أخبركم أنّ الله خلق الخلق قسمين، فجعلني في خيرها قسماً. وذلك قوله: « وأصحاب اليمين» « وأصحاب الشّمال» . فأنا من أصحاب اليمين. وأنا من خير أصحاب اليمين. ثمّ جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني من خيرها أثلاثاً وذلك قوله: « أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السّابقون» [الواقعة /٨- ١٠] فأنا من السّابقين. وأنا خير السّابقين.

أقول: لا يخفى أنّ تفسير أصحاب اليمين برسول الله -صلّى الله عليه وآله- أو بالأئمّة أو بالشّيعة أو بالمؤمنين -كما في بعض هذه الروايات- ليس من باب بيان المعنى اللّغويّ والمفهوم الّذي وضع اللّفظ بإزائه. وإنّما ذلك من باب بيان المصداق لهذا المفهوم. فعلى هذا يكون المعنى في قولنا: أهل اليمين وأصحاب اليمين؛ أي: أولو البركة والقوّة والمنزلة الجليلة.

وفي تفسير المقام أقوال أخرى:

أحدها: إنّ أصحاب اليمين هم الّذين يعطون كتبهم بأيمانهم.

وثانيها: عن قتادة قال: غلق النّاس كلّهم إلا أصحاب اليمين. وهم الّذين لا ذنب لهم، وهم ميامين على أنفسهم.

ثالثها: إنّهم المؤمنون المستحقّون للثّواب.

أقول: هذه الأقوال الثلاثة قابلة الانطباق على معنى الآية بالوجه الّذي ذكرناه وأوضحناه من أنّ العناية الكاملة في هذا الباب إنّما هي التوجّه إلى المعنى اللّغويّ والمفهوم من لفظ اليمين.

ورابعها: ما عن الباقر -عليه السّلام-: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين.

وخامسها: إنهم الّذين يسلك بهم ذات اليمين. (مجمع البيان ١٠/ ٣٩١)

أقول: يمكن توجيه هذا القول وتطبيقه على معنى الآية بتوجيه بعيد.

وسادسها وسابعها: ما ذكره في الكشّاف ١٨٦/٤، قال: وعن عليّ -رضي الله عنه- أنّه فسّر اصحاب اليمين بالأطفال لأنّهم لا أعمال لهم يرتهنون بها. وعن ابن عبّاس -رضي الله عنه-: هم الملائكة.

أقول: ما ذكره الزمخشريّ من تفسير عليّ -عليه السّلام- غير ثابت عندنا. وثانياً أقصى ما يمكن أن يقال فيه: إنّه رواية مرسلة مخالفة لظاهر الآية الكريمة. فإنّ الظّاهر في الآية هو التهديد على المجرمين والبشرى للمؤمنين المحسنين، وأجنبيّة عن التعرّض بحال الأطفال. والتعليل بأنّ الأطفال ليس لهم ذنب يرتهنون بها، ضعيف جدّاً. ولو صحّ هذا التعليل، لكان شاملاً للمجانين أيضاً.

وممّا ذكرنا يُعلم ضعف ما أورده عن ابن عبّاس أيضاً. لأنّ أصحاب اليمين

إنّما وقع في مقابل الكفّار والعصاة من النّاس المرهونين؛ وأيّ مناسبة في مقابلة الملائكة المعصومين مع الكفّار والعاصين؟!

قال تعالى:

«فأمّا إن كان من المقرّبين * فروح وريحان وجنّة نعيم * وأمّا إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم». (الواقعة/ ٨٨-٩٤)

الآيات الكريمة مسوقة لبيان شأن من حضرته الوفاة، وأشرف على الموت. وهي نظيرة الآيات المسوقة لبيان أصناف الناس وتقسيمهم إلى الأزواج الثلاثة في قوله تعالى:

«وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسّابقون السّابقون * أولئك المقرّبون * في جنّات النعيم». (الواقعة/٧-١٢)

والفرق بين الطائفتين أنّ الّتي في تقسيم الناس إلى الأزواج الثلاثة، ناظرة إلى أنّ التقسيم باعتبار أعمالهم؛ وفي الآيات المبحوثة باعتبار شؤون بعضهم، وإلى ما يصير إليه عاقبة أمرهم في القبر والبرزخ وفي العوالم السرمديّة؛ الجنّة والنّار.

وفي قوله تعالى: «فأمّا إن كان من المقرّبين * فروح وريحان وجنّة نعيم» حيث كانت الجنّة المشتملة على النعيم مشتملةً على الرّوح والريحان أيضاً، فيكون في تقديم الرّوح والريحان إشعار وإشارة إلى أنّ هذا الروح والريحان كان قبل دخول جنّة النعيم زماناً، ولعلّه رتبةً أيضا. وكذلك الكلام في قوله تعالى: «فنزل من حميم * وتصلية جحيم». أي: إنّ في تقديم «نزل من حميم» على قوله: «تصلية جحيم» إشارةً ودلالةً على أنّ نزلاً من حميم قبل تصلية الجحيم زماناً، ولعلّه رتبةً أيضاً.

في البرهان ٢٨٥/٤، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً، عن إسحاق بن عبدالعزيز قال: سمعت أبا عبدالله -عليه السّلام- يقول:

«فأمّا إن كان من المقرّبين فروح وريحان» قال: في قبره «وجنّة

نعيم» في الآخرة.

أقول: وبهذا المعنى روايات أخرى.

وأمّا قوله تعالى: «فسلام لك من أصحاب اليمين» ففيه وجهان:

الأوّل: إنّ المراد من «سلام» هو السّلام بالقول؛ كما في قوله تعالى: «قالوا سلاماً قال سلام» (هود/٦٩) وقوله تعالى: «سلام قولاً من ربّ رحيم» (يس/٥٨) وقوله: «إلّا قيلا سلاماً سلاما». (الواقعة/٢٦)

أقول: هذا الوجه ضعيف جدّاً؛ ولا حاجة إلى تأويل قوله تعالى: «فسلام لك» إلى سلام عليك. ولا موجب ولا مجوّز لارتكاب ذلك والالتزام بأنّ أصحاب اليمين يسلّم بعضهم على بعض أو يسلّمون على رسول الله - صلّى الله عليه وآله - بناءاً على أنّ المراد من كاف الخطاب هو الخطاب لرسول الله، كما هو الحقّ.

الثاني: أن يكون المراد من قوله: «فسلام» بمعنى التسليم والسِّلم - بكسرالسين. أي: التسليم والسلم من أصحاب اليمين، حاصل لك ولمن سالمك. فإنّهم أخصّ أتباعك وأخلص أوليائك؛ فلا يضرّونك، ولا ترى منهم إلّا خيراً.

أقول: هذا الوجه هو الأظهر في الآية الكريمة. وفيه كمال التعظيم ونهاية التجليل لأصحاب اليمين. وفيه تصريح وإخبار عن صفاء صدورهم وسلامة قلوبهم لرسول الله - صلّى الله عليه وآله - ولأهل بيته الطّاهرين.

في البرهان ٤/٢٨٥: محمّد بن عبّاس قال: حدّثنا عليّ بن عبّاس، عن جعفر بن محمّد، عن موسى بن زياد، عن عقبة العائد، عن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر - عليه السّلام - في قول الله - عزّ وجلّ -: «فسلام لك من أصحاب اليمين» قال:

«هم الشّيعة. قال الله - سبحانه - لنبيّه - صلّى الله عليه وآله -: «فسلام لك من أصحاب اليمين» يعني: أنك سلم فهم لا يقتلون ولدك.»

وفيه أيضاً عن محمّد بن يعقوب مسنداً، عن معاوية بن حكيم، عن بعض

رجاله، عن عنبسة بن بجاد، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في قول الله عزّ وجلّ «وأمّا إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين» فقال:

«قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لعلّي ـ عليه السّلام ـ: هم شيعتك؛ فسلم ولدك أن يقتلوهم.»

في نور الثقلين ٥ / ٢٢٩ عن تفسير عليّ بن إبراهيم:

«فأمّا إن كان من أصحاب اليمين» يعني: من كان من أصحاب اميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ «فسلام لك من أصحاب اليمين» أن لا يعذّبوا.

قال الشّيخ (قده) في التبيان ٩/ ٥١٢: «فسلام لك» ـ الآية. دخلت كاف الخطاب كما يدخل في «ناهيك به شرفاً» و«حسبك به كرماً»؛ أي: لا تطلب زيادة جلالة على جلالة. وكذلك «سلام لك منهم»؛ أي: لا تطلب زيادة على سلامهم جلالةً وعظيم منزلة.

أقول: قد أتضح من جميع ما ذكرنا من البيان أنّ أصحاب الميمنة بأعيانهم هم أصحاب اليمين مصداقاً ومفهوماً. قال في القاموس ٤/ ٢٨٠: اليُمن ـ بالضمّ ـ: البَرَكة؛ كالمَيمَنة.

والمشأمة مأخوذة من الشوم: ضدّ اليمنة والميمنة. فعلى هذا يكون المراد من «أصحاب المشأمة» في المقام، أهل الكفر والإلحاد والفسوق والآثام.

وأمّا لفظ الشّمال، فمع استعمالاته الواسعة في المعاني المختلفة، إذا وقع في مقابل اليمين والميمنة ـ أي: البركة والقوّة والمنزلة الجليلة الحقيقيّة العقليّة ـ فلا محالة يكون المراد من «أصحاب الشمال» بأعيانها هم «أصحاب المشأمة» مصداقاً.

وفي النهاية ٢/ ٤٣٧: وفي صفة الإبل: «ولا يأتي خيرها إلّا من جانبها الأشأم»؛ يعني: الشمال. ومنه قولهم لليد الشمال: «الشومى» تأنيث الأشأم.

أقول: ما في النهاية على إطلاقه ضعيف؛ بل يجب تقييده بما ذكرناه من

أنّ ذلك إنّما عند وقوع الشمال في مقابل اليمين بمعنى البركة واليمن والدرجة الرفيعة؛ كما هو كذلك في قوله-عزّ وجلّ-: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين* في سدر مخضود... وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال* في سموم وحميم وظلّ من يحموم» (الواقعة/ ٢٧-٤٣).

قوله تعالى: «فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١)».

متعلّق بالمحذوف. أي: إنّ أصحاب اليمين متمتّعون في جنّات. وقوله: «يتساءلون» فيه وجهان:

الأوّل: إنّ «سأل» متعدٍّ بنفسه، ولايحتاج في تعديته إلى حرف الجرّ. فقال بعضهم: إنّ «عن» زائدة. (تفسير الرازيّ ٣٠/ ٢١٠) فالمعنى: إنّ أصحاب اليمين يسألون المجرمين.

الثاني: إنّ أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً، أو يسألون غيرهم، عن شأن المجرمين. فيقول المسؤولون للمجرمين: «ما سلككم في سقر»؟

ولكلّ واحدٍ من الوجهين وجه وجيه. أمّا الوجه الأوّل؛ فلسلامته عن إضمار «فيقول». وأمّا الوجه الثاني؛ فلسلامته عن القول بزيادة «عن». وفيه التزام بإبقاء قوله تعالى: «يتساءلون» على ظاهره من المشاركة بين الاثنين وبين جماعة.

ولايخفى أنّ التّساؤل من الجانبين، لايحتاج إلى سؤال جمع وجمع منهم من الطّرفين، بل يصدق ويتحقّق المساءلة بسؤال بعض من الطّرفين.

قوله تعالى: «ما سَلَكَكُم في سَقَرَ (٤٢)».

أي: أيّ جرم وجناية أوجب سلوككم في سقر؟

قوله تعالى: «قالُوا لَمْ نَك مِنَ الْمُصَلّينَ (٤٣)».

تحرير البحث في الآية الكريمة في ضمن مسائل:

المسألة الأولى: ماذكره الشّيخ في التبيان ١٨٦/١٠، قال: أي: لم نك نصلّي ما أوجب علينا من الصّلاة المفروضة، على ما قرّرها الشرع. وفي ذلك دلالة على أنّ الإخلال بالواجب، يستحقّ به الذّم والعقاب.

أقول: ترك الواجب والإخلال به بعينه، عصيان للأمر الواجب، ومعصية وحرام بالضرورة العقليّة، لا بالأدلّة الشّرعيّة؛ والأدلّة الشرعيّة تذكير وإرشاد إلى هذا الأمر الضروريّ.

ثمّ إنّ الشيخ (قده) استدلّ بهذه الآية الكريمة أنّ الكفّار مكلّفون بالفروع، كما أنّهم مكلّفون بالأصول، لأنّ صريح قوله تعالى: «وكنّا نكذّب بيوم الدين» أنّ المراد من المُجرمين هم الكفّار.

أقول: تحرير محلّ النزاع في هذا الباب، ما ذكره الشّيخ الأعظم الأنصاريّ (قده) في كتابه الطّهارة قال: والغسل من الجنابة وغيرها من الأحداث كالوضوء، يجب على الكافر بأقسامه عند حصول سببه؛ لعموم الأدلّة وفقد ما يدلّ على خروج الكافر. ويؤيّده ما ورد في مذمّة المجوس من أنّهم كانوا لا يغتسلون من الجنابة. وقد تقرّر في الأصول أنّ الكفّار مخاطبون بالفروع كالأصول، خلافاً لأبي حنيفة، لأدلّة مزيّفة في محلّها. نعم؛ ذكر صاحب الحدائق تبعاً للمحدّثَين؛ الأسترآبادي والكاشاني، أخباراً زعموا دلالتها على عدم مخاطبتهم بالفروع ونهوضها لتخصيص العمومات التّي لا تحصى، كما يدلّ على عموم التكاليف الفرعيّة ومعارضة ما دلّ بالخصوص من الآيات والآخبار على مؤاخذتهم بمخالفتها.

أقول: لا ريب أنّ محلّ النزاع في هذا الباب هي الأحكام المولويّة التعبّديّة. أمّا الأصول والمعارف الّتي يمكن نيلها للبشر وتحصيل اليقين بها، فخارجة عن محلّ النزاع. وكذلك الأحكام الضّروريّة ببداهة العقل والعلم أو بعد تذكير الشّارع وإرشاده إلى هذه الأمور الضروريّة. وكذلك في بعض الأعيان والحقائق الخارجيّة؛ مثل جودة العلم، وخسّة الجهل.

المسألة الثانية: يمكن أن يقال: إنّ المراد في قوله تعالى: «لم نك من المصلّين» أي: من جملة المصلّين، وبالمآل من جملة المؤمنين. فإنّ الصلاة قد كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا للفرق البيّن بين قوله تعالى: «لم نك من المصلّين» وبين عبارة الشّيخ (قده): «لم نك نصلّي ما أوجب الله علينا من الصّلاة المفروضة...» فإنّ الأوّل كالصريح أنّهم ليسوا من زمرة المصلّين، والثاني أنّهم

تركوا الصّلاة وخالفوا أمره تعالى.

ويتفرّع على ذلك أنّهم على الأوّل يستحقّون العقاب، لأجل أنّهم ليسوا من المصلّين؛ وعلى الثاني، أنّ العقاب على ترك الصّلاة وعصيان أمره تعالى.

في نور الثقلين ٥/ ٤٥٩، عن الكافي مسنداً، عن عقيل الخزاعي أنّ أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ كان إذا حضرالحرب يوصي المسلمين بكلمات يقول

«تعاهدوا الصلاة. وحافظوا عليها. واستكثروا منها. وتقرّبوا بها. فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً. وقد علم ذلك الكفّار حين سئلوا «ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين». وقد عرف حقّها، من طرقها...»

قوله ـ عليه السّلام ـ: «قد علم ذلك الكفّار حين سئلوا...»؛ أي: علم الكافر أنّ الصّلاة كانت على المؤمنين فرضاً ثابتاً وسنةً موكّدةً عندهم. فالرواية المباركة تأييد وتثبيت لظاهر الآية الكريمة، على ما استظهرناه من البيان.

وفيه أيضاً عَن نهج البلاغة، عن أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ قال:

«تعاهدوا الصّلاة. وحافظوا عليها. واستكثروا منها. وتقرّبوا بها. فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا. ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: «ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين»؟!

قوله ـ عليه السّلام ـ: «ألا تسمعون إلى جواب أهل النار» في مقام التعليل لقوله: «فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» بالبيان الّذي قدّمناه. ولا يخفى أنّ الخطبة المباركة ليست مسوقةً للتهديد على من ترك الصّلاة، ولا إشارة إلى مرحلة تشريعها؛ بل هي مسوقة للتشويق والتأكيد للتعاهد والمحافظة عليها وعلى حدودها، وأن يكون في إيجابها على المؤمنين عناية خاصة واهتمام خاصّ لشأنهم. والخطبة المباركة قريبة المفاد من قوله تعالى:

«حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى». (البقرة/ ٢٣٨)

المسألة الثالثة: روى الكليني في الكافي ١/ ٤١٩، بإسناده، عن إدريس بن عبدالله، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال: سألته عن تفسير هذه

الآية: «ما سلككم في سقر* قالوا لم نك من المصلّين». قال:

عنى بها: لم نك من أتباع الأئمّة الّذين قال الله ـ تبارك وتعالى ـ فيهم: «والسّابقون السّابقون* أولئك المقرّبون». أما ترى الناس يُسمّون الّذي يلي السّابق في الحلبة المصلّي؟! فذلك الّذي عنى حيث قال: «لم نك من المصلّين»: لم نك من أتباع السّابقين.

بيان: قال في القاموس ٤ /٣٥٣: وصلّى... الفرس: تلا السابق.

ولايخفى أنّه لاتنافي ولاتعارض بين ما ذكرناه من البيان في المسألة السّابقه و بين هذه الرواية الشريفة. فإنّها لبيان المصداق من لفظ الصّلاة. ضرورة أنّ أهل الصّلاة بالمعنى المقرّر في الشّرائع مصداق بارز لِلتابعين للأنبياء والائمّة المقرّبين.

وقد استدلّ للمشهور في إثبات توجيه الخطاب إلى الكفّار بقوله تعالى:

«وويل للمشركين* الّذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون».
(فصّلت/٦ و٧)

قال المولى المحقق الأردبيلي (قده) في زبدة البيان/ ١٨٠: فيها دلالة على وجوب الزكاة على الكفّار. لأنّه يفهم منها أنّ للوصف بعدم إيتاء الزكاة، دخلاً في ثبوت الويل لهم، ولكن علم من الإجماع وغيره عدم الصّحّة منهم إلّا بعد الإسلام. وكذا علم بالإجماع سقوطها عنهم بالإسلام. ويدلّ عليه الخبر المشهور: «الإسلام يجبّ ما قبله». وأمّا دلالتها على كون مستحلّ تركها كافراً، ففيها خفاء. نعم، إشعار به من قوله: «وهم بالآخرة هم كافرون». فإنّه يدلّ على كفرالموصوفين بعدم الإيتاء. وذلك لم يكن إلاّ مع الاستحلال له بالنصّ والإجماع، ولكنّها يكفيان، فتلغو الآية، أو يقال: لأنّهم ما كانوا يتركونها إلّا استحلالاً. فتأمّل فيه.

أقول: لاريب أنّه لادلالة في الآية الكريمة أنّ شرك هؤلاء المشركين وكفرهم، ليس إلّا لأجل عدم إيتاء الزكاة. ولا دلالة فيها أيضاً أنّ الشّرك والكفر لأجل استحلالهم ترك الزكاة. ضرورة أنّ قوله تعالى: «لا يؤتون الزكاة» وصف للمشركين، وقوله تعالى: «وهم بالآخرة هم كافرون»

وصف ثان لهم.

ولاخفاء أنّ نسبة الوصف إلى الموصوف بمنزلة المحمول إلى الموضوع. والوصف والمحمول ليسا ضامنين لإيجاد الموضوع والموصوف، ولا لإبقائها؛ بل يكون وجود الوصف والمحمول عند وجود الموضوع والموصوف، وعلى فرض وجودهما. وكذلك لايعقل أن يكون عدم الإيتاء سبباً لوجود الكفر. لأنّ كليهما وصفان للمشركين في عرض سواء من حيث توصيف المشركين، وليست بينهما نسبة السببيّة والمسببيّة.

نعم؛ الآية الكريمة قويّة الظهور في حرمة منع الزكاة، لثبوت الويل للمشركين الموصوفين بعدم الإيتاء. وقوله تعالى: «للمشركين» جمع محلّى باللام، يعمّ ويشمل الشرك بجميع أنواعه. منها: الشرك في العبادة؛ أي: اتّخاذ الأنداد والأضداد والشّركاء مع الله ـ سبحانه. ومنها: الشرك في الطّاعة؛ أي: الائتمار والانتهاء عن أمر الطّاغوت ونهيه، دون أمر الله ونهيه تعالى. ومنها: الشّرك بالرّياء، وغيره من أنحاء الشرك.

قال تعالى:

«وما يؤمن أكثرهم بالله إلّاوهم مشركون». (يوسف /١٠٦)

فالآية الكريمة ناصّة بأنّ أكثر الناس مع إيمانهم بالله تعالى وبتوحيده ـ سبحانه ـ مشركون. فلا محالة يكون المراد من الشّرك في هذه الآية الشرك بالطّاعة لا الشرك بالعبادة. وفي تفسير هذه الآية روايات مصرّحة بذلك. والفرق الواضح بين الشرك بالعبادة وبين الشرك بالطّاعة، أنّ الثاني إنّما يتحقّق بمعصيته الله ـ سبحانه ـ في امتثال أمر الطّاغوت ونهيه.

في البرهان ٢٧٤/٢، عن عليّ بن إبراهيم بإسناده، عن ضريس، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في قول الله: «ومايؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون» قال:

«شرك الشّيطان طاعته وليس شرك عبادة.»

وفي معناها روايات أخرى كثيرة.

في البرهان ١٠٦/٤ عن محمّد بن عبّاس في تفسيره، عن عليّ بن محمّد بن مخلّد الدهّان، عن الحسن بن عليّ بن أحمد العلوي قال: بلغني عن

أبـي عبدالله ـ عليه السّلام ـ أنّه قال لداود الرقّـي:

« ...قوله تعالى: « فويل للمشركين» إنّهم الّذين أقرّوا بالإسلام، وأشركوا بالأعمال. وهو قوله: « وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون» ؛ يعني بالأعمال؛ إذا أمروا بأمر، عملوا خلاف ما قال الله ؛ فسمّاهم الله مشركين. قوله: « الّذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون» ؛ يعني: من لم يدفع الزكاة، فهو كافر. »

أقول: الظّاهر أنّ قوله ـ عليه السّلام ـ: « من لم يدفع الزكاة، فهو كافر» تفريع وتفسير لقوله تعالى: « الّذين لا يؤتون الزكاة» لا أنّه تفسير لقوله تعالى: « وهم بالآخرة هم كافرون» . فعليه يكون المراد في الرواية الشّريفة، الكفر بترك الطاعة؛ نظير الكفر بترك الحجّ في قوله تعالى: « ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين» . (آل عمران / ٩٧)

فالمحصّل في المقام: إنّ الرواية الشّريفة مخصّصة لعموم العامّ في قوله تعالى: « للمشركين» فيكون المعنى: فويل للّذين أشركوا بأعمالهم؛ الّذين يمنعون زكاة أموالهم. والقدر المتيقّن من هؤلاء المشركين، هم المنافقون والنّصّاب الّذين أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأبطنوا الكفر والنفاق في قلوبهم.

فعلى هذا ينطبق قوله تعالى: « وهم بالآخرة هم كافرون» على المنافقين. وبناءاً على هذا الاحتمال الّذي ذكرناه: أنّ الآية الكريمة مخصّصة ومختصّة بالّذين أشركوا بأعمالهم. فلا يصحّ الاستدلال بهذه الآية على توجيه الخطاب والتّكاليف بالكفّار وعبدة الأوثان.

قال تعالى:

«يا أيّها الناس اعبدوا ربّكم الّذي خلقكم والّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون * الّذي جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ».
(البقرة / ٢١ و ٢٢)

بيان: قد خاطب الله ـ سبحانه ـ جميع خلقه؛ المؤمنين منهم والكافرين الواجدين لشرائط التكليف، فدعاهم ـ سبحانه ـ وأمرهم بأعظم فريضة من فرائضه تعالى ــ الفريضة الذاتيّة المعلومة المشهودة لضرورة من العقول عند من

عقل وعرف ــ وهي العبادة والعبودية لله ـ جلّ شأنه ـ بمعناها اللّغوي؛ أي: التذلّل والاستكانةلله تعالى؛ وأمرهم أن يعبدوه ـ سبحانه ـ وأن لايستكبروا ولايستنكفوا من عبادته، وأن لايعبدوا إلاّ الله مخلصين له الدين. وكذلك نهاهم من أكبر الكبائر، وهي معصية الشرك بالله العظيم ــ وهو الظّلم العظيم ــ بقوله تعالى: «فلا تجعلوالله أنداداً».

وقوله تعالى: «وأنتم تعلمون» احتجاج منه تعالى وإنكار منه ـ سبحانه ـ على عبادة مخلوق لمخلوق مثله دون خالق الخلق أجمعين. واحتجاج أيضاً بما أودع الله تعالى في ذواتهم من شعاع المعرفة الفطريّة الّتي فطرالله الناس عليها.

فيأخذ الله تعالى الغافلين والمتغافلين بالبأساء والضرّاء ويوقعهم في الاضطرار والبلاء، فيضلّ عنهم آلهتهم الّتي يدعونها ويعبدونها، فيتضرّعون إليه تعالى ويدعونه دعاء الغريق. فيعرّفهم تعالى نفسه، فيعرفونه ـ سبحانه ـ عياناً منهم. فلمّا كشف الضرّعنهم ونجّاهم، نسوه تعالى؛ فإذاهم مشركون. وأمّا أولياؤه تعالى فعند إقبالهم إلى جنابه وانقطاعهم عن جميع ما سواه، تتنزّل عليهم السّكينة، فتطمئنّ بها قلوبهم وينشرح بها صدورهم.

ويمكن الاستدلال بقوله تعالى:

«يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم». (النساء/١، الحجّ/١)

أقول: هذه الآيات الثلاث يأمر تعالى فيها بالتذلّل والتّواضع له تعالى والاتّقاء والاحتراز عن إساءة الادب في ساحته ـ سبحانه ـ وهي احكام عقليّة ضروريّة، فكون الأمر فيها أمراً إرشاديّاً خارجاً عن محلّ النّزاع وهي الأحكام المولويّة.

ويمكن الاستدلال أيضاً بقوله تعالى:

«ولله على النّاس حجّ البيت...» (آل عمران/٩٧)

بيان: قد يتوهّم في بدو النظر أنّ الموضوع لوجوب الحجّ هم الناس على العموم؛ الاّ أنّ قوله تعالى: «ومن كفر...» قرينة قاطعة على أنّ الموضوع هم الناس المسلمون. والظّاهر أنّ المراد من الكفر هو الكفر بالعصيان، لاالكفر بالإلحاد.

قال تعالى:

«فلا صدّق ولا صلّىٰ * ولكن كذّب وتولّىٰ» (القيامة/ ٣١ و ٣٢)

بيان: قد استدلّ بهذه الآية على أنّ الكفّار مكلّفون بالفروع؛ أي: بالزكاة والصّلاة المفروضتين.

أقول: هذا الاستدلال متوقّف على أن يكون المراد بقوله: «صدّق وصلّى» هي الصّلاة والزكاة. و.من الممكن بل الظّاهر ــ بشهادة قوله تعالى: «ولكن كذّب وتولّى» ــ أن يكون المراد من قوله تعالى: «صدّق» هو التصديق و«صلّى»؛ أي: تبع. أي: ما آمن ولا صدّق ما يجب تصديقه من المعارف والحقائق الواضحة الإسلاميّة، ولا تبع دعوة الحقّ المبين؛ أي: كذّب بها وأعرض عنها. فعلى هذا يسقط الاستدلال بها في المقام.

على أنّ السورة المباركة ــ على ما قيل ــ مكّيّة، ولا زكاة اليوم على المؤمنين، فضلاً عن الكافرين؛ بناءاً على ما قالوا: إنّ الزكاة إنّما افترضت في المدينة بعد الهجرة.

أقول: وفي الروايات ما يدلّ على أنّ الله تعالى أوجب على الناس ما أوجب من التكاليف، بعد الإيمان بالله تعالى؛ وأنّ موضوع التكاليف هم المؤمنون وكلّ من أقرّ بالدّعوة الظاهرة من المنافقين والشكّاكين والضُلّال. (أُنظر: البحار ٦٣/ ٢١٧، ٢٦٢، ج ٩٦/ ١٠٤، ١٠، ١٠٩)

والعمدة في أدلّة القائلين لهذا القول، هو الإجماع والدليل العقليّ. أمّا الإجماع؛ فحيث إنّه مستند إلى الأدلّة الشرعيّة المذكورة في هذا الباب، فالمتّبع إنّما هذه الأدلّة وتحليلها وتجزئتها، لا الإجماع بما هو إجماع.

وأمّا الدليل العقلي فهو: إنّه قد تقرّر في محلّه أنّه لا ريب في حسن التّكليف. لأنّ الله تعالى لا يفعل إلا حسناً جميلاً، فإنّ ذلك تعريض للثواب وتشويق للمكلّفين لنيل هذه المثوبات الحسنة الجميلة؛ فلا وجه لتقييده بغير الكافر فقط. فإنّ عصيان الكافر وامتناع صحّة العمل منه، إنّما نشأمن سوء اختياره. والممتنع بالاختيار لا ينافي الاختيار.

أقول: هذا الدليل إنّما يكفي لرفع الاستحالة. وهو غير ناهض لإثبات

الحسن العقلي لوضع التكاليف. إلّا أنه يمكن أن يقال: إنّ الإسلام و الإيمان واجب فوريّ على الإطلاق من غير قيد ولا شرط. فيجب الإيمان بالله ـ سبحانه ـ الظّاهر بآياته و المتجلّي بخلقه لخلقه، المعروف بالفطرة الّتي فطرالله النّاس عليها، فيجب بالضّرورة الإيمان والتّسليم في مقابل الحقّ المبين. و يحرم عليهم الاستكبار وسلب صلاحيّة التكليف بالفروع عن أنفسهم. فوضع التكليف الفرعيّ عليهم على نحوالقضيّة الحقيقيّة مشروطاً بإسلامهم وإيمانهم، كافٍ في وضع التّكاليف الشرعيّة. و لواستنكفوا و استكبروا يستحقّون العقاب على الفروع أيضاً، كما أنّهم مستحقّون على الأصول. فيجب عليهم بالضّرورة العقليّة الإيمان بالله الّذي هو شرط لصحّة التكاليف الشرعيّة.

قوله تعالى: «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤)».

قال في القاموس ٤/٢٣٥: والمسكين ـ وتُفتَح ميمه ـ: من لا شيء له، أوله ما لا يكفيه، أو أسكنه الفقر ـ أي: قلّل حركته ـ والذليل، والضّعيف. ج: مساكين ومسكينون.

قال الشّيخ (قده) في التبيان ١٠/١٨٦: أي: لم نك نخرج الزكوات الّتي وجبت علينا والكفّارات الّتي يلزمنا دفعها إلى المساكين.

أقول: السّورة المباركة مكّيّة. وهي السّورة الّتي نزلت في أوائل المبعث، ولا زكاة اليوم بمكّة على المؤمن، ولا على الكافر، حتّى يكون مانعو الزكاة مورداً للتّهديد والإنذار بدخول سقر، ولمّا يعرف هذه الأمّة الوثنيّة هذه الزكاة الّتي أنذرالله ـ سبحانه ـ من منعها عن أهله.

فإن قلت: لعلّها كانت دائرةً ورائجةً عند أهل الكتابين؛ التوراة والإنجيل، على ما يحكي تعالى عن قول عيسى ـ عليه السّلام ـ: «وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة» (مريم / ٣٢) أوفي شريعة إبراهيم ـ عليه السّلام.

قلت: لمّا يُعلم بعدُ أنّ دعوة التوراة والإنجيل شاملة لقريش. فإنّ موسى وعيسى ـ عليهما السّلام ـ رسولان إلى بني إسرائيل فقط. نعم، كان مشركو قريش منتحلين إلى إبراهيم الخليل ـ عليه السّلام ـ وفيهم بقيّة من سنن إبراهيم

ـ عليه السّلام ـ وكانوا يحجّون ويغتسلون من الجنابة. وقد تقرّر في محلّه أنّ الحكم في الشّريعة السابقة إذا لم ينسخ، فهو داخل في أحكام الشّريعة اللاحقة، وإن كان مشكوكاً من حيث النسخ، فيستصحب؛ إلّا أنّه لا دليل على وجود الزكاة في شريعة إبراهيم، كي يكون مشكوكاً من حيث النسخ وعدمه، فيتوقّف تنجّزها على بيان رسول الله وإظهاره.

والظّاهر أنّ الآية الكريمة قريبة المفاد من قوله تعالى:

«أرأيت الّذي يكذّب بالدين * فذلك الّذي يدعّ اليتيم * ولا يحضّ على طعام المسكين». (الماعون/ ١ ـ ٣)

«فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فكّ رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة». (البلد/ ١١ ـ ١٦)

أقول: الدّعّ: الدفع العنيف. يقال: ترب الرجل: إذا افتقر. فالآيات في سورة الماعون توبيخ وتقبيح على من كذّب بالدّين ودفع اليتيم بقهر ونهر عن بابه؛ وكثيراً ما يكون تحقيراً واستصغاراً وايذاءاً على أهل الفقر والحاجة، وتضييعاً لشؤونهم، ويكون حراماً.

وحيث إنّ التراحم والتعاطف من خصال الإنسانيّة العليا، تكون الآيات الكريمة في سورة البلد حثّاً وترغيباً في فكّ رقاب العباد والاهتمام بحوائج أهل الضُّرّ وكشف السّوء عن الأيتام والأرحام. وربّما يكون بحسب المقامات وشدة الاحتياجات واجباً إبقاءاً لحياتهم.

قوله تعالى: «وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)».

أقول: التعبير بالخوض، كناية عن شدّة اشتغالهم بالأباطيل وانغمارهم في الملاهي، حيث لا توجّه ولا عناية منهم للأمور العالية والخصال الفاضلة. ولا يخفى أنّ الخوض في أراذل الأمور، قولاً وعملاً، والإفراط فيها من الجنايات الكبيرة؛ سواء كان بترك الواجبات، أو بارتكاب المحرّمات.

قوله تعالى: «وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)»؛ أي: يوم الجزاء والمجازاة للأعمال.

وهذه الأمور الأربعة جواب عن مساءلة أصحاب اليمين عنهم بقولهم:

«ماسلككم في سقر» . وليس الغرض في الآية حصر جناياتهم بهذه الأربعة فقط، ولابيان أنّ المجموع من حيث المجموع علّة لسلوكهم؛ بل يمكن أن يكون لهم جنايات أخرى غيرها. ويكفي في دخولهم في سقر، تكذيبهم ليوم الدين وإنكارهم واستحلالهم لشيء من الواجبات الضروريّة والمحرّمات الضروريّة المذكورة في هذه الآيات.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)».

أقول: المراد بإتيان اليقين؛ قيل: أي: إتيان الموت. والمعنى: إنّهم كانوا مداومين على تكذيب يوم الدين، ماداموا في الحياة؛ أومداومين على الأمور المذكورة في الآيات الأربع كذلك.

وقيل: إنّ المراد إشرافهم على الحقائق البرزخيّة بالموت. فإنّ بالموت يرتفع الحجاب، ويكشف الغطاء، ويصير الخبر عياناً والغيب شهادةً.

فإن قيل: إنّ الظّاهر في الآيات أنّ الجنايات المذكورة، الموجبة لسلوكهم في سقر، قد كانت عن علم وعناد؛ وهي الموجبة لدخولهم، لاعلمهم بذلك بعد الموت.

قلت: قد كانت جناياتهم وتكذيبهم بالتّشكيك والتجاهل والتغافل وعدم الاعتناء والتأمّل في البيّنات والبراهين الحقّة.

قوله تعالى: «فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)».

أقول: بعد ماحكى ـسبحانهـ مساءلة أصحاب اليمين عن المجرمين، عن وجه سلوكهم في سقر، وجوابهم عن المساءلة، ذكر تعالى أنّ هؤلاء الّذين لاينالون شفاعة أيّ شافع كان. فلا دلالة في الآية الكريمة على نفي فائدة الشّفاعة على الإطلاق. وإنّما تدلّ على نفيها في حقّ المكذّبين فقط. وفيها إشعار وإشارة إلى ثبوتها في حقّ من سوى المكذّبين. وتدلّ على أنّ هناك شافعين فيشفعون ويشفّعون، وينتفع المذنبون بشفاعتهم.

وقوله تعالى: «فما تنفعهم» أدلّ وأوضح في طرد المكذّبين عن ساحة رحمته تعالى الواسعة وحرمانهم من شفاعة الشافعين؛ للفرق الواضح بين قولنا:

مالهم شافعون، و بين قوله تعالى: «فما تنفعهم شفاعة الشّافعين». فإنّ الأوّل يدلّ على نفي الشافع، وساكت عن قبول شفاعته وعدمه؛ بخلاف الثاني، فإنّه نصّ في عدم انتفاعه بالشّفاعة، ولوكان هنا شافع، فلن يقبل ولن يُشفَّع أبداً. وقوله تعالى: «الشّافعين» جمع محلّى بالألف واللام يفيد العموم؛ أي: أيّ شافع كان.

فالآية الكريمة ناصّة لنفي الشّفاعة بنفي فائدة الشفاعة؛ بخلاف قوله تعالى: «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم». (الشعراء/ ١٠٠ و ١٠١) فإنّها تدلّ على نفي الشّفاعة بنفي الشّافعين في حقّهم.

والمقطوع بحسب الآيات الكريمة والروايات المباركة: انّ الكافرين لاينالون الشفاعة.

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

بيان:

الظّاهر أنّ الآيات الكريمة في مقام الاستعجاب والإنكار والتوبيخ على المكذّبين المعرضين، لأجل إعراضهم عن الحقّ الصّريح، وعدم الاهتداء وعدم التذكّر بهداية القرآن الكريم، و بغيره ممّا دعا إليه رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ برسالاته و ببلاغه المبين.

قوله تعالى: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩)».

قال المفسّرون: إنّ قوله تعالى: «معرضين» منصوب على الحال، وحال من الضّمير في قوله تعالى: «لهم». أي: أيّ شيء عرض لهم، ولِمَ تولّوا

معرضين عن التذكرة؟! وقوله تعالى: «عن التذكرة» متعلّق بـ «معرضين».
وقال في الكشّاف ١٨٧/٤: نصب على الحال؛ كقولك: مالك قائماً.

قوله تعالى: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)».

بيان: وصف تعالىٰ إعراضهم عن الهداية، وشبّه فرارهم ونفورهم عن الحقّ المبين، بفرار الحمر الوحشيّة عن الأسد.

وعن ابن عبّاس قال: الحمر الوحشيّة إذا عاينت الأسد، هربت.

وقوله تعالى: «مستنفرة» ـ بالكسر ـ أي: تطلب من نفسها الفرار، وتحمل على نفسها النفار. وفيه إشعار بأنّ إعراضهم عن التذكرة والهداية، إعراض عمديّ بالتشكيك والارتياب ويطلبون من أنفسهم الإعراض.

وقرئ: «مستنفَرة» ـ بالفتح. أقول: الكسر أولى. فإنّ ذلك ـ أي القراءة بالفتح ـ إذا كان الأسد طردها وحمل عليها.

والقسورة: الأسد، أو الأسد الصائد. وقد ذكروا لها وجهين آخرين أعرضنا عن إيرادهما.

ولا يخفىٰ أنّ مورد التشبيه في الآيتين، إنّما هو بين إعراضهم عن التذكرة وبين فرار الحمر واستنفارها عن الأسد. وأمّا التشبيه بين التذكرة وبين الأسد، فلا عناية في الآية إلى ذلك؛ ولا دلالة في الآيتين عليه.

قوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُم أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً (٥٢)».

بيان: المستفاد من الآيات الكريمة: أنّ سيّدنا ونبيّنا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كسائر الأنبياء والرّسل الكرام، قد جاء بآيات بيّنة وبيّنات باهرة على صدق رسالته وصحّة نبوّته سيّما القرآن الكريم وهو من أكبر الآيات الإلهيّة.

ومع ذلك كلّه كان المعاندون يطلبون منه ويقترحون عليه ـ صلّى الله عليه وآله ـ آيات أخرى. وكان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يردّ عليهم ويقول: إنّما الآيات عند الله. وإنّما أنا نذير مبين. وأمر الآيات بيده تعالى وحده لا شريك له. وهو ـ سبحانه ـ فاعلها وخالقها ومقدّرها ومدبّرها، على حسب الحكمة

ومراعاة التدبير في نظام بعث الرسل وإرسال الشرائع.

فهو ـ سبحانه ـ يؤيّد من يشاء من أمنائه، بما يشاء من آياته. فأرسل موسى بتسع آيات إلى فرعون وملائه بالعصا، وباليد البيضاء وغيرها. وأرسل عيسى إلى بني إسرائيل بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها. وبعث محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله ـ بالكلام، وهو آية ومعجزة خالدة للشّريعة الخالدة إلى يوم القيامة. فلا يعقل أن تكون الآيات باقتراح المعاندين وأهواء المستكبرين؛ فإنّه جزاف باطل. قال تعالىٰ:

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها قل إنّما الآيات عندالله وما يشعركم أنّها إذا جاءت لايؤمنون». (الأنعام/١٠٩)

«وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربّه قل إنّما الآيات عندالله وإنّما أنا نذير مبين». (العنكبوت/ ٥٠)

«وما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله». (الرّعد/٣٨)

«وما كان لرسول أنّ يأتي بآية إلّا بإذن الله فإذا جاء أمرالله قضي بالحقّ وخسر هنالك المبطلون». (غافر/٧٨)

بيان: قوله تعالى: «وما يشعركم أنّها اذا جاءت لا يؤمنون» إبطال لما أرادوا من مطالبة الآيات على نحو التحميل والاقتراح على الله تعالى على رسوله ـ صلّى الله عليه وآله.

وقوله تعالى: «قل إنّما الآيات عندالله وإنّما أنا نذير مبين» إبطال وردّ على ما قالوا: «لولا أنزل عليه آيات من ربّه». وصرّح تعالى وقال: إنّما الآيات عندالله فقط. وليس وظيفة الرسول إلّا الإنذار والبلاغ المبين.

وقوله تعالى: «ما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله» في سورتي الرعد وغافر صريح في أنّ الرسول ليس له أن يأتي بآية إلّا بعد الاذن.

وهل المراد من المنع والنفي، المنع التشريعيّ، أو التكوينيّ؟ لكلّ منها وجه. قال المولى المحقّق العلامة الحلّي (قده) في شرحه على التجريد في شروط الإعجاز: ...الثاني: أن يكون من قبل الله تعالى، أو بأمره.

فاتّضح من جميع ما ذكرناه: أنّ أمر الآيات كلّها بيده تعالى وحده لاشريك له وبحسب تقديره وقضائه الحكيم. ويجب الالتزام والإيمان

بذلك . وليس يجري شيء منها باقتراح أحد على الله تعالى وعلى رسوله -صلّى الله عليه وآله.

أمّا قوله تعالى: «بل يريد كل امرئ...»، فقيل: إنّها من باب مطالبة الآيات. وتدلّ على أنّ كلّ واحد وواحد منهم يريد أن يؤتى صحفاً منشّرة؛ أي: كتاباً منشوراً يدلّ ويشهد على صدق رسالتك وصحة نبوّتك .

والآية الكريمة توبيخ وعتاب عليهم حيث أعرضوا عن التذكرة وعن الحجة القاطعة، استكباراً وبالتشكيك والترديد، وعدلوا إلى أمر خرافيّ واقترحوا على رسول الله وعلى الله -سبحانه- أن يؤتى كلّ واحد منهم كتاباً مستقلاً على حدة.

في المجمع ٦/ ٤٤٠، في تفسير قوله تعالى: «ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه» (الإسراء/٩٣) أي: ولو فعلت ذلك، لم نُصَدّقك حتّى تنزّل على كلّ واحد منّا كتاباً شاهداً بصحّة نبوّتك نقرؤه. وهو مثل قوله: «بل يريد كلّ امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة».

أقول: قد أفاد (قده) أنّ الآيتين متّحدتا المفاد، وأنهما مسوقتان في مطالبة الآيات؛ أي: إنزال كتاب مستقل على كلّ واحد من كفرة قريش اقتراحاً ومجازفةً.

وقيل: إنّ الآية الكريمة ليست من باب مطالبة الآيات اقتراحاً ومجازفةً. والآية قويّة الظهور أنّ كلّ واحد من هؤلاء المكذّبين، يريد اختصاصه بالرسالة والنبوّة دون رسول الله -صلّى الله عليه وآله- أومعه، حسداً على رسول الله واستعلاءاً عليه واعتراضاً على الله -سبحانه- في فعله الحكيم. وهذا استكبار على الله بالحقيقة، وتجاوز إلى سلطانه. والمعنى: إنّ هؤلاء مع إعراضهم عن التذكرة وعن الحجة القاطعة، يرتكبون شنيعة أخرى؛ يريدون ويتمنّون على الله أن يجعل كلّ واحد منهم نبيّاً ورسولاً ويؤتي كلّ واحد منهم كتاب شريعة. فالآية الكريمة نظيرة قوله تعالى:

«وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الّذين أجرموا صغار عند الله وعذاب

شديد بما كانوا يمكرون ». (الانعام / ١٢٤)

فالآيتان متحدتا المفاد من حيث إنّهم يستنكفون عن الإيمان بما جاء به الرسل، ويقترحون على الله أن يؤتيهم ما آتاه رسله. فردّ الله عليهم فقال: « الله أعلم حيث يجعل رسالته »؛ أي: هو ـ سبحانه ـ أعلم بمن يصطفيه بكرامة الرسالة، ويخصّه بموهبة النبوّة، فلا ينال عهده تعالى وأماناته الظالمون.

أقول: هذا القول هو الظّاهر في هاتين الآيتين، بقرينة لفظ الإيتاء في قوله تعالى: « حتّى نوتى ما أوتي رسل الله » وفي قوله تعالى: « أن يؤتى صحفاً منشّرة ». فإنّ الإيتاء يقارب معنى الإعطاء المشتمل على نحو الإكرام والإجلال من الله ـ سبحانه ـ على أهل الكرامة عليه.

وقد ذكروا في تفسير الآية أقوالاً اخر أعرضنا عن إيرادها، لضعفها وعدم استنادها إلى دليل واضح.

قوله تعالى: « كَلاَّ بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) ».

أقول: إنّ « كلّا » بمعنى الردع والزّجر عن اقتراحهم، وعمّا يريدون ويتمنّون على الله تلك الأمنيّة الكاذبة أن يجعلهم أنبياء ويؤتيهم صحفاً منشّرةً. ومحصّل المعنى: إنّ هذا القول الجزاف منهم بعد إتمام الحجة بالقرآن الكريم ليس إلّا لعدم مبالاتهم بأمر الجزاء في يوم الدين، وعدم خوفهم عن عذاب الآخرة.

قوله تعالى: « كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) ».

الظّاهر أنّ الضّمير للقرآن. أي: إنّ القرآن تذكرة وذكرى وبيّنات.

ولا يبعد أن يقال: إنّ المراد من الضمير، هو القرآن وأبواب علومه وغيره أيضا ممّا أوحي إليه ـ صلّى الله عليه وآله ـ من غيرطريق القرآن. والعناية في ذكر التذكرة في قوله تعالى: «فمالهم عن التّذكرة معرضين» هو توبيخ المكذّبين على إعراضهم عن التذكرة. وفي هذه الآية ارشاد إلى أنّ القرآن تذكرة. وبعبارة أخرى: الآية الكريمة لبيان شيء من نعوت القرآن الجليلة الجميلة.

وقوله تعالى: «كلاّ»؛ قيل: إنّه للرّدع والزّجر عن قوله: «بل يريد كلّ امرئ ...». ولا يخفى ما فيه من التكلّف.

وفسّره في المجمع ١٠/ ٣٩٢ بمعنى «حَقّاً». وقد بسطنا القول في معنى «كلاّ» في قوله تعالى: «كلاّ والقمر». (المدّثر/٣٢) وذكرنا ثَمّة أنّه إذا كان ما قبل «كلاّ» أمراً أوقولاً منكراً، يكون بمعنى الردع. وإن لم يكن مسبوقاً بذلك، يكون بمعنى «حقّاً»، أوبمعنى «ألا» الاستفتاحيّة. ويمكن أن يقال: إنّ الأنسب بالمقام أن يكون بمعنى الاستفتاح أوبمعنى «حقّاً».

قوله تعالى: «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ(٥٥)».

الضّمير راجع إلى القرآن. أوللتذكرة؛ كما قيل. أي: فمن شاء أن يتذكّر بهدايات القرآن ومواعظه و بلاغاته، فذاك له.

وليس المراد من تعليق التذكّر بالمشيّة، أنّ التذكّر وعدمه سواء بالنسبة إلى الناس؛ بل فيه ترغيب على التذكّر والاتّعاظ وتحضيض بها. أي: إنّ القرآن الكريم إنّما نزل من عندالله ـ سبحانه ـ للتذكّر والهداية. فمن تذكّر واهتدى، فقد فعل ما كان مأموراً به.

قوله تعالى: «وَمَا يَذْكُرُونَ إلاّ أنْ يَشَاءَ اللهُ».

قال الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢١٣: قرئ «يذكرون» بالياء والتاء، مخفّفاً ومشدّداً.

أقول: أمّا القراءة بالياء، فعلى الإخبار عنهم؛ وبالتاء، فللخطاب إليهم.

وفي تفسير الآية أقوال:

منها ما قال في الكشّاف ٤/ ١٨٨ «وما يذكرون إلاّ أن يشاءالله»؛ يعني: أن يُقْسِرَهم على الذكر ويلجئهم إليه. لأنّه مطبوع على قلوبهم معلوم أنّهم لايؤمنون اختياراً.

أقول: يرد عليه أنّ هذا متوقّف على أنّ الآية الكريمة في مقام التوبيخ والتشنيع عليهم. وهو كما ترى؛ إذ لادليل عليه من ظاهر الآية الكريمة. وقد ذكرنا سابقاً أنّ الآية في مقام الحثّ والتّرغيب على التذكّر بالتذكرة

أو بالقرآن الكريم.

ومنها ماذكره الشّيخ (قده) في تبيانه ١٠/١٨٨ حيث قال: ومعناه: ليس يتذكّرون ولا يتّعظون بالقرآن إلّا أن يشاء الله؛ ومعناه: إلّا والله شاءه له. لأنّه طاعة؛ والله يريد الطّاعات من خلقه.

أقول: كيف يتّصل ويرتبط قوله: «وما يذكرون» بالنفي المطلق بحسب التكوين بالمشيّة المولويّة وأنّ مراده من قوله: «والله شاءه له. لأنّه طاعة؛ والله يريد الطّاعات من خلقه»؟! وأمّا الإرادة التكوينيّة، فلا يجوز الالتزام به؛ لأنّه مستلزم أن يكون أفعال العباد مرادةً ومشاءةً بالإرادة التكوينيّة.

ومنها: ما ذكره بعضهم أنّ قوله تعالى: «وما يذكرون إلّا أن يشاء الله» لدفع ما يتوهّم من قوله تعالى: «فمن شاء ذكره» من أنّ أمر الذكر موكول إليهم وهم مستقلّون في ذلك ــ أي فيما شاؤوا أن يذكروا ــ وليس لله تعالى في هذا الأمر من شيء.

قال: والمحصّل من الدفع: إنّ حكم القدر جاء في أفعالهم كغيرها من الحوادث. وتذكّرهم إن تذكّروا، وإن كان فعلاً اختياريّاً صادراً عنهم باختيارهم من غير إكراه، فالمشيّة الإلٰهيّة متعلّقة به بما هو اختياريّ؛ بمعنى أنّ الله تعالى يريد بإرادة تكوينيّة أن يفعل الإنسان الفعل الفلانيّ بإرادته واختياره. فالفعل اختياريّ ممكن، بالنّسبة إلى الإنسان؛ وهو بعينه متعلّق الإرادة الإلهيّة ضروريّ التحقّق بالنّسبة إليها، ولولاها، لم يتحقّق.

أقول: ويرد عليه أوّلاً أنّ قوله تعالى: «فمن شاء ذكره» ليس فيه ما يوهم استقلال العباد في أفعالهم. ولادلالة فيه بوجه على أنّ أمر الذكر موكول إليهم. وليس فيه تأييد مقالة المفوّضة المساكين الّذين أرادوا أن ينسبوه تعالى إلى العدل فأخرجوه من سلطانه. وقد عرفت أنّ قوله تعالى: «فمن شاء ذكره» في مقام الحثّ والتشويق على التذكّر والذكر، وأجنبيّ، عن إفادة مقالة المفوّضة. والآية الكريمة نظيرة قوله تعالى: «إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا». (المزّمّل / ١٩)

وثانياً: أنّ ما ذكره هذا القائل في نهاية الوهن والسقوط. فإنّ قوله:

وتذكّرهم إن تذكّروا، وإن كان فعلاً اختياريّاً صادراً عنهم من غير إكراه، فالمشيّه الالهيّة متعلّقة به بما هو اختياريّ ــ الخ، صريح في أنّ العباد مجبورون في اختيارهم، والفعل ضروريّ الصّدور عنهم.

ولايخفى أنّ حمل الآية على هذا الوجه، ليس من باب التفسير في شيء. وإنّما هو تطبيق على ما زعموا من البراهين والأصول الّتي عندهم؛ وقد قامت البراهين الإلهيّة على بطلانها من أصلها. وليت شعري: أيّ محصّل لكون الفعل اختياريّاً بعد تعلّق الإرادة التكوينيّة الإلهيّة به؟!

وأمّا تفسير الآية الكريمة: «وما يذكرون إلّا أن يشاء الله» فسيأتي ـ إن شاء الله ـ تفسيرها وتنقيح البحث فيها عند تفسير قوله تعالى: «إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً * وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله» (الدّهر/٢٨ ـ ٢٩) وقوله تعالى: «إن هو إلّا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين». (التكوير/٢٧ ـ ٢٩)

قوله تعالى: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوٰى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦)».

بيان: قال في القاموس ٤/٤٠١: اتَّقَيتُ الشيء وتَقَيْتُه ... تقاءاً ــ ككساء ــ: حَذَرته. والاسم: التقوى، كأنّ أصله تقيا فقلبوه للفرق بين الاسم والصّفة.

لمّا ذكر تعالى شيئاً من نعوت القرآن، وقال: «إنّه تذكرة» ــ أي: إنّ القرآن إرشاد وهداية وإيقاظ على نحو الإرشاد والتذكير ــ «فمن شاء ذكره» دعا ـ سبحانه ـ أولياءه وأولي الألباب من خلقه أن يتذكّروا بعلومه ومعارفه وحقائقه، وأن يهتدوا بهداياته وأنواره. وهذا البيان نوع تعطّف وحنان منه تعالى على عباده المهتدين والمؤمنين.

وقوله تعالى: «وأهل المغفرة» بمنزلة التفريع من الآيات المتقدّمة؛ أي: إنّ الله الّذي رغّبكم في جنابه وقرّبكم من بابه، أهل أن يتّقى منه وأحرى أن لا ترتكبوا ما يخالف وينافي مرضاته وشأنه الجليل. فعلى هذا يكون قوله تعالى «هو أهل التّقوى» لِلتّحذير عن إساءة الأدب في حرم كبريائه ـ سبحانه ـ على نحو الإرشاد؛ ولِلتذكير بالمواظبة والمراقبة في جنب المولى

ـ جلّ ثناؤه.

ويمكن أن يقال: إنّ الآية الكريمة تذكرة إلى أنه تعالى أهل أن يتّقى من سطواته ونقماته على أعدائه وعلى أهل معصيته.

أقول: الوجه الأوّل هو الأنسب في المقام؛ لما تقدّم أنّ الآيات مسوقة في مقام الترغيب والتّشويق إرشاداً وليست في سياق التهديد والتوعيد. وليس في هذه الآيات من يستحقّ التهديد، بل هي ظاهرة كالصريح في سوق الناس إلى المراقبة والمواظبة بمراعاة مراسم العبوديّة في جنب الله ـ سبحانه.

وقوله: «هو أهل التقوى» عقيب تلك الآيات السّابقة، تمجيد من الله ـ سبحانه ـ على نفسه بعناية مقام الألوهيّة وعلوّشأن ذلك المقام. فلا يجوز لأولي الالباب التغافل والتجاهل في ساحته، والتفريط في جنبه ـ جلّ ثناؤه. وقوله تعالى: «وَأهل المغفرة» تمجيد آخر منه تعالى على نفسه القدّوس، بسعة رحمته وعموم فضله. فلا يضيق عليه تعالى، غفران ذنوب من عرف الله ووحّده وآمن به بشرائط الإيمان.

ولا يخفى أنّ قوله تعالى: «وأهل المغفرة» فيه شهادة ودلالة على ما ذكرناه في صدر البيان من أنّ الآيات المتقدّمة بالتقريب الّذي ذكرناه ظاهرة أنّ هذه الآيات مسوقة في مقام العطوفة والحنان ـ سيّما مع تمجيده تعالى على نفسه أنّه أهل المغفرة ـ وليست مسوقةً لِلتّهديد.

وفي التوحيد للصّدوق (ره) / ۲۰، مسنداً، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في قول الله ـ عزّوجلّ ـ: «هو أهل التقوى وأهل المغفرة» قال:

«قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: أنا أهل أن أُتقى ولا يشرك بي عبدي شيئاً. وأنا أهل إن لم يشرك بي عبدي شيئاً، أن أدخله الجنّة.»

وقال ـ عليه السّلام ـ:

«إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أقسم بعزّته وجلاله أن لا يعذّب أهل توحيده بالنّار أبداً.»

٧٥. سورة القيامة

في رواية عن ابن عبّاس أنها مكّية؛ وهي السّورة الثلاثون من القرآن، نزلت بعد سورة القارعة. (أُنظر: مجمع البيان ٤٠٥/١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

بيان:

الآيات الكريمة مسوقة للتوبيخ و الإنكار على من أنكر البعث وعود الإنسان بعد موته، وأنّه تعالى يقدر على جمع عظامه المتفرّقة البالية، وعلى تسوية بنانه؛ أي: تنظيم أجزائه وأعضائه، وتكميلها على صورته وخطوطه الّتي كان عليها

قبل موته؛ ثمّ ذكر شيء من أشراط السّاعة وشدائدها وأهوالها؛ ثمّ بيان أنّ المصير والمستقرّ إلى ربّ العالمين والمساءلة بين يديه عمّا عمل وإحصاء سيّئاته عليه، ما قدّم منها قبل موته، وما أخرّ منها بعده، وإفحامه وإتمام الحجة عليه بينه وبين ربّه، وإن تشبّث بأعذار واهية وحجج غيرمقبولة.

قوله تعالى: «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ(١) وَلَا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(٢)».

الظّاهر في المقام: إنّ قوله: «لا» في صدر الآية لِلنّفي والإنكار على الكفّار الّذين ينكرون ويستبعدون أمر الحشر وعود الأبدان. ثمّ استأنف ـ سبحانه ـ الكلام وأقسم بيوم القيامة. ومتعلّق القسم هو إثبات الحشر والبعث. وتقديم «لا» النّافية قبل القسم، يفيد المبالغة في إثبات متعلّق القسم.

والآية الكريمة لها نظائر في القرآن الكريم. قال تعالى:

«فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب إنّا لقادرون». (المعارج / ٤٠)

«فلا أقسم بالخنّس * ... * إنّه لقول رسول كريم». (التكوير ١٥ ـ ١٩)

«فلا أقسم بالشفق *... *لتركبنّ طبقاً عن طبق». (الانشقاق/ ١٦ ـ ١٩)

«لا أقسم بهذا البلد *وأنت حلّ بهذا البلد *ووالد وما ولد». (البلد/ ١ ـ ٣)

وغيرها من الآيات الّتي في صدرها «لا» النافية، في عين أنّ الآيات مسوقة في سياق الإثبات.

فإن قلت: فما تقول في قوله تعالى: «ولا أقسم بالنّفس اللّوّامة» بإعادة حرف النفي؟ ولعل هذا هو الفارق بين هذه الآية المبحوثة وبين الآيات الّتي أوردناها في المقام؟

قلت: الكلام فيها بعينه الكلام في الآية السابقة. وإعادة حرف النّفي، لا دلالة فيها ولا شهادة على أنّ الكلام في أصله مسوق في سياق النفي، أو صار في سياق ما بعد «لا» (لا المعطوفة).

وقيل: إنّ «لا» لنفي القسم بيوم القيامة؛ لأنّه فوق أن يستعظم

بالإقسام به. فعلى هذا يكون الجملة إخباريّةً لا إنشائيةً. كما ينسب ذلك ابن هشام في المغني ٣٢٨/١ إلى الزمخشريّ؛ ويلوح ذلك من كلامه في الكشّاف ١٨٩/٤.

أقول: هذا تكلّف بارد. إذ لا دليل على أنّ الإقسام بشيء لأجل استعظامه، حتّى يكون الإقسام بيوم القيامة خلاف شأنه وشرفه. كيف؟! والله ـ سبحانه ـ عظيم جليل لا نهاية لجلالته وعظمته؛ وقد أقسم بنفسه القدّوس في غير واحد من آيات القرآن الكريم.

وثانياً: لـمّا يعلم بعدُ غرضه تعالى من نفي إقسامه ـ سبحانه ـ بيوم القيامة، أهو لاستعظامه على زعم الزمخشريّ، أو لاستصغاره. ولا دليل على شيء منها.

وفي المجمع ٣٩٤/١٠: وقيل: معناه: لا أقسم بيوم القيامة لظهورها بالدلائل العقليّة والسّمعيّة.

أقول: وهذا الوجه موهون أيضاً لأنّ الإقسام بالشيء، ليس لأجل أنّه مخفيّ يراد إثباته وإظهاره. بل الإقسام بالشيء لإثبات شيء آخر أو تأكيده. وهذا بمكان من الوضوح. وكيف كان، فعلى فرض كون الآية جملةً إخباريّةً، ينحلّ نظم الآية وارتباطها بما بعدها من الآيات.

وقيل: إنّ «لا» زائدة. وفائدتها التوطئة والتوكيد لمعنى النفي. (الكشّاف ١٨٩/٤)

أقول: أرادوا من النفي في هذا المقام النفي المستفاد من الكلام. و«لا» النافية تأكيد وتوطئة في الجمل الّتي فيها معنى النفي؛ مثل قوله تعالى:

«ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك». (الأعراف/١٢)

«لئلّا يعلم أهل الكتاب ألّا يقدرون على شيء من فضل الله». (الحديد/٢٩)

وأورد عليه الرازيّ بالفرق بين المقيس والمقيس عليه. فإنّ الآيات المذكورة ونظائرها في القرآن، كلّها جمل منفيّة زيدت «لا» النافية في وسطها؛ وأمّا الآية المبحوثة ، فهي جملة إثباتيّة، ودخلت «لا» النافية في أوّلها. وليس

في هذه الجملة نفي كي يكون «لا» النافية لتوطئته وتوكيده.(تفسير الرازيّ ٣٠/٢١٤)

أقول: المستفاد من السّنن الكثيرة الواردة في هذا الباب: أنّ الله ـ سبحانه ـ أن يحلف بما شاء من خلقه. وليس لخلقه أن يقسم بشيء ممّا سواه تعالى. (انظر: نورالثقلين ٥/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩، ووسائل الشيعة ١٦/ ١٥٩)

فالمتحصّل بحسب ما استظهرناه في المقام: أنّه ـ سبحانه ـ أقسم بيوم القيامة، لثبوت البعث والمجازاة بقوله: «لا أقسم بيوم القيامة».

قوله تعالى: «وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوّامَةِ(٢)».

أقول: الكلام في هذه الآية المباركة بعينه، الكلام في الآية السّابقة؛ أي: أقسم تعالى بالنفس، في إثبات البعث والحشر، في إبطال قول من أنكر الحشر. كما أقسم بالنّفس في قوله تعالى:

«ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها». (الشّمس/٧و٨)

قوله تعالى: «اللّوامة» اسم فاعل مبنيّ للمبالغة؛ أي: كثيرة اللّوم على نفسه. وهي صفة ونعت للنّفس. وقد أُريد بها مدح النّفس، لاقدحها.

والمراد من اللّوم ليس هي التلهّف والتحسّر والندامة. بل المراد العتاب والتوبيخ على تفويت حقّ الغير وارتكاب الجرم. فالعتاب كما يمكن من نفس الإنسان على نفسه، يمكن أن يكون من الغير أيضاً.

ولا يخفى أنّ العتاب على النفس، وتوبيخها على تقصيرها وتفريطها، على سبيل مدح النفس به، إنّما يتصوّر في دار التكليف والابتلاء والاختبار. والنّفس، وإن كانت لها أنواع وأقسام بحسب مقام الثبوت والفرض، من حيث كونها عاتبةً وبحسب الموطن، إلّا أنّ المراد بها ــ بمعونة القرائن، الّتي ذكرناها ــ هي النفس المؤمنة المراقبة لحرمة ربّها؛ الّتي تلوم وتعاتب نفسها، زجراً إيّاها عن معصية الله، ومؤاخذةً إيّاها على ارتكاب الآثام وتثاقلها وتسامحها في المجاهدة وفي سلوك سبيل التّقوى.

ولاتدلّ الآية الكريمة على شمول النّفس اللوّامة لغير ما ذكرنا من أنواعها، كالكافرة الفاجرة في الدّنيا. فإنّها في حال العصيان والطّغيان، فلا تعاتب ولا

توبّخ نفسها على مخالفة ربّها، بل تنشط و تصرّ و تفتخر بذلك . و كالنفس الكافرة الفاجرة في الآخرة أيضاً. فإنّه ليس في الكتاب والسّنة ما يدلّ على توبيخ الفجّار وعتابهم على أنفسهم في الآخرة. وإنّما يعاتبهم و يوبّخهم الله ـ سبحانه ـ في موقف المحاسبة والمساءلة، والملائكة الموكّلون على عقابهم. والّذى يصدر من الكفّار يومئذ، هي النّدامة والتحسّر. وأمّا النفس المؤمنة أيضاً، فلا دليل على أنّها تلوم نفسها في الآخرة على عدم توفّر حسناتها. ولا دليل على أنّها مكلّفة شرعاً أو عقلاً، لتوبيخ نفسها وعتابها في الآخرة وفي الجنّة.

و جواب القسم محذوف. والتقدير: ليبعثنّ، ونحوه.

قوله تعالى: « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ».

الظّاهر أنّ الهمزة للاستفهام الإنكاريّ. وصرّح في المغني بأنّها استفهام توبيخيّ. والصّواب ما قلناه. فإنّ المقام مقام المجادلة بالّتي هي أحسن وإنكار مقالة المنكر، وإبطالها والمطالبة بالدليل.

وقوله تعالى: « لن» لتابيد النفي، كما يزعمه المنكر ويستبعده من جمع العظام المستهلكة في التراب، المتحوّلة إلى أجسام أخرى. فإنّ نظرة المنكر نظرة عاميّة حمقائيّة مستندة إلى الحسّ، وليس له بصيرة بسنن الخلقة والإيجاد والبدع والبدء، ولا يقدر على نقض استبعاده وإبقاء الأمر في بقعة الإمكان، ثم إثباته أو إبطاله بالدليل. ويكفي في جهالة هؤلاء الأشخاص وبساطتهم، أنّهم لولم يشاهدوا هذا الخلق العظيم الموجود وأُخبِروا أنّه سيُخلق، لأنكروه أشدّ الإنكار.

قوله تعالى: « بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ».

قال في المغني ١/ ١٥٣: « بلى» حرف جواب... وتختصّ بالنفي وتفيد إبطاله.

وفي الجوامع/ ٥٢٠: « بلى» ايجاب لما بعد النفي.

أقول: المتحصّل في المقام أنّ « بلى» لإيجاب الجملة المنفيّة السّابقة

وإثباتها؛ كما في قوله تعالى:

«زعم الّذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلىٰ وربّي لتبعثنّ». (التغابن / ٧)

وقوله: «قادرين»؛ قيل: إنّه حال من ضمير الفاعل في قوله: «نجمع»؛ أي: نجمع تلك العظام حال كوننا قادرين على تسوية البنان.

واستشكل عليه الرازيّ في تفسيره ٣٠/٢١٧ قال: وفيه اشكال؛ وهو أنّ الحال إنّما يحسن ذكره إذا أمكن وقوع ذلك الأمر، لاعلى تلك الحالة. تقول: رأيت زيداً راكباً، لأنّه يمكن أن نرى زيداً غير راكب. وهاهنا كونه تعالى جامعاً للعظام، يستحيل وقوعه إلّا مع كونه قادراً. وإنّ جعله حالاً جارياً مجرى بيان الواضحات؛ وإنّه غير جائز.

وقيل: إنّ التقدير: بلى كنّا قادرين على أن نسوّي بنانه في الابتداء، فوجب أن نبقى قادرين على تلك التسوية في الانتهاء.

أقول: لاوجه لتخصيص متعلّق القدرة، بتسوية البنان في الابتداء والانتهاء؛ بل الظّاهر إثبات القدرة المطلقة وتمجيده تعالى نفسه القدّوس بالقدرة على جميع شؤون المعاد؛ ضرورة أنّ الآية الكريمة ليست مسوقة لإفادة التخصيص في المقام.

قال في القاموس ٤/٣٤٥: ... واستوى: اعتدل. والرجل: بلغ أشدّه أو أربعين سنة ... وليلة السّواء: ليلة أربع عشرة أوثلاث عشرة.

أقول: المستفاد من موارد الاستعمال أنّ معناه: بلوغ الشيء و بلوغ الرجل حدّ اعتداله وتمامه وكماله الّذى قدّره الله ـ سبحانه ـ في حقّه، طبق تدبير العليم الحكيم. قال تعالى:

«أكفرت بالّذي خلقك من تراب ثمّ من نطفة ثمّ سوّاك رجلاً». (الكهف / ٣٧)

«ولمّا بلغ أشدّه واستوىٰ آتيناه حكماً وعلماً». (القصص / ١٤)

«أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماء بناها * رفع سمكها فسوّاها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها». (النّازعات/٢٧-٢٩)

وفي القاموس ٤/٢٠٣: «البنان: الأصابع، أو أطرافها.» وحيث إنّ

تسوية كلّ شيء وتمامه بحسب ذلك الشيء، فالظّاهر من تسوية البنان بلوغه حدّ إحيائه؛ أي: إحياؤه مع إحياء الإنسان وجميع أجزاء بدنه بجميع خصوصيّاتها وجزئيّاتها، وإعادة ما كان عليه من الهيئة والصّورة قبل موته في الدنيا.

ثم لايخفى أنّه ليس سوق الكلام في الآية، لبيان خلقة الإنسان وبيان لطائف الصّنع وبدائع النظم والتدبير في خلقه؛ بل الكلام مسوق لإنكار مقالة المنكر واستبعاده جمع العظام الّتي مزّقت كلّ ممزّق. فعلى هذا يكون تخصيص تسوية البنان بالذكر من بين الأعضاء ـ من حيث نظمها وإحيائها وإعادة ما كان عليه من التركيب والتصوير ـ لعلّه لكونه من أعجب ما صنعه تعالى ودبّره ـ سبحانه ـ في باب تنظيم البنان وتسويته؛ أو لكثرة فوائده ودخله في رفع حوائج حياة الإنسان؛ من الغذاء والمسكن واللباس.

وقوله تعالى: «بلى قادرين على أن نسوّي بنانه» تذكرة بقدرته تعالى، وإقامة حجة على إبطال قول المنكر ونقض استبعاده جمع العظام. فإنّ منشأ الاستبعاد والإنكار هو عدم عرفانه بقدرته تعالى، وجهالته وغفلته أنّ جمع العظام وتسويتها وإحياءها، أهون من أن يستعصي ويمتنع عليه تعالى.

قوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ الإنْسانُ لِيَفْجُرَ أمامَهُ(٥)».

الظّاهر أنّ الكلام إضراب عن الجملة السّابقة، وانتقال إلى غرض آخر؛ وهو التوبيخ للإنسان الظّلوم الجهول بأنّه ليس له همّ إلّا إشباع شهواته وميولاته؛ فقال ـ سبحانه ـ: «بل يريد الإنسان ...».

قال ابن هشام في المغني ١/ ١٥١: «بل» حرف إضراب. فإن تلاها جملة، كان بمعنى الإضراب. أمّا الإبطال ـ نحو: «قالوا اتّخذ الرّحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون» [الأنبياء/ ٢٦]؛ أي: بل هم عباد. ونحو: «أم يقولون به جنّة بل جاءهم بالحقّ» [المؤمنون/ ٧٠] وإمّا الانتقال من غرض إلى آخر.

أقول: مثاله قوله تعالى:

«قد أفلح من تزكّى * وذكر اسم ربّه فصلّى * بل تؤثرون الحياة

الدنيا».(الأعلى ١٤-١٦)

والظّاهر في المقام هو المعنى الثاني. إذ لامحصّل لإبطال الجملة السّابقة: « بلى قادرين على أن نسوّي بنانه».

وقوله تعالى: «ليفجر أمامه». الفجر: الانبعاث في المعاصي والزّنا، كالفجور فيها. كذا ذكره في القاموس ١٠٧/٢. والأمام؛ أي: مايستقبل من أيّام عمره.

والمعنى: إنّما يريد الإنسان الإدامة على فجوره والإصرارعلى ذنوبه فيما يستقبل من أوقاته وأيّامه.

فإن قلت: إنّ معنى قوله: «بل يريد الإنسان ...» أريد به تكذيب المعاد والبعث. وواضح أنّه ليس إنكار المنكر أمر المعاد والبعث إلا ليخوض في فجوره ويستغرق في شهواته وميولاته ويستريح من نقض عيشه ولذّاته بصيحة البعث.

قلت: هذا الوجه ـ مضافاً إلى أنّه خلاف الظّاهر في معنى «بل» الإضرابيّة، بالبيان الذي أوردناه عن المغني ـ متوقّف على أن يكون إنكار المنكر عن علم وعناد، أولشبهة دخلت على المنكر ولم يتدبّر في الحجج الدالّة على صحة المعاد، حرصاً ورغبةً في فجوره. وأمّا إذا كان الحسبان والإنكار لاعن استبعاد وشبهة، فلا ارتباط بين حسبانه وبين فجوره وفسوقه؛ لاعلى نحو العلّيّة والمعلوليّة، ولاعلى نحو الملازمة، ولاعلى نحو الاقتضاء. فلا يستقيم أن يقال: إنّ الخوض في الفجور والانهماك في الشّهوات، علّة للتكذيب، والجملة قائمة مقام التكذيب.

والظاهر من قوله تعالى: «أيحسب الإنسان...»، أنّ هذا الحسبان والشّبهة من ناحية الجهل والبساطة والخرافة، ومن أجل اعتمادهم على الحسّ في الحقائق الأخرويّة والمعاد؛ كما أوضحناه في صدر البيان في أوّل السّورة المباركة. ويشهد على ما ذكرنا أنّه تعالى أقام الحجة وأنار البرهان على صحّة المعاد وإزاحة الشّبهة وإزالة الاستبعاد من أهل الحسبان والاستبعاد، فقال ـ سبحانه ـ ردّاً عليهم: «بلى قادرين ...».

فتبيّن من جميع ما ذكرناه أنّ ما قيل: «إنّ معنى الآية أنّه لايحسب أن لن نجمع عظامه، بل يريد أن يكذّب بالبعث ليفجر مدى عمره»، في نهاية الضّعف. لأنّ قوله تعالى: «أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه» إنكار من ناحية الاستبعاد، وقوله: «بل يريد الانسان ...» مسوق لتوبيخ الإنسان الفاجر الّذي لاينزع عن فجوره، ولايستحيي عن فسوقه. والآيتان أجنبيّتان عن التكذيب عن علم وعناد. والغرض في الآية الأولى غير الغرض في الأخرى.

وفي نورالثقلين ٥/ ٤٦١، عن عليّ بن إبراهيم في تفسير المقام قال: يقدّم الذنب ويؤخّر التّوبة ويقول: سوف أتوب.

وقريب منه ما هو المنقول عن سعيدبن جبير. (تفسير الرازي ٢١٨/٣٠)

أقول: الآية الكريمة لاينافي شمولها لهذا المعنى، أي المسلم الفاجر الّذي لايبالي بدينه. وأمّا القول أنّ المراد هو هذا المعنى فقط، فغير واضح.

وقيل: إنّ معنى قوله تعالى: «ليفجر»؛ أي: يكذّب. قال: من كذّب حقّاً، كان فاجراً. والمراد من «أمامه» هو القيامة. والمعنى: بل يريد الإنسان ليكذّب القيامة. (تفسيرالرازي ٢١٨/٣٠) وفي هذا المعنى رواية عن الصّادق -عليه السّلام- رواها في البرهان ٤٠٦/٤.

أقول: استفادة ذلك من ظاهر اللّفظ، يحتاج إلى مؤونة زائدة.

قوله تعالى: «يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ(٦)».

أقول: السّائل هو الفاجر. وهل السؤال سؤال معاند مستهزئ، أو سؤال مستبعد منكر؟ لادليل ولاقرينة في الكلام على أنّ السؤال عن عناد واستهزاء.

قوله تعالى: «فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧)».

يمكن أن يقال: إنّ قوله تعالى: «فإذا برق البصر ...» جواب عن سؤال الفاجر الّذي يقول: متى تقوم السّاعة؟ فعلى هذا تكون قرينةً على أنّ سؤاله كان عن استبعاده أوعدم مبالاته بالدين. لأنّ المعاند المكابر لايستحقّ الجواب سيّما في الأمور الغائبة عن الحسّ، الّذي يحتاج الإيمان بها إلى التعبّد بقول

رسول أو نبيّ أو صدّيق معصوم.

ويمكن أن يقال: إنّ قوله تعالى: «فإذا برق البصر ...» مسوق لتهديد هذا السائل الفاجر، فتكون قرينةً على أنّ سؤاله كان عن عناد واستهزاء.

وهناك وجه ثالث وهو أنّ الفاء للاستيناف والآيات منفصلة عمّا قبلها من الآيات. ولم أظفر في كلمات المفسّرين على التعرّض لشأن هذا الفاء في هذا المقام، إلّا عليّ بن إبراهيم فإنّه قال في تفسيره ٢/٣٩٦: قوله: «يسأل أيّان يوم القيامة»؛ أي: متى يكون؟ قال الله: «فإذا برق البصر» قال: يبرق البصر فلا يقدر أن يطرف.

فالظّاهر من كلامه أنّ الآيات جواب عن سؤال هذا الإنسان الفاجر.

أقول: هذا أشبه بالمقام، وأوفق بنظم الآيات على الوجه الّذي ذكرناه.

وقوله تعالى: «فإذا برق البصر ...» مسوق لبيان شيء من أشراط الساعة وعلاماتها. وقد اختلفت واضطربت كلماتهم في تفسير تلك العلامات. ولعلّ سرّ هذا الاختلاف أنّهم أو بعضهم لم يعرفوا أنّ القيامة لاتقوم إلّا بانهدام هذا العالم بعد انحلال هذا النظام. ولعلّهم زعموا أنّ تحقّق هذه العلامات مع بقاء هذا الكيان المشهود. وليس كما زعموا؛ بل الظّاهر والمستفاد من الآيات، انحلال العالم تدريجاً إلى أن يبطل وينهدم، على وجه لايعلم تفصيل ذلك إلّا الله - سبحانه - وحملة علمه. وتقوم القيامة بتحقّق تلك العلامات.

قال في القاموس ٣/٢١١، في عداد معاني برق: ... وبصره: تلألأ. وكفرح ونصر: تحيّرَ حتّى لايطرف، أو دهش فلم يبصر.

أقول: الظّاهر أنّ موطن هذه الدهشة والوحشة حين ما يرون من أشراط الساعة، وأخذتهم البلية من كلّ ناحية من آثار زلزلة السّاعة وهم أحياء؛ كما في قوله تعالى:

«يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة السّاعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد». (الحج / ١ و ٢)

ولاينافي ذلك دلالة بعض الآيات على أنّ هذه الدهشة والوحشة عند ما هجم عليهم أهوال القيامة وشدائدها؛ كما في قوله تعالى:

«إنّما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء». (إبراهيم/٤٢ و٤٣)

قوله تعالى: «وَخَسَفَ القَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ (٩)».

في هاتين الآيتين دلالة واضحة على أنّ الموطن والموقف موقف الأشراط لاموقف القيامة؛ فليس في القيامة قمر ولاشمس حتّى يخسف القمر أو تجمع الشّمس مع القمر.

وبهذا يعلم فساد قول من يقول: إنّ المراد من قوله: «برق البصر» أي عند الموت؛ والقول الآخر: في القيامة؛ والقول الآخر: عند رؤية الجحيم. (تفسيرالرازي ٣٠/ ٢١٩) إذ من الضّروريّ أنّه ليس عند الموت قمر ولا اجتماع شمس وقمر. وكذلك الكلام في القيامة وموقف رؤية النار؛ اذ لم يبق قمر ولا شمس، وقد كوّرت الشمس وتناثرت الكواكب قبل موقف القيامة.

والظّاهر أنّ المراد بخسوف القمر في هذا المقام، ذهاب ضوئه عند إشرافه على الانحلال والبطلان، لا خسوفه العاديّ بذهاب ضوئه وبقاء عينه، كما في الخسوف المتعارف قبل موقف الأشراط.

وكذلك الكلام في اجتماع الشّمس والقمر في موقف أشراط السّاعة، من تكوير الشّمس وانكدار النجوم، ثمّ انفطار السّماء وتناثر النجوم. فلا يبعد أن يقال: إنّ هذا الاجتماع والتلاقي، عند ما يأخذ في الانحلال والاختلال بأمره تعالى ووقوع التناثر.

وأمّا كيفية هذا الاجتماع وطور هذا التلاقي، فالأولى إيكال علمه إلى الله ـ سبحانه ـ وإلى حملة علمه. ولم نظفر بعدُ على دليل في بيان كيفيّة الجمع وجزئيّاته وخصوصيّاته.

وقد قيل في كيفيّة ذلك وجوه:

الأوّل: إنّه تعالى قال: «لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر» (يس/ ٤٠) فإذا أدرك أحدهما صاحبه، جمعا.

الثاني: إنّها جمعا في ذهاب ضوئها.

الثالث: إنّها جمعا في كونها مسوّدين مكوّرين.

الرابع: إنّها يجمعان ويقذفان في البحر، فهناك نارالله الكبرى. (انظر الكشّاف ٤/١٩١)

أقول: لاشاهد ولادليل على شيء من ذلك. بل ظاهر الآية يدفع جميع ذلك .لأنّها ظاهرة في وقوع حادثة كبرى في أعيان العالم. وبالنظر إلى جميع الآيات المسوقة لبيان أشراط القيامة واقتراب الساعة، تكون الآية الكريمة ظاهرةً في أنّ هذه الحوادث جارية في ضمن خراب الدنيا وفي سير هذه الدّاهية الكبرى.

قوله تعالى: «يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(١٠)».

القائل هوالإنسان. وينطبق على الإنسان السائل الفاجر، فيكون جواباً ثانياً عن سؤاله، وتهديداً له. والمفرّ: اسم مكان، أومصدر ميميّ. أي: أين محلّ الفِرار؟ أو: أين الفرار؟

وهل الموقف لهذا القول هو موقف أشراط السّاعة، أوموقف القيامة؟ والظّاهر هوالثاني. والقرينة على ذلك الآيات اللاحقة. وذلك عند ما برزوا لله الواحد القهّار، وعنت الوجوه، وخضعت الرقاب للحيّ القيّوم، وهجمت أهوال القيامة وشدائدها.

قوله تعالى: «كَلاَّ لَا وَزَرَ(١١)».

قيل: إنّ «كلاّ» ردع وزجرعن طلب المفرّ. (الكشّاف ٤/١٩١) وهو غيرواضح. فإنّ ذلك في «كلّا» المسبوقة بقول رديّ أوعمل قبيح فيجب الردع والمنع عنه، بخلاف المقام؛ فإنّ ذلك إخبارعن حقيقة غيبيّة ستقع وستكون.

وليس يجب أن يقال أنّ «كلّا» حرف ردع في كلّ ما ورد في القرآن، كما سيجيء تفصيل القول في قوله تعالى: «ثمّ إنّ علينا بيانه* كلّا بل تحبّون العاجلة». (القيامة/١٩و٢٠) وقد ذكر بعض النحويّين أنّ «كلّا» في أمثال المورد بمعنى «ألا» الاستفتاحيّة، أوبمعنى «حقّا». أمّا الآية المبحوثة، فالأشبه فيها أيضاً أن تكون بمعنى «ألا» الاستفتاحيّة.

قال في القاموس ٢/١٥٤: الْوَزَرُ ــ محركة ــ: الجبل المنيع، وكلّ معقل، والملجأ والمعتصم. فالمعنى: إنّه لا عاصم من بلائه وعذابه. ولا رادّ لحكمه وقضائه.

قوله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ(١٢)».

الخطاب لرسول الله؛ وفيه تشريف له ـ صلّى الله عليه وآله. والمستقرّ بمعنى المقرّ، مع العناية بأنّ الأمور ــ وخاصّة أمر يوم الفصل الّذي سيقت الآية لبيان شأنه ــ لابدّ لها من المقرّ الّذي ينتهي إليه جميع الأمور وهو مقرّ الكلّ بالذات. ونظائر الآية كثيرة في القرآن الكريم. قال تعالى:

«إنّا لله وإنّا إليه راجعون». (البقرة/١٥٦)

«إنّ إلينا إيابهم». (الغاشية /٢٥)

«إنّ إلىٰ ربّك الرجعىٰ».(العلق/٨)

«إلى الله مرجعكم جميعاً». (المائدة/٤٨)

فالظاهر أنّ المراد في الآية الكريمة ونظائرها: إنّ هنالك الولاية لله الحقّ. وقد أخذ وسلب عن الجميع، ما وهبهم وملّكهم من العظمة والكبرياء. وبطلت سنّة الاختبار والامتحان. فلا حاكم ولامالك ولاوليّ إلا الله. فيحاسبهم، ويجازيهم بعدله بالنقمة والعذاب على أعدائه، وبالجنّة والكرامة لأوليائه.

وليس المراد من رجوع النّاس إليه تعالىٰ أنّ جميع الناس الأشقياء والمخذولين يتشرّفون اليوم بمعرفته ـ سبحانه ـ ومعرفة توحيده ونعوته ومعاني أسمائه. هيهات! إنّ ذلك كرامة خاصّة لأوليائه وأهل الكرامة عليه. وأمّا الأشقياء والمطرودون؛ فالفسّاق من الموحّدين، يمكن أن يدركهم الرحمة الالهيّة، فيتخلّصون ويخرجون إلى فضاء النور وسعة فضله وكرامته تعالى، وينالون من معارفه تعالى ماشاء الله ـ سبحانه ـ في حقّهم. وأمّا غيرهم من المعاندين والأراذل وأوليائهم، محرومون إلى الأبد من كرامة الله ونيل أسرار العلوم الإلهيّة. قال تعالى:

«ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا».

(الإسراء / ٧٢)

« كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ». (المطفّفين/ ١٤ و ١٥)

وقدورد في تفسير قوله تعالى: « إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون» رواية عن مولانا أمير المؤمنين، ورواية عن مولانا الرضا ـ عليهما السلام ـ بأنّ المراد احتجابهم عن ثواب ربّهم. (أنظر: نورالثقلين ٥ / ٥٣٢)

أقول: لا ريب أنّ تعريفه تعالى نفسه إلى عباده في الدّنيا والآخرة من كراماته ومثوباته في حقّهم. فلا تنافي بين مفاد الآية وإطلاقها وبين الروايتين. نعم، الّذي يمكن أن يقال: من معارفه تعالى في حقّهم ما أشرنا إليه آنفاً أنّه بعد ما سلب الله عنهم ما ملكهم من القدرة والسّلطة، وبعد ما بطلت سنّة الامتحان والاختبار وظهر مالكيّته تعالى وحاكميّته وولايته ـ سبحانه ـ بأتمّ بروزاته وظهوراته ـ وكلّ ظهوراته تامّة ـ فبقوا أذلّاء صاغرين تكويناً، فلا يبقى لهم مجال الترديد والتشكيك فيه تعالى، فاضطرّوا إلى الإذعان والاعتراف بأنّ الله ـ سبحانه ـ هو الحقّ المبين ومالك يوم الدّين.

فاتّضح من جميع ماذكرنا أنّ معنى قوله تعالى: « إلى ربك يومئذ المستقرّ» استقرار أمرهم وشأنهم إلى أمره تعالى وإلى ولايته تكويناً وتشريعاً، وله الحكم والأمر فيهم.

قوله تعالى : « يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) » .

الظّاهر إنّ الموقف موقف الحساب وموقف العرض الأكبر على الله. وإنّ المراد من قوله ـ سبحانه ـ: « ينبّأ الإنسان» أن يصيّره عالماً تكويناً، ويكون ما قدّم وأخّر من أعماله حاضراً عنده كما هو صريح قوله تعالى:

«يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّلو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً». (آل عمران/ ٣٠)

«ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحداً». (الكهف / ٤٩)

أقول: في قوله: « محضراً» عناية وإشارة إلى أنّه لم يكن الأعمال

حاضرةً، ثمّ أحضرها الله ـ سبحانه ـ فيراها الإنسان و يشهد.

في تفسير العيّاشي ٢/ ٣٢٨، عن خالدبن نجيح، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال:

« إذا كان يوم القيامة، دفع إلى الإنسان كتابه. ثمّ قيل له: اقرأه.
قلت: فيعرف ما فيه؟
فقال: إنّه يذكره. فما من لحظة، ولامن كلمة ولانقل قدم ولاشيء فعله، إلّا ذكره كأنّه فعله تلك السّاعة. فلذلك قالوا: « يا و يلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها.

وفيه عن خالدبن نجيح، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قريب منه.

أقول: يأتي تفصيل القول في ذلك في سورة الانشقاق. والظّاهر أنّ المراد من التقدّم والتأخّر في الآية الكريمة، أي: قبل موته وبعد موته؛ كما في قوله تعالى:

«إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين». (يس/ ١٢)

فإنّ الظّاهر من الأثر ما بقي بعد الشيء لاقبله ومعه.

فعلى هذا يكون المراد ما أخّر من سنّة حسنة سنّها وعمل بها الناس بعده أوعمل خيراً و بقي بعد موته؛ مثل كتابة علم وبناء مسجد ونظائر ذلك. أوسنّ سنّة سيّئة عمل بها الناس بعده. أو اغتصاب أموال بقي أعيانها في أيدي النّاس يتصرّفون فيها.

وقيل: إنّ المراد ممّا قدّم، ما تصدّق من أمواله؛ وممّا أخّر، مالم يتصدّق به ولم ينفقها. (الكشاف ٤/ ١٩١)

أقول: لايخفى ضعف هذا القول. إذ لامحصّل أن يقال: إنّه تعالى ينبّئه يومئذ بما أنفق من أمواله وبما أخّره وتركه ولم ينفقه. وإن أراد أنّه من حيث الحكم التكليفيّ في عمله، فهو راجع إلى ما ذكرناه أنّ المراد تقديم الأعمال وتأخيرها، ويكون تخصيص العمل بمورد إنفاق المال وترك إنفاقه، تخصيصاً وتقييداً من غير مخصّص ومن غير مقيّد.

وقيل المراد بما قدّم، ما عمله من الأعمال؛ وبما أخّر، مالم يعمله وتركه.

(الكشاف ٤/ ١٩١)

وفيه أنّ الترك لايعدّ عملاً كي يقدّم أو يؤخّر. وتوجيه ذلك بأنّ المراد ترك الواجبات وعصيان أوامرها، تخصيص من غير مخصّص.

وقيل: إنّ المراد ممّا قدّم، أوّل أعماله؛ وممّا أخّر، آخرها. (الكشاف ٤/ ١٩١).

وفيه: أنّه لم يعلم العناية في تقسيم الأعمال وتنويعها من حيث كونها أوّلاً وآخراً. ومنه يعلم ضعف القول أنّ المراد ما قدّم في أوّل عمره و، ما أخرّ في آخر عمره (تفسير الرازي ٢٩/ ١١٥) بخلاف ما ذكرنا فإنّ فيه العناية بما عمله من الحسنات والسّيئات بالمباشرة أوبالتسبيب. وفيه استيعاب واستقصاء لجميع أعماله، ما كان منها بمباشرته وفي حياته مع علمه واختياره وكان يعلمه إجمالاً، وما كان بالتسبيب بعد موته ولم يعلمه بوجه؛ فينبّيء الله هذا الإنسان بها، ويحصيها ـ سبحانه ـ عليه، ويجعله عالماً بها، على مايستفاد من ظاهر الآيات.

قوله تعالى: «بَلِ الإِنْسانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصيرَةٌ(١٤) وَلَوْ أَلْقىٰ مَعاذيرَهُ(١٥)».

ظاهر كلام غيرواحد من المفسّرين وصريح بعضهم أنّ الآية الكريمة متّصلة بما قبلها، وتثبيت لِلاحقها في سياقها على وجه أظهر منها. قال بعضهم ما خلاصته: إنّه تعالى لمّا قال: «ينبّأ الإنسان ...» ثمّ قال: «بل الإنسان على نفسه بصيرة ...» أي: لايحتاج إلى أن يُنبّأ؛ فإنّه شاهد على نفسه وإنّه فاعل لتلك الأفعال. وقال بعضهم: ذو بصيرة على نفسه، ولو جادل عن نفسه واعتذر بالمعاذير كي يصرف العذاب عنها. (أنظر: الكشاف ٤/ ١٩١، تفسير الرازي ٣٠/ ٢٢١)

أقول: قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: «بل يريد الإنسان ليفجر أمامه» أنّ «بل» حرف تفيد الإضراب. فإن تلاها جملة، كان بمعنى الإضراب وإبطال الجملة السابقة وإثبات اللاحقة؛ كما في قوله تعالى: «قالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون». (الأنبياء/ ٢٦) وإن لم يكن لإبطال ما بعدها، كان معنى الإضراب فيها الانتقال من غرض إلى غرض آخر؛ كما في قوله تعالى:

« بل تؤثرون الحياة الدنيا» بعد قوله: « وذكر اسم ربّه فصلّى» . (الأعلى /١٥و١٦) فعلى هذا يكون « بل» في المقام للانتقال من غرض إلى غير الغرض المسوق له الآية الأولى.

هذا أوّلاً. وثانياً: أنّ الآية السّابقة تدلّ على أن الله ـ سبحانه ـ ينبّئ الإنسان ويصيّره عالماً تكويناً بجميع ما قدّم وأخّر من أعماله. والثانية تدلّ على أنّ الإنسان مجرم ومسؤول في عبوديّته، وساكتة عن معرفة الإنسان الحوادث الماضية في موردها بعينها. فليس هناك ترقٍّ من الحجّة الضّعيفة إلى الأقوى ومن الظّاهر إلى الأظهر.

وثالثاً: الآية السّابقة مسوقة لمعرفة الحسنات والسيّئات ما قدّم منها وما أخّر، و مشاهدتها في موردها. والثانية، بناءاً على ما ذكروه، مختصّة بالسيّئات.

فالظّاهر في المقام ــ وهو المختار ــ: إنّ السّابقة مسوقة لبيان أنّ الإنسان إذا وقف موقف الحساب، ينبّئه الله ويجعله متذكّراً بجميع ما قدّم من أعماله ــ ما قدّم منها قبل موته، وما أخّرها بعد موته ــ مقدّمةً للحساب. والثانية تدلّ على أنّ الإنسان له بصيرة ومعرفة بسنن الطّاعة والتقوى؛ يعرف تقصيرها وتفريطها في هذا الشأن الخطير، ويعرف الأحكام العقليّة وما يجب أن يأتي ويترك ، وقد ألهمها ربّها فجورها وتقواها. ويعرف أيضاً كيف يتلقّى الأحكام الشّرعيّة، وكيف يمتثلها.

وخلاصة القول في الفرق بينها: إنّ السّابقة مسوقة لمعرفة الحوادث الّتي صدرت منه في دار الدّنيا. والثانية للإرشاد إلى البصيرة الّتي بهايتمّ الحجّة ويصحّ التكليف في دار الدّنيا، وبها يسلك سبيل العبوديّة وامتثال الأحكام الشرعيّة. ولامساس بينها بوجه.

في نورالثقلين ٥/ ٤٦٣ ، عن العيّاشيّ، عن زرارة، قال:

« سألت أبا عبدالله ـ عليه السّلام ـ: ما حدّ المرض الّذي يفطر صاحبه؟

قال: « بل الإنسان على نفسه بصيرة» . هو أعلم بما يطيق.

وفيه / ٤٦٢ ، عن الفقيه نحوه.

وفيه أيضاً عن أصول الكافي، بإسناده عن فضل أبي العبّاس، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ:

«ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويستر سيّئاً؟! أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنّ ذلك ليس كذلك؟! والله عزّوجلّ يقول: «بل الإنسان على نفسه بصيرة».

إنّ السريرة إذا صحّت، قويت العلانية.

وفي هذا المعنى روايات أخرى. من أرادها، فليراجعها.

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

بيان:

قال في الكشّاف ١٩١/٤: كان رسول الله إذا لُقّن الوحي، نازع جبرئيل القراءة، ولم يصبر إلى أن يتمّها، مسارعةً إلى الحفظ، وخوفاً من أن يتفلّت منه. فأمر بأن يستنصت له مُلقياً إليه بقلبه وسمعه، حتّى يقضى إليه وحيه، ثمّ يقفّيه بالدّراسة إلى أن يرسخ فيه.

وفي التبيان ١٩٥/١٠: قال ابن‌عبّاس وسعيدبن جبير والضحّاك: كان النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ إذا نزل عليه القرآن، عجل بتحريك لسانه، لحبّه إيّاه. فنهاه عن ذلك.

أقول: هل المراد أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ تبادر على زعمهم بابتداء القراءة قبل أنّ يتمّها بأسرها جبرئيل ـ عليه السّلام؟ أو أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يتّبع قراءة جبرئيل حرفاً بعد حرف، وكلمةً بعد كلمة، ولم يصبر حتّى يفرغ جبرئيل عن قراءته؟ ونظيرة الآية قوله تعالى:

«ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربّ زدني علماً». (طه/١١٤)

قال في الجوامع /٢٨٦: إذا لقّنك جبرئيل الوحي، فلا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبرئيل من قراءته. ولا يكن قراءتك مساوقةً لقراءته. ونحوه:

«لاتحرّك به لسانك».

أقول: لاظهور ولادلالة في الآية الكريمة، ولا في قوله تعالى: «ولاتعجل بالقرآن ...» على أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يستعجل بالقراءة، وينازع جبرئيل في قراءته. وإنّما اعتمدوا في ذلك على مرسلات تاريخيّة واهية لايجوز الاستناد والاتّكاء عليها وعلى نظائرها في باب التفسير وباب الإفتاء بالحلال والحرام.

وليس النهي في الآية نهياً تشريعيّاً مولويّاً كي يدلّ على كراهة المسارعة أوتحريمها. ولا دليل على أنّ النّهي كان بعد ارتكاب المنهيّ. فإنّ أقصى ما يدلّ عليه النّهي في باب النّهي التشريعيّ، الزّجر والمنع عن الطّبيعة المنهيّة. بل الظّاهر أنّ الآية الكريمة تذكرة وإرشاد إلى حسن التثبّت والتأنّي في شؤون الرسالة، وترسيم لأهمّ وظيفة من وظائفه ـ صلّى الله عليه وآله ـ وتأديب إلهيّ في شأن خطير من شؤون الرسالة والنبوّة في كيفيّة أخذ الرسالة وتلقّي النبوّة.

وما ذكره الزمخشريّ من أنّه كان مسارعةً إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفلّت منه، لامحصّل له. فإنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ ما كان يتخوّف على نفسه النسيان وذهاب الوحي والقرآن عن ذكره وحفظه؛ وقد أنزل تعالى عليه سورة الأعلى في مكّة في أوائل أمره، وفيها قوله:

«سنقرئك فلا تنسىٰ * إلاّ ماشاءالله إنّه يعلم الجهر وما يخفى * ونيسّرك لليسرى». (الأعلى /٦-٨)

فهو ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يقرأ بإقرائه تعالى، ويستحيل منه النسيان. ويجب على الزمخشري وأمثاله أن يعرفوا أنّ سورة الأعلى قد نزلت قبل هذه السّورة المباركة وقبل سورة طه، فلا مجال أن يقال إنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يتخوّف أن يتفلّت القرآن منه. ولا يجوز التشبّث بالاستثناء في قوله: «إلاّ ماشاءالله». فالظاهر أنّ قوله تعالى: «سنقرئك ــ إلى قوله ــ نيسّرك لليسرى» مسوق في مقام الامتنان وإبراز العطف والحنان على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله. فليس معنى الآية أنّه تعالى إن شاء يقرئه ولم ينسه، وإن

لم يشأ لم يقرئه فينسه؛ فيخرج الآية عن سياق الامتنان، ويبطل الغرض المسوق له الكلام، فينزل الغرض في الآية منزلة الأمور العاديّة. فالعناية في الاستثناء التحفّظ على التّوحيد، والتحفّظ على إطلاق قدرته تعالى، وأنّه ـ سبحانه ـ ليس مغلول اليد، وأنّ كرامته تعالى على رسوله سواء كانت قبل مرتبة فعليّة العطاء أوفي مرتبة فعليّته ليست على نحو الإيجاب، بل إكرامه إيّاه وتفضّله عليه بمشيّته وعمده واختياره تعالى.

وقوله تعالى: «سنقرئك ...» ففيه وجوه ثلاثة:

الأوّل: إنّه إخبار عمّا يفعله لرسوله من كرامة الإقراء وعدم النسيان في المستقبل.

والثاني: إنّه ميعاد من الله ـ سبحانه ـ بما يعطيه من كرامة الإقراء.

والثالث: إنّه بيان لسنّته الفاضلة وعادته الكريمة في حقّ رسوله وصفيّه ـ صلّى الله عليه وآله. كما في قولنا: فلان يقري الضيف، ويكرم الجوار؛ أي: إنّ هذا من دأبه وعادته.

فالظّاهر هو الثالث؛ إذ فيه بروز الامتنان والتجلّي بالعطف والحنان. وإذا دخلت على الفعل المضارع السين يفيد تأكّد تلك السّنّة المستمرّة الإلٰهية بالنسبة إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لاتأكّد وقوعها في الاستقبال وتمحّضه وتخلّصه للاستقبال.

واستعمال السين في الاستمرار ـ ولو في غيرمورد الامتنان ـ غير عزيز في كلامه تعالى، سواء كان بحسب الوضع؛ كما ذكره ابن هشام عن بعض النحويّين ـ خلافاً للمشهور ـ أوقلنا إنّه بسبب القرائن المقاميّة؛ كما في قوله تعالى:

«ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلّما ردّوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السّلم ويكفّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم». (النّساء / ٩١)

وقد تبيّن من جميع ما ذكرنا أنّ قوله تعالى: «فلا تنسى» كافٍ وشافٍ في عصمته ـ صلّى الله عليه وآله ـ عن النسيان، وأنّ قوله: «لا تحرّك به

لسانك » بمعزل عن إفادة تخوّفه عن النسيان. وقد أورد الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٢٢ ستة أقوال لاجدوى في إيرادها.

أقول: والسّرّ فيما وقع فيه القوم: إنّهم قد غفلوا أنّ نزول الملك على الإنسان، ومشاهدة الإنسان إيّاه ومكالمته مشافهةً، ونزول القرآن والوحي عليه بواسطة الملك ، من باب الإعجاز، ومن الأمور الخارقة للعادة. وكذلك أخذ الوحي والرسالة والنّبأ الغيبي من الأشخاص المستورة تحت حجب الغيوب، مع أنّ الرسول بشر مثلنا، من باب الاطّلاع والإشراف على الغيب المحجوب. وهو من أعظم معجزاته ـ صلّى الله عليه وآله ـ وليس أمراً عاديّاً كي تجري فيه أحكام العادة ولوازمها من الخطأ والنسيان وسنفصّل القول في ذلك في الأبحاث الآتية ـ إن شاء الله .

وصفوة القول في ذلك بالبيان الإجماليّ: إنّه لايخفى عند الفقيه العارف بمقام الرسالة والنبوّة والإمامة أنّه ـ سبحانه ـ ما أرسل ملكاً رسولاً إلى أحد من البشر، وما جعل أحداً نبيّاً إلّا مقارنةً بإفاضة روح القدس عليه؛ وهو العلم الحقيقيّ والعيان الصريح المصون والمعصوم بالذات. فبهذا الروح القدسيّ يعرف الملك بشخصه. وبهذا العيان الصّريح يأخذ القرآن والوحي، ويحمله ويحفظه ويقرؤه ويبلّغه، ويعرف أنّ ذلك وحيٌ لاريب فيه؛ تنزيل من حكيم حميد. وهو الحجّة البيّنة الصّادقة بينه وبين ربّه، على رسالته ونبوّته وإمامته. وهو خاصّ بالأنبياء والرسل والأوصياء الصدّيقين. ويستحيل الاختلاف بينهم من أوّل الدنيا إلى انقضائها. فكلّ سابق يبشّر باللّاحق ويصدّقه. واللّاحق منهم يؤمن بالسّابق ويصدّق ما تقدّم من الرسل والكتب. وكذلك الأوصياء الصدّيقون بما أودعُوا من العلوم والشرائع، وأمروا بتبليغه ونشره. ولايتجاوز عن الأنبياء والأوصياء إلى غيرهم. وأمّا غيرهم، فليس عندهم إلّا أشياء مظلمة مغموسة مثار الاختلاف ومعركة للآراء؛ يسمّونها عندهم مكاشفةً أوقطعاً برهانيّاً، ويكفّر بعضهم بعضاً، ويجهّل بعضهم بعضاً. وللروح إطلاقات أخرى. وسيأتي تفصيل القول في ذلك في سورة النبأ ـ إن شاء الله .

قال تعالى:

«وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس». (البقرة/٨٧)
«وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً ...». (الشورى/٥٢)

وفي البحار ٢٥/٥٨، عن البصائر بإسناده عن المفضّل بن عمر قال: قلت لأبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ سألته عن علم الامام بما في أقطار الأرض، وهو في بيته مرخىً عليه ستره فقال:

«يا مفضّل، إنّ الله تبارك وتعالى جعل للنبيّ خمسة أرواح ... وروح القدس. فبه حمل النبوّة. فإذا قبض النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ انتقل فصار في الامام. وروح القدس لاينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو.»

والروايات في هذا الباب كثيرة في جوامع الحديث.

أقول: وأمّا التابعون للكتاب والسّنّة بالشرائط المقرّرة في الشّريعة، فهم في نور وفي فسحة ونجاة عن هذه المزالق والمزلّات.

قوله تعالى: «إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧)».

الظّاهر من السّياق أنّ هذا بشارة وتأييد ووعد لرسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بجمعه القرآن وقراءته إيّاه عليه. فإنّ الظّاهر من الضّمير في قوله: «جمعه وقرآنه» أنّ المراد هو القرآن لا أبعاضه وأجزاؤه. والمعنى: إنّ على عهدتنا وماجرى به قضاؤنا الحكيم، أن نجمع هذا القرآن الّذي أنزلناه عليك متفرّقاً، وما ننزّله بعد ذلك، إلى تمامه وكماله. وكذلك علينا قرآنه عليك مجموعاً.

والقرآن مصدر من قرأ يقرأ على فعلان، بمعنى: القراءة والتلاوة. وسمّي الكتاب الكريم المنزل على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ قرآناً، باعتبار أنّه مقروّ ومتلوّ ومن جنس ما يُقرأ وما يتلى. وهذا من باب إطلاق الكتاب على المكتوب. وتوهّم بعضهم أنّه مأخوذ من قرأ بمعنى جمع ــ مثل: قرأت الماء في الحوض ــ وسمّي قرآناً باعتبار كونه مجموعاً. (مجمع البيان ١٤/١) والتحقيق ما ذكرناه.

فمعنى قوله تعالى: «وقرآنه» أي: قراءته.

قال الرازيّ في تفسيره ٢٢٤/٣٠: معناه: علينا جمعه في صدرك وحفظك.

أقول: يرد عليه أنّ الله ـ سبحانه ـ قد جمع ما أنزل من القرآن متفرقاً وتدريجاً في صدره وحفظه، فلا يصلح أن يكون مورداً لوعده تعالى؛ لأنّه تحصيل للحاصل. وتوجيه ذلك بأن نجمعه في صدرك وحفظك ونثبته على لسانك، غير وجيه. لأنّه لايدفع الإشكال، مضافاً إلى أنّه يكون إقراءاً لاقراءةً.

إن قلت: أيّ مانع أن يقال أنّ مورد وعده تعالى، هومابقي من القرآن بعد هذه السّورة المباركة؟

قلت: لامانع منه بحسب الفرض، إلّا أنّ الآية الكريمة وإطلاقها لايلائم التبعيض؛ بل الظّاهر أنّ مورد هذا الوعد الجميل الصّادق هو مجموع القرآن.

وفي التبيان ١٩٦/١٠، عن ابن عبّاس والضحاك: معناه: إنّ علينا جمعه في صدرك وقراءته عليك حتّى يمكنك تلاوته.

أقول: يرد عليه أيضاً أنّ الله ـ سبحانه ـ قد جمع القرآن عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وقد كان حافظاً إيّاه متمكّناً من تلاوته. فلا يبقى مورد لهذا الوعد، حين أكرم الله رسوله بمفاد قوله: «سنقرئك فلا تنسى». وأمّا قوله: «وقراءته عليك» فهو موافق لظاهر الآية، فيجب الالتزام به، على ما سيجيء توضيحه عن قريب ـ إن شاء الله.

إن قلت: أليس ظاهر قوله تعالى: «إنّ علينا جمعه وقرآنه» في مرحلة التعليل لقوله تعالى: «لا تحرّك به لسانك لتعجل به»؟

قلت: نعم؛ إلّا أنّا أوضحنا فيما تقدّم حقيقة هذا النّهي، وذكرنا أنّ النهي لا دلالة فيه على ارتكاب المنهيّ عنه، ولا الارتكاب من جملة شرائط النهي. فلا دلالة في النهي على تحقّق العجلة. ولا دلالة في العجلة ـ على فرض تحقّقه ـ على أنّه كان خوفاً من النسيان؛ بل يجوز أن تكون لعناية أكيدة واهتمام خاصّ لشأن الوحي وأخذه، حبّاً إيّاه وشوقاً إليه، وغير

ذلك .

فالمتحصّل في المقام وجهان:

أحدهما أن يقال: إنّ مورد وعده تعالى بجمع القرآن، جمع مابقي منه بعد هذه السّورة المباركة، وقراءته عليه بقراءة جبرئيل.

وثانيها: يجوز أن يقال: إنّ الله ـ سبحانه ـ كما جمع القرآن كلّه عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لايبعد أنّه قد جمعه عند جبرئيل ـ عليه السّلام ـ فيقرأ تعالى القرآن على رسوله بقراءة جبرئيل. وهذا هو الظّاهر. فإنّ القارئ والمملي كان هو جبرئيل، وكان عالماً به و حافظاً إيّاه. فقوله تعالى: «قرآنه» أي: قراءتنا عليك بقراءة جبرئيل مرّةً ثانية.

في البحار٤٦٦/٢٢ ،عن إعلام الورى والإرشاد:

«... فلمّا أحسّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ بالمرض الّذي عراه، أخذ بيد عليّ بن أبي طالب ـ عليه السّلام ـ واتّبعه جماعة من الناس، وتوجّه إلى البقيع. فقال للّذي اتّبعه: إنّني قد أمرت بالاستغفار لأهل البقيع.

فانطلقوا معه؛ حتّى وقف بين أظهرهم وقال: السّلام عليكم يا أهل القبور! ليهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم، يتبع آخرها أوّلها.

ثمّ استغفر لأهل البقيع طويلاً، وأقبل على أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ فقال: إنّ جبرئيل ـ عليه السّلام ـ كان يعرض عليّ القرآن في كلّ سنة مرّة. وقد عرضه عليَّ العام مرّتين. ولا أراه إلّا لحضور أجلي.»

وفيه أيضاً /٤٧٣ عن أسباب النزول للواحديّ نحوه.

قوله تعالى : «فَإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)» .

لايبعد أن يقال: إنّ الآية الكريمة تفريع ممّا تقدّم من مفاد الآيتين؛ أي بيان وظيفته ـ صلّى الله عليه وآله ـ في أخذ القرآن وتلقّي الوحي، ووعده تعالى الوعد الجميل الصّادق في قوله: «إنّ علينا جمعه وقرآنه» . أي: فإذا قرأنا عليك هذا القرآن بقراءة جبرئيل عند نزول القرآن متفرّقاً و بعد نزوله

مجموعاً، فاتّبع قرآنه. ولايخفى أنّ الأمر في قوله: «فاتّبع قرآنه» أمر إرشاديّ وتذكير إلى وجوب اتّباع القراءة والوحي كمّاً وكيفاً، وتذكرة أيضاً بوجوب اتّباع مفاد ما يقرأ ويتلو، لوضوح أنّ وجوب اتّباع القراءة وجوب طريقيّ، ولا يمكن تجريد القراءة عن الطّريقيّة في مرحلة وجوب اتّباع القراءة على الإطلاق. وعليه يتّضح أنّ معنى وجوب اتّباع القراءة، وجوب اتّباع مفادها ومحتواها من الحقائق والأحكام، بما أنّه وحي وشريعة الٰهيّة، لاوجوب اتّباع ألفاظ جبرئيل ـ عليه السّلام ـ عقيب قراءته وتلاوته.

وممّا ذكرنا يظهر سقوط ما ذكروه في تفسير المقام:

منها: ما ذكره في الكشّاف ٤/ ١٩١ قال: فكن مقفّياً له فيه، ولا تراسله، وطأمِنْ نفسك أنّه لايبقى غير محفوظ، فنحن في ضمان تحفيظه.

ومنها: ما تقدّم نقله عن الكشّاف أيضاً في تفسير قوله تعالى: «لا تحرّك به لسانك» قال: فأمر بأن يَسْتنصِت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه، حتّى يقضى إليه وحيه؛ ثمّ يقفّيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه.

ومنها: ما في تفسير الرازيّ ٣٠/٢٢٥، عن بعض المفسّرين ما خلاصته: إذا أتممنا عليك قراءته، فاتبع قراءته بعد تمامها.

أقول: وأنت بعد التأمّل فيما ذكرنا، تعرف أنّ الضمير في قوله تعالى: «فاتّبع قرآنه» راجع إلى القرآن لاإلى القارئ. ومنشأ هذه الأقاويل ليس إلّا ما ذكروه أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان يستعجل لتلقّي الوحي خوفاً من النسيان. فأُمر بأن يستنصت حتّى يتمّ الوحي، ثمّ يتّبع قراءة القارئ.

وقوله تعالى: «فاتّبع قرآنه» وإنّ كان خطاباً شخصيّاً لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولكن حيث إنّ وجوب اتّباع القراءة حكم عقليّ، فلا محالة يكون وجوب الاتّباع الشامل لمن عقل وعرف، من محكمات القرآن ومن المستقلات العقليّة فيه.

قوله تعالى: «ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ(١٩)».

تحرير البحث في المقام يحتاج إلى بيان أمرين:

الأمر الأوّل : لا ريب عند أولى الأبصار أنّ القرآن الكريم حجّة بين الله ـ سبحانه ـ و بين خلقه؛ وهو حبل ممدود بينه تعالى و بين عباده، عند من عرف لغة القرآن؛ اللّغة المقدّسة العربيّة. فالقرآن الكريم قد وصفه الله ـ سبحانه ـ أنّه برهان وفرقان، و بيان وتبيان، وشفاء وضياء، ونور و بصائر، وغير ذلك من نعوته الجليلة الكريمة.

وهو في مرتبة دعوته العامّة يذكّر ويهدي إلى جميع العلوم الفطريّة ألّتي فطرالله الناس عليها من معرفته تعالى ومعرفته توحيده ـ سبحانه ـ بالمعرفة الفطريّة التّي فطرالله الناس عليها « لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم » .(الروم/ ٣٠) وكذلك تذكيره تعالى بالآيات المخلوقة المصنوعة وسوق الناس إلى التدبّر فيها ومعرفة أسرارها وحيث إنّه تعالى تجلّى بخلقه لخلقه، وخاصّةً أنّه تعالى تجلّى في كلامه فيعرفونه تعالى بظهوره الذّاتي عند التدبّر في الآيات، خارجاً عن الحدّين؛ حدّ التعطيل، وحدّ التشبيه.

وحيث إنّ القرآن، هداية وإرشاد إلى جميع العلوم الفطريّة الّتي يتمكّن الناس من نيلها و دركها، وما ألهمهم الله تعالى من فجورهم وتقواهم، فعند مخاطبة الله تعالى إيّاهم بما يعظهم ويرشدهم، يتذكّرون بضياء المعرفة وشعاع العقل، و يستنيرون بها، فيستأديهم الله ـ سبحانه ـ ميثاق فطْرته، و يثير إليهم دفائن عقولهم، فيؤاخذهم تعالى بالإيمان و الإقرار بما وجدوا وعلموا ببداهة عقولهم؛ من الحقائق و المعارف و المحسّنات و المقبّحات و المنكرات الضروريّة، و بالجملة المستقلّات العقليّة المصطلحة عند الفقهاء على عرضها العريض؛ وخاصّة الانتهاء والاجتناب من كلّ فاحشة وقبيحة، و القيام بكلّ أمر معروف حسن. وهذه باب واسعة لايمكن إحصاؤها و بيان دقائقها.

ويبشّرهم ـ سبحانه ـ بحنانه ووفائه على أهل الوفاء به تعالى من المحسنين و المتّقين، وبما وعدهم من مواهبه الكريمة وعطاياه المنيئة، ويهدّدهم بانتقامه وسطواته ونقماته على الظّالمين و المتكبّرين والمستكبرين في الدنيا. و يبيّن لهم ما يؤول إليه عاقبة أمر المتّقين و المحسنين، و الطّاغين و الظّالمين

والمستكبرين، في ضمن قصص وأمثال. ويحذّرهم ــ جلّ مجده ــ عن إساءة الأدب في حريمه، وإضاعة حقوقه الحقّة في السرّ والعلانية. ويزكّي ويطهّر بذلك ظاهرهم وباطنهم.

وواضح أنّ الناس يختلفون في نيل هذه المعارف ودرك هذه الحقائق. فيستشرقون على قدر بصيرتهم، ويستنيرون على سعة نور فطرتهم، سيّما بعد ملاحظة تقواهم وقيامهم بالعمل بما يعرفون ويعلمون. فيزيد الله الّذين اهتدوا هدىً ويؤتيهم تقواهم.

أقول: هذا الموقف يحتاج إلى بيان أزيد من ذلك إلّا أنّ هذا المقدار كافٍ في تذكّر ما نحن بصدده، بهذه المرتبة العامّة الّتي يخاطب بها تعالى عقلاء الأمم ويكلّمهم بما يعقلون ويعرفون.

الأمر الثاني: إيّاك أن تتوهّم أنّ علوم القرآن ــ من معارفه وحقائقه وشرائعه ــ منحصرة بما ذكرناه في مرتبة دعوته العامّة؛ كي يكون القرآن شرعةً لكلّ وارد يردها واحداً بعد واحد. بل لعلوم القرآن مراتب ونواحي بعضها فوق بعض، يختصّ العلم بجميعها بسيّدنا ومولانا الرّسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وورثة علومه ـ عليهم السّلام.

توضيح ذلك: إنّ مَن علم علوم القرآن في مرتبة دعوته العامّة فقط، وإن صار واجداً لأشياء من شرائط الفقاهة، إلّا أنّه لايصير بذلك جامعاً لشرائط الإفتاء والقضاء، ولايكون عالماً بتفصيل علوم القرآن وشرائعه وأحكامه، والعلم بكيفيّة ابتداء خلق العوالم من عالم الغيب والشّهادة. وكذلك لايكون عالماً وعارفاً بالمعارف الربوبيّة من توحيده تعالى وعلمه وقدرته وحياته وغيرها من معاني أسمائه ونعوته ـ سبحانه ـ وكذلك العلم بعود الإنسان ورجوعه إلى الآخرة بعد انقضاء الدنيا وانحلالها. فلا بدّ في جميع ذلك من الرجوع إلى الرّسول الأكرم والتعلّم والأخذ منه ـ صلّى الله عليه وآله ـ على قدر ماشاء الله وشاء رسوله، حسب لياقة المتعلّمين عنه.

وواضح أنّ سيرته ـ صلّى الله عليه وآله ـ في زمان حياته في نشر العلم، ليس إلّا مثل قضيّة إفتاء الفقيه للعوامّ المقلّدة، نحو الإفتاء في الحوادث

الجارية والجواب عند السّؤال عنها وغيرها من الحقائق الدينيّة. وليس هذا من باب تعليم العلم من حيث جميع جوانبه ونواحيه. نعم، لا ينكر أن يكون تعليم العلم وبيان القرآن على هذا النحو، بالنسبة إلى بعض الأشخاص من أفاضل الصّحابة؛ مثل سلمان ونظرائه.

فعلى ما ذكرنا، يجب الالتزام والتديّن بأنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ قد قام بهذ الأمر الخطير، وبيّن بياناً شافياً، وعلّم تعليماً كافياً بالقرآن المبين بجميع نواحيه وأبعاده، بما يحتاج إليه الكلّ من المعارف والأحكام إلى انقضاء الدنيا، وما ترك شيئاً من ذلك، وأودعه عند رجل معصوم من أهل بيته، مؤيّداً بروح القدس، وعالماً بالعلم الحقيقيّ المصون المعصوم بذاته؛ وهو عليٌّ أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ وميراث العلم والنّبوّة عنده ـ صلوات الله عليه ـ يرثه أوصياؤه المعصومون صادق بعد صادق، ويكنزونه كما يكنز الناس ذهبهم وفضّتهم، وما ضاع عنهم شيء، ولا سقط عنهم ألف ولا واو. فمن ادّعى علم القرآن جميعه غيرهم، فإنّما هو مفترٍ كذّاب.

وقد صرّح الأئمّة من أهل البيت بجميع ما ذكرناه في أبواب من الروايات المتكاثرة فوق التواتر؛ منها الرواية المتواترة عند الفريقين: «إنّي تارك فيكم الثقلين ...» الصّريحة بأنّ خلافة القرآن والعترة خلافة اجتماعيّة. ومنها الروايات الواردة في أنّهم يرثون علم القرآن دون غيرهم.

في الوسائل ١٨/٢٩، باسناده إلى شبيب بن أنس، عن بعض أصحاب أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في حديث:

«إنّ أبا عبدالله (ع) قال لأبي حنيفة: أنت فقيه العراق؟ قال: نعم.
قال: فبم تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنّة نبيّه (ص).
قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حقّ معرفته؟ وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم.
قال: يا أبا حنيفة، لقد ادّعيت علماً! ويلك! ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الّذين أنزل عليهم. ويلك! ولا هو إلا عند الخاصّ من ذرّيّة نبيّنا محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ وما ورّثك الله من كتابه حرفاً.

وفيه أيضاً عن أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي في الاحتجاج، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ قال:

«... تزعم أنّك تفتي بكتاب الله، ولست ممّن ورثه ! ...»

والأحاديث في هذا الباب كثيرة. فمن أراد أزيد من ذلك، فعليه بجوامع أحاديث الشّيعة.

فإن قلت: أليس ما ذكرت من تقييد علوم القرآن ومعارفه وأحكامه بتعليم الرسول وآله الأئمّة، مخالفاً لما ذكرت في مرتبة علوم دعوته العامّة، من حجّيّة القرآن وحاكميّته على الإطلاق، وكونه نوراً وبياناً وتبياناً وشفاءاً وضياءاً و...؟ وكيف يكون نوراً ما يستبين بنور غيره؟! وما شأن الهدى الّذي يهتدي بهداية ما سواه؟! وكيف يتبيّن ما هو تبيان كلّ شيء بشيء دون نفسه؟!

قلت: كلّا! فإنّ المخالفة بين هاتين الطّائفتين من الآيات والروايات من باب مخالفة العام مع الخاصّ والمطلق مع المقيّد. فيجب بالضّرورة كما هو المقرّر في علم الأصول تخصيص العامّ بالخاصّ، وتقييد المطلق بالمقيّد، لا الأخذ بالعامّ والمطلق وتحكيمها على الخاصّ والمقيّد وإلغاء المخصّص والمقيّد.

فالآية الكريمة المبحوثة ، قريبة المفاد من قوله تعالى:

«وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون».
(النحل/٤٤)

فالظّاهر أنّ اللام في قوله تعالى: «لتبيّن» للغاية؛ أي: لبيان غاية من غايات إنزال الذكر. والفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالى: «إنّ علينا بيانه» أي إنّ على عهدته تعالى بيان ما يحتاج إلى البيان من القرآن، على رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وهذه الآية تفيد أنّ من الغايات الحكيمة الكريمة من إنزال القرآن على رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ هو تعليم القرآن وبيانه للنّاس.

وكذلك الكلام بعينه في قوله تعالى:

«وما أنزلنا عليك الكتاب إلّا لتبيّن لهم الّذي اختلفوا فيه». (النحل/٦٤)

وواضح أنّ رفع الاختلاف بهذا المعنى الّذي ذكرناه، لايمكن إلّا بتعليم

ضوابط وأصول مستخرجة من القرآن لِحَسم مادّة الاختلاف والتّنازع من حيث الاختلاف في العقائد في باب الحقائق والمعارف، وكذلك في باب الحقوق والأموال والشؤون الاجتماعيّة في كلّ عصر ومصر إلى يوم القيامة.

وكذلك الكلام بعينه في الآيات المصرّحة بأنّ الله بعث رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ليعلّم الناس الكتاب والحكمة.

وممّا ذكرنا يعلم ضعف ما أورده في المنار ٢/ ٣٠، في تفسير قوله تعالى: «ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون». (البقرة/ ١٥١) حيث قال: «فالسنّة العمليّة المتواترة هي المبيّنة للقرآن بتفصيل مُجمله وبيان وإظهار ما في أحكامه من الأسرار والمنافع.» وقد تقدّم تفصيل وجه الضعف في مقدّمة الكتاب.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

بيان:

قد اضطرب كلام المفسّرين في ارتباط هذه الآيات بسابقتها؛ وتكلّفوا في ذلك

فقال بعضهم: إنّ قوله: «لا تحرّك به لسانك - إلى قوله: - علينا بيانه» جملة معترضة، والآيات متّصلة بما تقدّمها من توبيخ المرتابين في أمرالمعاد والقيامة في قوله: «أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه».

أقول: هذا غير واضح. ولا دليل على ذلك. ولا دليل على ارتباط الآيات بعضها ببعض بهذه المثابة حتّى آخر السّورة بأوّلها بتكلّف ومؤونة إلّا ما كان الارتباط مستنداً إلى الظّهور اللّفظيّ والقرائن الموجبة للاطمئنان والاعتماد. فمن الممكن أن تكون السّورة الواحدة مثل هذه السورة مسوقةً لأغراض مختلفة متعدّدة. على أنّا أوضحنا فيماتقدّم أنّ قوله تعالى: «بل الإنسان على نفسه بصيرة» منفصلة عن الآيات المتقدّمة، ومنقطعة عنها من حيث الغرض المسوقة له الآيات السابقة عليهاو من أرادها فليراجعها.

ولو قلنا: إنّ «كلّا» للردع وكان قوله: «لاتحرّك به لسانك ...» معترضاً، لوجب أن يكون «كلاّ» ردعاً لمفاد قوله: «بل الإنسان على نفسه بصيرة». ونزيد على ذلك توضيحاً إن شاء الله.

قال في الكشاف ٤/ ١٩١: «كلاّ» ردع لرسول الله (ص) عن عادة العجلة، وإنكار لها عليه، وحثّ على الأناة والتؤدة.

أقول: قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: «لاتحرّك به لسانك ...» أنّه لادلالة في الآية الكريمة على أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله - كان يستعجل عند تلقّي القرآن. فانّ أقصى ما يدلّ عليه أنّه تعالى نهاه كي لايستعجل، وليس صحّة النّهي مشروطةً بارتكاب متعلّق النهي. على أنّ النّهي ليس نهياً تشريعيّاً، وليس في ارتكابه لغرض مشروع، استحقاق للردع والتوبيخ. ومنشأ هذه الأقاويل، هو الاعتماد على المرسلات الواهية الّتي وردت في شأن نزول هذه الآيات.

والتحقيق في المقام أنّ «كلاّ» ليس في كل مورد للردع والزجر وإنّما ذلك إذا كان قبل «كلاّ» ذكر من فعل منكر أو قول منكر. وفي غير هذا المورد، تكون «كلاّ» بمعنى «ألا» الاستفتاحيّة أوبمعنى «حقّاً» أو «نعم».

والظّاهر: أنّ المتناسب في المقام أن تكون بمعنى «ألا». وقوله: «بل

تحبّون العاجلة» للانتقال في الكلام إلى كلام آخر مسوق لغرض غير الغرض في الكلام السابق. فتحصّل في المقام أنّ «كلاّ» لاتصلح أن تكون ردعاً لمقالة المنكرين للمعاد في قوله: «أيحسب الإنسان ...». لأنّ تلك الآيات قد انفصلت عمّا بعدها بقوله: «بل الإنسان على نفسه بصيرة». ولايصلح أيضاً أن تكون ردعاً لقوله: «بل الإنسان ...» لأنّها كلمة صدق وبلاغ صدق يجب اتّباعها والاهتداء بنورها وهداها.

فعليه لايكون قوله تعالى: «لاتحرّك به لسانك ...» جملةً معترضةً. لأنّ «كلاّ» للاستفتاح منقطعة عمّا قبلها. ولا يكون أيضاً ردعاً للرسول على عادة العجلة، على قول الكشّاف. لأنّ رسول الله ما أتى بشيء منكر استحقّ به الردع، وإنّما ذلك ترسيم في كيفيّة تلقّي الوحي والقرآن لرسوله.

وقوله تعالى: «تحبّون العاجلة ...» بيان لحال الناس من حيث إقبالهم إلى الدنيا وإعراضهم عن الآخرة، وبيانٌ لانقسام الناس إلى طائفتين في عرصات القيامة، وبيان حال بعضهم عند السياق والاحتضار. وفي هذه الآيات تقريع إيّاهم، وتوبيخ عليهم.

وقوله: «العاجلة» صفة لموصوف محذوف؛ أي: الدنيا العاجلة زوالها والتمتّع بلذائذها. وكذلكَ الآخرة ــ أي: المقابل للأوّل والأولى ــ اسم فاعل مؤنّث الآخر، أي: الدار الآخرة.

قوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (٢٢)».

قال في القاموس ٢/ ١٤٣: النضرة: النعمة والعيش والغنى والحُسن ... والناضر: الشديد الخضرة. ويبالغ به في كلّ لون؛ أخضر ناضر وأحمر ناضر وأصفر ناضر.

وفي التبيان ١٠/ ١٩٧: مشرقة مضيئة.

أقول: لايبعد أن يقال: إنّ المراد بنضارة الوجه، ظهور السّرور والانبساط في الوجوه. لأنّ أهل ثوابه تعالى وكرامته، يأتون آمنين مطمئنّين، يرون ما آتاهم الله من فضله ورحمته، فيرى في وجوهم آثار النعمة والرحمة من الطّراوة والنشاط.

قوله تعالى: «إلىٰ رَبِّها ناظِرَةٌ(٢٣)».

المراد بالوجوه من له الوجوه، أي الإنسان. فإنّ الناظر هو الإنسان.

وقد قامت بداهة العقول وضرورة الكتاب والسّنّة على قدسه تعالى وعلوّه -سبحانه- عن الرؤية والنظر الحسيّ؛ وكذلك قدسه تعالى وارتفاعه عن كونه معقولاً ومعلوماً ومفهوماً ومتصوّراً ومدركاً بالعلوم والعقول والأفهام البشريّة. فهو -سبحانه- أجلّ وأعلى أن تحيط به العلوم، أو تنال من قدس ذاته شيئاً.

فعلى هذا يكون المراد من النظر إليه تعالى، معرفته تعالى به -سبحانه- بتعريفه نفسه لعباده بالفطرة الإلٰهيّة الّتي فطر النّاس عليها، أوتعريفه نفسه بآياته وخلقه لخلقه وعباده. فالتّعريف والمعرفة فعله تعالى، حيث إنّه -سبحانه- ظاهر بالظهور الذّاتيّ في شدّة غير متناهية. فيكون رفع الحجاب عن قلب العبد بما شاء وأراد، وتعرّفه إليه بما شاء وأراد -سبحانه- معرفةً حقيقيّةً بفضله سبحانه.

في الكافي ٧٦/١، عن أبي الحسن الموصلي، عن أبي عبدالله -عليه السلام- قال:

«جاء حبر إلى أميرالمؤمنين -عليه السّلام- فقال: يا أميرالمؤمنين، هل رأيت ربّك حين عبدته؟

قال: فقال: ويلك! ما كنت أعبد ربًّا لم أره.

قال: وكيف رأيته؟

قال: ويلك؟ لاتدركه العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان.

أقول: وفي هذا السياق روايات أخرى.

وفي البحار ٩٧/٩٤، عن الإقبال، عن ابن خالويه في مناجاة لأميرالمؤمنين وأولاده الطّاهرين -عليهم السّلام- كانوا يدعون بها في شهر شعبان:

«... إلهى، هَب لي كمال الانقطاع إليك. وَأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك. حتّى تخرق أبصار القلوب حُجُب النّور، فتصل إلى معدن العظمة. وتصير ارواحنا معلّقةً بعزّ قدسك.»

أقول: ليس الغرض استقصاء الروايات الواردة في هذا الشأن. وإنّما الغرض الاستشهاد والاستيناس بإطلاق الرّؤية والنظر إليه تعالى على حقيقة العرفان والعيان وبيان أنّ عيانه تعالى بالقلوب بتعريفه تعالى، وأنّ نورانيّة أبصار القلوب بضياء نظر الإنسان الموحّد إليه تعالى، هو عين تعريفه تعالى نفسه القدّوس لعباده العارفين.

وهذا المعنى، وإن كان حقّاً في بابه ومن أشرف مقامات الموحّدين العارفين بنعوته تعالى، إلّا أنّ هاتين الروايتين ونظائرهما ليست مسوقةً لتفسير الآية الكريمة وبيان المراد منها. بل الظّاهر في المقام بقرينة مقابلة الناضرة بقوله تعالى في الآية التالية «الباسرة»، وكذلك مقابلة الناظرة بقوله تعالى: «تظنّ أنّ يفعل بها فاقرة» أنّ الآيتين في مقام بيان حال أوليائه تعالى عند مشاهدتهم ما وعدهم الله تعالى من ثوابه وكرامته، وكذلك عند معاينة أعدائه ما حذّرهم الله تعالى من شدائد القيامة وهوانها.

ويؤيّد ما ذكرنا ما رواه في البرهان ٤٠٧/٤، عن الصدوق، بإسناده عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني عن إبراهيم بن أبي محمود قال:

«قال عليّ بن موسى الرّضا ـ صلوات الله عليهما ـ في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: «وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربّها ناظرةٌ» قال: قال: يعني: مشرقة تنظر[1] ثواب ربّها.

وفي نور الثقلين ٤٦٤/٥، عن التوحيد في حديث طويل عن عليّ عليه السّلام يقول فيه ــ وسأله رجل عمّا اشتبه عليه من الآيات ــ:

«فأمّا قوله ـ عزّ وجلّ ـ: «وجوهٌ يومئذ ناضرة* إلى ربّها ناظرةٌ»؛ فإنّ ذلك في موضع ينتهي فيه أولياء الله ـ عزّ وجل ـ بعد ما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمّى الحيوان؛ فيغتسلون ويشربون منه ويدخلون الجنة. فذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ في تسليم الملائكة عليهم: «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين». [الزمر/٧٣] فعند ذلك أيقنوا

١ــ قد ورد في بعض نسخ التوحيد: «تنتظر» بدل «تنظر». والظاهر أنّ ما في المتن هو الأصحّ؛ كما سيأتي وجه الضعف في القول بأنّ الناظرة بمعنى المنتظرة.

بدخول الجنة، والنظر إلى ما وعدهم الله. فذلك قوله: «إلى ربّها ناظرة». إنّما يعني بالنظر إليه، النظر إلى ثوابه -تبارك وتعالى.»

أقول: لايخفى أنه لايجوز أن يتوهّم أنّ هاتين الروايتين تنافيان مفاد الدّعاء المرويّ عن عليّ -عليه السّلام- أنّ المراد من النظر إلى الربّ هو النظر المعنويّ أي العيان والعرفان الحقيقيّ، بداهة أنّه لاتنافي بين المثبتين، فلاتنافي بين معرفة الرّب وعيانه و بين نظر الموحّدين و مشاهدتهم ثوابه تعالى و كرامته الموعدلهم في الجنّة.

فإن قلت: فأيّ مانع أن يؤخذ بإطلاق النظر في كلا الموردين؛ أي: في مورد معاينة الربّ تعالى، وفي مورد مشاهدة كرامته وثوابه في الجنّة؟

قلت: قد ذكرنا أنّه لاريب بحسب الآيات والروايات ثبوت هذه الحقيقة القدسيّة، وأنّ أولياءه تعالى مبتهجون بمعرفة الربّ ومشاهدته بحقيقة إيمانهم؛ إلّا أنّ الكلام في دلالة هذه الآية الكريمة المسوقة في بيان حال الفريقين المؤمنين والكافرين في موقف من مواقف القيامة، سيّما مع الحصر بـ «إنّما يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه -تبارك وتعالى»».

هذا أوّلاً. وثانياً: لاجامع بين معاينة المؤمن ربّه تعالى وبين نظره إلى كراماته في الجنّة. فإنّ معاينة المؤمن ربّه تعالى حقيقة قدسيّة لاتكون إلّا بتعريفه نفسه القدّوس إليهم. وهو من أفعاله تعالى. وفعله تعالى لا طور له ولا كيف، ولايدرك ولايوصف. وأمّا النظر الى موائد الجنة، إنّما هي بحاسّة العين إلى الموائد المادّية.

فإن قلت: لم لايجوز النظر إلى الكرامات بما أنها آيات من آياته تعالى؟! وواضح أنّ النظر إلى الآيات بهذا الحيث، نظر إلى ذي الآيات -جلّ ثناؤه. فالمؤمن الموحّد لايشغله شيء في تلك المواقف عند النظر إلى هذه النعم الجليلة من ذي الآيات، ولايعرض عليه غفلة ولا احتجاب عنه تعالى.

قلت: ليس الكلام في أنّ اهل الجنّة في الجنّة عند التوجّه إلى هذه النعم، وعند التمتّع بها، محتجبون بها عن ربّهم، أو متذكّرون به- سبحانه. إنّما الكلام في دلالة هذه الآية الكريمة ونظائرها على هذه الحقيقة القدسيّة، واستظهار ذلك

من الآية وأمثالها. فإنّ ذلك يحتاج إلى عناية زائدة إلى أنّ الآية الكريمة وما بمعناها من الآيات، مسوقة لبيان أنّ اهل الجنة عند التوجّه إلى تلك الكرامات وعند النظر إليها، إنّما ينظرون بالنظر الطريقيّ، وأنّ النظر إليها نظر إلى ذي الآيات ولسوقهم إليه ـ سبحانه ـ أو أنّ الآية مسوقة لبيان أنّ النظر إلى هذه الآيات بالنظر الموضوعيّ ولسان حالهم يقول: هذا ما وعدنا ربّنا وقد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً. وغير ذلك من مقالاتهم في هذه المواقف. فليس في هذه الآيات إشارة إلى إثبات الصانع ولاعناية فيها بالتذكر به ـ سبحانه ـ ولادلالة فيها على أنّها مسوقة لذلك الغرض. وأمّا إنّ أهل الجنّة هل كانوا فيها مبتهجون بمعرفته تعالى ومعرفة توحيده، وذلك من أجلّ نعمه تعالى عليهم، فلا ريب في ذلك بحسب مقام الثبوت. وأمّا إثباته، فليطلب من الآيات والأدلّة الأخرى. وهذه الآية الكريمة ليست من أدلّتها.

فتحصّل أنّ الأظهر في تفسير الآية الكريمة والأنسب، هو ما ذكرنا من تقدير المضاف. وهذا استعمال شائع. وقد استعمل في القرآن الكريم؛ مثل قوله تعالى: «أدعوكم إلى العزيز الغفّار» (غافر/٤٢)؛ أي: إلى الإيمان به تعالى وطاعته. وقوله تعالى: «إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين» (الصّافّات/٩٩)

في البرهان ٤/٢٧، عن الكلينيّ مسنداً، عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخيّ، عن الصّادق ـ عليه السّلام ـ قال:

... قال لهم: «إنّي ذاهب إلى ربي سيهدين» يعني بيت المقدّس.

و فيه /٢٨ عن الاحتجاج، عن أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ في حديث له في سؤال زنديق:

... حيث قال: «إنّي ذاهب إلى ربّي». فذهابه إلى ربّه توجيه عبادته إليه واجتهاده.

وقيل: إنّ المراد من الناظرة في المقام هي المنتظرة. واستشهدوا عليه بقوله تعالى: «إنّي مرسلة إليهم بهديّة فناظرة بم يرجع المرسلون» (نمل/٣٥) واشعار في كلام العرب؛ مثل:

وجـوه يـوم بـدر نـاظـرات إلى الـرحـمـن تـأتي بـالـفـلاح

أي: منتظرة للرحمة الّتي تنزل إليهم. (أنظر التبيان ١٠/١٩٧ ومجمع البيان ١٠/٣٩٧ و٣٩٨)

وفيه: أنّه لا بأس باستعمال الناظرة في مورد المنتظرة بحسب العنايات المقاميّة وبحسب القرائن الصّارفة عن معناها المتعارف؛ إلّا أنّه لا قرينة في الآية المبحوث عنها حتّى تصرفها عن معناها؛ وللفرق الواضح بين هذه الآية وبين الأشعار المذكورة وقوله تعالى: «فناظرة بم يرجع المرسلون». لأنّ الأشعار والآية المذكورة للانتظار وفي مورد الانتظار، بخلاف الآية المبحوث عنها. فإنّ جلائل نعمه تعالى بحسب وعده الصدق موجودة لهم في الجنان المزهرة الّتي زيّنها تعالى لأحبّائه من غير انتظار. وخاصّةً أنّ أهل الجنّة يوجد لهم بإذن الله تعالى ما يريدون ويشتهون من غير انتظار.

وتقديم قوله تعالى: «إلى ربّها» على قوله تعالى: «ناظرة» للحصر. والظاهر أنّ الحصر حصر إضافيّ. أي: إنّ الناس لكلّ منهم شأن من ابتلائهم بشدائد هذا الموقف، بخلاف هؤلاء الكرام الأبرار؛ فإنّهم آمنون ممّا ابتلي الناس به، فليس لهم همّ إلا النّظر إلى كرامة الله الّتي أكرمهم الله تعالى بها. وكذلك بناءاً على ما قيل من أنّ المراد بالنظر إلى الرّب النظر إليه ـ سبحانه ـ بحقيقة الإيمان ونظر أبصار القلوب بالمعاينة، فيكون الحصر أيضاً حصراً إضافيًّا.

قوله تعالى: «وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ(٢٥)».

هذا بيان لحال طائفة أخرى في عرصات القيامة؛ وهي الكفّار والعصاة. واكتفى ـ سبحانه ـ بذكر الوجه وما عليه في ذلك اليوم من ذكر ذي الوجه وما يرد عليه من الهموم.

قال في القاموس ١/ ٣٧١: بسر: أعجل وعبس وقهر. والقرحة: نكأها قبل النضج.

أقول: الظّاهر أنّ بسر ليس مرادفاً لعبس. قال تعالى: «عبس و بسر». (المدثّر/٢٢) فذكر «بسر» بعد «عبس» وعطفه عليه، دليل على أنّ العبوس غير البسور. ومحصّل كلام بعض المفسّرين أنّ البسور العبوس الشّديد. (الكشاف ٤/ ١٩٢)

وقـال الـرازي فـي تـفسير قـوله تـعـالـى: «عـبس وبسر» فـي تفسيره ٢٠١/٣٠: قـال اللّيـث: عبس يعبس فهوعابس: إذا قطب ما بين عينيه. فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه، قيل: كلح. فإن اهتمّ لذلك وفكّر فيه، قيل: بسر. فإن غضب مع ذلك ، قيل: بسل.

قوله تعالى : «تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ» .

قد نسب تعالى الظنّ إلى « وجوه» مع أنّ الظنّ فعل الإنسان. ولعلّ العناية والعلاقة أنّ الوجه من أشرف أعضاء الإنسان، و فيه يظهر أثرالحزن والسّرور، و فيه يستبين أثر الفاقرة والقارعة.

والظاهر أنّ المراد من الظنّ في المقام، هو اليقين. فإنّه لمّا وقع في شدائد القيامة، ورأى يومئذ من سطواته ونقماته على أعدائه تعالى، فأيقن أنّه قدحقّت عليه كلمة العذاب، ولات حين مناص وخلاص، ويهجم عليه فاقرة من الله ـ سبحانه.

والفاقرة: الداهية. ذكره في القاموس ١١١/٢. والداهية: الأمر العظيم، والخطب الهائل. ولاوجه لتقييدها بنوع خاصّ من الدواهي، كما وقع في كلمات بعض المفسّرين. وقد فسّره الشيخ (قده) في تبيانه بالكاسرة فقال: الفاقرة: الكاسرة، لفقار الظّهر بشدّة. (التبيان ١٩٩/١٠) وفسّره بعضهم بالقاصمة. (الكشاف ١٩٢/٤)

أقول: لوقلنا: إنّ الفاقرة بمعنى الداهية، فالأخذ بإطلاقها وتفسيرها بكلّ أمر عظيم وخطب هائل أولى؛ بل هو المتناسب بهذا المقام. غاية الامر أنّ الإطلاق المذكور إطلاق بدليّ إذ من البعيد أن يفعل به جميع القارعات والفاقرات المعدّة لجميع أهل النار. ولو قلنا إنّ الإطلاق شموليّ، أي: كلّ ما يحسن في حقّه ويستحقّ من العذاب له من الفاقرات بالنسبة إليه، بحسب عقائده وأعماله.

قوله تعالى : « كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) » .

لا يبعد أن يقال: إنّ« كلاّ» للرّدع والزجرعن حبّهم العاجلة وتركهم الآخرة. وفي الآية تهديد للإنسان وتوبيخ إيّاه لعدم تذكّره وعدم شعوره بما يرى و يشهد من

ختم الآمال ودفن الأمنيّات بالموت الّذي ملاقيه عن قريب. وهذه الأمنيّات الواهية هي الحجاب بين الإنسان وبين دركه الحقّ والحقيقة.

وقوله تعالى: «إذا بلغت التراقي»؛ أي: الروح تتخلّص من البدن وتنزع منه شيئاً فشيئاً وبلغت التراقى. والتراقي جمع ترقوة، وهي: العظام النابتة في أوّل الصدر المكتنفة بالنحر. والآية الكريمة نظيرة قوله تعالى:

«إذا بلغت الحلقوم». (الواقعة/٨٣)

وقوله تعالى: «راق» اسم فاعل من رقي يرقى. قال في القاموس: ٣٣٦/٢: رقي إليه يرقى ـ كرضي ـ رقياً ورُقياً كار تقى... ورُقْيَة ـ بالضّم ـ: العوذة رُقىً ورقاه رُقياً ورُقِيّاً ورُقْيَة ورقّاء: نفث في عوذة.

أقول: الظّاهر أنّ المراد في قوله: «من راق»: هل من طبيب يداويه، أو يغيثه بعوذته؟ والقائل على هذا، هو أهله وأحبّاؤه على طريق الاستفهام، أو إظهار اليأس من حياته. أو القائل هو الإنسان المحتضر يستغيث: هل من راق يرقيني؟ على سبيل الاستفهام، أوإظهار اليأس من الحياة.

في نورالثقلين ٤٦٥/٥، عن الكافي بإسناده عن جابر، عن أبى جعفر ـ عليه السّلام ـ قال:

سألته عن قول الله ـ عزّوجلّ ـ: «وقيل من راق وظنّ أنّه الفراق».
قال: فإنّ ذلك ابن آدم إذا حلّ به الموت، قال: هل من طبيب؟!
«وظنّ أنّه الفراق»: أيقن بمفارقة الأحبّة.

فالمستفاد من الآية الكريمة، بحسب تأييد ظهورها بالرواية الشّريفة، أنّ القائل هو المحتضر، واستغاثته إلى الطّبيب والعوذة على سبيل اليأس. وهذا هو المتناسب بسياق التوبيخ والتهديد المسوق له الآية الكريمة.

وأمّا ما قيل: «إنّ القائل هو الملائكة يقول بعضهم لبعض: «من راق»؛ أي: من يصعد بروحه إلى السّماء؟ لأنّ الملائكة يتنفّرون من روح الكافر (الكشاف ١٩٣/٤) فضعيف جدّاً، خارج عن سياق الآية، أي سياق التوبيخ والتهديد. ولا شاهد على تنفّر الملائكة من روح الكافر. والملائكة إنّما يفعلون ما يفعلون بأمر الله.

قوله تعالى: «وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(٢٨)».

أي: أيقن ما يشاهده من بلوغ روحه إلى ترقوته ـ وقد حلّت كرب السياق وشدائده في ساحته ـ وأنّ هذا هو فراقه من أهله وأحبّائه وفراق روحه عن بدنه وقد كانا مستأنسين. وفي المجمع ٤٠١/١٠:

«وجاء في الحديث أنّ العبد ليعالج كرب الموت وسكراته ومفاصله يسلّم بعضها على بعض يقول: عليك السلام! تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة.»

قوله تعالى: «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ(٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ(٣٠)».

قال في القاموس ٢٥٥/٣: السّاق: ما بين الكعب والركبة. جمع: سوق. ... «ويوم يكشف عن ساق» [القلم/٤٢]: عن شدّة. «والتفّت السّاق بالسّاق»: آخر شدّة الدنيا بأوّل شدّة الآخرة. يذكرون الساق إذا أرادوا شدّة الأمر والإخبار عن هوله.

في نورالثقلين ٤٦٥/٥ عن الكافي، بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال:

سألته عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: «وظنّ أنّه الفراق» قال: ... «والتفّت الساق بالساق» قال: التفّت الدنيا بالآخرة. ثمّ «إلى ربّك يومئذ المساق». قال: المصير إلى ربّ العالمين.

في البرهان ٤٠٨/٤: ابن بابويه مسنداً، عن محمّد بن مسلم، عن محمّد بن عليّ الباقر ـ صلوات الله عليهما ـ أنه سئل عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: «وقيل من راق». قال:

ذلك قول ابن آدم إذا حضره الموت؛ قال: هل من طبيب؟! هل من دافع؟! «وظنّ أنه الفراق» يعني فراق الأهل والأحبّة.
قال: «والتفّت الساق بالساق»: والتفّت الدنيا بالآخرة.
قال: «إلى ربّك يومئذ المساق»: إلى ربّ العالمين يومئذ المصير.

إن قلت: الظّاهر أنّ تلفيف الدنيا بالآخرة، يتوقّف على تحقّق الآخرة

واجتماعها في عرض سواء. وأمّا إذا كانا طوليّين ــ أي كان عروض أمر الآخرة بعد انقطاع أمر الدنيا وانتهائه ــ فيشكل صدق التلفيف عليه. ولافرق في ذلك بين شدائد الدنيا والآخرة، وكذلك بين خيرات الدنيا وبركات الآخرة.

قلت: إنّه لاريب في هذه الحقيقة القرآنيّة ــ أي تلفيف أمر الدنيا بأمر الآخرة ــ وأنّ ابن آدم إذا كان في آخر ساعة من ساعات عمره ودنياه، كان أوّل ساعة من ساعات آخرته. فيرتفع الغطاء، وينكشف الحجاب عن بصره وبصيرته، فيشرف على عالم الغيب،عالم الآخرة الّذي ضرب الله ـ سبحانه ـ بينه وبين الإنسان الحجاب العمديّ، فيشاهد الأشخاص الأخرويّة وما هاهنا من البشرى والكرامة وكذلك ما للكفّار والمنافقين هاهنا من الهوان والنقمة. قال تعالى:

«ألا إنّ أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون * الّذين آمنوا وكانوا يتّقون * لهم البشرى في الحياة الدّنيا والآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم». (يونس/ ٦٢ -٦٤)

وقدوردت في تفسيرها أخبار كثيرة أنّ موطن تلك البشرى هو موقف الاحتضار، يحضر عنده رسول الله وأميرالمومنين ـ صلوات الله عليهما وآلهما ـ ويبشّرانه بما تقرّ به عينه. (أنظر: نورالثقلين ٢/ ٣٠٩-٣١٣)

وقال تعالى:

«إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون» (فصّلت / ٣٠ و ٣١).

وفي تفسيرها عدّة من الروايات أنّ موطن نزول الملائكة على الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا، هو موقف الاحتضار.

في البرهان ٤/ ١١١، عن محمّدبن العبّاس مسنداً، عن أبي بصير قال:

«سألت أبا جعفر ـ عليه السّلام ـ عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: «إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا».

قال: هو والله ما أنتم عليه. «وأن لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءاً غدقاً». (الجنّ/١٦)

قلت: متى «تتنزّل عليهم الملائكة بأن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون۞ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة»؟ فقال: عند الموت ويوم القيامة.

وفي الصّحيفة المباركة السجّاديّة في دعائه ـ عليه السّلام ـ عند ختمه القرآن:

«اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وهوّن بالقرآن عندالموت على أنفسنا كرب السّياق وجهد الأنين وترادف الحشارج، إذا بلغت النّفوس التّراقي وقيل من راقٍ، وتجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب.»

وقال السيّد (قده) في رياض السالكين في تفسير المقام /٤١٨: وقد تواترت الأخبار بأنّ الميّت يرى ملك الموت عياناً، ويخاطبه عند كشف الغطاء؛ ويسمّى وقت المعاينة. وفي رواية أنّه يسأل المؤمن: هل أخذت فكاك رقبتك وأمان براءتك وتمسكت بالعصمة الكبرى في الحياة الدنيا؟ فيقول: نعم. فيقول: وما ذاك ؟ فيقول: ولاية عليّ بن ابي طالب ـ عليه السّلام. فيقول: صدقت. ثمّ يؤمنه ويبشّره بما يسرّه. ويسأل الكافر كما سأل المؤمن. فيقول: لا. فيبشّره بسخط الله وعذابه والنار.

أقول: وفي تفسير الآية أقوال أخرى لاطائل في إيرادها. من أرادها، فليراجعها.

قوله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)».

«المساق» إمّا مصدر من ساق يسوق؛ مثل مقام من قام يقوم. فعليه يكون المعنى أنّ سوق الخلائق إلى معادهم ومآبهم، موكول إلى الله ـ سبحانه. وإمّا اسم مكان بالتقريب والتأويل الّذي تقدّم في تفسير قوله تعالى: «إلى ربّها ناظرة» وقوله تعالى: «إنّي ذاهب إلى ربّي». فالآية الكريمة نظيرة قوله تعالى: «إنّ إلينا إيابهم». والمعنى: إنّ مساق الخلق ومعادهم إلى الله؛

وهو الحاكم فيهم بعدله وبفضله.

والظّاهر هو الثاني؛ أي: تمجيده تعالى بتوحّده في مرجعيّة الكل، لا توحّده تعالى بكونه سائقًا للخلق إلى معادهم. ويؤيّد ما ذكرنا قوله: «يومئذ» وتقييد الجملة المباركة بيوم القيامة. ضرورة أنّ سائقيّته تعالى وفاعليّته غير مقيّدة بيوم القيامة، بخلاف كونه فاصلاً وحاكماً، فإنّه مقيّد بيوم الفصل.

ويؤيّد ذلك أيضاً أنّ سياق الآيات المباركة سياق التّهديد على المجرمين وتخويف الظّالمين.

قوله تعالى: «فَلا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١)».

لايبعد أن يقال: إنّ هذه الآيات في مرحلة التعليل للتّهديد المتقدّم في الآيات السّابقة، أوإنها تشنيع وتوبيخ أبلغ وأوفى من التشنيع السّابق في قوله: «بل تحبّون العاجلة * وتذرون الآخرة».

وفي التبيان ١٠/٢٠١: وقوله تعالى: «فلا صدّق ولاصلّى»؛ قال الحسن: معناه: لم يتصدّق ولم يصلّ ... وقال قوم: «فلا صدّق» بربّه «ولا صلّى». وقال قتادة: معناه: فلا صدّق بكتاب الله، ولا صلّى لله.

أقول: يتفرّع ممّا ذكروه من البيان في الجملة أنّ الكفّار مكلّفون على الفروع. وسيجيء - إن شاءالله - إشباع البحث في ذلك في الأبحاث الآتية.

بحث وتحقيق في لفظ الصّلاة ومعناها

قد اشتهر بين الفقهاء والمفسّرين أنّ الصّلاة بمعنى الدعاء. ولم أجد من يخالف ذلك.

أقول: لابدّ من توجيه كلماتهم؛ فإنّها على ظاهرها غير سديد. فإنّ الصّلاة من صلّى يصلّي تصليةً، من الناقص اليائيّ بمعنى الشيّ والإلقاء في النّار ومقاساة حرّها، على حسب تناسب الاستعمالات الواردة في ذلك. وبمعنى اللّين؛ مثل: صلّيت العود بالنّار؛ أي: ليّنته بها. وأمّا الصّلاة من الناقص الواويّ، فهي أيضاً ليست بمعنى الدعاء. فإنّ الصّلاة فعل لازم يتعدّى إلى

المفعول بأداة التّعدية؛ مثل قوله تعالى: «وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم» (التوبة/١٠٣) ومثل قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا صَلّوا عليه وسلّموا تسليماً» (الأحزاب/٥٦)، والدّعاء متعدّ بنفسه.

والظّاهر أنّ الصّلاة بمعنى التوجّه؛ ويتحقّق بالدعاء. فالدعاء من أظهر ما يتحقّق به الصّلاة. وتفسير الصّلاة بالدعاء من باب خَلط المفهوم بالمصداق. فيجوز أن يقال: إنّ الصّلاة دعاء. والتكبير والتسبيح والتهليل والتمجيد وقراءة القرآن ــ بما أنّه كتاب ربّك وميزان عبادتك وعبوديتك ــ كلّها صلاة. والصّلوات المكتوبات والمندوبات كلّها صلاة بمعناها اللّغويّ. غاية الأمر أنّ الواجب والمأمور به هوالفرد الخاصّ بتعدّد الدالّ والمدلول.

أقول: وفيه وجه ثالث. وهو أن يكون صلّى بمعنى تلا. ذكره في القاموس ٤/ ٣٥٣. قال: صلّى صلوةً لاتصليةً: دعا والفرس: تلا السّابق.

والظّاهر أنّ قول القاموس: «لا تصليةً»: أي: إنّ صلّى هذه ليست من الناقص اليائيّ، بل من الواويّ وبمعنى دعا وتلا.

والمعنى على هذا الوجه: إنّ هذا الكافر والمنافق ما صدّق شيئاً من الحقّ الّذي يجب التصديق به؛ ولا تلا أحداً من دعاة الحقّ من نبيٍّ أو وصيٍّ؛ أي: ما تبعه. وهذا الوجه ليس ببعيد. وعلى احتمال صحّته، يسقط الاستدلال بهذه الآية على القول بأنّ الكفّار مكلّفون على الفروع وأنّ الله ـ سبحانه ـ يعاتبهم على ترك الصلاه.

قوله تعالى: «وَلٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢)».

أقول: مقابلة تكذيب الكفّار بقوله: «لا صدّق»، وكذلك مقابلة إعراضهم وإدبارهم عن دعاة الحقّ، فيه تأييد ما ذكرنا أنّ «صلّى» بمعنى تلا.

وفي الآيتين اهتمام وعناية لبيان شدّة لجاجهم وعنادهم؛ حيث أكّد تعالى قوله: «فلا صدّق ولا صلّى» بقوله: «كذّب وتولّى».

قوله تعالى: «ثُمَّ ذَهَبَ إلىٰ أهلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣)».

الظّاهر أنّ التعبير بقوله: «ثمّ» للدلالة على أنّ ذهابهم عقيب إعراضهم

وإدبارهم.

قال في القاموس ٤/ ٣٩٠: مطا: جدّ في السير وأسرع.... ويتمطّى النّهار وغيره: امتدّ وطال. وفي المجمع ١٠/ ٤٠٠: التمطّي: تمدّد البدن من الكسل. فالأنسب بالمقام هو ما ذكره القاموس؛ أي: تولّى وذهب إلى أهله مسرعاً. وذكر غير واحد من المفسّرين أنّ معنى يتمطّى أي: يستكبر ويتبختر. (الكشاف ٤/ ١٩٣، تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٣) ولابأسْ به لو وجدنا له ذكراً عند أهل اللّغة.

قوله تعالى :« أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) » .

لا كلام -حسب ما ظفرنا على كلماتهم- في أنّ الآيتين مسوقتان للتهديد؛ إلاّ أنّهم اضطربوا في تفسيرهما.

أقول: لاكلام في أنّ الولْي بمعنى القرب، وكذلك مشتقّاته، حسب ما يدلّ عليه أوزانها وهيآتها. قال في القاموس ٤/ ٤٠٤: الولي: القرب.... وأولى لك تهدّد و وعيد. أي: قاربه ما يهلكه. و هو أولى: أحرى.

في البرهان ٤/ ٤٠٩ عن الصّدوق -قدّس سرّه- بإسناده عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني قال:

« سألت محمّد بن عليّ الرضا -صلوات الله عليهما- عن قول الله:
« أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى»
[قال:] يقول الله -تبارك وتعالى-: بعداً لك من خير الدنيا! بعداً لك من خيرالآخرة!

أقول: الظّاهر أنّه لا تنافي بين الرواية الشّريفة و بين ما ذكره القاموس. فإنّ تبعيده تعالى الكافر والمنافق من خير الدنيا والآخرة، هوعين تقريبه تعالى إيّاهم من الهلاك والخسران. ولعلّ العدول من الغيبة إلى الخطاب ليتمكّن من شدّة التشنيع ولاستيفاء حقّ التهديد والوعيد.

قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) » .

قال في القاموس ٤/ ٣٤١: السدى... والمهملة من الإبل. والضمّ أكثر. وكلاهما للواحد والجمع؛ كالسادي. و أسداه: أهمله. و بينها: أصلح. وإليه:

أحسن.

والاستفهام في قوله: «أيحسب» استفهام إنكاريّ. أي: لا ينبغي ولايجوز أن يترك الإنسان مهملاً مع أنّه تعالى خلقه. و تقرير ذلك على وجهين:

الوجه الأوّل: إنّ الآية مسوقة لتنزيه تعالى عن تركه النّاس؛ بل خلقهم كي يأمرهم وينهاهم. فهي دالّة على وجوب نظام التشريع، و قريبة المفاد لقوله تعالى:

«وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون». (الذاريات/٥٦)

فجعل تعالى لخلقه شرائع وأحكاماً ليعبدوه بها ويطيعوه فيها، إكراماً إيّاهم وإحساناً إليهم، وإيفاءاً لوظيفة المولويّة، وتثبيتاً وتحكيماً لروابط العبوديّة بين الربّ والمربوب. وعرّفهم نفسه ونعوته ومعاني أسمائه وصفاته. فيجب عليهم أن يؤمنوا به، و يوحّدوه ويسبّحوه و يمجّدوه. ثمّ احتجّ تعالى على إثبات المعاد بقدرته على ابتدائه وتصرّفاته في أطوار خلقه. وهذا هو الّذي يظهر من كلام بعض المفسّرين.

قال الشيخ (قده) في تبيانه ١٠/٢٠٢: ثمّ قال على وجه التنبيه: إنّ الله خلقه للتّكليف والعبادة، وعلى أنّه قادر على إعادتة وإحيائه بعدموته.

الوجه الثاني: إنّه تعالى ما تركهم سدًى، وما أهمل أمر الجزاء. بل أوجب على نفسه في حكمته و تدبيره، أن يعيد خلقه بعد فنائهم، ليجزي الّذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى. فالآية الكريمة قريبة المفاد من قوله تعالى:

«أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون».(المؤمنون/١١٥)
«إنّ السّاعة آتية أكاد أُخفيها لتُجزىٰ كلّ نفس بما تسعى». (طه/١٥)

وممّا ذكرنا، يظهر الفرق بين قوله تعالى: «أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه» وبين قوله تعالى: «أيحسب الإنسان أن يترك سدًى». فإنّ الّتي في مفتتح السّورة مسوقة للردّ والإنكار على من أنكر المعاد. والّتي في ختام السورة مسوقة لبيان وجوب إعادة الخلق وإقامة يوم الفصل وإجراء سنّة العدل؛ و بعبارة

أخرى: تنزيه تعالى عن إهمال أمر المجازاة. والأولى بحث في إثبات المعاد تكويناً. والثانية تذكرة وإرشاد للعقول كي يدركوا بالبداهة قبح الإهمال في أمر الجزاء.

أقول: الأنسب بالآية الكريمة، هو الوجه الثاني؛ لما عرفت من عدم تناسب الأوّل بقوله تعالى: «ألم يك نطفةً...» المسوق في مرحلة التعليل والحجّة لقوله تعالى: «أن يترك سدًى». فإن قلت: فأيّ مانع من شمول قوله تعالى: «أن يترك سدًى» لكلا الوجهين، كما صرّح به غير واحد من المفسّرين؟

قلت: لايجوز ذلك. لأنّ الظّاهر من الآيات أنّ مورد النفي والإثبات هو إهمال أمر الجزاء وعدمه. وليس في الآيات ما يوهم أنّ مورد النزاع أخذهم بالأحكام والأمر والنهي؛ وليس فيها ما يدلّ على تعميم مورد النزاع باهمال أمر الجزاء وأمر التكاليف الشرعيّة. وأيّ مناسبة بين القول بوجوب جعل التكاليف عليه تعالى و بين قوله: «ألم يك نطفةً...»؟!

قوله تعالى: «أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)».

الظّاهر أنّ السياق سياق التوبيخ على من يزعم أنّ الإنسان مهمل أمره لايعود أمره إلى غاية ولانهاية؛ وتوبيخ على قصوره في دركه ومعرفته، وإقامة حجّة على إبطال استبعاده. ومنشأ هذا الزعم والاستبعاد المذكور أنّ الإنسان متروك سدًى لاينتهي أمره إلى حساب وجزاء. فاحتجّ تعالى عليه أنّ إعادته بعد فنائه، ليس إلاّ مثل إيجاده بعد عدمه؛ وكلاهما أهون شيء عنده تعالى. وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لايجوز سواء.

والهمزة في قوله: «ألم يك» للاستفهام الإنكاريّ. واسم «يك» في قوله: «ألم يك» هو الإنسان المتقدّم ذكره في الآية السّابقة.

قال في القاموس ٣/ ٢٠٠: النطفة: الماء الصّافي، قلّ أوكثر.... وَالبَحْر، وماء الرجل. ج: نُطَف.

قوله تعالى: «يمنى»؛ أي: يصبّ في الرحم.

قوله تعالى: «ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً»؛ أي: صار دماً جامداً.

قوله تعالى : « فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) ».

الخلق في الاصل بمعنى التقدير. وقيل: إنّه استعمل في الإيجاد. والظّاهر أنه الإيجاد عن تقدير، أو هو في مورد الإيجاد عن تقدير.

وقوله تعالى: « فسوّى »؛ أي: جعله إنساناً تامّاً كاملاً يعقل ويفهم؛ كما في قوله تعالى: « ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً » (القصص/١٤). وقد أشبعنا الكلام في الأبحاث السّابقة أنّ معنى التسوية استكمال خلقة الشيء إلى الحدّ الأوفى منه. وذكرنا له شواهد وأدلّةً كافيةً.

قوله تعالى : « فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) ».

ليس جعل بمعنى خلق، بل فيه عناية لبيان شيء من إتقان صنعه تعالى وإعمال ربوبيّته في تنظيم أمر الخلقة؛ إذ قرّر فيه أن يكون أمر الخلقة بالزوجين الذكر والأنثى إبقاءً للنوع و إدامةً للنسل. أي: إنّ الإنسان خلقه تعالى من منيّ يمنى، فجعل بعضه ذكراً وبعضه أنثى.

هذا بناءاً على رجوع الضّمير في قوله: « منه » إلى « الإنسان » كما ذكره بعضهم. وأمّا بناءاً على رجوع الضمير إلى « من منيّ يمني » أي: جعل من المنيّ بتدبيره وعنايته العمديّ في أمر النطفة في الرحم الزّوجين ذكراً وأنثى. والظّاهر أنّ هذا المعنى هو الأنسب بسياق الآية الكريمة. إذ ليس غرض الآية أنّا خلقنا الإنسان من منيّ، وقرّرنا أنّ منه - أي بعضه - أناثا وبعضه ذكوراً. بل الظّاهر أنّ الغرض أنّا خلقنا الإنسان من المنيّ، فجعلنا من المنيّ الزوجين، وقوله تعالى: « الذكر والأنثى » بيان للزوجين. وبعبارة أخرى: فرق بين تقسيم الإنسان المخلوق من المنيّ إلى الزوجين الذكر والأنثى، وبين جعل الزوجين من المنيّ.

قوله تعالى : « أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) ».

هذا هو موضع العبرة. ونتيجة الاحتجاج والاستدلال على ما ذكرناه سابقاً، أنّه لافرق بين إيجاد شيء بعد عدمه وبين إعادته بعد فنائه، بالنسبة إلى العلم والقدرة الغير المتناهية؛ وليس أحدهما أهون من الآخر عليه تعالى، ولا

أحدهما أصعب عليه تعالى.

في نور الثقلين ٤٦٧/٥، عن العيون في باب ذكر أخلاق الرضا -عليه السّلام- ووصف عبادته:

أنّه كان إذا قرأ: «لا أقسم بيوم القيامة» قال بعد الفراغ: سبحانك اللّهمّ بلى!

وفي المجمع ٤٠٢/١٠: جاء في الحديث عن البراء بن عازب قال لمّا نزلت هذه الآية: «أليس ذلك بقادر» -الآية، قال رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم-: سبحانك اللّهم وبلى! وهو المرويّ عن ابي جعفر وأبي عبدالله -عليهما السّلام.

٧٦. سورة الدّهر

في رواية عن ابن عبّاس أنّها السورة الثالث عشرة من السّور المدنيّة، نزلت بعد الرحمن. (انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾

بيان :

الآيات الكريمة في بيان خلق الإنسان و مسير وجوده خلقاً بعد خلق؛ وفي بيان ما يفيضه تعالى عليه من الهداية التكوينيّة والتشريعيّة إلى سبيل السّعادة والكرامة؛ وفي بيان ما تيسّرله كسبه من الإيمان والصّلاح والشّكر عملاً وإذعاناً لمواهبه تعالى؛ وفي بيان ما يدركه من الخذلان وما يلحقه بالكفران به وبمواهبه وإحسانه تعالى. فيذكر تعالى بالبيان الأوفى مآل أمر الفريقين وخاصّةً عنايته الكريمة ووفاءه للّذين يوفون بعهده ـ سبحانه ـ ويتعبون أنفسهم في مرضاته ونيل كرامته وإكرامه ـ سبحانه ـ وتشريفاته في حقّهم بما يليق بشأنه وجلاله.

فالسّورة المباركة بيان لشرائف نحله وكرائم مححه تعالى لأوليائه في جنانه، الّتي يعجزعنها اللّسان ويقصر دون بلوغها البيان.

قوله تعالى : « هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » .

في المغني ٤٥٦/١ : «هل» حرف موضوع لطلب التصديق الإيجابيّ، دون التصوّر ودون التصديق السلبيّ .

أقول: قد ساق تعالى الكلام على صورة الاستفهام لطلب التصديق الإيجابي وأرادبه الإخبارعن تحقّق مورد الاستفهام، لا الاستفهام الحقيقيّ. ومن هنا قال بعض المفسّرين أنّ « هل» بمعنى « قد» .

في المغني ١/ ٤٦٠ : العاشر: إنّها تأتي بمعنى « قد» . وذلك مع الفعل. وبذلك فسّر قوله تعالى: « هل أتى على الإنسان حين من الدهر» جماعة؛منهم ابن عبّاس ـ رضي الله عنها ـ والكسائي والفرّاء والمبرّد.

أقول: الظّاهر أنّ تحقّق مورد الاستفهام يفيد أنّ « هل» استعمل في مورد « قد» ولا يمكن الالتزام بأنّ « قد» بمعنى الاستفهام.

قيل: إنّ الغرض المسوق له الكلام في هذه الآيات الكريمة، إثبات حدوث الإنسان واثبات كونه محدثاً وإثبات أنّ له محدثاً وصانعاً وخالقاً. فإنّ الإنسان يجد بالضّرورة من نفسه أنّه لم يكن موجودًا ثمّ خلق. (آنظر:

مجمع البيان ١٠/٤٠٦)

أقول: هذا المعنى، وإن كان حقّاً في حدّ نفسه، إلّا أنّه بمعزل عن سياق الآية ومفادها. وقد تقدّم آنفاً أنّ الآيات في بيان مسير خلق الإنسان وما أفاض الله -سبحانه- عليه من مواهبه الكريمة؛ من السّمع والبصر والهدايات المتواصلة المتكاثرة تشريعاً وتكويناً، وفي ذكر ما يترتّب على ذلك من شكر الإنسان إيماناً وعملاً ومن كفرانه كذلك. فالمتحصّل من الآيات بيان هذا التدبير الحكيم والعناية الحكيميّة الإلٰهيّة في مسير خلق الإنسان.

قوله تعالى: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورًا(١)».

قيل: إنّ النفي في الكلام متوجّه إلى الشيء، أي الصفة والموصوف. يعني: قد أتى على الإنسان من الدهر زمان ولم يكن هذا الإنسان بما أنّه إنسان شيئاً مذكورًا في جملة الخلق المذكورين؛ لأنّه ما كان موجودًا كذلك، بل كان موجودًا بمادّته وشيئاً غير مذكور بفعليّته.

أقول: هذا المعنى أيضاً خلاف الظّاهر. فإنّ النفي في أمثال المقام متوجّه إلى القيد والصّفة. فالنفي في قولك: «جاءني القوم غير راكبين» متوجّه إلى الركوب لا القوم، ومجيء القوم باقٍ على حاله. فتفيد الآية الكريمة أنّ الإنسان الموجود العينيّ مضى عليه دهر وكان شيئاً في طيّ هذا الزمان، إلّا أنّه كان غير مذكور في جملة الخلق المذكورين، إلى أن بلغ مرتبة النطفة فخلقنا هذا الإنسان الموجود من نطفة أمشاج. إلّا أنّ الآية الكريمة ساكتة عن بيان هذه الحقيقة -أي: كونه مخلوقاً جديدًا من النطفة- فلا بدّ من استيضاح ذلك من الأدلّة الأخرى. فالمعنى على ما ذكروه: إنّ الإنسان معلوم بمادّته لا بفعليّته، غير مذكور في الخلق. وعلى ما ذكرنا: إنّ الإنسان موجود عينيّ مقدّر معلوم؛ ومضى عليه حين من الدهر غير مذكور في الخلق الموجودين، إلى أن أصابته يد العناية الجديدة الإلٰهيّة، فابتدأ خلق الإنسان خلقاً جديدًا بعد خلقه الأوّل من نطفة أمشاج. ويشهد على ذلك روايات:

منها ما في نورالثقلين ٥/ ٤٦٨، عن الكافي مسندًا، عن مالك الجهنيّ قال:

« سألت أبا عبدالله -عليه السّلام- عن قوله: « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا» .

قال: كان مقدّرًا غير مذكور.

أقول: حيث إنّ مرتبة التقدير بعد مرتبة العلم -ضرورة أنّ التقدير إنّما يكون بالعلم- فلا محالة يكون كلّ مقدّر معلومًا. فالإنسان المقدّر هو المعلوم ولم يكن مذكورًا في الخلق الموجودين.

ومنها ما في المجمع ١٠/٤٠٦: روى العيّاشيّ بإسناده عن عبدالله بن بكير، عن زرارة قال:

« سألت أباجعفر -عليه السّلام- عن قوله: « لم يكن شيئاً مذكورًا» .

قال: كان شيئًا ولم يكن مذكورًا.

وفيه أيضاً عن العيّاشيّ بإسناده عن سعيد الحدّاد، عن أبي جعفر -عليه السّلام- قال:

« كان مذكورًا في العلم؛ ولم يكن مذكورًا في الخلق.»

وفيه أيضاً عن عبدالأعلى مولى آل سام مثله.

وفيه أيضاً عن حمران بن أعين قال: سألت عنه فقال:

« كان شيئًا مقدوراً؛ ولم يكن مكوّنًا.»

فالآية الكريمة ظاهرة الدلالة على أنّ الإنسان قد أتى عليه حين من الدهر وكان شيئًا بالحقيقة غير مذكور في الخلق الموجودين.

فالآية الكريمة وما في مفادها وفي تفسيرها من الروايات متّفقة الدلالة على إبطال ما قيل من أنّ المراد من الإنسان الّذي أتى عليه حين من الدهر هي المادّة. للتصريح فيها على أنّ الانسان الّذي مضى عليه حين من الدهر، هو الإنسان المقدّر فتكون حقيقةً مقدّرةً وشيئًا ممتازًا ومذكورًا في العلم ومشهودًا بالعلم ولمّا يتكوّن بعدُ من النطفة ولم يكن مذكورًا في الخلق المشهود الّذى يشهده من يشهد الخلق المتعارف.

فلا وجه ولا دليل بحسب الكتاب والسنّة لتأويل الآية الكريمة بأنّ المراد من الإنسان المصرّح به في الآية هو الإنسان الشأنيّ ومادّته. ويشهد على جميع

ما ذكرنا في تفسير المقام ما عن أبي عبدالله الحسين -عليه السّلام- في دعائه يوم عرفة كما في البحار ٩٨/٢١٦:

«اللّهمّ إنّي أرغب إليك وأشهد بالربوبيّة لك، مقرًّا بأنّك ربّي وأنّ إليك مردّي. ابتدأتني بنعمتك قبل أن أكون شيئًا مذكورًا. وخلقتني من التراب؛ ثمّ أسكنتني الأصلاب، آمنًا لريب المنون واختلاف الدهور. فلم أزل ظاعناً من صلب إلى رحم في تقادم الأيّام الماضية والقرون الخالية. لم تخرجني لرأفتك بي ولطفك لي وإحسانك إليّ في دولة أيّام الكفرة الّذين نقضوا عهدك وكذّبوا رسلك؛ لكنّك أخرجتني رأفةً منك وتحنّناً عليّ للّذي سبق لي من الهدى الّذي يسّرتني وفيه أنشأتني. ومن قبل ذلك رؤفت بي بجميل صنعك وسوابغ نعمتك. فابتدعت خلقي من منيّ يمنى. ثمّ أسكنتني في ظلمات ثلاث بين لحم وجلد ودم.»

بيان: الدعاء الشّريف صريح في بيان ما استظهرنا من الآية الكريمة وما يدلّ عليه الروايات المباركة من تقدير خلق الإنسان قبل مرتبة النسل. وفيه زيادة أخرى أيضاً من الدلالة في قوله -عليه السّلام-: «للّذي سبق لي من الهدى الّذي يسّرتني...» على أنّ هذه الإنّيّة المقدّرة كانت واجدةً للحياة والشعور والهداية يومًا من الأيّام.

وكذلك قوله -عليه السّلام-: «آمناً لريب المنون»-والريب في اللّغة بمعنى التصرّف؛ والمنون: الموت- فيه إشعار بل تصريح على أنّ هذه الإنّيّة الجارية في الأصلاب والأرحام مصونة ومأمونة عن عروض الموت وتصرّفه فيها، قبل كونها مخلوقة من منيّ يمنى.

وخاصّةً قوله -عليه السّلام-: «ابتدأتني بنعمتك قبل أن أكون شيئاً مذكوراً» بمنزلة التفسير للآية المبحوثة .

وفيه /٢٩٩، بالإسناد عن أبي هارون العبديّ قال: دخلت على أبي عبدالله -عليه السّلام- في يوم الثامن عشر من ذي الحجّة فوجدته صائماً. فقال:

«إنّ هذا اليوم يوم عظّم الله حرمته على المؤمنين، إذ أكمل الله لهم فيه الدّين وتمّم عليهم النعمة وجدّد لهم ما أخذ عليهم من الميثاق والعهد

في الخلق الأوّل... فمن صلّى ركعتين، ثمّ سجد وشكرالله -عزّوجلّ- مائة مرّة ودعا بهذا الدّعاء بعد رفع رأسه من السّجود...
يامن هو كلّ يوم في شأن، كما كان من شأنك أن تفضّلت عليّ بأن جعلتني من أهل إجابتك وأهل دينك وأهل دعوتك ووفّقتني لذلك في مبتدأ خلقي، تفضّلاً منك وكرماً وجوداً، ثمّ أردفت الفضل فضلاً والجود جوداً والكرم كرماً، رأفةً منك ورحمةً إلى أن جدّدت ذلك العهد لي تجديداً بعد تجديدك خلقي وكنت نسيا منسيّاً ناسياً ساهياً غافلاً فأتممت نعمتك بأن ذكّرتني ذلك ومننت به عليّ وهديتني له...»

واعلم أنّ ما تفيده الآية الكريمة من كون الإنسان شيئًا مقدّرًا غير مذكور في الخلق، من فروعات القول بعالم العهد والميثاق والذّر. والقائلون بذلك اعتمدوا فيه على قوله تعالى: «وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم». (الأعراف/ ١٧٢) وعلى عدّة كثيرة من الروايات الواردة في تفسير هذه الآية والروايات الدالّة على أنّ الأرواح خلقت قبل الأبدان بألفي عام، وغيرها من الروايات في الأبواب المتفرّقة.

توضيح وتذكرة: قال تعالى:

«قال ربّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبرعتيّاً * قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا». (مريم/٨و٩)

«ويقول الإنسان أإذا ما متّ لسوف أُخرج حيّاً * أولا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً». (مريم/٦٧ و٦٨)

أقول: لامنافاة بين هاتين الآيتين وبين ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً». ضرورة أنّ النسبة بين هاتين الآيتين وبين الآية المبحوثة نسبة الإطلاق والتقييد. فلا محالة يكون المراد من الشيء المنفيّ على الإطلاق في الآيتين، هو الشيئيّة قبل مرتبة الذرّ، بل كان عدماً صريحاً قبله بخلاف الآية المبحوثة . فإنّها مسوقة لإثبات أنّ الإنسان -أي: هذه الإنّيّة المعلومة المقدّرة- قد كان

محقّقاً مضى عليه حين من الدهر ولم يكن مذكوراً في الخلق الموجودين.

وأيضاً قوله تعالى: «ولم تك شيئاً» المسوق للتذكير بأنّ خلقة الإنسان بديعاً وبديئاً، يكفي في التذكّر بإمكان خلقة الإنسان من شيخ كبير وامرأة عاقر. وكذلك خلقة الإنسان بديعاً وبديئاً أدلّ دليل على بطلان ما توهّمه الجاهلون من استحالة إحياء الإنسان بعد موته.

ويشهد على ما ذكرنا من البيان ما في البرهان ٣/١٩ عن الكلينيّ مسنداً، عن مالك الجهني قال:

«سألت أبا عبدالله -عليه السّلام- عن قوله: «أو لم يرالانسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً».

فقال: لامقدّراً ولا مكوّناً.

وسألته عن قوله: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً».

قال: كان مقدّراً غير مذكور.»

وفيه أيضاً عن البرقيّ مسنداً، عن حمران قال:

سألت أبا جعفر -عليه السّلام- عن قول الله -عزّوجلّ-: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً».

فقال: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً.

قلت: فقوله: «أو لا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً»؟

قال: في كتاب ولا علم.

قوله تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ».

أقول: هذا الخلق هو الخلق المذكور والخلق الجديد بعد التقدير. والإنسان المذكور في هذه الآية بعينه، هو الإنسان المقدّر في الآية السّابقة؛ والمراد به الجنس. وهذا دليل على بطلان قول من زعم أنّ الإنسان في الآية السّابقة آدم.

والنطفة في اللّغة: الماء القليل. ويقع على الكثير أيضاً. أريد به في

المقام مـاء الرجل والمرأة اللّذين يـتكوّن منها الإنسان. ويمـكن أن يستدلّ لذلك بقوله تعالـى:

«يخرج من بين الصّلب والترائب». (الطارق / ۷)

قال فـي القاموس ١ / ٤١: الترائب عظام الصدر، أو مابين الترقوة، أوما بين الثديتين أو ترقوتين.

وفـي نـورالـثقـلين ٥/٥٥٥ ، عـن الاحـتـجـاج قـال أبـومحــمـد الـعسكـري ـ عليه السّلام ـ:

« سـأل عبـدالله بن صـوريا رسول الله فـقال: أخـبرنـي يـا محمّـد، الولد يكون من الرجل أو المرأة؟

فقال النبّـي ـ صلّـى الله عليه وآله ـ: أمّا العظام والعصب والعروق، فمن الرجل. وأمّا اللّحم والدم والشعر، فمن المرأة.

قال صدقت يـا محـمّد. ثمّ قال: فـما بـال الولد يشبـه أعـمامه وليس فـيـه من شبه أخواله شـيء؟ ويشبه أخواله وليس فيه من شبه أعمامه شيء؟

فقال رسول الله: أيّهما علا ماء صاحبه، كان الشّبه له.

وفيه / ٥٥١ ، عن العلل مسنداً، عن أبـي بصير قال:

« سألـت أباعبدالله ـ عليه السّلام ـ فقلت: إنّ الرجـل ربما أشبه أخواله وربما أشبه أباه وربما أشبه عمومته؟

فقال: إنّ نطفة الرجل بيضاء؛ ونطفة المرأة صفراء رقـيقة. فإن غلبت نطفة الرجل نطـفة المرأة، أشبه الـرجل أباه وعمومـته. وإن غلبت نطفة المرأة نطفة الرجل، أشبه الرجل أخواله.

أقول: وبهذا المعنـى روايات أخرى؛ وفيما ذكرناه كفاية.

قوله تعالـى: «أمشاج» صفـة ونعت للنطفة. والـمشج فـي اللغة: الـخلط. فـي الكشّاف ٤ / ١٩٤ ما مضـمونه: أمشاج لفظ مفرد وليس بـجمع؛ بـدليل أنّه صفة لمفرد وهو قوله تعالـى: «نطفة أمشاج». ويقـال أيضاً: نـطفـة مشـج. ولا يصحّ أن يكون أمـشاج جمعاً للمشج، بل هما مثلان فـي الافراد.

قال فـي القاموس ١ / ٢٠٧: مشـج: خلط. وشـيء مشيـج كقتيل... ج: أمشاج.

أقول: الظّاهر أنّ الآية الكريمة ليست مسوقةً لبيان ما يمتزج بالنطفة من ماء المرأة وغيرها من الأخلاط. فليطلب بيان ذلك من الأدلّة الأخرى. فعلى هذا، لا وجه ولا محصّل للوجوه والأقوال الّتي ذكروها في تفسير ما يمتزج بالنطفة.

وفي نهج البلاغة:

«عالم الغيب من ضمائر المضمرين... محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب.»

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم ٢/ ٣٩٨:

«وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر - عليه السّلام - في قوله: «أمشاج نبتليه». قال: ماء الرجل والمرأة اختلطا جميعاً.

أقول: ويمكن الاستشهاد في تفسير الأمشاج ومعنى اختلاط النطفة، بما تقدّم من الروايات الدالّة على أنّ أيّهما علاماؤه ماء صاحبه يشبه الولد بمن غلب ماؤه ماء صاحبه.

قوله تعالى: «نَبْتَلِيهِ».

قال في مرآة الأنوار/ ١٠٥: في النهاية: الابتلاء في الأصل: الاختبار والامتحان. يقال: بلوته وأبليته. وفي القاموس: التكليف بلاء، لكونه شاقّاً على البدن ولأنّه امتحان. ثمّ قال: والبلاء يكون محنةً.

فالمعنى: نبتليه في مستقبل عمره وفي أيّام دهره. فعلى هذا يكون قوله تعالى: «نبتليه» في موضع التعليل للخلق. أي: خلقنا الإنسان لنبتليه بالأمر والنّهي والتعبّد بالتكاليف وبالطّاعة.

فالآية الكريمة قريبة السّياق من قوله تعالى:

«وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون». (الذّاريات/ ٥٦)

وفي تفسيرها عدّة من الروايات قريبة المفاد والصّريحة على أنّه تعالى خلق الجنّ والإنس لكي يأمرهم وينهاهم.

وذكر بعضهم أنّ موضع قوله تعالى: «نبتليه» نصب على الحال أي: مريدين به الابتلاء. (انظر: تفسيرالرازيّ ٣٠/ ٢٣٧) ولا يخفى أنّ ما ذكرناه هو

الظّاهر البيّن. وعلى كلا الوجهين ، فالآية الكريمة على ما تقدّم في صدر السّورة مسوقة لبيان مسير الإنسان في حياته وأنّ خلقه من نطفة أمشاج ليس لغواً ولا عبثاً، بل إنّما خلقه من نطفة أمشاج مريداً به الابتلاء، أو لا بتلائه.

وفي قوله تعالى : «نبتليه» بصيغة المضارع، تصريح على أنّ موطن الابتلاء إنّما هو فيما يستقبل في أيّام حياته.

وذكر بعض المفسّرين أنّ المراد من الابتلاء التصاريف الواردة على النّطفة ثمّ صارت علقةً ثم صارت مضغةً و هكذا. (انظر: الكشّاف ٤/١٩٤ و١٩٥)

وفيه: أنّه لا دليل على ذلك بحسب ظاهر الآية. وكذلك لفظ «نبتليه» ليس نصّاً ولا ظاهراً في التصاريف التكوينيّة المحضة. واستعمال لفظ الابتلاء في الامتحان بالتكاليف الشرعية شائع في القرآن الكريم. قال تعالى:

«إنّ هذا لهو البلاء المبين». (الصافّات/١٠٦)

«وإذ ابتلى إبراهيم ربّه». (البقرة/١٢٤)

فاتّضح بما ذكرنا أنّ قوله تعالى «نبتليه» فيه حكمة وعناية حسنة جميلة لخلق الإنسان. ومنه يعلم وهن ما قيل من أنّ في الآية تأخيراً وتقديماً والتقدير: فجعلناه سميعا بصيراً نبتليه. وقد زعم أنّ الآيات مسوقة لبيان شرائط التكليف وكون الإنسان مكلّفاً بالأحكام الشرعيّة ولم يشعر أنّ هذه المراحل والمنازل الّتي يسيرالإنسان فيها ويمرّبها ويفاض عليه في كلّ منها مواهب من ربّه وتيسّر له فيها من هدايات مولاه، أراد بها تعالى في المقام إقامة الحجة على الإنسان وإزاحة العلّة عنه، كي يتمكّن من التقدير والشكر إيماناً وعملاً أو يلحقه الخزي والخذلان فيكفربها إيماناً وعملاً، كي يتفرّع على ذلك : «وأعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً».

قوله تعالى : «فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢)».

الظّاهر من السّمع إدراك الإنسان بسمعه إدراكاً وعرفاناً محدوداً بهذه الحاسّة، على قدر ما شاءالله من سنّته الفاضلة الحميدة الحكيمة. وهو من أجلّ آياته تعالى، ومن أعظم صنعه وصنائعه؛ وعند التحليل يرجع إلى العلم

والعرفان الحقيقيّ للروح الواجد للحياة والشّعور لإدراك الحقائق المسموعة.

أي: أعطيناه سمعاً يسمع دعوة الحقّ إذا تتلى عليه آيات الله - سبحانه - فيتدبّر ويتفكّر فيها ويعقلها عقل دراية، وينتفع بهذه التجهيزات الإلٰهيّة في ضروريّات حياته ومعاشه، وفي طريق تحصيل العلوم والفنون وغير ذلك من حوائجه. وكذلك أعطيناه بصراً يشهد ويرى بهذه الحاسّة الكريمة صنع الله وصنائعه، ويرى ويشهد الأسرار المستودعة المشهودة بالعيان الحقيقي، ويتفكّر ويتبصّر ويعرف فيها من آثار علمه وقدرته ونعوته ومعاني أسمائه، وخاصّةً ما فتح الله للنّاظرين المتدبّرين من أبواب العلم بربوبيّته - سبحانه - أي إتقان الصّنع وإحكام النظم في أجزاء العالم وأبعاضه، دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وينتفع ويتمتّع بهذه الحاسّة الكريمة في ضروريّات حياته ومعاشه، وفي باب تعلّم العلوم والفنون وتعليمها، وفي إعمال تلك العلوم والفنون وغيرها من الفوائد.

قوله تعالى: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣)».

قد كثر استعمال لفظ السّبيل في القرآن الكريم. والمراد منها في أمثال المقام، هو المنهاج الحقّ السّويّ يسلك به إلى باب الله وإلى دار كرامته ويكتسب به مرضاته - سبحانه.

وهدايته تعالى الإنسان إلى هذا السّبيل، هي الموهبة الكبرى والفضيلة العليا. فسبحانه من إله ما أنعمه حيث ألهم الإنسان فجوره وتقواه وأتمّ الحجّة وأزاح العلّة. وبهذه الهداية الفطريّة الإلٰهيّة، ظهرت المحجّة.

وقد يسّر الله - سبحانه - لهذا الإنسان معرفة هذا السّبيل؛ وأفاض عليه من المعارف الضروريّة - أي: العلم بالله تعالى وتوحيده ونعوته ومعرفة الجيّد والرديّ من الأفعال والحسن والقبح والفضيلة والرّذيلة - وأتمّ ذلك واستكمله بتذكير أنبيائه الكرام وإرشاده إلى هذه المعارف الفطريّة والأحكام الضّروريّة العقليّة، فاستأدوهم ميثاق فطرته وذكّروهم منسيّ نعمته - سبحانه.

ثمّ نصب لهم شرائع قيّمة ومناهج بيّنة لنسكهم وعباداتهم؛ وقرّرلهم قوانين عادلةً لنظام جماعاتهم وحقوقهم. وعرّف الله تعالى تلك الشرائع والقوانين على

ألسنة رسله وأمناء وحيه وعرّف هذا الإنسان وجوب الإيمان والانقياد بهذه الأنوار والحجج وتحريم الاستكبار والاستهانة بها. فتمّت الكلمة؛ وظهرت الحجّة. فعن بيّنة آمن من آمن. وعن بيّنة وبرهان كفر من كفر. فمن استجاب هذه الدعوة البيّنة وشكرها بإيمانه وعمله، يكون شاكراً. ومن استكبر وتولّى، يكون كافراً.

في نورالثقلين ٥/ ٤٦٩ : في كتاب التوحيد بإسناده إلى حمزة الطيّار، عن أبي عبدالله ـ عليه السّلام ـ في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: «إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» قال:

«عرّفناه إمّا آخذاً وإمّا تاركاً.»

وفيه أيضاً: في أصول الكافي بإسناده إلى حمران بن أعين قال: سألت أبا عبدالله ـ عليه السّلام ـ عن قوله ـ عزّ وجلّ ـ: إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» قال:

«إمّا آخذ فهو شاكر. وإمّا تارك فهو كافر.»

وفي تفسير القمّي مسنداً عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ مثله.

أقول: فالمعنى: إنّا هديناه السّبيل وعرّفناه هذه النّعمة الكريمة. فإمّا أن يكون آخذاً بها، إيماناً وعملاً، فيكون شاكراً. وإمّا أن يواجه هذه النعمة بالكفران بها، إيمانا وعملاً، فيكون كفوراً.

قوله تعالى: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً(٤)».

أي: هيّأنا للكافرين... وهذه الآية تفريع ممّا تقدّم من إتمام الحجّة وكفران النّعمة؛ أي: المعرفة والهداية للسّبيل.

قال في مرآة الأنوار/ ١٨٦: أصل السّلسلة ما يكون بإيصال الشيء حتّى يمتدّ. وقد كثر إطلاقها وتعارف على ما يكون من الحديد يشدّ به الأسارى ويوضع على أعناقهم.

وفيه/ ٢٥١: الغِلّ ـ بالكسر ـ وهو حديد أو خشب يوضع على العنق أو اليد.

والسّعير: النّار المشتعل. في المجمع في تفسير المقام: والنّار موقدة بهم.

قوله تعالى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) » .

قال في مرآة الأنوار/ ٩٥: وفي مصباح المنير وغيره: البرّ - بالكسر - : الخير والفضل. فهو بَرٌّ - بالفتح - وبارّ أيضاً؛ أي: كثير البرّ والصّادق والتقي، خلاف الفاجر. والجمع: أبرار وبررة.

وقوله تعالى: « مزاجها » الظّاهر أنّ المزاج مصدر بمعنى الممزوج؛ مثل الكتاب بمعنى المكتوب.

قال في القاموس ٢/ ١٢٨: الكافور: نبت طيّب ... وطيب معروف يكون من شجر بجبال بحر الهند والصّين.

أقول: قد اختلفوا في تفسير المقام وكون الكافور خليطاً لشراب أهل الجنّة. وواضح أنّ الكافور بكلا المعنيين اللّذين ذكرهما في القاموس، ليس من جنس ما يشرب وما يؤكل. ومن الممكن جدّاً أن يكون هذا المسمّى بالكافور في الجنّة من أطيب موائد الجنّة ممّا يؤكل ويشرب؛ وإنّما امتزج شراب كأسهم بالكافور لازدياد لذّتها وطيبها.

قوله تعالى : « عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ » .

لا يبعد أن يقال: إنّ « عيناً » بدل من « كافوراً » . وقوله: « يشرب بها ... » أي: من هذه العين عباد الله المرتضون. وفي إضافة « عباد » إليه تعالى إشارة إلى تشريف هؤلاء الكرام الأحرار.

وفي الآية الكريمة أيضا إشعار بأنّ هذه العين أعلى وأطيب من شراب الكأس الّذي يشرب منها الأبرار. فعليه يكون المراد من « عباد الله » في الآية الكريمة غير الأبرار المذكورين في صدر الآية؛ وأنّ مرتبة هؤلاء الأصفياء أعلى وأشرف من مرتبة الأبرار؛ إلّا أن يقال: إنّ الأبرار في الآية الكريمة بعينهم هم عباد الله. وإنّ التعبير بالأبرار لإبراز صدقهم وسدادهم. والتعبير بأنّهم عباد الله، لبيان مقام خضوعهم وإبراز أدبهم في ساحة ربّهم.

أقول: الأظهر ما ذكرناه. وتوضيح ذلك : إنّ العبوديّة والعبادة من الألفاظ الشائعة في الكتاب والسنّة. وهي بتصريح اللّغويّين عبارة عن الخضوع والانقياد والتذلّل. وكانت مرسومةً عند العرب المتنصّرة واليهود والوثنيّين قبل

الإسلام و بعده.

فالأفعال العمليّة الاختياريّة قسم منها عبادة وخضوع وتذلّل بذاته -مثل السجدة والتّعفير والثناء على الله وتقديسه وتمجيده- من غير احتياج إلى قصد الأمر فيها. والأوامر الواردة بها في الكتاب والسنّة، أوامر إرشاديّة. ويكون الإتيان بهالله، تواضعاً وعبادةً بالحقيقة. نعم؛ يحتاج بعد تحقّق العبادة فيها إلى الإخلاص في هذه العبادة، بتخليص الغرض والغاياتلله وحده لاشريك له.

وقسم منها هي الأفعال الاختياريّة الّتي ليست عبادةً بذاتها وفي حدّ نفسها، بل يحتاج تحقّق العبادة فيها إلى قصد الأمر الّذي تعلّق بها. ضرورة أنّ امتثال أمر المولى بقصد أمره فقط، انبعاث عن بعثه، وفي المحرّمات انزجار وانتهاء عن زجره ونهيه، فيكون تعظيماً وتواضعاً له بالبديهة. فاتّضح أنّ ارتباط المتعلّق وانتسابه إلى أمر المولى، لايمكن إلا بقصد أمره في مرتبة متأخّرة عن الأمر رتبةً وزماناً. وبعد تحقّق العبادة بالأمر، يحتاج تخليص العبادة بحصر الغرض والغايةٰ أن يكونلله وحده لا شريك له،أو الدّواعي الأخرى الّتي تنتهي إليه تعالى؛ مثل قصد ثوابه، أو طلب مرضاته، أو الخوف من ناره، أو كونه -سبحانه- أهلاً للعبادة وإتيانه تعظيماًلله تعالى وتودّداً وتحبّباً لله- سبحانه.

وواضح أنّ العبادة لها درجات ومنازل على حسب مراتب العابدين معرفةً وكمالاً، وعلى حسب أعمالهم أيضاً. فنهم من يكون أعماله وأفعاله كلّها صادرةً عن رضائه وإذنه تعالى. ومنهم من لا يكون كذلك . فأفضل العابدين من يكون أشدّ معرفةً بالله، وأشدّ مراقبةً لجلاله وكبريائه، ويكون أعماله كلّها قلباً وقالباً وروحاً وبدناً مستندةً إلى أمره ورضائه ويكون عبدلله على الإطلاق. قال تعالى:

«بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون». (الأنبياء/٢٧)

وغيره من الآيات الكثيرة في هذا الشّأن.

فهؤلاء الأفاضل الأطهار لايشاؤون إلّا ماشاءالله؛ ولا يختارون إلّا ما اختارالله لهم.

فاتّضح ممّا ذكرنا أنّ الظّاهر في قوله تعالى: «يشرب بها عبادالله» هم العابدون‌لله على الإطلاق من غير تبعيض في أعمالهم في مورد دون مورد آخر.

فإن قلت: إنّ العبد والعبادة قد استعمل في القرآن الكريم في الأشخاص العاديين،بل في الكفّار أيضاً. قال تعالى:

«إن كلّ من في السّموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً». (مريم/٩٣)

قلت: نعم؛ إلاّ أنّ المورد الّذي أشرنا إليه، هي العبوديّة المكتسبة بالسّعي والعمل وبالمجاهدات الكبيرة وبالأعمال الطّاهرة. وما ذكرت من مورد النقض ونظائرها من الآيات، هي العبوديّة والتذلّل بالتكوين.

قال في المجمع ٦/٥٣٢: أي: ما كلّ من في السّموات والأرض من الملائكة والإنس والجنّ إلاّ ويأتي الله ـ سبحانه ـ عبداً مملوكاً خاشعاً ذليلاً.

ومثله قوله تعالى: «وكلّ أتوه داخرين». [النمل/٨٧]

قوله تعالى: «يُفَجِّرونَهَا تَفْجِيراً(٦)».

الضّمير للعين. أي: يجرون تلك العين بشقّ الأرض عنها.

قال في المجمع ١٠/٤٠٧: والتفجير تشقيق الأرض بجري الماء.

أقول: ليس تفجير العين في الجنّة بالسّعي والكدّ، بل يجرونها بإرادتهم ومشيّتهم وقد سخّرالله تعالى لهم الأرض والماء. فإنّ لأهل الجنّة في الجنّة ما يشاؤون وما يشتهون بإذن الله ـ سبحانه.

قوله تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧)».

تنقيح البحث حول الآية الكريمة في ضمن مسائل:

الأولى: الظّاهر أنّ المراد من النذر في المقام، النذر الشّرطيّ على ما هو المتعارف من معناه. ونصّ عليه في القاموس ٢/١٤٠؛ قال: ... ونذر على نفسه ينذِر وينذُر نذراً ونذوراً: أوجبه؛ كانتذر. ونذر ماله ونذرلله ـ سبحانه ـ كذا. أو النذر ما كان وعداً على شرط. فعليّ إن شفى الله مريضي كذا، نذرٌ. وعليّ أن أتصدّق بدينار، ليس بنذر.

أقول: وهو القدر المتيقّن من معناه. وشموله للنّذر الإبتدائيّ الّذي هو أشبه بالوعد، غير معلوم.

الثانية: ما أورده الفخر الرازيّ في تفسيره ٣٠/٢٤١، واستحسنه. قال: إنّ المراد من النذر هو النذر فقط. ثمّ قال الأصمّ: هذا مبالغة في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات لأنّ من وفى بما أوجبه هو على نفسه، كان بما أوجبه الله عليه أوفى. وهذا التفسير في غاية الحسن.

أقول: هذا ليس بشيء؛ لخروج الآية عن مسيرها وإلغاء مفادها.

الثالثة: إنّ المراد بالنذر كلّ ما وجب على الإنسان ـ سواء كان بالنذر أو بغيره ـ من الواجبات أو الفرائض، بحسب أصل الشّرع.

وفيه: أنّ النذر من الواجبات؛ وليس كلّ واجب بنذر. فأيّ فائدة في التعبير؟! فما العناية فيه؟!

الرابعة: ما ورد في تفسير الرازيّ ٣٠/٢٤٢ عن الكلبيّ؛ قال: المراد بالنذر العهد والعقد. ونظيره قوله تعالى: «أوفوا بعهدي أوف بعهدكم». [البقرة/٤٠] فسمّى فرائضه عهداً.

أقول: الظّاهر أنّ مراده: إنّ النذر من الفرائض عهدالله ـ سبحانه. وفيه: أنّ النذر والفرض والعهد، متباينة مختلفة معنًى. والنذر على فرض دلالة الآية على الوجوب، يكون من مصاديق الفرض. والفرض من مصاديق العهد على ما زعم. وهذا من باب خلط المفهوم بالمصداق وأجنبيّ عن تفسير الآية.

وذكر جمع من المفسرين أنّه لا دلالة في الآية الكريمة على وجوب النذر. فإنّ الآيات مسوقة في الثناء والمدح لهؤلاء الأبرار وأنّ من صفاتهم وسنّتهم أنّهم يوفون بالنذر. وهو أعمّ من الوجوب والندب.

وقال الرازيّ في تفسيره ٣٠/٢٤٢: هذه الآية دالّة على وجوب الوفاء بالنذر. لأنّه تعالى عقّبه بـ: «يخافون يوماً». وهذا يقتضي أنّهم إنّما وفوا بالنذر، خوفاً من شرّ ذلك اليوم. والخوف من شرّ ذلك اليوم، لا يتحقّق إلّا إذا كان الوفاء به واجباً.

أقول: ويرد عليه أنّ قوله: «يخافون...» إنّما ورد لتجليل هؤلاء

الأخيار، وليست مسوقةً للوعيد على من تخلّف من الوفاء بالنذر.

والتحقيق في المقام: إنّه لاريب أنّ الآيات مسوقة في مقام التجليل والثناء على هؤلاء الكرام، بالوفاء والخوف من شرّيوم القيامة وإطعام الطعام ـسواء كان مورد المدح والثناء أمراً واجباً أومندوباً ـ وليست مسوقةً لإنشاء الحكم الواجب، أولبيان الإخبارعن حكم واجب في هذا المورد.

وأمّا البحث عن حقيقة النذر وأنّ التزام الإنسان وتعهّده عندالله على شيء، هل يجب القيام به أم لا؛ فهو بحث فقهيّ راجع إلى وجوب العمل بالنذر شرعاً وعقلاً. والآيات الكريمة بمعزل عن هذا السياق.

وأمّا قوله تعالى: «يوفون بالنذر» قال في القاموس٤/٤٠٠: وفى بالعهد ـكوعى ـ وفاءاً: ضدّ غَدَر؛ كأوفى. والشيء وُفيّاً ـكصُليّ ـ: تمّ وكثر. فهو وفيّ ووافٍ.

أقول: ظاهر كلامه أنّ وفى و أوفى مجرداً أو مزيداً فعل لازم. وهو كذلك. والشّاهد عليه قوله تعالى: «يوفون بالنذر». فإنّ قوله تعالى: «يوفون» مزيد من باب الإفعال قد استعمل بالباء. وقد قيل في تفسير الإيفاء: إتيان الشيء وافياً. (تفسيرالرازيّ ٣٠/ ٢٤١)

وفي الكافي ١/١٧ في رواية شريفة مسنداً، عن سماعةبن مهران، عن الصّادق ـعليه السّلام ـ في ذكر جنود العقل والجهل ما خلاصته: إنّ من جنود العقل الوفاء؛ وضدّه الغدر.

وفي البرهان ٤/٣٢١، عن الصّدوق مسنداً، عن الصّادق ـعليه السّلام ـ عن آبائه، عن أميرالمؤمنين ـعليه السّلام ـ عن رسول الله ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنّه قال:

«إنّالله ـتبارك وتعالى ـ تسعة وتسعين اسماً؛ مائة إلّا واحد. من أحصاها، دخل الجنّة. وهي: ...الوفيّ...»

فالوفيّ من جملة أسمائه تعالى الحسنى الّتي سمّى بها نفسه وأمر النّاس أن يدعوه تعالى بها. وإنّ الوفاء صفة مجد وفضيلة أثنى تعالى به على أوليائه ومجّد بها نفسه القدّوس. وضدّه الغدر والنقض والنكث

والنكص.

فالمعنى: إنّ هؤلاء الكرام لايغدرون ولا ينقضون ولا ينكثون ولاينكصون. وبهذا البيان يمكن أن يستدلّ على أنّ وفاءهم بالنذر، إنمّا هو لأجل وجوبه وعدم جواز النكث فيه، وأنّ الوفاء بالنذر كان من سيرتهم وسنّتهم.

والظّاهر أنّ المراد بالضدّ في الرواية الشّريفة وعبارة القاموس، ليس هو الضدّ المصطلح، بل الأعمّ منه ومن نقيضه.

وأمّا تفسير الوفاء بإتيان الشيء وافياً وتامّاً ـ مثل: أوف الكيل و....ـ فبعنايات مقاميّة غير هذا المقام.

قوله تعالى: «يَخَافُونَ يَوماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧)».

هذا تجليل آخر وثناء بالغ على هؤلاء الأجلّة الأحرار. فإنّ الإيمان بالقيامة وحشر الأوّلين والآخرين للحساب والجزاء، من أهمّ أركان الدين ومن أشرف ما جاء به النبيّون ـ سيمّا القرآن المبين ـ والإيمان به بحسب مراتب الناس في علومهم ومعارفهم في العلم بالله واليوم الآخر. فمن كان أنور معرفةً وأشدّ يقيناً، فهو أفضل إيماناً. فهؤلاء الراسخوان في العلم الّذين يخافون يوم القيامة، لشدّة معرفتهم ويقينهم بهذا اليوم الخطير والنبأ العظيم وشؤونه، كأنّهم قطعوا الدّنيا إلى الآخرة فشاهدوا مَا هنالك. فكأنمّا القيامة حقّقت عليهم عداتها، فهم يرون ما لايرى الناس ويسمعون ما لايسمعون. وهم أعلم الناس بهذا اليوم وأخوفهم من شرّه.

وقوله: «شرّه»؛ أي: شدائده وأهواله. وقيل: عذابه.

أقول: الشّدائد والعذاب مرجعه إلى أمر واحد. وليس الشّدائد ماوراء العذاب وبالعكس. وبروز نقماته تعالى على أعدائه، هو عين الشدائد والعذاب. وظاهر أنّ العذاب والأهوال ليس إلّا على من شمله الخزي والهوان من الله ـ سبحانه. وأمّا اولياؤه تعالى، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى في الآيات التالية: «ووقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نظرةً وسروراً».

والشرّ مقابل الخير. ومصاديقه نار الجحيم والعقوبات الجارية فيها؛

وكذلك الّتي فى القيامة قبل دخول النّار، وكذلك الّتى في الدنيا من العقوبات والبلايا والمصائب القارعة الواردة على الكفّار والفجّار. والشرّ بهذا المعنى حسن جميل جدّاً. فيحمدالله على ذلك ويمجّد عليه. ومنشأ تلك الشرور الأعمال السيّئة والجنايات الّتي لا بدّ من المجازاة عليها، بل لا يحسن إهمالها وإلغاؤها. فإنّه عين إعمال العدل منه ـ سبحانه. أمّا المصائب والمحن الواردة من الله ـ سبحانه ـ على أوليائه، فهو كما قال الله تعالى:

«وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات ...» (البقرة/١٢٤)
«فلمّا أسلما وتلّه للجبين * ... * إنّ هذا لهو البلاء المبين».
(الصافّات/١٠٣-١٠٦)

وأمّا الشّرور الجارية من بعض الناس على بعض، فتختلف باختلاف الأحكام الواردة عليها من الوجوب والتحريم.

وأمّا الكلام في الخير والفضل، فالفضل من الله ـ سبحانه ـ وهو متّصف بالحسن. فيحمدالله عليه ويشكر. فيستحيل أن يكون واجباً عليه ـ سبحانه ـ بالوجوب الإصطلاحيّ الفلسفيّ. وأمّا الميعاديّ، فإنّه ـ سبحانه ـ صادق الوعد لا يخلف الميعاد البتّة.

قوله تعالى: «مستطيراً» هو من باب الاستفعال مأخوذ من طار. فقيل: أي: انتشر وفشا.

أقول: الظّاهر في المقام أنّه كناية عن سرعة السّريان والجريان في الآفاق المتناسبة لذلك اليوم.

قوله تعالى: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(٨)».

هذا مدح ثالث وتقدير وثناء آخر من الله ـ سبحانه ـ على هؤلاء الأطهار المتّقين. فإنّه لا خفاء أنّ إطعام الطّعام لعباده تعالى ـ سيّما أهل الحاجة والمسكنة، وسيّما إذا كان على وجه الإيثار ـ من أفضل الطّاعات والقربات. قال تعالى:

«فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فكّ رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة». (البلد/١١-١٦)

بل الإنصاف أنّ ذلك على نحو الإيثار من المجاهدات الكبيرة. وقوله تعالى: «يطعمون الطّعام» مطلق شامل لصورة الإيثار وغيره. وصورة الإيثار هو المطابق والموافق لشأن النزول ومورده، على ما سيجيء من ذيل البحث ـ إن شاء الله. ولا ينافي ذلك شموله لغير الإيثار أيضاً.

وقوله تعالى: «على حبّه»؛ أي: حبّ الطّعام. قال في المغني في ذكر معاني «على»: ... الثاني: المصاحبة ـ كمع ـ نحو: «وآتى المال على حبّه» [البقرة/١٧٧] «وإنّ ربّك لذو مغفرة للنّاس على ظلمهم». [الرعد/٦]

وهل المراد من حبّ الطعام هو المتعارف من حبّ الناس أموالهم ـ كما قال تعالى: «إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي حتّى توارت بالحجاب». (ص/٣٢) ـ أو المراد من حبّ الطعام حبّه لشدّة احتياجه إليه لسدّ رمقه به؟

وقيل: الضّمير في «حبّه» راجع إلى الله. وقوله: «على» بمعنى اللاّم. أي: لحبّ الله. ذكره ابن هشام في المغني ١٩١/١ في قوله تعالى: «لتكبّروا الله على ما هداكم» (البقرة/١٨٥)؛ أي: لهدايته إيّاكم.

أقول: الوجه الأوّل مع قطع النظر عن شأن النزول، هو الظّاهر. والثاني هو المتناسب لشأن النزول ومورده. والثالث خلاف الظّاهر.

وقد اختلف في تفسير قوله: «أسيراً» أنّه من أين؛ من أهل القبلة، أو من دار الحرب. وتحقيقه خارج عن غرض الآية.

قوله تعالى: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءاً وَلاَ شُكُوراً (٩)».

هذا تقدير آخر وثناء جديد من الله ـ سبحانه ـ على هؤلاء المخلصين المصطفين، من مراقبتهم ومواظبتهم في إتيان أعمالهم لله. فإنّ مقام إخلاص العمل لله وتصفيته وتطهيره عن أدناس الهوى، من أشقّ الأعمال، ومقام تزلّ فيه أقدام الرجال. ويتبيّن المخلص من المرتاب، عند ما يطرح عن الأعمال الحجاب ويكشف عنها الغطاء. وفي الآية الكريمة شهادة من الله ـ سبحانه ـ على طهارة نفوسهم وصفاء سرائرهم.

وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: «عيناً يشرب بها عبادالله» أنّ العبادة حقيقة إضافيّة لا بدّ من ارتباطها وانتسابها إلى المولى بقصد أمره؛ ولابّد من تحصيل إخلاصه بقصد أمره منحصراً به لاغير، وبالدواعي الأخرى في طول قصد الأمر بعد تحقّق العبادة؛ مثل طلب مرضاته تعالى وغيره.

وقوله تعالى: «إنّما نطعمكم لوجه الله» على سبيل الحصر عبارة عن قصد الإخلاص للعمل. فقوله: «لوجه الله»؛ اي: لمرضاته ـ سبحانه. وقوله: «لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً» تأكيد وتوضيح للحصر المذكور في صدر الآية. أي: لا نطعمكم إلّا لوجه الله ومرضاته، من غير إرادة جزاء منكم ولا تشكّر ولا ثناء. والظّاهر أن قوله تعالى: «شكوراً» مصدر مثل قعود وظهور ونظائرها.

وقد يستدلّ على وجوب قصد الإخلاص بقوله تعالى:

«وما أمروا الاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدّين».(البيّنة/٥)

«هو الحيّ لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين». (المؤمن/٦٥)

بيان: الدّين في الآيتين ونظائرهما، مفعول لقوله تعالى: «مخلصين». ومعنى الآية الأولى: إنّ كفرة أهل الكتاب والمشركين، فهم ما تفرّقوا وما انحرفوا عن دينهم، إلّا بعد ما جاءتهم البيّنة الواضحة. وليس فيها ما يوجب ارتيابهم وانحرافهم عن دينهم وقد أمروا أن يعبدوا الله وحده، حال كونهم مخلصين له الدين. أي: إنّ وضع الدين وتشريعه حقّ مطلق الله ـ سبحانه ـ فقط. ومن عمد إلى وضع شيء وتقنينه وتشريعه على الناس من دون الله، فهو متصرّف في سلطان الربّ؛ وما وضعه بدعة. وهذا المعنى أجنبيّ عمّا توهّمه بعض من الاستدلال بهذه الآيات بإيجاب الإخلاص في العبادات المشروعة الثابتة في الدين. فالمتحصّل في المقام: إنّ هذه الآيات مسوقة لبيان خلع الأصنام والأضداد لله ـ سبحانه ـ وإخلاص الاسلام والتوحيد لله وأن لا نعبد إلاّ الله وحده لا شريك له، لا إتيان العبادة لله بقصد الإخلاص.

وذكر بعضهم في توجيه الوجه المذكور في الآية أنّ وجه الشيء ما يستقبل به غيره. ووجهه تعالى الّذي يستقبل به خلقه، هي صفاته الفعليّة الكريمة التي يستقبل بها على خلقه من الخلق والرزق، وبالجملة ما يقوم به

العالم ويحتاج إليه. ومعنى قصد الوجه بهذا المعنى: إتيان العمل لأجلها وجعلها غايةً للعمل للاستفاضة والاستفادة من الوجه ـ أي: من رحمته العامّة ـ والإعراض عن جميع ما سواه. ووراء ذلك صفاته الذاتيّة الكريمة الّتي هي المبدأ لصفاته الفعليّة ولما يترتّب عليها من الخير في العالم. ومرجع كون العمل لوجه الله على هذا، هو الإتيان بالعمل حبّاًلله؛ لأنّه الجميل على الإطلاق. وإن شئت فقل: عبادته تعالى لأنّه أهل للعبادة.

أقول: ويرد عليه أوّلاً أنّ ظاهر الآيات وصريح الرّوايات أنّ الوجه هو الدّين وما يأتي الخلق به ويتوجّه به إلى الله، لا ما يأتي ويتوجّه الله به إلى خلقه.

وثانياً أنّ إضافة الوجه بما له من المعنى اللّغويّ العامّ إليه تعالى وتوصيفه تعالى بها، غير جايز وتأويل على خلاف الدليل. ويجب تنزيهه تعالى عن الوجه بهذا المعنى المنتزع عن جميع الأشياء. ويجب تنزيهه تعالى عن المواجهة. ثمّ على فرض الصحّة، إنّما يستقيم ذلك في الصفات الفعليّة دون الصفات الذاتيّة الّتي مبدأ للصّفات الفعليّة إلّا بالتكلّف.

فالمتعيّن بحسب هذه الروايات وغيرها الواردة في باب النيّة والإخلاص: إنّ الوجه فعل المكلّف وقصده وما يتوجّه به إلى الله تعالى. وإنّ العناية في الإضافة إلى الله لأنّه طريق إلى الله؛ كما سيأتي بيانه.

وقوله تعالى: «إنّما نطعمكم...» حكاية عمّا عقدوا عليه قلوبهم وعمّا أسرّوا إليه تعالى من نجيّات صدورهم، لا أنّهم قالوا ذلك بألسنتهم.

كلام في معنى الوجه في القرآن الكريم

قال تعالى:

«ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله». (البقرة/١١٥)

«وما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله». (البقرة/٢٧٢)

«ذلك خير للّذين يريدون وجه الله». (الرّوم/٣٨)

«وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون». (الروم/٣٩)

«إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى». (اللّيل/٢٠)

«ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه».

(الأنعام/٥٢)

«واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه».

(الكهف/٢٨)

«ولا تدعوا مع الله إلهاً آخر لا إله إلّا هو كلّ شيء هالك إلّا وجهه».

(القصص/٨٨)

«كلّ من عليها فانٍ * ويبقى وجه ربّك ذوالجلال والإكرام».

(الرحمٰن/٢٦-٢٧)

بيان : لا ريب في وجوب تقديسه تعالى وتنزيهه -سبحانه- عن الوجه المتعارف في الإنسان وفي غيره من الأجسام والأعيان، وكذلك في توصيفه تعالى من المعنى العامّ المشترك بينه تعالى وبين غيره؛ أي: ما يتوجّه به إلى غيره أو يواجه به مع الغير. فعلى هذا يحتاج تفسير الوجه وتعيينه بعد تنزيهه تعالى عن الوجه المتعارف، إلى نوع من التأويل. فلابدّ من تلقيّ ذلك وتفسيره بنصّ من المعصوم -عليه السلام- أوبشيء من محكمات الكتاب، لو وجد فيها تفسير وتوضيح لذلك .

فالمنصوص في عدّة كثيرة من الروايات الواردة عن الأئمّة أهل البيت -عليهم السّلام-: إنّ كلّ عبادة وطاعة وتعبّد وتقرّب به تعالى، بغاياتها المقصودة على حسب مراتب العابدين في تحصيل الإخلاص، فهو ممّا يؤتى به إلى الله وممّا يتوجّه به إليه -سبحانه. وهو بهذه العناية وجه‌الله -سبحانه- باقٍ عندالله تعالى لا يفنى ولا يزول. وإنّما أضيف إليه تعالى وقيل: «وجه الله» لأنّه باب إلى حريم قربه ووصلة إلى كرامته. ولا يمكن أن يأتي ويتوجّه إليه تعالى أحد إلّا بذلك ويكفي في الإضافة شيء من المناسبة والملابسة.

في التوحيد/ ١٤٩ مسنداً، عن صفوان الجمّال، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- في قول الله -عزّوجلّ-: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» قال:

من أتى الله بما أمر به من طاعة محمّد والائمّة من بعده -صلوات الله عليهم- فهو الوجه الّذي لا يهلك . ثمّ قرأ: «من يطع الرّسول فقد أطاع الله» . [النساء/ ٨٠]

وفيه مسنداً عن أبي حمزة، قال:

قلت لأبي جعفر -عليه السّلام-: قول الله -عزّو جلّ-: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» ؟

قال: يهلك كل شيء ويبقى الوجه؟! إنّ الله -عزّو جلّ- أعظم من أن يوصف بالوجه؛ ولكنّ معناه: كلّ شيء هالك إلّا دينه والوجه الّذي يؤتى منه.

وفي الكافي ١/١٤٣ مسنداً، عن الحارث بن المغيرة النصري قال:

سئل أبوعبدالله -عليه السّلام- عن قول الله -تبارك وتعالى-: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه». فقال: ما يقولون فيه؟

قلت: يقولون: يهلك كلّ شيء إلّا وجه الله.

فقال: سبحان الله! لقد قالوا قولاً عظيماً! إنّما عنى بذلك وجه الله الّذي يوتى منه.

أقول: الرواية الشريفة أجمع وأشمل لما ذكرنا من البيان أنّ كلّ ما يتعبّدو يتقرّب به إلى الله -سبحانه- فهو وجه الله؛ أي: ممّا يتوجّه ويؤتى به إلى الله. فالإيمان بالله وتوحيده وبرسوله و أوصيائه بعده، من أفضل ما يتوجّه به إلى الله. وبهذه العناية يجوز أن يقال: إنّ الرسول والإمام وجه الله -كما هو صريح عدّة أخرى من الروايات- وإنّ الإيمان بالرسالة والإمامة والتديّن بها والعمل بالطّاعة، وجه الله. فالعناية الّتي ذكرناها، مأخوذة من الروايات ومذكورة فيها.

في بصائر الدرجات/٨٥ مسنداً، عن الحارث بن المغيرة قال:

كنّا عند أبي عبدالله -عليه السّلام- فسأله رجل عن قول الله -تعالى-: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه».

فقال: ما يقولون؟

قلت: يقولون: هلك كلّ شي إلاّ وجهه.

فقال: سبحان الله! لقد قالوا عظيماً! إنّما عنى: كلّ شيء هالك إلّا وجهه الّذي يؤتى منه. ونحن الوجه الّذي يؤتى منه.

أقول: وقريب منه روايات أخرى. من أرادها فليراجعها. وقوله -عليه السّلام-: «نحن الوجه الّذى يؤتى منه» الظّاهر أنّه بولايتهم وإمامتهم ومودّتهم يؤتى ويتوجّه إلى الله؛ كما في غيره من العبادات. وهذا من باب تطبيق

الجزئيّ على الكلّي و بيان شيء بارز من مصاديق الوجه المذكورة في الآية والروايات، لا أنّه تمام المراد.

قال في الصافي ٢/ ٢٨٠ في توجيه الوجه المذكور في الآية والروايات: ... الوجه ما يواجَه به. والله -سبحانه- إنّما يواجه عباده ويخاطبهم بواسطة نبيّ أووصيّ أوعقل كامل.

أقول: يرد عليه أنّ صريح الروايات وظاهر بعض الآيات أنّ الوجه دين الله وما يأتي العباد به إلى الله. وهذا الذي ذكره يفيد أنّ الوجه عبارة عمّا يتوجّه الله تعالى ويواجه به عباده. وهو خلاف المنصوص في الروايات.

وثانياً أنّ هذا الوجه إنّما يستقيم في مورد النبّي والوصيّ والعقل الكامل. وأمّا بالنسبة إلى العبادات والقربات، فلا ينطبق عليها بوجه أصلاً.

ويمكن أن يقال: إنّ قوله تعالى: «كلّ شيء هالك...» بمنزلة التفريع والتعليل لما تقدّم من الآيات السابقة. قال تعالى: «...وادع الى ربّك ولا تكوننّ من المشركين* ولا تدع مع الله إلهاً اخر لا إله إلا هو كلّ شيء هالك إلّا وجهه...». فالمستثنى من «شيء» هو الوجه الذي يتوجّه ويؤتى به إلى الله -سبحانه.

وفي هذه الآيات وجوه وأقوال تركناها حذراً من الإطناب. وقد ظهر من هذه الروايات أنّ المراد من الوجه في الآيات الكريمة ما يقصد به الربّ من مرضاته تعالى وغيرها من الدواعي.

وأمّا قوله تعالى: «كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذوالجلال والإكرام»؛ فعلى قراءة «ذي الجلال» بالكسر- كما هو مذكور في بعض التفاسير- يكون صفةً للرّبّ. فلا محالة يكون الوجه المذكور في هذه الآية طاعاته وقرباته الّتي يؤتى بها إلى الله. وعلى قراءة «ذوالجلال» بالرّفع، فيكون صفةً للوجه. فعليه يشكل تفسير الوجه بالطاعات والقربات. وما ذكره في المجمع ٩/ ٢٠٢ وغيره من أنّ المراد من الوجه هو ذات الربّ تأويل بلا دليل.

قوله تعالى: «إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(١٠)».

بيان: تنقيح البحث حول الآية الكريمة في ضمن مسائل:

الأولى: الفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالى: «ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً» هو ما ذكرنا سابقاً في تفسير الآية السّابقة من أنّها مدح وثناء من الله تعالى على هؤلاء الأبرار، لكمال يقينهم بالآخرة فكأنّهم عاينوا ما هنالك من شدائد القيامة وغيوب البرزخ. فهي في عرض قوله تعالى: «يوفون بالنذر» مسوقة لإجلالهم بخلاف الآية المبحوثة . فإنّها بيان الغاية والداعي للإطعام المذكور في الآية الكريمة.

المسألة الثانية: إنّ الآية المبحوثة ظاهرة في أنّها لبيان الغاية والداعي. فقوله تعالى: «إنّما نطعمكم لوجه الله»؛ أي: لوجه الله وللمخافة من الله. فهذه غاية أخرى بعد قوله: «لوجه الله». ويمكن أن يقال: إنّ المراد من الخوف، الخوف من الله ـ سبحانه ـ لا الخوف من العذاب. فإنّ مقامه تعالى مقام الكبرياء والعظمة وأحقّ أن يخاف ويرهب ويتّقى. والخوف بهذا المعنى من أجلّ مراتب الإيمان. فلا يزال المؤمن الموحّد واقعاً بين الخوف والطمع وبين الرغبة والرهبة من حيث معرفته به تعالى. فإنّه ـ سبحانه ـ واجد لكلتا صفتي الكبريائيّة والرأفة والحنان.

وأمّا نسبة الخوف إليهم في ذلك اليوم، فلا يدلّ على تخصيص الخوف بذلك اليوم ونفي الخوف في غيره. فإنّ ذلك عناية مقاميّة، أي بعناية بروز كبريائيّته تعالى بأتمّ بروزاته ولا تمام لها. فالمعنى: إنّما نطعمكم طلباً لوجه الله وخوفاً من مقامه ومراقبةً لجلاله.

وواضح أنّ الغاية بهذا المعنى، لا تقصر من حيث الإشعار بفضيلة العابدين، عن الغاية الأولى وهي العبادة لوجه الله سواء كان العبادة واجباً أو مندوباً فحينئذٍ يصحّ التعليل ويتمّ الارتباط.

المسألة الثالثة: يمكن أن يقال: إنّ المراد من الخوف في الآية الكريمة الخوف من عذاب الله أو الخوف من عذاب يوم القيامة.

قال في المجمع ١٠/٤٠٨: أي: عذاب يوم.

وقال الرازيّ في تفسيره ٣٠/٢٤٦: ... الثاني: إنّا لا نريد منكم المكافأة، لخوف عقاب الله على من طلب المكافأة بالصّدقة.

أقول: لا يخفى ما فيه من الوهن. أمّا الوجهان الأوّلان؛ فلا بدّ فيها من الالتزام بوجوب الإطعام بالأصالة أو بالعناوين الثانية - مثل الإهمال فى أمر اليتامى والضعفاء وعدم الاهتمام بحوائجهم وشؤونهم - كي يترتّب ويتفرّع من تركه ومخالفته خوف العذاب. ولا دليل على وجوب هذا الالتزام، لعدم الدليل على وجوب الإطعام عليهم.

فإن قيل: فأيّ مانع أن يكون خوف العقاب غايةً وداعياً للإطعام من غير احتياج إلى وجوب الإطعام.

قلت: لا ارتباط ولا اتّصال بين الإطعام الغير الواجب وبين خوف العذاب، شرعاً أو تكويناً، مستقيماً أو بلا واسطة؛ إلّا أن يتشبّث بالوساطة مثل أن يقال: إنّ الحسنات يذهبن السيّئات. وواضح أنّ هذا وأمثاله خلاف ظاهر الآية وغير منطبق على مورد النزول ويخرج مورد النزول عن مفاد الآية، على ما سيجيء تفصيله.

وقوله تعالى: «عبوساً»؛ أي: شديد العبس لعبوسة أهلها المجرمين؛ مثل: نهاره صائم. شبّه في الآية اليوم بالإنسان الّذي هجم عليه الدواهي والهموم بحيث لا ترى في وجهه نشاطاً ولا انبساطاً.

وقوله تعالى: «قمطريراً»؛ أي: شديداً. ذكره في القاموس ٢/ ١٢١.

كلام في شأن نزول السورة

السّورة المباركة نزلت في عليّ أميرالمؤمنين وفاطمة بنت رسول الله والحسن والحسين - صلوات الله عليهم أجمعين.

في الكشّاف ٤/١٩٧:

«عن ابن عبّاس - رضي الله عنه - أنّ الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله (ص) في ناس معه فقالوا: يا أباالحسن، لو نذرت على ولدك! فنذر عليّ وفاطمة وفضّة جارية لهما إن برئا ممّا بهما، أن يصوموا ثلاثة أيام.

فشفيا وما معهم شيء. فاستقرض عليّ من شمعون الخيبريّ اليهوديّ ثلاثة أصوع من شعير. فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة

أقراص على عددهم. فوضعوها بين أيديهم ليفطروا. فوقف عليهم سائل فقال: السّلام عليكم أهل بيت محمّد! مسكين من مساكين المسلمين! أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنّة. فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلّا الماء وأصبحوا صياماً.

فلمّا أمسوا ووضعوا الطّعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيم. فآثروه. ووقف عليهم أسير في الثالثة. ففعلوا مثل ذلك.

فلمّا أصبحوا، أخذ عليّ -رضي الله عنه- بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله (ص). فلمّا أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: ما أشدّ ما يسوؤني ما أرى بكم. وقام فانطلق معهم. فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها. فساءه ذلك. فنزل جبرئيل وقال: خذها يا محمّد! هنّأك الله في أهل بيتك. فأقرأه السورة.

وفي تفسير محيي الدين بن العربيّ ٧٤١/٢: ويطعمون في غاية احتياجهم إليه لسدّخلّة الجوع من مستحقّه ويؤثرون به غيرهم على أنفسهم؛ كما هوالمشهور من قصّة عليّ وأهل بيته -عليهم الصّلاة والسّلام- في شأن نزول الآية، من الإيتاء بالفطور على المستحقّين الثلاثة والصبر على الجوع والصّوم ثلاثة أيام.

وفي الدرّ المنثور ٢٩٩/٦: أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله تعالى: «ويطعمون الطّعام على حبّه» -الآية قال:

نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله (ص).

وفي نورالثقلين ٤٧١/٥: وفي المناقب لابن شهر آشوب: وروى أبوصالح ومجاهد والضحّاك والحسن وعطا وقتادة ومقاتل واللّيث وابن عبّاس وابن مسعود وابن جبير وعمرو بن شعيب والحسن بن مهران والنقّاش والقشيري والثعلبي والواحدي في تفسيرهم، وصاحب أسباب النزول والخطيب المكّي في الأربعين، وأبوبكر الشّيرازى في نزول القرآن في أميرالمؤمنين -عليه السّلام- والأشنهيّ فى اعتقاد أهل السنّة، وأبوبكر محمّدبن أحمدبن الفضل النحويّ في العروس في الزهد، وروى أهل البيت

ـ عليهم السّلام ـ عن الأصبغ بن نباتة وغيرهم عن الباقر ـ عليه السّلام ـ واللفظ له ـ عليه السّلام ـ في قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر»:

«أنّه مرض الحسن والحسين ـ عليهما السّلام. فعادهما رسول الله في أصحابه وقال لعليّ: يا أبا الحسن، لو نذرت في ابنيك نذراً عافاهما الله. فقال: أصوم ثلاثة أيّام. وكذلك قالت فاطمة والحسن والحسين وجاريتهم فضّة.

فبرئا فاصبحوا صياماً وليس عندهم طعام. فانطلق عليّ إلى جار له من اليهود يقال له: فنحاص بن الحارا ـ وفي رواية: شمعون بن حاريا ـ يستقرضه وكان يعالج الصّوف. فأعطاه جزّةً من صوف وثلاثة أصواع من الشعير وقال: تغزلها ابنة محمّد. فجاء بذلك. فغزلت فاطمة ثلث الصوف. ثمّ طحنت صاعاً من الشعير وعجنته وخبزت منه خمسة أقراص.

فلمّا جلسوا خمستهم، فأوّل لقمة كسرها عليّ ـ عليه السّلام ـ إذا مسكين على الباب يقول: السّلام عليكم يا أهل بيت محمّد! أنا مسكين من مساكين المسلمين. أطعموني ممّا تاكلون، أطعمكم الله على موائد الجنّة. فوضع اللّقمة من يده وقال:

فاطم ذات المجد واليقين ‌ ‌ ‌ ‌ يا بنت خير الناس أجمعين
أما تَرَيْنَ البائس المسكين ‌ ‌ ‌ ‌ قد قام بالباب له حنين
يشكو إلينا جائع حزين ‌ ‌ ‌ ‌ كل امرئ بكسبه رهين

فقالت فاطمة:

أمرك سمعاً يابن عمّ وطاعة ‌ ‌ ‌ ‌ ما فيّ من لؤم ولا وضاعة

...ودفعت إليه ما كان على الخوان وباتواجياعاً. وأصبحوا صياماً ولم يذوقوا إلّا الماء القراح. فلمّا أصبحوا، غزلت الثلث الثاني وطحنت صاعاً من الشّعير وعجنته وخبزت خمسة أقراص.

فلمّا جلسوا خمستهم وكسر عليّ لقمةً، إذا يتيم على الباب يقول: السّلام عليكم أهل بيت محمّد! أنا يتيم من يتامى المسلمين. أطعموني ممّا تأكلون، أطعمكم الله من موائد الجنّة. فوضع اللّقمة من يده وقال:

فاطم بنت سيّد الكريم بنت نبيّ ليس بالذّميم
قد جاءنا الله بذا اليتيم من يرحم اليوم فهو رحيم
موعده في جنّة النعيم حرّمها الله على اللّئيم

فقالت فاطمة:

إنى أعطيه ولا أبالي وأوثر الله على عيالي
أمسوا جياعاً وهم أشبالي

ثمّ دفعت ما كان على الخوان إليه. وباتوا جياعاً لا يذوقون إلّا الماء القراح. فلمّا أصبحوا، غزلت الثلث الباقي وطحنت الصّاع الباقي وعجنته وخبزت منه خمسه أقراص.

فلمّا جلسوا خمستهم، فأوّل لقمة كسرها عليّ -عليه السّلام- اذا أسير من أسراء المشركين على الباب يقول: السّلام عليكم أهل بيت محمّد! تأسروننا وتشدّوننا ولا تطعموننا؟! فوضع عليّ -عليه السّلام- اللّقمة من يده وقال:

فاطم يا بنت النبي أحمد بنت نبيّ سيّد مسدّد

....

فقالت فاطمة:

لم يبق ممّا كان غير صاع قد رميت كفّي مع الذّراع

..

وأعطته ما كان على الخوان وباتوا جياعاً وأصبحوا مفطرين وليس عندهم شيء. فرآهم النبيّ -صلّى الله عليه وآله- جياعاً. فنزل جبرئيل ومعه صحفة من الذهب مرصّعةً بالدّر والياقوت مملوّةً من الثريد وعراقاً تفوح منها رائحة المسك والكافور. فجلسوا وأكلوا حتى شبعوا ولم تنقص منها لقمة. وخرج الحسين ومعه قطعة عراق. فنادته امرأة يهوديّة: يا أهل بيت الجوع، من أين لكم هذا؟ أطعمنيها. فمدّ الحسين ليطعمها. فنزل جبرئيل وأخذها من يده ورفع الصّحفة إلى السماء.

فقال النبيّ -صلّى الله عليه وآله-: لولا ما أراد الحسين من إطعام الجارية تلك القطعة، لتركت تلك الصّحفة في أهل بيتي

يأكلون منها إلى يوم القيامة. ونزل: «يوفون بالنذر». وكان الصّدقه في ليلة خمس وعشرين من ذي الحجّة؛ ونزلت في اليوم الخامس والعشرين منه.

أقول: هذه الرواية الشّريفة عن الباقر ـ عليه السّلام ـ مع تصريح عدّة من أعلام اهل السنّة واعترافهم بمفادها، كافية في إثبات ما نحن بصدده من نزول سورة هل أتى في مورد آل الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ أونزول عدة آيات منها في شأنهم وفي مدحهم وإجلالهم وتكريمهم وأنّ سعيهم كان مشكوراً عندالله ـ سبحانه ـ ولهم عنده تعالى بفضله وكرامته جزاء المحسنين ومحلّ المقرّبين المكرّمين، على ما سيجيء تفسيره ـ إن شاء الله.

وهذه الآية الكريمة، وإن كانت نازلةً في حقّهم، إلاّ أنّها لا تمنع ولا تأبى عن شمولها لمن عمل من أوليائه تعالى قريباً ممّا عملوا وأخلصوا العبوديّةلله ـ عليهم السّلام.

وأمّا روايات الشيعة: منها ما في نورالثقلين ٥/ ٤٧٤:

في أمالي الصّدوق بإسناده إلى الصّادق جعفربن محمّد، عن أبيه ـ عليها السّلام ـ في قوله ـ عزّ وجلّ ـ: «يوفون بالنذر» قال:

مرض الحسن والحسين ـ عليها السّلام ـ وهما صبيّان صغيران. فعادهما رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ومعه رجلان، فقال: يا أبا الحسن، لو نذرت في ابنيك نذراً أنّ الله عافاهما. فقال: أصوم ثلاثة أيّام شكراًلله عزّ وجلّ. وكذلك قالت فاطمة ـ عليها السّلام. وقال الصبيّان: ونحن أيضاً نصوم ثلاثة أيّام. وكذلك قالت جاريتهم فضّة.

فألبسها الله عافيةً فأصبحوا صياماً وليس عندهم طعام.

وساق الحديث قريباً ممّا أوردناه عن المناقب، على تفصيلها من الأشعار وغيرها، إلى أن قال: وعمدوا إلى ما كان على الخوان فأعطوه وباتوا جياعاً وأصبحوا مفطرين وليس عندهم شيء.

قال شعيب في حديثه:

وأقبل عليّ بالحسن والحسين ـ عليها السّلام ـ نحو رسول الله

ـ صلّى الله عليه وآله ـ وهما يرتعشان كالفراخ، من شدّة الجوع. فلمّا بصر منهم النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال: يا أباالحسن، شدّ ما يسوؤني ما أرى بكم. انطلق إلى ابنتي فاطمة. فانطلقوا وهي في محرابها قد لصق بطنها بظهرها من شدّة الجوع وغارت عيناها. فلمّا رآها رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ضمّها إليه وقال: واغوثا بالله! أنتم منذ ثلاث فيما أرى؟!

فهبط جبرئيل ـ عليه السّلام ـ فقال: يا محمّد، خذ ما هيّأ الله لك في أهل بيتك. قال: ما آخذ يا جبرئيل؟ قال: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر» حتّى بلغ: «إنّ هذا كان لكم جزاءاً وكان سعيكم مشكوراً».

وقال الحسن بن مهران في حديثه: فوثب النبيّ حتّى دخل منزل فاطمة ـ عليها السّلام ـ فرأى مابهم. فجمعهم ثم انكبّ عليهم يبكي ويقول: أنتم منذ ثلاث فيما أرى وأنا غافل عنكم؟! فهبط جبرئيل ـ عليه السّلام ـ بهذه الآيات: «إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عيناً يشرب بها عبادالله يفجّرونها تفجيراً». قال: هي عين في دارالنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ تفجر إلى دورالأنبياء والمؤمنين. «يوفون بالنذر» يعني عليّاً وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم السّلام ـ وجاريتهم. «ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً». يقول: عابساً كلوحاً.

أقول: قد تحصّل في المقام أنّ الصّدقة قد وقعت في كلّ ليلة من اللّيالي الثلاث وأنّ الحسن والحسين نذر الصوم وصاما. وكان نذرهما، على ما في الرواية، في حضور الرسول. وكان نذرهما وصومهما بإمضاء ورضاء من أميرالمومنين وفاطمة ـ عليهم السّلام. وظاهر إطلاق الرواية أنّ صومهما كان شرعيّاً لا تمرينيّاً.

وفي المجمع ٤٠٤/١٠، عن الواحديّ في تفسيره ما ملخّصه: إنّ عليّاً ـ عليه السلام ـ آجر نفسه ليلةً بالسقي وقبض شعيراً. فجعلوه حريرةً. فلمّا تمّ إنضاجه، أتاهم مسكين فأطعموها إيّاه. ثمّ جاءهم يتيم فأطعموه الثلث الباقي. ثمّ جاءهم أسير فأطعموه الثلث الباقي.

أقول: وهذه مرسلة تاريخيّة ليس فيها ذكر من النذر والصّوم والوفاء بالنذر. فلا وجه لجعلها تفسيراً للآية الكريمة بمجرّد انطباقها من جهة. وعلى فرض كونها تفسيراً للآية، فلا يصحّ أن تتعارض الروايتين، لعدم حجّيّتها في حدّ نفسها وعدم التكافؤ بينها وبين الروايتين.

في البرهان ٤/٤١١، عن عليّ بن إبراهيم قال: حدّثني أبي، عن عبدالله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبدالله -عليه السّلام- قال:

«كان عند فاطمة شعير. فجعلوها عصيدةً. فلمّا أنضجوها ووضعوها بين أيديهم، جاء مسكين فقال المسكين: رحمكم الله! أطعموني ممّا رزقكم الله. فقام عليّ -عليه السّلام- وأعطاه ثلثها. فلم يلبث أن جاء يتيم. فقال اليتيم: رحمكم الله! أطعمونا ممّا رزقكم الله. فقام عليّ وأعطاه الثلث الثاني. ثم جاء أسير فقال: رحمكم الله! أطعمونا ممّا رزقكم الله. فقام عليّ وأعطاه الثلث الباقي وما ذاقوها.

فأنزل الله هذه الآية: «ويطعمون الطّعام على حبّه مسكينا ويتيماً وأسيراً -إلى قوله:- وكان سعيكم مشكوراً» في أميرالمؤمنين -عليه السّلام. وهي جارية في كلّ مؤمن فعل ذلك في الله -عزّوجلّ- بنشاط فيه.

أقول: الرواية الشّريفة صريحة في أنّ الصّدقة بالعصيدة، وقعت في ليلة واحدة. وهي تعارض روايتي المناقب والأمالي الصّريحتين في أنّ الصّدقة بالأقراص الخمسة وقعت في كلّ واحدة من اللّيالى الثلاث. ولا مرجّح في البين إلاّ أن يقال: إنّ روايتي المناقب والأمالى أشهر روايةً بين أصحاب الحديث. والشهرة في الرواية من المرجّحات المنصوصة في باب التعارض. والله العالم بأحوال أوليائه.

ثمّ لا يخفى أنّ روايات الباب -على اختلاف مضامينها- متواترة أوقريبة من التواتر، في إثبات أصل القصّة؛ وهي نزول هل أتى أو عدّة آيات منها في شأن آل الرسول وأهل بيته الطّاهرين وترفيع شأنهم وتكريم مقامهم. سواء كانت الصدقة في ليلة واحدة، أو في كلّ واحدة من اللّيالي الثلاث. وسواء كانت الصّدقة بالحريرة، أو بالعصيدة، أو بالأقراص. وسواء كان الشعير

باستقراض عليّ -عليه السّلام- من شمعون الخيبريّ اليهوديّ، أو بإجارة نفسه بالسّقي في ليلة واحدة، أو كانت موجودةً عند فاطمة -عليها السّلام- أو أخذ الشّعير من اليهوديّ لتغزل له فاطمة هذه الصّوف.

فهذه الروايات دليل قاطع على أن السّورة المباركة مدنيّة وشاهدة صدق على أنّها، أوعدّة آيات منها، نزلت في شأن أهل بيت العصمة والطّهارة. ومن العجيب أنّ بعضاً من المفسّرين أظهر الترديد في ثبوت القصّة؛ ولم يشعر المسكين أنّ ذلك إعلان عامّ بجهالته أوتجاهله، تعصّباً وعناداً.

فلا احتياج إلى عطف ، البحث على تأريخ نزول سور القرآن وأنّ سورة هل أتى نزلت بمكّة أو بالمدينة، وإن كان التحقيق في ذلك أيضاً أنّها مدنيّة.

وفي تفسير مجمع البيان ١٠/٤٠٥ -كما ورد في رسالة شيخنا الاستاذ قدّس سرّه-:

«حدّثنا السيّد أبوالحمد مهديّ بن نزار الحسينيّ القاينيّ قال: أخبرنا الحاكم أبوالقاسم عبيدالله بن عبدالله الحسكانيّ قال: حدّثنا أبوالنّصر المفسّر قال: حدّثنا عمّي أبوحامد إملاءاً قال: حدثني الفزاريّ أبويوسف يعقوب بن محمّد المقريّ قال: حدّثنا محمّد بن يزيد السلميّ قال: حدّثنا زيد بن موسى قال: حدّثنا عمرو بن هارون، عن عثمان بن عطا، عن أبيه، عن ابن عبّاس قال:

أوّل ما أنزل بمكّة اقرأ باسم ربّك .... فهذه ما أنزلت بمكّة، وهي خمس وثمانون سورةً. ثمّ أنزلت بالمدينة البقرة، ثمّ الأنفال، ثمّ آل عمران، ثمّ الأحزاب، ثمّ الممتحنة، ثمّ النساء، ثمّ إذا زلزلت، ثمّ الحديد، ثمّ سورة محمّد، ثمّ الرّعد، ثمّ سورة الرّحمن، ثمّ هل أتى....

وقد رواه الأستاذ أحمد الزاهد بإسناده عن عثمان بن عطاء، عن أبيه عن ابن عبّاس في كتاب الإيضاح..، وبإسناده عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن البصريّ:

أنّ أوّل ما أنزل الله من القرآن بمكّة على الترتيب اقرء باسم ربّك

ونون والمزّمّل - إلى قوله: - وما نزل بالمدينة: ويل للمطفّفين والبقرة والأنفال وآل عمران والأحزاب والمائدة والممتحنة والنساء واذا زلزلت والحديد وسورة محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - والرعد والرحمن وهل أتى على الإنسان - إلى آخره.

وبإسناده عن سعيد بن المسيّب عن عليّ بن أبي طالب - عليه السّلام - أنّه قال:

سألت النبيّ عن ثواب القرآن. فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السّماء. فأوّل ما نزل عليه بمكّة فاتحة الكتاب، ثمّ اقرأ باسم ربّك، ثمّ ن - الى أن قال: - وأوّل ما نزل بالمدينة سورة البقرة، ثمّ الأنفال، ثمّ آل عمران، ثمّ الأحزاب، ثمّ الممتحنة، ثمّ النساء، ثمّ إذا زلزلت، ثمّ الحديد، ثمّ سورة محمّد، ثمّ الرعد، ثمّ سورة الرحمٰن، ثمّ هل أتى - إلى قوله: - فهذا ما أنزل بالمدينة.

فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

بيان:

الآيات الكريمة مسوقة لبيان كرامته تعالى على أوليائه الأبرار وتشريفهم وتجليلهم بالعزّة والمنعة، وما وهبهم الله من هذه الجنّة العريضة الواسعة، وما أعدّالله فيها من النعمُ المختلفة، مع السّرور الدائم والعافية الباقية والحياة الخالدة، وبما وهبهم الله تعالى من بسط السّلطة وافتراض الطّاعة ونفوذ الأمر على جميع من خلقه الله في هذه الجنان لأوليائه من الخدّام والحشم ومدبّري أمور الجنّة وشؤونها.

قوله تعالى: «فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً(١١)».

الوقاية: المحافظة والمنع. وتستعمل أيضاً في مورد المنع بالحائل والحاجز حسّيّاً كان أو معنويّاً.

والمراد بالشرّ شدائد يوم القيامة وأهوالها ومصائبها. والشرّ يقابل الخير؛ كما أنّ القبيح يقابل الحسن. والشرّ قد يكون حسناً واجباً على الله ـ سبحانه ـ مثل إعمال العدل والانتقام من الظّالمين والعصاة والجناة. ومن زعم أنّ الشّرّ والقبيح متّحدان مصداقاً، فقد أخطأ خطأً بيّناً. وكذلك قول من يقول: إنّ الشّرور أعدام. والحقّ أنّ الشرّ بحسب التكليف الشرعيّ يتّصف بالاستحباب والكراهة والتحريم والإباحة والوجوب.

وقوله تعالى: «ولقّاهم» ـ بالتشديد ـ من لقي يلقى بمعنى الملاقاة. والمراد في المقام أنّ الله ـ سبحانه ـ يواجههم ويستقبلهم بما يؤتيهم من النضارة في الوجه والمسرّة في القلب. والنضرة بمعنى الطراوة في الوجه وما فيه من أثر النعمة والرفاه والعافية.

وقد مدح الله ـ سبحانه ـ هؤلاء الكرام في قوله: «يوفون بالنذرِ ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً. وأخبر ـ سبحانه ـ أيضاً أنّهم إنّما يطعمون الطّعام لأجل مرضاة الله وقالوا: «إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً». ثمّ أكرمهم بتبشيره إيّاهم بأنّه وقاهم من شرّ هذا اليوم وأعطاهم ما يرجون من ثوابه. وبعبارة

أخرى: وقاهم ما يخافون وأعطاهم ما يأملون.

والظّاهر أنّ التعبير بصيغة الماضي بعناية أنّ وعده تعالى في أمثال المقام واقع البتّة. فإنّه سبحانه صادق الوعد ووافي القول لا يخلف الميعاد. ونظير هذا غير عزيز في كلامه تعالى. فإنّه تعالى قد أخبر بما سيكون بلفظ ما كان، اهتماماً بتحقّقه ووقوعه.

قوله تعالى: « وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا».

تقدير و تشكّر لحسن صنيعهم وعلى صبرهم صبر الكرام الأحرار؛ أي: صبرهم على الطّاعات وزجر أنفسهم عن المعاصي والشهوات، وخاصّةً صبرهم على مرارة الجوع وبذل ما كان في وسعهم وإيثار الغير على أنفسهم الكريمة مع شدّة الحاجة إليه. وهذه سنّة الكرام ودأب الأحرار. وهذه الّتي من عاداتهم إحدى المعالي؛ وقس عليها ما سواها.

والباء في قوله تعالى: «بما صبروا» للمقابلة. ولا دلالة فيه على المقابلة بالحقيقة. بل الله ـ سبحانه ـ هو المتفضّل بالجزاء عند الطّاعة والتقوى والمتفضّل بالجزاء والزيادة أيضاً؛ يضاعف لمن يشاء بما يشاء كيف يشاء.

قوله تعالى: « جَنَّةً وَحَرِيراً(١٢)».

الجنّة في اللغة بمعنى البستان. والمراد في أمثال المقام، هي القصور والبيوت المجلّلة المزيّنة بأنواع من التجليل والتزيين. ولعلّ وجه التسمية بالجنّة، لما فيها من أنواع الأشجار المحتفّة بها والأنهار الجارية فيها. قال تعالى:

> **«مثل الجنّة الّتي وُعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمر لذّة للشّاربين وأنهار من عسل مصفّى ولهم فيها من كلّ الثمرات».** (سورة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله/١٥)

وفي هذه الآيات، على كثرتها وتنصيص دلالتها، شهادة قاطعة على بطلان ما ذكره بعض الأعاظم من الصّوفيّة من أنّ الجزاء عين الأعمال بعد تجرّدها عن المادّة في عالم المثال دون الكمّ.

توضيح ذلك: إنّه قد تقرّر في محلّه بحسب قطعيّات الكتاب ومحكماته

والسنن المتواترة المأثورة عن الأئمّة -عليهم السّلام- أنّ الجزاء فعل من الله خارج عن ذات الإنسان. والله تعالى يجزي على الأعمال بالمثوبات والكرامات للمحسنين والمتّقين وكذلك بالهوان والعذاب على الكافرين والعاصين. والجزاء بتجسّم عمل العاملين، إنّما يمكن أن يقال به في بعض الأعمال في مواقف من مواقف الآخرة في مرتبة الأجسام الأخرويّة -فإنّ الأجسام الأخرويّة كلّها أجسام لطيفة- لا أنّ الجزاء كلّه بتجسّم الأعمال كلّها. فإنّ القول بذلك إنكار للجزاء بالآخرة الموجودة وبالجنّة الموجودة الموعودة عرضها عرض السّموات والأرض أعدّت للمتّقين. وكذلك إنكار للجزاء بالنّار الموجودة الّتي توعّد بها الكافرون والمجرمون.

وأوهن منه ما في كلام بعض الأعلام من أنّ الجزاء كلّه بتجسّم الأعمال كلّها مجرّداً عن المادّة دون الكمّ في مرتبة عالم المثال. فلا مجال لأحد في الخدشة في هذه الضّروريّات الدينيّة.

قوله تعالى: «حريراً» عطف على قوله: «جنّة».

وفي عطف حرير على الجنّة وجعله قريناً، مع أنّه شأن من شؤون الجنّة اهتمام خاصّ بشأن الحرير وملابس أهل الجنّة وتزييناتهم.

وفي المجمع ١٠/ ٤٢٠: «وحريراً» من لباس الجنّة يلبسونه ويفرشونه.

أقول: لا يبعد أن يقال: إنّ إطلاق مجازاتهم بالحرير، يشمل جميع مايحتاج إليهم أهل الجنّة من الملابس والبسط والفراش والوسائل وغير ذلك.

قوله تعالى: «مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ»؛ أي: في الجنّة.

وقوله تعالى: «متّكئين» نعت وتوصيف للمفعول. وقول بعضهم انّه منصوب على الحال، غيرمستقيم. فإنّه لاتقارن بينه وبين العامل في ذي الحال، لازماناً ولا رتبةً.

و«الأرائك» جمع أريكة وهي كلّ ما يتّكأ عليه. وقيل: إنّه السّريرة في الحجال. ولا يكون سريراً إلاّ أن يكون في حجلة.

قال في القاموس ٣/ ٢٩٢: الأريكة -كسفينة-: سرير في حجلة، أو كلّ ما يتّكأ عليه من سرير ومنصّة وفراش أو سرير منجّدمزيّن في قبّة أو بيت.

فإذا لم يكن فيه سرير، فهو حجلة. ج: أريك وأرائك.

أقول: الظّاهر بقرينة قوله: «متّكئين» أنّ معناه ما يتّكأ عليه من فراش وغيره.

قوله تعالى: «لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً(١٣)».

يعني: لا يرون في الجنّة ولا يتأذّون فيها من حرارة الشّمس ولا من برد شديد. توصيف لهواء الجنّة وصفائها وملاءمتها لأبدان أهلها. والظّاهر بقرينة الآيات الأخرى أنّ عدم رؤية الشّمس من جهة عدم وجود الشمس في الجنّة لا أنّ هناك شمساً وهم لا يرونها وإنّهم مستورون عنها لسقف أو ظلّ. لأنّ قيام الساعة وإقبال الآخرة وتجلّي الجنّة لأهلها، إنّما هو بعد انهدام هذا النّظام الشمسيّ وانحلاله واندكاكه على ما يحكيه تعالى في قوله:

«إذا السّماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت». (الانفطار/ ١ و ٢)

«السّماء منفطر به». (المزّمّل/ ١٨)

وآيات أخرى كثيرة. وسيجيء بسط الكلام فيها في تفسير قوله تعالى: «إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً». (الفجر/ ٢١)

قوله تعالى: «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً(١٤)».

بيان: «دانية» على قراءة النصب عطف على معنى قوله «لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً». والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ودانية عليهم ظلالها. وعلى قراءة الرفع خبر مقدّم. و«ظلالها» مبتدأ مؤخّر. والجملة في موضع الحال. والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً؛ والحال أنّ ظلالها دانية عليهم.

أقول: قوله: «دانية» مأخوذ من الدنوّ بمعنى القرب. والظّلال جمع الظلّ. وسيجيء -إن شاء الله- بسط القول في تحقيق معنى الظلّ وحقيقته في تفسير قوله تعالى: «انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب». (المرسلات/ ٣٠)

والمراد منه في هذا المقام: ما يستر عرصة الجنان ويحيط به من أقسام أغصان الأشجار وأوراقها وقطوفها.

وقوله تعالى: «ذلّلت قطوفها»؛ أي: أطاعت وخضعت لأهل الجنّة.

والقطوف: الثمار الّتي قطعت وجنيت من الشّجر، ثمّ سمّيت قطوفاً باعتبار ما يستقبلها أو بلغت أوان اقتطافها.

والّذي يلوح من هذه الآية الكريمة هو أنّ هذا الدنوّ والاقتراب، ليس أمراً عادياً طبيعيّاً، بل أمر حادث بإرادة أهل الجنّة وقد كانت الظّلال والثّمار مسخّرةً لهم. ويؤيّد ذلك ذيل الآية الكريمة: «وذلّلت قطوفها» لأنّها ذلّلت وسخّرت بأمرالله وإذنه لهم.

في البرهان ٤/٤١٥، عن الكلينيّ مسنداً، عن أبي جعفر -عليه السّلام- قال:

.... والثمار دانية منهم وهو قوله -عزّ وجلّ-: «ودانية عليهم...» من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الّذي يشتهيه من الثّمار منه وهو متّكئ.

قوله تعالى: «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا(١٥)».

الآنية مثل الأوعيه. ولا يبعد أن يكون المراد بالآنية ما هو أعمّ من إناء الشّراب وغيره. وهذه الآنية مصوغة ومصنوعة من فضّة الجنّة، لا فضّة الدنيا. وواضح أنّ فضّة الجنّة أصفى لوناً وأشدّ بهاءاً من فضّة الدنيا.

قال في المجمع ١٠/٤١٠: قال الصّادق -عليه السّلام-:

«ينفذ البصر في فضّة الجنّة، كما ينفذ في الزجاج».

أقول: فعلى هذا لايقاس صفاء فضّة الجنّة وآنيتها من تلك الفضّة، بفضّة الدنيا والآنية المصوغة منها ومن غيرها. فإنّ فضّة الجنّة أصفى لوناً وأبهى منظراً.

قوله تعالى: «وأكواب كانت قواريرا»؛ أي: يطاف عليهم بأكواب كانت قوارير؛ أي: زجاجات.

قوله تعالى: «قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ».

هذا بيان للقوارير المذكورة آنفاً. أي: إنّ هذه الأكواب كانت قوارير لا أيّ قارورة، بل قارورة مصوغة من فضّة الجنّة. وهذه الأكواب المصوغة من الزجاج

المصوغة من فضّة الجنّة أشدّ صفاءاً وبهاءاً من الأكواب المصوغة من الزجاجة في الدّنيا. ضرورة أنّ الزجاجة المتعارفة مصنوعة من الرّمال والأحجار، بخلاف هذه الأكواب؛ فإنّها مصنوعة من لباب فضّة الجنّة وخلاصتها.

قال في القاموس ١/١٢٦: الكوب -بالضم-: كوز لا عروة له أو لا خرطوم له. ج: أكواب.

وقيل: إنّ المراد في قوله: «قوارير من فضّة» هو التشبيه. أي: قوارير مثل الفضّة في الصّفاء، أو بتقدير مضاف. أي: قوارير في صفاء فضّة؛ أي: مثل صفاء فضّة. (انظر: مجمع البيان ١٠/ ٤١٠ و٤١١)

أقول: لا يخفى وهن هذا التأويل؛ لعدم دليل عليه وعدم مساعدة ظاهر الآية على ذلك. فلا يجوز ارتكاب ذلك في تفسير الآية.

قوله تعالى: «قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً(١٦)».

الكلام فيه يقع في وجهين: الوجه الأوّل في معنى التقدير فيها. فقيل: إنّ المراد من تقدير تلك الآنية والأكواب، تقدير ما فيها من الشّراب. (انظر: تفسير الرازيّ ٣٠/ ٢٥٠)

الوجه الثاني: إنّ الفاعل والمقدّر من هو؟ فقيل: إنّ الفاعل لهذا التقدير هم الخدّام؛ بقرينة قوله تعالى: «يطاف عليهم». فإنّ هؤلاء الطّائفين يعملون ويقدّرون مايحتاج إليه كلّ واحد من أهل الجنّة وما يشتهي في مرّة واحدة. وقيل أيضاً: إنّ المقدّرين هم الشّاربون بإرادتهم. فعند إرادتهم ما يكفيهم من الشراب، جاؤوا به إليهم. (انظر: تفسير الرازيّ ٣٠/ ٢٥٠)

أقول: لا يخفى أنّ الكلام مسوق لتوصيف الآنية والأكواب وتزيينها. والضّمير في قوله: «قدّروها» راجع إليها بصراحة الآية. ولا دليل على صرف الآية عن ظاهرها وإرجاع الضمير إلى ما في الآنية. فعلى هذا يسقط الكلام في الوجه الأوّل والثاني.

فالأظهر أن يقال: إنّ المقام مقام توصيف الآنية من حيث الصّفاء والتزيين. فلا وجه لصرف الآية الكريمة عن ظاهرها وتأويلها إلى ما في الآنية من الشراب من غير دليل. وأمّا الكلام من حيث المقدّر والفاعل، فنقول:

لا كلام في أنّ الله ـ سبحانه ـ خالق الجنّة ومقدّرها، وخالق ما في الجنّة من الأعيان ومقدّرها؛ إلاّ أنّه تعالى قد جرت سنّته الحسنة في القرآن الكريم أن ينسب أفعاله تارةً إلى نفسه المقدّسة وتارةً إلى الوسائط في الخلقة من الموكّلين والمأمورين بذلك. قال تعالى:

«الله يتوفّى الأنفس حين موتها والّتي لم تمت في منامها». (الزّمر/ ٤٢)

«قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم». (السجدة/ ١١)

فلا يبعد أن يقال: إنّ قوله تعالى: «قدّروها»؛ أي: إنّ المأمورين والموكّلين قدّروها تقديراً.

قوله تعالى: «وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلاً (١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨)».

أقول: الآيتان مسوقتان لتوصيف شراب الأبرار. وظاهر أنّ قوله: «كأساً» أريد به ما في الكأس من الشّراب. ويمكن أن يكون «كأساً» منصوباً بنزع الخافض؛ أي: من كأس.

والمزاج بمعنى الممزوج؛ مثل الكتاب بمعنى المكتوب. أي: كان ممزوجها ـ أي: خليطها ـ زنجبيلاً، أي بحسب الطّعم الطّبيعى والطّبع الأوّلي في نفسها.

قال عدّة من المفسّرين: إنّ العرب يحبّون الزنجبيل ويستطيبونه في الشّراب. فوعدالله الأبرار من هذا الشّراب في الجنّة. (تفسيرالرازيّ ٣٠/ ٢٥٠؛ المجمع ١٠/ ٤١١)

أقول: قد ذكرنا أنّ هذا البيان بيان وتوصيف لشراب الأبرار بحسب الطّعم المطبوع والعطر المرغوب فيه. وهذا نوع خاصّ من الشّراب وعده الله أولياءه في الجنّة. والتعليل الّذي ذكروه عليل ضعيف. وفيه إيهام أنّ العرب يفهمون هذه الآية ويميلون إلى هذا الشّراب دون غيرهم.

قوله تعالى: «عيناً فيها»؛ أي: في الجنّة. و«عيناً» منصوب بنزع الخافض.

قوله تعالى: «سلسبيلاً». ذكر بعض المفسّرين في اشتقاق لفظ السّلسبيل

وفي وجه تسمية هذه العين به أشياء لا دليل لها ولا جدوى في ذكرها. والآية الكريمة ناصّة على أنّها عين في الجنّة. ولا دلالة فيها على أزيد من ذلك.

في نورالثقلين ٥/ ٤٨١، عن الخصال عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال: سمعت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يقول:

«أعطاني الله خمساً؛ وأعطى عليّاً خمساً. أعطاني الكوثر؛ وأعطاه السّلسبيل.»

قوله تعالى: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً(١٩)».

الولدان: جمع الولد. «مخلّدون»؛ أي: دائمون باقون أو بمعنى مقرّطون أو مسوّرون. قال في القاموس ١/ ٢٩١: الخلد ـ بالضمّ ـ: البقاء والدوام.... والسُّوار والقُرط.... و«ولدان مخلّدون»: مقرّطون، أو مسوّرون، أو لا يهرمون أبداً ولا يجاوزون حدّ الوصافة.

قوله تعالى: «لؤلؤاً منثوراً». قال في القاموس ١/ ٢٧: اللّؤلؤ: الدرّ.

أقول: لعلّ وجه التشبيه أنّ هؤلاء الوصفاء منتشرون في أهل الجنّة يخدمونهم ويعيشون معهم ويلمع ضوء وجوههم الحسنى بين النّاس كالدّرّ المنثور يتلألأ بين الجواهر الأخرى.

قوله تعالى: «وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً».

قيل: المراد بالرؤية النظر ورمي البصر لا الرؤية التامّة الكاملة، لاحتياجه إلى ذكر المفعول أو تقديره. وقيل: إنّ المراد هي الرؤية والمشاهدة، ومفعوله محذوف. وتقديره: إذا رأيت ما ثمّ، رأيت نعيماً....

والظّاهر هو الثاني. ضرورة أنّ الغرض في المقام، هو التذكّر بنعيم الجنّة وتنزيل ما كان غائباً تحت حجب الغيوب بمنزلة المحسوس، وسوق الناس إلى الإشراف والاستطلاع التامّ على ما ثمّة من النعيم الدائم والملك الكبير؛ وبعبارة أخرى: النعم الحسّيّة والمعنويّة العلميّة العقليّة من السّلطة والتّشرف بلقاء الربّ تعالى؛ أي: العرفان الكامل البالغ. ولا يمكن ذلك إلا بالرؤية

الحقيقيّة والمشاهدة التامّة عن قريب. ولا يكفي في ذلك النظر ورمي البصر.

وقوله تعالى: «ثَمّ» ظرف مكان أريد به الجنان؛ دارالكرامة ومقرّ النعمة.

قوله تعالى: «نعيماً».

أقول: لا سبيل لنا إلى معرفة هذا النعيم ومشاهدة غيره من الحقائق الأخرويّة، إلاّ ما بيّنه الله تعالى في كتابه الكريم. وقد بيّن الله ـ سبحانه ـ لعباده وفتح لهم أبواب المعارف إلى حقيقة الجنّة ونعمائها، بمحكمات كتابه وبيّنات آياته؛ وفيه نور للمستبصرين وهداية للمهتدين. ولا يرتاب فقيه أنّ هذا أصل أصيل من معارف القرآن ودعوته الحقّة. وقد وردت عن الأئمّة من آل الرسول آثار كثيرة فوق التواتر.

فهذه المحكمات من الكتاب في مئات من الآيات، والسّنن المتواترة القطعيّة، كافية وقاطعة أنّ نعم الآخرة وعقابها حقائق ماديّة حسّيّة لطيفة. ولا يجوز الإصغاء إلى الّذين زعموا أنّ الحقائق الأخرويّة حقائق مجرّدة عن المادّة دون الكمّ ينشئها كلّ نفس في الصّقع المناسبة لها.

قوله تعالى: «مُلْكاً كَبِيراً(٢٠)».

قيل: إنّ الفرق بين المُلك ـ بضمّ الميم ـ وبين المِلك ـ بكسرها ـ: انّ الأوّل يستعمل في مالكيّة نظم العامّ والأمر والنهي والقبض والبسط؛ والثاني في مالكيّة الأعيان.

وقالوا: إن الملِك ـ بكسر اللاّم ـ مأخوذ من المُلك ـ بضمّ الميم. والمالك مأخوذ من المِلك ـ بكسر الميم. ويرد عليه أنّ هذا الّذي ذكروه لا يعقل أن يستند إلى الهيئة ولا إلى المادّة. وأمّا من حيث الاستعمال، فقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: «مالك يوم الدّين» في سورة الفاتحة موارد لنقض ما ذكروه من الضّابطة الكلّيّة في آيات الكتاب الكريم.

قال في القاموس ٣/ ٣٢٠: ملكه يملكه ملكاً ـ مثلّثة ـ ومَلَكة ـ محرّكة ـ ومملكة ـ بضمّ اللاّم أو يثلّث ـ: احتواه قادراً على الاستبداد به. وماله ملك

-مثلّثاً ويحرّك وبضمّتين-: شيء يملكه.... ولي في الوادي ملك -مثلّثاً ويحرّك- أي: مرعىً ومشرب ومال، أو هي البئر يحفرها وينفرد بها.

أقول: لا مانع من القول بإطلاق المالكيّة في الآية الكريمة؛ فيشمل مالكيّة الأعيان والأشياء، والمالكيّةَ في النظم والأمر والنهي والرّتق والفتق، والمالكيّةَ بالتسخير؛ أي: المالكيّة والولاية التكوينيّة، ومالكيّة الطّاعة؛ أي: افتراض الطّاعة على جميع من كان في الجنّة. كلّ ذلك بتمليكه تعالى. وهذا هو الملك الكبير. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذوالفضل العظيم.

ويجوز حمل الملك الكبير على كلّ واحد من هذه الموارد الّتي ذكرناها من لفظ الملك والمالك؛ إلاّ أنّ ذلك يحتاج إلى دليل يقيّده، وإلى دليل يعيّنه.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات فيها لفظ الملك. منها قوله تعالى:

«ام يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما». (النساء/٥٤)

وفي الروايات تفسيرها بافتراض الطّاعة. أمّا الآية المبحوثة ، فقد ذكرنا أنّه لا مانع من القول بإطلاق المتعلّق فيها.

في معاني الأخبار/٢١٠: أبي -رحمه الله- قال: حدّثنا سعد بن عبدالله، عن الحسن بن موسى الخشّاب، عن يزيد بن إسحاق، عن عبّاس بن يزيد قال:

«قلت لأبي عبدالله -عليه السّلام- وكنت جالساً عنده ذات يوم: أخبرني عن قول الله -عزّ وجلّ-: «وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكا كبيراً» ما هذا الملك الّذي كبّره الله -عزّ وجلّ- حتّى سمّاه كبيراً؟ فقال لي: إذا أدخل الله أهل الجنّة الجنّة، أرسل رسولاً إلى وليّ من أوليائه، فيجد الحجبة على بابه فيقول له: قف حتى نستأذن لك. فما يصل إليه رسول ربّه إلاّ بإذن. فهو قوله -عزّ وجلّ-: «وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً».

أقول: الظّاهر من الرواية الشّريفة أنّ المراد العزّة والرفعة الّتي أكرم الله المؤمنين بها. وهل هو من باب بيان المراد، أو من باب بيان المصداق؟ الظّاهر هو الثاني. ويشهد على ذلك ما ذكره في المجمع ٤١١/١٠ قال: «وملكاً كبيراً» لا يزول ولا يفنى. عن الصادق -عليه السّلام.

أقول: وفي تفسير الآية الكريمة عدّة من الأقوال. من أرادها، فليراجعها. والصحيح منها ما كان داخلاً في إطلاق الملك عليه، بحسب موارده ومتعلّقه.

قوله تعالى: «عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ».

توصيف وبيان لشيء من تجمّلات أهل الجنّة الأبرار المتّقين من ألبستهم وحللهم.

قوله تعالى: «عاليهم» اسم فاعل من علا يعلو. والظّاهر أنّ المراد من «عاليهم ثياب» أنّهم يلبسون ثياباً على أبدانهم والثياب تحيط بأبدانهم وتعلوهم. وفي المجمع ۱۰/٤۱۱: روي عن الصّادق ـ عليه السّلام ـ أنّه قال في معناه: تعلوهم الثياب يلبسونها.

وعلى قراءة: «عاليهم» ـ بفتح الياء ـ بناءاً على أنّه حال من الأبرار المذكورين في الآيات السّابقة؛ معناه: يسقون من الكأس ويطوف عليهم، وهم لا بسون ثياباً من سندس خضر.

وعلى قراءة السّكون، بناءاً على كونه مبتدأ و«ثياب» خبره ـ والجملة الاسميّة عطف على الجمل الفعليّة المذكورة في الآيات السّابقة ـ معناه: يطوف عليهم وعاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق. قال في مرآة الأنوار/ ۱۰۰: الاستبرق هو الديباج الغليظ. والسّندس دقيقه. والديباج: الثياب المتّخذة من الأبريسم. فارسيّ معرّب.

قوله تعالى: «وَحُلُّوا أسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ».

«حلّوا» فعل ماض مجهول من حلّى يحلّي تحلية بمعنى التزيين. أي: تزيّنوا وتحلّوا. والظّاهر أنّ «أساور» منصوب بنزع الخافض. أي: تزيّنوا بأساور من فضّة.

قوله تعالى: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً(۲۱)».

السّاقي للأبرار، هو الخدّام. وأسند الفعل إلى نفسه القدّوس، مع التصريح بالاسم الكريم الربّ وإضافته إليهم بقوله: «ربّهم» تجليلاً وتشريفاً إيّاهم. وهذا غاية آمال العارفين وقرّة عين المتّقين.

وقوله تعالى: «طهوراً» صفة مشبّهة؛ مثل ذلول. فعليه لابدّ أن يكون الموصوف بالطّهارة طاهراً في حدّ نفسه. وكذلك لو قلنا: إنّ الطهور للمبالغة؛ مثل أكول، ومعنى المبالغة شدّة الطّهارة والنّظافة.

هذا كلّه بحسب القياس. أمّا بحسب الاستعمال والاستقراء، فالطّهور: ما كان طاهراً في نفسه مطهّراً لغيره. أو إنّه اسم لما يتطهّر به؛ مثل السّحور لما يتسحّر به، والوقود لما يتوقّد به. قال في القاموس ٢/ ٧٩: الطّهور اسم ما يتطهّر به، أو الطّاهر المطهّر. وفي لسان العرب ٩/ ٩٩: قال ابن الأثير: الطّهور -بالفتح-: الماء الّذي يتطهّر به كالوَضوء... والسَّحور.

في نورالثقلين ٥/٤٨٥: في روضة الكافي عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن محمّد بن إسحاق المدنيّ، عن أبي جعفر -عليه السّلام- قال:

إنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- سئل عن قول الله -عزّ وجلّ-: «يوم نحشر المتّقين إلى الرحمن وفداً».
فقال: يا عليّ، إنّ الوفد لا يكون إلاّ ركباناً. أولئك رجال اتّقوا الله فأحبّهم الله -عزّ ذكره- واختصّهم ورضي أعمالهم. فسمّاهم الله متّقين.
ثمّ قال له: يا عليّ، أما والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، إنّهم ليخرجون من قبورهم وإنّ الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق العزّ... حتّى ينتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم. وعلى باب الجنّة شجرة إنّ الورقة منها ليستظلّ تحتها ألف رجل من النّاس. وعن يمين الشّجرة عين مطهّرة مذكيّة.
فقال: ويسقون منها شربةً، فيطهّرالله بها قلوبهم من الحسد. ويسقط عن أبشارهم الشعر. وذلك قول الله -عزّ وجلّ-: «وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً».

إذا تقرّر ذلك فنقول: إنّ الظّاهر في الآية والمتناسب في المقام، هو المعنى الثاني الّذي ذكره في القاموس. وهو الطّاهر المطهّر. وأمّا عناية المبالغة، فلا دليل عليها. نعم؛ يستفاد المبالغة من ناحية المورد. فإنّ الأغذية

والأشربة في الجنّة في أعلى درجات التمام والكمال لإيفاء ما خلقت لأجله. فالشراب اللّذيذ المطبوع، طاهر ومطهّر في حدّ التمام والكمال في اللّذّة والمطهّريّة وهكذا غيره من الحقائق والأعيان.

قوله تعالى: «إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً».

قد تقدّم بعض الكلام من معنى الجزاء والمجازاة منه تعالى، في تفسير قوله تعالى: «وجزاهم بما صبروا جنّةً وحريراً» وذكرنا ثمّة أنّه ـ سبحانه ـ هو المتفضّل بالجزاء والمتطوّل بالزياده، فيضاعف لمن يشاء بما يشاء كيف يشاء.

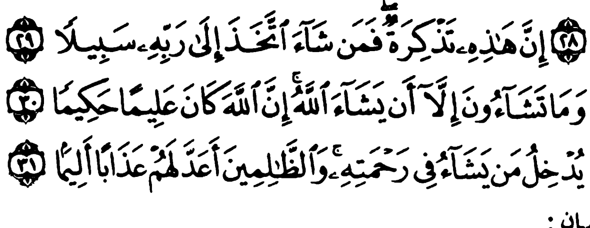
قوله تعالى: «وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً(٢٢)».

أي: كان جدّكم واجتهادكم في الطّاعات، وزجركم أنفسكم عن المعاصي والشّهوات مشكوراً عندالله ـ سبحانه. فالشّاكر هوالله ـ سبحانه. وقد مجّد نفسه ـ سبحانه ـ وأثنىٰ على ذاته بأنّه شكور لا يضيع لديه أجر المحسنين ولا يضيّع إيمان المؤمنين.

وفي الصّحيفة المباركة السجّاديّة في دعائه ـ عليه السّلام ـ في يوم الجمعة:

«يا من يجتبي صغير ما يتحف به، ويشكر يسير ما يعمل له! يا من يشكر على القليل، ويجازي بالجليل!»

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا



بيان :

الخطاب لرسول الله - صلّى الله عليه وآله - وبوساطته لأوليائه المعصومين ولأفاضل أمّته المخلصين؛ من كان منهم متحمّلاً وأهلاً لهذا التشريف والتكريم.

والظّاهر أنّه تعالى بعد ما ذكر الأبرار المتّقين والشكر والتقدير لسعيهم، وذكر ما أعدّ لهم من المقامات والكرامات أراد أن يثبّت رسول الله ومن معه من الموحّدين ويرغّبهم في سنّة الصّالحين، وتنفيرهم وزجرهم عن اتّباع الآثمين أبناء الدنيا، المكبّين عليها والمعرضين عن الله والآخرة، فقال سبحانه: «إنّا نحن نزّلنا...». فالقرآن الكريم أعظم كرامة لك؛ ولا كرامة فوقها، فلا يقاس بالدنيا وزخارفها. فهو أوضح محجّة وأوثق وسيلة لسير سبيل الصّالحين وابتغاء مرضاة ربّ العالمين. فعليك وعلى أوليائك الصّبر والثّبات لحكم ربّك، والإقبال والاهتمام بتمام الهمّة وصدق النيّة على عبادة ربّك. وعليك بالتحرّز عن متابعة الآثمين. وبما ذكرنا يتّضح اتّصال هذه الآيات وارتباطها بما قبلها من الآيات. وعلى ذلك شواهد أخرى نشير إليها في أثناء البحث - إن شاء الله.

قوله تعالى : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣)».

أقول: الإتيان بقوله: «إنّا» و«نحن» إبراز لكبريائه وسوق الكلام في سياق كلام الكبراء والعظماء؛ وبعبارة أخرى: الكلام بلسان الألوهيّة. وتكرار ضمير المتكلّم لتأكيد الأمر وتسجيل معنى الجملة المباركة أنّ منزّل القرآن هوالله - سبحانه - والعناية والاهتمام إنّما هو لشأن المنزّل ولشأن حكمة التنزيل والعناية المقصودة في ذلك.

قوله تعالى : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » .

أقول: الإتيان بفاء التفريع، دليل على أنّ الأمر بالصّبر والتذكّر بوجوبه ولزومه، متفرّع من تنزيل القرآن. فإنّ في القرآن أصول المجد والعزّة ودعائم العظمة والكبرياء وأساس الفوز والفلاح في الدّنيا والآخرة. وفي ذلك تأييد وتثبيت لرسول الله -صلّى الله عليه وآله- ومن معه من المؤمنين، في القيام بحق الله والمجاهدة في سبيله؛ وخاصّةً الرسول الأعظم -صلّى الله عليه وآله- في تحمّل أثقال النبوّة والرسالة والدعوة.

قوله تعالى : « وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً(٢٤) » .

أقول: الغالب في موارد إطلاقات الإثم في القرآن الكريم، الذنوب الشّرعيّة في عصيان الأحكام الفرعيّة. قال تعالى:

«ولا تكتموا الشّهادة ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه». (البقرة/ ٢٨٣)

«يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير». (البقرة/ ٢١٩)

فلا ريب في شمول الآثم في الآية الكريمة للفسّاق من المسلمين والمنافقين والكفّار. قال في القاموس ٤/ ٧٢: الإثم -بالكسر-: الذنب، والخمر، والقمار، وأن يعمل ما لا يحلّ. أثم -كعلم- إثماً ومَأثماً فهو آثم وأثيم.

قوله تعالى: « كفوراً» صفة مشبّهة أو صيغة مبالغة يطلق ويستعمل في مورد الكفر بالصّانع وبتوحيده وفي مورد الكفر بالطّاعة والكفران بالنّعمة.

إذا تقرّر ذلك فنقول: إنّ الآثم يشمل جميع أنواع الكفّار والمنافقين والفسّاق من المسلمين. وكذلك الكفور. فيمكن أن يراد من الآثم والكفور جميع أنواعهما؛ كما هو مقتضى الإطلاق. ويمكن أن يراد البعض، لو قام دليل شرعيّ على التقييد.

فلا وجه لما قيل: إنّ المراد في المقام وليدبن مغيرة وغيره من رؤوس المشركين. لعدم الدليل على ذلك التقييد. ولو ثبت بدليل شرعيّ أنّ الآية في شأن الوليد وأمثاله، لم يكن مقيّداً لإطلاق الآية الكريمة. فإنّ أقصى ما يقال حينئذ: إنّ مورد النزول بعد إرجاعه وتحليله إلى نوع من أنواع المتعلّق، يكون

من مصاديق المتعلّق، لا من مقيّدات الآية الكريمة.

فإن قلت: فمن هذا الآثم والكفور الّذي حرّم الله تعالى طاعته على رسوله وعلى المسلمين؟

قلت: واضح أنّ قضايا القرآن قضايا حقيقيّة ـ سواء كان في الأحكام المولويّة، أو في المستقلاّت العقليّة ـ وموضوعها ومتعلّقها مفروضة الوجود ومقدّرة. والأحكام إنّما جعلت على موضوع ومتعلّق مفروض مقدّر.

فالمعنى: يحرم على كلّ أحد من النّاس ـ من وجد منهم ومن لم يوجد بعدُ ـ طاعة كلّ آثم وكفور؛ سواء كان موجوداً أو لم يكن. وهذا الّذي ذكروه من باب الخلط بين القضايا الحقيقيّة والخارجيّة.

فإن قلت: هل ابتلي رسول الله والمؤمنون بهؤلاء الآثمين والكافرين؟ وهل كانوا يأمرون رسول الله بشيء ويتوقّعون منه الطّاعة والامتثال أو لا؟

قلت: أمّا في مكّة، فلم يصل إلينا بحسب التواريخ المعتمدة والأخبار المعتبرة. وأمّا في المدينة، فقد ابتلي بفسقة اليهود والمنافقين الّذين كانوا يؤذون رسول الله و يتربّصون به الدوائر والغوائل. وكانوا خليطاً في مجالس المسلمين في الأمور وغيرها من الموارد، ويتوقّعون أن يميل رسول الله حيثما مالوا وأن يريد ما أرادوا. وهم كانوا يدخلون عليه بالكفر ويخرجون به. ولا يزال يطّلع على خائنة منهم. فكان رسول الله يتحذّر منهم كلّ الحذر. قال تعالى:

«ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولّوا فاعلم أنّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون». (المائدة/ ٤٩)

والعمدة في ذلك، النفاق والخلاف على رسول الله، من المنافقين المخالفين لنصب عليّ ـ عليه السّلام ـ للخلافة والولاية وأتباعهم وحواشيهم مثل المغيرة ومعاوية بن حرب.

فإن قلت: فعلى ما ذكرت من مفهوم الآثم والكفور، يشمل الإثم جميع أنواع الفسوق من الكفر إلى آخر مراتب الفسوق؛ وكذلك الكفر.

قلت: كلاّ! فإنّ الإثم وإن كان يشمل جميع أنواع الكفر، إلاّ أنّ

الكفر لا يشمل جميع أنواع الفسوق الشرعيّة والعقليّة ولا يصدق إلاّ على بعض من كبار المعاصي الشرعيّة، مثل ترك الحجّ. فيكون الإثم أعمّ وأوسع مفاداً، والكفر أخصّ.

فإن قلت: إنّ الإتيان والتعبير بـ «أو» في قوله تعالى: «ولا تطع منهم آثما أو كفوراً» يفيد الترديد وتحريم مخالفة واحد منها لا بعينه، لا تحريم مخالفة كليها.

قلت: قال ابن هشام في المغني ١/ ٨٨ فى عداد معاني «أو»: الخامس: الجمع المطلق كالواو. قاله الكوفيّون والأخفش والجرمي؛ واحتجّوا بقول توبة:

وقد زعمت ليلى بأنّي فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وذكر المفسّرون وجوهاً أخرى في الجواب. منها: إنّ الإتيان بـ «أو» بعد النهي، تفيد تعميم النهي لكلا طرفي الترديد.

أقول: ليس هذا بواضح. ولعلّ الأجود ما ذكره ابن هشام.

قوله تعالى: «وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ»؛ أي تعظيماً وتمجيداً للمسمّى -جلّ ثناؤه- أو تنزيهاً وتقديساً له -سبحانه. فإنّ من أسمائه تعالى الحسنى ما هو حكاية وتعبير عن الذات المقدّسة مع العناية إلى نعت من نعوته الثبوتيّة. ومنها ما هو حكاية عن الذات مع العناية إلى شيء من النعوت السلبيّة؛ مثل سبّوح وقدّوس. وواضح أنّ المراد من ذكر اسم الربّ، ليس هو اللّقلقة والتلفّظ بالاسم فقط؛ بل المراد به أن يوقع الاسم على المعنى بعد معرفة المعنى عرفاناً واقعيّاً حقيقيّاً، وبعد التذكّر به وفي مرتبة متأخّرة عن المعرفة. والغرض من ذكر الاسم إيقاع الاسم على الذات الّذي يعرفه العارف بنعت من نعوته تمجيداً وتنزيهاً بهذا النعت الّذي عرفه.

والفرق بين إيقاع الأسماء عليه تعالى وبين إيقاع أسماء الخلق على الخلق: إنّ في الثاني يكون اللّفظ والمعنى -وخاصّةً المعنى- معلوماً ومتصوّراً. وفي إيقاع أسمائه تعالى عليه، تكون معرفة المعنى بالتذكّر، خارجاً عن حدّ التعطيل والتشبيه، بتعريفه تعالى نفسه إلى عبده ويكون من باب

معرفة الذات بالذات و بظهوره الذاتيّ بآياته وعلاماته مقدّساً عن التصوّر ولو بوجه.

قوله تعالى: «بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٢٥)».

البكرة -مثل الغدوة وزناً ومعنًى-: الفجر، أو بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس. والأصيل هو العشيّ.

قوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً(٢٦)».

أي: في بعض اللّيل فاسجد لله بالخرورعلى الأرض. وهذا هو المصداق المسلّم للسّجدة. وسبّحه؛ أي: نزّهه عمّا قال فيه كلّ مشرك وعمّا قال فيه كلّ جاهل ليلاً طويلاً؛ أي: وسبّحه من اللّيل تسبيحاً طويلاً.

أقول: توقيت ذكر اسم الربّ تعالى بالبكرة والأصيل، وكذلك توقيت السجدة والتسبيح باللّيل، فيه إيهام أنّ المراد في الآية شيء من الصّلوات المكتوبات والمندوبات المقيّدة بالأوقات.

قال الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٥٩: وفي هذه الآية قولان: الأوّل إنّ المراد هو الصّلاة. قالوا: لأنّ التقييد بالبكرة والأصيل يدلّ على أنّ المراد من قوله: «واذكر اسم ربّك» الصّلوات. ثمّ قالوا: البكرة هي صلاة الصّبح. والأصيل صلاة الظّهر والعصر. و«مّن اللّيل فاسجد له» المغرب والعشاء. فتكون هذه الكلمات جامعة الصّلوات الخمس. وقوله: «وسبّحه ليلاً طويلاً» المراد منه التهجّد.

أقول: واضح أنّه لا دلالة في هذه الآيات على شيء ممّا ذكروه من المكتوبات الخمس. فإنّها مطلقات يمكن انطباقها على الفرائض الخمس، لودلّ دليل منفصل على تقييدها وتحديدها. هذا أوّلاً.

وثانياً: إنّ تفسير البكرة بالفجر غير واضح. وقد فسّروه بأنّه الفجر أو بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس. أمّا الأصيل -وهو العشي بلا خلاف أجده في تفسيرها- فأيّ مناسبة وارتباط بينه وبين صلاة الظّهر والعصر؟! نعم؛ قوله تعالى: «وسبّحه ليلاً» قال في المجمع ١٠/ ٤١٣: وروي عن الرضا -عليه

السّلام ـ أنّه سأله أحمد بن محمّد عن هذه الآية وقال: ما ذلك التسبيح؟ فقال: صلاة اللّيل.

أقول: لو قلنا: إنّ المراد بالتسبيح في الآية الكريمة صلاة اللّيل، تسميةً للكلّ باسم الجزء، لا بأس به ـ وقد أطلق السّبحة على النافلة في بعض الروايات ـ إلاّ أنّ الظّاهر أنّ صلاة اللّيل قد كانت مشروعةً قبل نزول هذه الآية. فعليه يكون الأمر بالتسبيح فيها، للحثّ والترغيب في إتيانها. فلا محالة يكون الأمر بإتيانها أمراً إرشاديّاً لا مولويّاً. والأوامر الإرشاديّة لا دلالة فيها على الوجوب والاستحباب، بل تدور مدار المرشد إليه. إن كان واجباً، فيكون الإرشاد والترغيب إلى الواجب. وإن كان ندباً، فيكون إرشاداً إلى المندوب. وهذا هو الأنسب بسوق الآية الكريمة وبالغرض المسوق له.

فالمعنى: فاصبر لحكم ربّك. ولا تشاغل نفسك بما يهواه الآثمون والكافرون. وأقبل على عبادة ربّك وحمل أثقال رسالات ربّك والوظائف المقرّرة عليك.

والظّاهر أنّ أوّل ما نزل في تشريع صلاة اللّيل قوله تعالى: «يا أيّها المزّمّل * قم اللّيل إلاّ قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أوزد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً» إلى قوله: «إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطأ وأقوم قيلاً * إنّ لك في النّهار سبحاً طويلاً * واذكر اسم ربّك وتبتّل إليه تبتيلاً» إلى قوله: «إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي اللّيل ونصفه وثلثه وطائفة من الّذين معك والله يقدّر اللّيل والنّهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسّر من القرآن...»

أقول: سورة المزّمّل مكّيّة. وهي على ما في رواية عن ابن عبّاس السّورة الثالثة من القرآن، نزلت بعد ن والقلم. وقوله تعالى: «قم اللّيل» وإن كان إطلاق الأمر بالقيام يقتضي الوجوب، إلاّ أنّ الآيات الكريمة محفوفة بقرائن وشواهد بيّنة تدلّ على أنّ المراد فيها الاستحباب الأكيد. فهذه الآيات المباركة المسوقة في سياق التّشريع قرينة على أنّ ما سواه من الآيات الواردة بعدها في شأن صلاة اللّيل في القرآن الكريم، ليست لغرض التشريع، بل لكلّ منها شأن

بخصوصها. فعلى عهدة الفقيه والمفسّر تجزئتها وتحليلها واستخراج الغرض منها.

فاتّضح من جميع ما ذكرنا أنّ هاتين الآيتين ليستا في مقام توقيت الفرائض بأوقاتها؛ ولا دلالة فيها إلاّ الإرشاد والتشويق والترغيب في الإقبال إلى الله والاشتغال بذكرالله والسجدة والخضوع لله في هذه الأوقات. وتبيّن أنّ الأمر في قوله: «وسبّحه» للحثّ والترغيب في إتيان الصّلاة المقيّدة باللّيل، لا توقيتها وتقييدها باللّيل.

ومن عجيب الأمر أنّ بعضاً من المفسّرين صرّح أنّ الآيتين تقبلان الانطباق على صلاة الصّبح والعصر والمغرب والعشاء. وهذا يؤيّد نزول الآيات بمكّة قبل فرض الفرائض الخمس في قوله تعالى: «أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق اللّيل وقرآن الفجر». (الإسراء/ ٧٨) والآيتان كقوله تعالى: «وأقم الصّلاة طرفي النّهار وزلفاً من اللّيل» (هود/ ١١٤) وقوله: «وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها ومن آناء اللّيل فسبّح وأطراف النّهار لعلّك ترضى». (طه/ ١٣٠)

أقول: قد عرفت أنّ الآيتين في مقام التسلية لرسول الله وتأييده وأمره بالإقبال الخاصّ إلى الله والاشتغال بما يهمّه من ذكرالله ـ سبحانه ـ وتسبيحه في هذه الأوقات. فلا دلالة فيها على شيء من تشريع الصّلاة. ولو قلنا على الفرض: إنّ المراد في الآيتين الفرائض الأربع أو الخمس، بناءاً على تفسير الأصيل بزمان ما بعد الزوال، فأقصى ما يمكن أن يقال: إنّ الله ـ سبحانه ـ أمر رسوله والمؤمنين أن يأتوا بالصّلاة المقرونة بأوقاتها المفروغة عن تشريعها وحدودها، لا بيان توقيت الصّلوات الأربع أو الخمس بهذه الأوقات. فيكون الأمر إرشاديّاً للتّرغيب والتشويق. وأيّ دلالة في ذلك على نزول الآيات بمكّة قبل فرض الفرائض؟! وأيّ دليل على تقدّم هذه الآيات على آية سورة الإسراء؟!

ثمّ لا يخفى أنّ قوله تعالى: «أقم الصّلاة لدلوك الشّمس...» وكذلك: «أقم الصّلاة طرفي النّهار» مع قطع النظر عن الروايات في تفسيرهما لا دلالة فيهما على سوقهما للتشريع. فإنّ الظّاهر بقرينة قوله تعالى في

الآية الاولى: «إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً» أنّ هذا بيان لفضيلة الصّلاة الّتي كان المسلمون يصلّونها قبل ذلك. وكذلك قوله تعالى: «عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً» بيان لفضيلة إتيان الصّلاة وأنّ ثوابها هي الكرامة العظمى والشّفاعة الكبرى ولا يلائم الثواب مرحلة التشريع. وكذلك قوله تعالى: «أقم الصّلاة طرفي النّهار...» فإنّه -سبحانه- عقّب الأمر بإقامة الصّلاة بذكر ثواب الصّلاة وقال: «إنّ الحسنات يذهبن السيّئات». وظاهر الآيتين أنّهما في مقام الترغيب في إقامة الصّلاة في هذه الأوقات، لا توقيتها ولا تقييدها بالأوقات بحسب أصل التشريع.

وأمّا قوله: «وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس...» ففيه أنّ مجرّد إمكان تطبيق التسبيح على الحمد والتسبيح المطلق على الصّلاة، لا يكفي في إثبات أنّ المراد بالتسبيح هو الصّلاة. فلابدّ من دليل خارج.

في البرهان ٣/ ٤٩، عن ابن بابويه مسنداً عن إسماعيل بن الفضل قال:

سألت أباعبدالله -عليه السّلام- عن قول الله -عزّوجلّ-: «وسبح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها».
فقال: فريضة على كلّ مسلم أن يقول قبل طلوع الشّمس عشر مرّات وقبل غروب الشمس عشر مرّات: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. له الملك. وله الحمد. يحيي ويميت. وهو حيّ لا يموت.»
قال: فقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك. وله الحمد. يحيي ويميت. ويميت ويحيي.
فقال: يا هذا، لا شكّ في أنّ الله يحيي ويميت ويميت ويحيي؛ ولكن هي كما أقول.

قوله تعالى: «إنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ»؛ أي: إنّ هؤلاء الأئمة والكفر.

وهذا البيان تنفير عنهم وتوبيخ وتعيير إيّاهم على سخافة عقولهم وتقصيرهم في معرفة هذا اليوم الثقيل ودرك شؤونه ونيل ما هم واقعون فيه ومسؤولون عنه، فلا يبالون بشيء غير هذه النّعم الزائلة واللّذّات العاجلة.

وظاهر كلام الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٦٠ أنّ هذه الجملة بمنزلة التّعليل

لما تقدّم. أي: إنّ كفرهم وإنكارهم ليس لأجل شبهة دينيّة أو ترديد في الحقّ كي ينتفعوا بالدلائل والبراهين. وإنّما كان منشأ ذلك حبّهم للدّنيا الخسيسة.

والظاهر من بعض المفسّرين أنّ هؤلاء إشارة إلى الأثمة والكُفُر منهم، وأنّ هذه الجملة بمنزلة التّعليل لقوله: «لا تطع». أي: لا تطعهم؛ لأنّهم يحبّون العاجلة.

وفيه أنّه لا ارتباط تشريعاً ولا تكويناً بين طاعة الآثم والكفور وبين حبّهم للدّنيا. فإنّ مرجع ذلك: لا تطع من كان يحبّ الدنيا. ولو كان المراد: لا تطع الآثم والكفور في إثمهم وكفرهم فحينئذ لا حاجة إلى التّعليل المذكور. فإنّ إطاعة الآثم والكفور إثم أو كفر وهو حرام بالضّرورة. أقول: والوجه الأحسن ما ذكره الرازيّ. وهو الظّاهر من الآية الكريمة.

قوله تعالى: «وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧)»

لا ريب أنّ هذا اليوم الثقيل أمام النّاس في المستقبل وسيلقونه في مسيرهم إلى ربّ العالمين للعرض الأكبر على الله وهو الحساب بين يدي ربّهم ـ سبحانه.

والوراء قد استعمل بمعنى الخلف وبمعنى الأمام. ولعلّ المراد هنا هو الأوّل والمعنى: إنّ هذا اليوم الّذي أمام النّاس قد تركوا الإيمان به والعمل له، فنبذوه وراء ظهورهم.

و«ثقيلاً» صفة لليوم. وكون اليوم ثقيلاً، لعلّه لشدّة أهواله ودواهيه وأنّه يعظم على الناس ويثقل عليهم تحمّل تلك الشّدائد الكبار.

قوله تعالى: «نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ».

قد أوضحنا في الأبحاث السّابقة أنّ الخلق بمعنى التقدير. ولا ريب أيضاً بحسب الاستقراء استعماله في الإيجاد. وذكرنا أنّ الظّاهر في أمثال المقام، هو الإيجاد عن تقدير. فقوله تعالى: «خلقناهم»؛ أي: أنشأناهم عن تقدير. وبعبارة أخرى: قدّرناهم وأنشأناهم.

وقوله تعالى: «وشددنا أسرهم» قال في القاموس ٣٦٤/١: الأسر:

الشدّ والعصب، وشدّة الخَلق و الخُلق.

أقول: الشدّ ارتباط بعض الأعضاء ببعض واتّصالها كذلك، وتنظيم هذه الأعصاب والمفاصل وارتباطها مع الأخرى. والمعنى: قوّينا وأحكمنا هذا الشدّ حتى تمكّنوا من الأعمال والأفعال في تنظيم معائشهم وإدامة حياتهم.

والآية الكريمة مسوقة لبيان نفوذ قدرته وسلطانه عليهم وأنّ هذه النّعم من الصحّة والقوّة والشدّة، إنّما أجراها تعالى وأفاضها عليهم استدراجاً واملاءاً، لينظر كيف يعملون.

قوله تعالى: «وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً(٢٨)».

أي: نهلك هؤلاء الجفاة الطّغاة ونأتي بأمثالهم مكانهم. وهذا التبديل منوط ومتوقّف بمشيّته تعالى؛ إذا شاء يبدّ لهم بأمثالهم. وهذا التبديل بالأمثال، هل كان مشاءً قبل هلاكهم، أوعقيب هلاكهم بمشيّة حادثة؟ الظّاهر هو الثاني.

وقيل: إنّ الآية الكريمة في سياق قوله تعالى: «إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد» (إبراهيم/ ١٩) وقوله تعالى: «إن يشأ يذهبكم أيّها الناس ويأت بآخرين». (النساء/ ١٣٣)

أقول: لا كلام في أنّ الآيتين ونظائرهما مسوقة لبيان نفوذ مشيّته تعالى وسلطانه على إنشاء ما شاء من الأشياء وعلى نقائضها إن شاء وإذا شاء بمشيّة حادثة جديدة. إلاّ أنّ الفرق بين هذه الآيات وبين الآية المبحوثة ، هو الفرق بين «إذا» الشّرطية وبين «إن» الشّرطيّة.

قال في الكشّاف ٢٠١/٤: وحقّه أن يجيء بـ «إن» لا بـ «إذا».

وأنكر عليه الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٦١ بأنّ هذا طعن في لفظ القرآن. وأخذ في بيان الفرق بين «إن» و«إذا». ومحصّل كلامه: إنّه لا فرق بينهما من جهة إفادة معنى الشّرط. وإنّما الفرق بينهما من جهة أخرى.

قوله تعالى: «إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ».

قيل: إنّ الإشارة إلى السّورة أو الآيات. والتذكرة هو إيقاظ الإنسان عن الغفلة والسّكرة وتوجيه الإنسان إلى ما يعلمه بصراحة عقله وبداهة فطرته.

وهذا باب واسع عظيم في العلوم الشّرعيّة وعلم الأخلاق.

قوله تعالى: «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩)».

أي: بعد هذه التّذكرة والهدايات، فمن اتّعظ بمواعظ الله -سبحانه- وعقل عنه تعالى وشاء أن يتّخذ سبيلاً إلى مرضاة الربّ تعالى والقرب من حريمه، فليفعل. فلا طفرة ولا مهلة.

قوله تعالى: «وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ».

الآية الكريمة في سياق قوله تعالى:

«ولا تقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً * إلاّ أن يشاء الله واذكر ربّك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربّي لأقرب من هذا رشداً».
(الكهف/ ٢٣ و٢٤)

فالآية الكريمة مسوقة في مقام التّحفّظ على التوحيد وإبطال مقالة أهل التفويض المساكين الّذين أرادو أن ينسبوه تعالى إلى العدل، فأخرجوه عن سلطانه. فقوله تعالى: «ولا تقولنّ لشيء...» حكم عقليّ كلّيّ على نحو القضيّة الحقيقيّة. أي: لا يجوز لأحد ممّن عرف الله ووحّده، أن يقول: إنّي أفعل كذا وكذا غداً ويعتقد أنّه يفعل كذا وكذا غداً من غير قيد ولا شرط. ضرورة أنّ فعل العبد كذا غداً متوقّف ومنوط إلى إفاضة الحياة والشّعور والعقل والإرادة والاستطاعة حال الفعل ومع العمل؛ وبديهيّ أنّه ليس الآن مالكاً للحياة والاستطاعة في الغد حال العمل في ظرف العمل. فيكون قوله: أفعل كذا غداً، من دون شرط واستثناء، جزافاً وقولاً باطلاً.

في البرهان ٢/ ٤٦٣، عن الكليني مسنداً عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبدالله -عليهما السّلام- في قول الله -عزّ وجلّ-: «واذكر ربّك إذا نسيت» قال:

«إذا حلف الرجل فنسي أن يستثني، فليستثن إذا ذكر.»

وفي معناها أخبار كثيرة. من أرادها فليراجعها. والظّاهر أنّ ذكر الحلف من باب ذكر المصداق، لا بيان تمام المراد.

إذا عرفت ذلك فنقول: فرق بين القول بأنّ فعل العبد منوط ومتوقّف على

مشيّة الله -سبحانه- بإفاضة الحياة والقدرة والشّعور والاستطاعة عليه وتخلية السبيل بينه وبين الفعل، وبين القول بأنّ فعل العبد مُشاء بمشيّة الله وأنّ نسبة الفعل إلى العبد مثل نسبة الكتابة إلى القلم، وبين القول بأنّ المشيّة موكولة إلى العبد يفعل ما يشاء من غير شرط ولا استثناء.

فصريح الآية الكريمة هو الفرض الأوّل. ضرورة أنّ قوله تعالى: «وما تشاؤون» يفيد النفي على الإطلاق؛ والاستثناء من الأمر المنفيّ المطلق، يفيد إثبات شيء من الأمر المنفيّ المطلق، وهو إثبات المشيّة للنّاس بمشيّة الله -سبحانه.

في الكافي ١٥٢/١: محمّد بن يحيي، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر قال: قال أبوالحسن الرضا -عليه السّلام-:

«قال الله: [يا] ابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الّذي تشاء لنفسك ما تشاء.»

وقوله تعالى: «إلاّ أن يشاء الله»؛ أي: يشاء الله -سبحانه- المشيّة لكم. والمعنى: إنّكم لا تقدرون على شيء إلاّ على ما أقدركم الله. ولا تملكون شيئاً من مشيّة الفعل، إلاّ ما ملّكها الله إيّاكم. وحيث إنّ تلك المالكيّة بتمليكه تعالى حدوثاً وبقاءاً، فلا محالة يكون في طول مالكيّته تعالى وهو -سبحانه- أملك. فيبطل التفويض الّذي سيقت الآية الكريمة لإبطاله. ويبطل الجبر أيضاً. ضرورة أنّ العبد بمالكيّته الاستطاعة، يملك كلا طرفي الفعل والترك فيعلّل الفعل والترك بالاستطاعة الّتي يملكها بالله.

فإن قلت: فما تقول فيما قيل: إنّ الفعل الاختياريّ ما يكون مسبوقاً بالإرادة وإن لم يكن الإرادة اختيارية بل مسبوقةً ومعلولةً بالإرادة الأزليّة القاهرة.

قلت: هذا قول باطل وإنّما هو بناء على أنّ الفعل مشاء بالمشيّة الأزليّة والإرادة قبل الفعل أيضاً كذلك؛ وهي مقدّمة لإيجاد الفعل بإيجاب الله تعالى.

ولا يخفى أنّ المشاء في قوله تعالى: «إلاّ أن يشاء الله» هي مشيّة النّاس واستطاعتهم بإقدارالله تعالى إيّاهم بالحقيقة على الفعل والترك.

وليس الفعل والترك إلاّ بهذه الاستطاعة؛ وهي العلّة الحقيقيّة للفعل والترك، والفعل والترك معلول لها. فينقطع العلل.

ثمّ إنّ إطلاق الآية الكريمة، شامل للأعمال والسّنن الجارية في العالم بواسطة الملائكة المدبّرين والموكّلين ببعض الأمور وإجراء هذه السّنن. مثلاً ملك الموت القابض للأرواح بشخصه أو بأعوانه، يفعل ما يفعل بالاستطاعة والقدرة المفاضة عليه. فما يشاؤون شيئاً إلاّ أن يشاء الله مشيّتهم واستطاعتهم، فيعملون بها بأمر الله. فهؤلاء الكرام الأبرار عباد معصومون بحسب التكليف، لا بحسب التكوين.

وذكر بعض المفسّرين أنّ هؤلاء وسائط فعله تعالى؛ ونسبة الفعل إليهم مثل نسبة الكتابة إلى القلم. وهذا البيان خلاف ما هو صريح الكتاب والسّنة أنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

والآية الكريمة نظيرة قوله تعالى:

«إن هو إلاّ ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين». (التكوير/ ٢٧-٢٩)

وقد ارتكب الزمخشريّ في تفسيره ٤/ ٢٠١ تأويلاً بارداً. قال ما مضمونه: إنّ قوله تعالى: «ما تشاؤون»؛ أي: ما تشاؤون باختياركم. وقوله تعالى: «إلاّ أن يشاء الله»؛ أي: يشاء تعالى إجباركم عليه وإلجاءكم إليه.

وفيه أنّه لا دليل على أنّ قوله تعالى: «وما تشاؤون» إخبار عن حال الناس وأنّهم جميعاً لا يختارون اتّخاذ السبيل. وكيف يصحّ هذا النفي وفيهم المؤمن والمهتدي؟! ولا دليل أيضاً على أنّ قوله: «إلاّ أن يشاء الله» معناه: يشاء تعالى إجباركم على اتّخاذ السبيل وإلجاءكم عليه. كيف وفيهم من لايحتاج إلى الإجبار والإلجاء؟! وكيف يصحّ تأويل الاستثناء بالاستثناء المنقطع؟!

وقال الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٦٢ ما خلاصته: إنّ الآية تقتضي أن تكون مشيّته تعالى مستلزمةً لمشيّة العبد. ومستلزم المستلزم، مستلزم. فإذاً مشيّته تعالى مستلزمة لفعل العبد. وهو الجبر.

والجواب: إنّ في البيان مغالطةً واضحةً. فإنّ الآية الكريمة مسوقة لإبطال التفويض والتحفّظ على التوحيد. وقد غفل الرازيّ أو تغافل أنّ مورد النفي والإثبات في الآية الكريمة، هو مقالة المفوّضة بعينها؛ أي: المشيّة على الفعل وأضداده وتروكه جميعاً. والآية الكريمة لنفي استقلالهم وإنكار عزلة الله تعالى عن هذه المشيّة الواسعة المطلقة، لا تحديد المشيّة بالفعل أو الترك . وممّا ذكرنا يعلم أنّ الآية الكريمة أدلّ برهان على إبطال الجبر، كما أنّها أوضح دليل على بطلان التفويض. فإنّها صريحة في إثبات المشيّة على الفعل والترك ونفي استقلالهم فيها.

قوله تعالى : «إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠)» .

الظّاهر أنّ هذا البيان في مرحلة التعليل لما تقدّم من مفاد الآيات السّابقة؛ أي: إنزال السّورة أو الآيات تذكرة للمتّقين والمؤمنين وحجّة على المنكرين في اتّخاذ السبيل إلى ربّ العالمين. وإعطاء هذه الاستطاعة والمشيّة كمال ومجد حقيقيّ، إكراماً وإجلالاً لقوم، وإملاءاً واستدراجاً للآخرين. وكذلك تعليل لتقدير هذه العطيّة الكبرى وتدبيره وإفاضته على الأرواح البشريّة على نظم وتقدير، تقدير العليم الحكيم، على وجه يتحيّر فيه العقول. ولا يعرف كنه هذا التمليك وحقيقته، إلاّ الله ـ سبحانه. ولا يقدر على إحصاء لطائف الصّنع في هذا العطاء الكبير وكذلك في سائر الموارد الّتي يفيض تعالى فيها إمداده إلى غيره، إلاّ هو ـ سبحانه وتعالى.

قوله تعالى : «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ» .

لا ريب أنّ اختصاصه تعالى أحداً من عبادهٖ برحمته، ليس على سبيل المجازفة والصّدفة؛ بل كلّ واحد من موارد الاختصاص والاصطفاء منوط بجهات ومصالح عمديّة علميّة حكيمة. وكذلك الاختصاص بالفضل الابتدائيّ. فإنّ الابتداء بالفضل من الأغراض الحكيمة الأصيلة.

وواضح أنّ هذه المرجّحات لا توجب إيجاب الفعل على الفاعل القادر الحكيم. لأنّها في طول القدرة والقدرة حاكمة عليها، فلا تؤثّر في فاعليّة

القادر؛ إذ لا توجب إيجاب الفعل. وإنّما يترك المرجوح وخاصّةً في مقابل المترجّح، لقدسه عن ارتكاب المرجوح ويفعل المترجّح لأنّه مجيد حميد. فعليه يكون إتيان المترجّح بلحاظ الغايات الحسنة مستنداً إلى القدرة، لا إلى المرجّحات، بإعمال الفضل والرحمة بجميع أنواعه وأفراده، بما شاء وكيف شاء على من شاء، متقدّراً بالتقدير العلميّ والتدبير الربوبيّ في غاية الحسن والجودة. فيمجّد الفاعل ويحمد على فضله وإحسانه. فيدخل ـ سبحانه ـ من يشاء في رحمته. ويعطي من مواهبه المخزونة من يشاء بما يشاء. ويصطفي أولياءه بكراماته المكنونة. وكلّ ذلك مطابق للحكمة والمصلحة. فيستحقّ ـ سبحانه ـ من عباده الحمد والشّكر. فلا يقدر أحد على القيام بواجب حمده وحقّه وشكره.

والمصداق البارز لهذه الرحمة والموهبة، هي معرفته تعالى ومعرفة توحيده ومعاني أسمائه ونعوته، ومعرفة أوليائه وموالاتهم، والهداية إلى الشّرائع الإلٰهيّة.

قوله تعالى: «وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَليماً(٣١)».

قال الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٦٣: قال الزجّاج: نصب الظّالمين لأنّ قبله منصوباً. والمعنى: يدخل من يشاء في رحمته؛ ويعذّب الظّالمين. وقوله: «أعدّ لهم عذاباً أليماً» كالتفسير لذلك المضمر.

والانتقام من الظّالمين من جملة نعوته تعالى الجليلة الحميدة. وقد حمد نفسه المقدّسة وأثنى عليها على إهلاك الظّالمين فقال ـ سبحانه ـ:

«فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين». (الأنعام/٤٥)

وقد روي في معاني الأخبار/ ٢٥٣ مسنداً عن الصّادق ـ عليه السّلام ـ في تفسير الآية:

«إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ حمد نفسه على هلاك الظّلمة».

أقول: هذا في الدنيا. وأمّا في الآخرة، ففي الآية المبحوثة وغير واحد من الآيات، تهديد الظّالمين بالانتقام والعذاب. ولا يخفى أنّ تهديدهم

بالعذاب والانتقام، وكذلك الانتقام منهم، أمر حسن، لما فيه من إجراء سنّة العدل وإحيائه، والزجر والتنفير عن أعمال الظّالمين.

٧٧. سورة المرسلات

في رواية عن ابن عبّاس أنّها السّورة الثّانية والأربعين من القرآن؛ نزلت بعد الهمزة. (أنظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

بيان:

الظّاهر أنّ السّورة المباركة مسوقة للتّهديد والتّخويف. وقد أقسم تعالى أنّ ما يوعدون لواقع البتّة. وهذه الأقسام من الله ـ سبحانه ـ لتأكيد وقوع الأمر المخوف وتحقّق حدوثه، مع احتجاجات قارعة بلطائف من صنعه تعالى على وجوده و توحيده و قدرته.

وفيها تذكرة للمتّقين، وبشارة للمحسنين العاملين، وذكر عدّة من أشراط

السّاعة وعلامات القيامة؛ من طمس النجوم ونسف الجبال وغيرها. وفيها تهويل شديد وتهديد عظيم على المكذّبين، بشيء من أهوال السّاعة وشدائدها أيضاً ووقوع يوم الفصل والقضاء والحكومة العادلة من الله ـ سبحانه.

وقوله تعالى: «ويل يومئذ للمكذّبين» لزيادة التقرير وتثبيت موقع التوبيخ والتهويل.

في الخصال ١/ ١٩٩ مسنداً، عن ابن عبّاس قال:

قال أبو بكر: يا رسول الله، أسرع إليك الشيب؟!

قال: شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون.

أقول: في الرواية دلالة على ما ذكرنا من اشتمال السّورة المباركة بتذكير المتّقين. ولا يشترط في تذكير المؤمنين سوق آية أو آيات بخصوص تذكيرهم. فإنّه يكفي في الاعتبار والاتّعاظ، التدبّر والتفكّر فيما تجري من سطواته تعالى على الأمم الطّاغية في الدّنيا وما يخوّفهم ويهدّدهم في الآخرة.

قوله تعالى: «وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (١)».

قال في القاموس ٣/ ٣٨٤: الإرسال: التسليط والإطلاق والإهمال والتوجيه.... والمرسلات: الرياح، أو الملائكة، أو الخيل. وفيه/ ١٧٤: والعرف ـ بالضمّ ـ: الجود... وشعر عنق الفرس.... وطار القطا عرفاً؛ أي: بعضها خلف بعض. وجاء القوم عرفاً عرفاً كذلك. قيل: ومنه: «المرسلات عرفاً». أو أراد أنّها تُرْسَلُ بالمعروف.

أقول: تفسير الإرسال بالإطلاق والإهمال، تفسير بالمعنى الأعمّ والأخفى، وغير ملائم للآية الكريمة. فانّ الظّاهر من الإرسال فيها، هو البعث عن عمد وعناية، لا مجرّداً ومنسلخاً عن العمد والعناية.

قيل: المراد بالمرسلات في المقام هي الرياح. (تفسير الرازي ٣٠/ ٢٦٥)

أقول: الآية الكريمة، وإنْ لم تكن ظاهرةً في هذا المعنى، إلاّ أنّه أظهر ما قيل في هذا الباب. والوجه في ذلك أنّ التعبير بالإرسال في مورد الرياح كثير في القرآن الكريم؛ خاصّة في مورد الرياح الطّيّبة النافعة الّتي هي من أعظم آياته تعالى ومن أجلّ مواهبه ـ سبحانه ـ على عباده. وهي من عوامل

رحيميّته ورحمانيّته تعالى؛ ينتفع بها الكلّ؛ المؤمن والكافر والوليّ والعدوّ. وبها تلقح الأشجار وتطيب الثمار وهي تثير السحاب الثقال؛ وتكون مبشّرات بين يدي رحمته ـ جلّ ثناؤه.

وهذا هو المتناسب لقوله تعالى: «عرفاً»؛ بناءاً على أنّ المراد متتابعاً ومتّصلا لاتنقطع أمواج الرياح بعضها عن بعض. فالقدر المتيقّن منها هي الرياح المتّصلة المستمرّة أيّاماً وليالي.

واحتمال أنّ المراد بها الملائكة، فبعيد جدّاً؛ لعدم تحقّق معنى قوله تعالى: «عرفاً» ـ بناءاً على أنّ الملائكة أجسام لطيفة أو أنّها جواهر مجرّدة ـ إلاّ بضرب من المجاز والتأويل.

ويؤيّد ما ذكرنا أيضاً مقابلة قوله تعالى: «والمرسلات» بقوله تعالى: «فالعاصفات عصفاً». فإنّ العاصفات هي الرياح الشّديدة الضارّة. وتوجيه ذلك بأنّ المراد بالعاصفات هي الملائكة، تشبيهاً إيّاها بالرياح الشّديدة، لسرعة سيرها إلى ما أُمرت به، ضعيف لادليل عليه من ظاهر الآية الكريمة؛ إلاّ أن يقال: إنّ كلّ واحد من هذه الصّفات المذكورة في هذه الآيات نعت خاصّ لقبيل خاصّ من قبائل الملائكة، على ما سنشير إليه ـ إن شاء الله.

فتحصّل من جميع ما ذكرناه أنّ الآية الكريمة مشعرة إشعاراً قويّاً يقرب من الظهور أنّ المراد بالمرسلات هي الرياح المباركة النافعة.

قوله تعالى: «فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (٢)».

عطف على قوله تعالى: «والمرسلات». قد قيل: إنّ المراد بها هي الملائكة، تشبيهاً إيّاها بالرياح العاصفة الشّديدة؛ لسرعة سيرها إلى ما أُرسلت إليه، كما أنّ الرياح الشّديدة سيرها تسرع إلى ما أُمرت أن تمرّ عليه.

قال في القاموس ١٧٥/٣: العصف: بقلُ الزرع. وقد أعْصَفَ الزرع و«كعصف مأكول»؛ أي: كزرع اكل حبّه وبقي تبنه. أو: كورق أخذ ما كان فيه وبقي هو لاحَبَّ فيه.... وعصفت الريح تَعْصِفُ عصفاً وعُصوفا: اشتدّت، فهي عاصفة وعاصف وعَصوف.

أقول: إنّ العناية في عصف وما يشتقّ منها في مورد الريح والرياح، هي

الشدّة والإهلاك . فالعاصفة؛ أي: الشديدة القويّة المهلكة، أو الشديدة فقط من غير عناية الهلاك . وهي لِشدّة بطشها وقوّتها وسمومها ما تمرّ بشيء إلاّ جعلته كعصف مأكول؛ وتقلع الأشجار وتزيل الجبال. ولمّا يُعلم ولمّا يتبيّن بعدُ أنّ في العاصفة العناية لسرعة سيرها.

ولو فرضنا أنّ في العاصفة العناية بسرعة السّير ـ على ما ذكروه في مورد الإبل والفرس ـ وفرضنا أنّ الريح لم تسمّ عاصفةً إلاّ لشدّة سيرها وشدّة سرعتها، فلا مورد لتشبيه الملائكة بالرياح، من حيث سرعة سير الملائكة. ضرورة أنّ منهم من كان حاملاً لعرش الحياة والقدرة، فيقدرون ـ بإذن اللّه تعالى وبإقداره تعالى إيّاهم ـ على العمل والسّير السريع مالا يعلم إلاّ اللّه ـ سبحانه ـ وأولياؤه العالِمُون به. وهذا السّير والعمل بالإرادة والقدرة، نظير ما عمل من عنده علم من الكتاب في قصّة إتيان ملكة سبأمع عرشها إلى سليمان. فلا تناسب بين سير الملائكة بالقدرة، وسير الرياح العاصفة بالعوامل الطبيعيّة. ومن قال من باب المبالغة والإفراط في التشبيه إنّ سير الرياح مثل سير الملائكة، لكان له وجه لو كان له العلم بسير الملائكة سرعةً وبطوءاً.

فتحصّل في المقام أنّ الأولى في تفسير الآية الكريمة، إبقاء هذا اللّفظ على معناه اللّغوي، وجعله نعتاً وصفةً للرّياح؛ كما في غيرالمقام في القرآن الكريم. قال تعالى:

«ولسليمان الريح عاصفةً تجري بأمره». (الأنبياء/ ٨١)

وبما ذكرنا يؤيّد أنّه لايجوز تفسير المرسلات بالملائكة، اعتماداً على أنّ المراد بالعاصفات الملائكة. بل ما ذكرنا قرينة وشاهد على أنّ المرسلات نوع خاصّ من الرياح في مقابل العاصفات.

قوله تعالى: « وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (٤) » .

قال في المجمع ٤١٥/١٠ : وهي الرياح الّتي تأتي بالمطر تنشر السحاب نَشراً للغيث، كما تلقَحُه للمطر.

أقول: الظّاهر أنّ المراد بالنشر ليس ما هو المنسبق إلى الذّهن من معنى النشر الذى يقال بالفارسيّة: «پراكنده كردن». بل الظّاهر أنّه البسط و

والإرسال والبلاغ. فالرياح تنشر السحاب وتبسطها في الجوّ بأمرالله، طبق سنّته المقدّسة؛ وتبسط الأمطار في أقطار الأرض. وهي من العوامل المسخّرة لهذا الشأن.

وقيل: إنّ المراد بالناشرات الملائكة؛ باعتبار أنّهم مأمورون بنشر العلوم والشرائع والأحكام، ويبسطون كلمة الحقّ والصّدق في أقطار الأرض بوساطة الأنبياء والرسل، طبق السنّة المقدّسة الجارية الإلٰهيّة المصونة المعصومة عن الخطأ والتحريف. (أُنظر: تفسيرالرازي ٣٠/ ٢٦٧)

أقول: وهذا القول هو الأشبه في هذا المقام. ويشعر بذلك قوله تعالى: «فالفارقات فرقاً» من حيث عطفه على الناشرات بالفاء المشعرة بالتفريع والترتيب. أي: نشرن ففرقن.

والمصداق البارز الواضح من هذا التفريق بوساطة هؤلاء الفارقات، هو الفرقان المبين والقرآن الكريم. وهو المرجع الأصيل المعصوم بذاته لأهل العالم اليوم. وهو الحجّة بذاته على ذاته؛ الفارق بحجّيّتة بين الحقّ والباطل والصّدق والكذب وبالجملة كلّ ما اختلف فيه الناس في شؤون دينهم و دنياهم. وهو المهيمن على جميع ما ينسب إلى الأنبياء السّابقين من الحقائق والعلم، والحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. قال تعالى:

«شهر رمضان الّذي اُنزل فيه القرآن هدًى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان». (البقرة/ ١٨٥)

«وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدًى للناس وأنزل الفرقان». (آل‌عمران/ ٣)

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه». (المائدة/ ٤٨)

وضروريّ أنّ الفرقان بما أنّه فرقان بين الحقّ والباطل حجّة وبرهان على نفسه أنّه الحقّ المبين وأنّه كتاب لاريب فيه هدًى للمتّقين. وكيف يمكن ما هو برهان بالذات على تفريق الحقّ من الباطل، أن لايكون برهاناً على نفسه؟!

وقد وصف تعالى القرآن نفسه بأنّه نور وهداية وتذكرة وذكرى وبيّنة وبصائر وضياء وغيرها. وقد قال ـ سبحانه ـ:

«يا أيّها النّاس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً».
(النساء/ ١٧٤)

فعلى ذلك، فلا يمكن أن يخالطه الباطل؛ ويستحيل أن يداخله الكذب. مثلاً: ينادي القرآن الكريم بندائه العامّ ويخاطب أهل العالم ويحتجّ عليهم أنّه -سبحانه- عالم وشاهد ورقيب وحفيظ على كلّ نفس بما كسبت. وإن يك مثقال ذرّة في السّموات وفي الأرض، يعلمه الله تعالى ويشاهده عياناً. ومن أراد تحميل الفرضيّة الّتي هي إنّ الله لا يعلم الأشياء إلاّ على سبيل العلم الحصولي ولايعلم الجزئيّات الحادثة إلاّ على سبيل الحكم، على القرآن الكريم، يدفعه القرآن المبين عن نفسه ويطرده عن حريم قدسه.

قوله تعالى: «فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (٥)».

الظّاهر أنّه عطف على الناشرات. أي: نشرن ففرقن وألقين الذكر. فإنّ الصفات المعطوفة بالفاء في أمثال المقام، سواء كانت واحدةً أو أكثر، كلّها من صفات ما عطفت عليه ومن أفعاله؛ وهو الّذى أقسم تعالى به. وعلى هذا، يكون ما يقسم به في هذه الآيات قوله: «والمرسلات» «والناشرات»؛ والمعطوفات عليها من صفاتها ونعوتها.

ويمكن أن يقال: إنّ الفارقات عطف على الناشرات. والملقيات عطف على الفارقات. وكلاهما ممّا وقع القسم بها. إذ لامنافاة بين كونها معطوفتين بالفاء، وبين كونها مستقلّتين من حيث وصفها ونعتها في حدّ نفسه.

قال الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٦٧: قال القفّال: الوجه في دخول الفاء في بعض ماوقع به القسم، والواو في بعض، مبنيّ على الأصل. وهو أنّ عند أهل اللّغة، الفاء تقتضي الوصل والتعلّق. فإذا قيل: قام زيد فذهب؛ فالمعنى أنّه قام ليذهب. فكان قيامه سبباً لذهابه ومتّصلاً به. وإذا قيل: قام وذهب؛ فهما خبران، كلّ واحد منها قائم بنفسه لايتعلّق بالآخر.

أقول: ثمّ إنّ الرازيّ اختار قول القفّال في معنى الفاء العاطفة؛ وأخذ في تقرير التعلّق والترتيب بمالا يخلو من التكلّف؛ وسكت عن ذكر الملقيات ذكراً. فكأنّه رأى أنّ الملقيات مقدّم زماناً ورتبةً على النشر والفرق.

وفيه أنّه لمّا تبيّن لنا بعدُ العناية في العطف بالفاء في هذه الآيات. والله العالم. ولا دليل على ما ذكره القفّال دليلاً قطعيّاً أو بحيْث يطمئنّ إليه النفس. وقال ابن‌هشام في المغني/ ٨٣، بعد ما ذكر معنى الفاء العاطفة من الترتيب المعنويّ والذكريّ: ... وقال الفرّاء: لاتفيد الترتيب مطلقاً. وهذا مع قوله إنّ الواو تفيد الترتيب، غريب. واحتجّ بقوله تعالى: «أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أوهم قائلون». (الأعراف/ ٤)

أقول: الظّاهر أنّ بعض الموارد الّتي استدلوا بها على الترتيب، إنّما يستفاد الترتيب بمناسبة المورد والمقام، لابحسب دلالة الفاء. فأيّ محصّل لتقرير الترتيب في هذه الآيات المبحوث عنها، بين إلقاء الذكر على الأنبياء، وبين نشره في أطراف العالم؟! فلا دلالة فيها غير أنّ الصّفات المعطوفة من نعوت المعطوفة عليها ومن شؤونها وأفعالها.

وكيف كان، لَمّا كان قوله تعالى: «فالملقيات ذكراً» كالنصّ بأنّ المراد منه الملائكة، يكون عطفها على الناشرات، أو على الفارقات، قرينةً واضحةً أخرى على أنّ المراد من الناشرات والفارقات هي الملائكة.

والإلقاء: طرح الشيء إلى الغير. والتلقّي: أخذه بالقبول عن الغير. والمراد منه في أمثال المقام الإفاضة والتعليم بالقراءة، والتعليم بالإيحاء والإلهام. قال تعالى:

«وإنّك لتلقّى القرآن من لدن حكيم عليم». (النمل/ ٦)

والذكر من الألفاظ الشائعة في الكتاب والسنّة. والمراد منه العلم في مقابل الجهل والضّلال. والذكر بهذا المعنى وبإطلاقه، شامل لجميع أنواع العلوم المفاضة من الله ـ سبحانه ـ مع الواسطة أو بدونها؛ مثل معرفة الله ومعرفة توحيده ونعوته وكمالاته وغير ذلك.

إلاّ أنّ المراد منها في المقام، الرسالة والحقائق المفاضة على الإنسان الرسول بوساطة الملك والرسول يشافهه و يكلّمه قبلاً. فلا يشمل ما يتلقّى بالنبوّة؛ بناءاً على ما قيل إنّها عبارة عن الوحي المتلقّى من الله بلاواسطة الملك.

فالظّاهر أنّه يشمل التحديث أيضاً. فإنّه عبارة عن تكليم الملك بسماع صوته من دون مشاهدة شخصه، في غير باب الشرائع والأحكام وكذلك ما كان نقراً في الأسماع ونكتاً في القلوب. فإنّها تأييدات وكرامات شخصيّة للصّدّيق الذي يحدّثه الملك.

فتلخّص أنّ الملقيات هم حملة الوحي وأمناء العلم الواسطة بين الله -سبحانه- وبين رسله الكرام. وكذلك بينه تعالى وبين الصّدّيق المعصوم غير النّبيّ والرّسول.

قوله تعالى: «عُذْراً أو نُذْراً (٦)»

الظّاهر أنّه مفعول لأجله. أي: لتلقين الذكر عذراً من الله -سبحانه- بالنسبة إلى عباده؛ كيلا يقولوا يوم القيامة: «لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى». (طه/١٣٤) و«ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنه». (الأنفال/٤٢)

فالبلاغ لأجل الإعذار والإنذار، وإن خوطب بها الكلّ. إلاّ أنّ الإعذار يتحقّق في مورد المكابرين والمعاندين والمتساهلين. كما أنّ الإنذار لاينفع إلاّ في مورد من اتّبع الذكر وخشي الرّحمن بالغيب.

قوله تعالى: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)».

جواب للأقسام المذكورة في صدر السّورة. وقد أقسم تعالى بالمرسلات و... أنّ الذي توعدون به من أمر القيامة وما يقع فيها من الشدائد والأهوال والنعمة والرّوح والريحان، واقع لامحالة. والإتيان بـ «إنّ» المشدّدة ولام التأكيد، لتحقيق مضمون الجملة وتأكيدها.

وقيل: إنّ الإتيان بلفظ الواقع دون الكائن وغيرها من أفعال العموم، للدّلالة على الحدوث وأنّ ما يوعدون، ليقع البتّة. (أُنظر: مجمع البيان ٤١٥/١٠)

قوله تعالى: «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨)».

بيان: بعد ما أخبر تعالى بوقوع الوعد الصّادق ومجيء القيامة تهديداً للمكذّبين، شرع -سبحانه- في بيان شيء من علاماتها. وليس الغرض

استقصاء جميعها.

وإنّما ذكر تعالى هذه العلامات في القرآن الكريم على قدر ما تمسّ الحاجة إليه، في متفرّقات الآيات، وإشباع الغرض المسوق له الكلام. وخلاصة القول في ذلك سيأتي ـ ان شاء الله ـ في سورة الانشقاق.

قوله: «إذا»؛ الظّاهر أنّه ظرف لوقوع ما يوعدون من أهوال السّاعة وشدائدها، عقيب العلامات المذكورة في هذه الآيات.

في القاموس ٢/ ٢٢٧: الطموس: الدروس والامّحاء. يطمُس ويطمِس. وطمسته طمساً: محوتُه. والشيء: استأصلت أثره. ومنه: «وإذا النجوم طُمِسَتْ». و«اطمِس على أموالهم» [يونس/ ٨٨]: أهلكها.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم ٢/ ٤٠١ عن أبي الجارود، عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ في قوله تعالى: «فإذا النجوم طمست»: فطموسها ذهاب ضوئها.

أقول: فعلى ما ذكره القاموس، يكون المراد في الآية الكريمة، انحلال النجوم وتلاشيها وانعدامها بالكلّيّة؛ إلاّ أنّ قوله: «الدروس» ينطبق على التفسير الّذي رواه أبوالجارود.

فعلى تفسير الرواية، تكون الآية قريبة المفاد من قوله تعالى: «فإذا النجوم انكدرت». (التكوير/ ٢) ـ وبناءاً على تفسير القاموس، تكون الآية مثلْ قوله تعالى: «وإذا الكواكب انتثرت». (الانفطار/ ٢)

ولايخفى أنّه لامنافاة بين دروس النجوم وذهاب ضوئها وبين انتشارها وانحلالها بالكلّيّة. لوضوح أنّ هذه الحوادث أمور متدرّجة في طيّ الزمان. فالدروس عند أوّل ما أخذ في انطماسها؛ والانتثار والامّحاء عند آخر عمرها.

قوله تعالى: «وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ(٩)»؛ أي: تشقّقت وتقطّعت ووقعت فيها خلل وفروج. والآية الكريمة قريبة المفاد من قوله تعالى: «إذا السّماء انشقّت». (الانشقاق/ ١)

ولاينافي ذلك قوله تعالى: «يوم تمور السّماء موراً». (الطور/ ٩) والمور ـ كما ذكره القاموس ٢/ ١٣٦ ـ: الموج والاضطراب والجريان على وجه

الأرض. فإنّ الانفراج والانشقاق في بدو الأمر؛ والموران والجريان والسيلان إنّما يكون بعده، إلى أن ينتهي إلى الانهدام. كما هو ظاهر قوله تعالى: «وإذا السّماء كشطت». (التكوير/ ١١)؛ أي: قلعت كما يُقلع السّقف. (انظر: القاموس ٢/ ٣٨٢)

قوله تعالى: «وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠)».

في القاموس ٣/ ١٩٩: نسف البناء ينسفه: قلعه من أصله. والبعير النبت كذلك. كانتسفه فيهما.... والجبالَ: دكّها وذرأها.

أقول: ظاهر أنّ مراد القاموس أنّ النسف في مورد الجبال أُريد منه الدكّ والذرء، لا أنّه منحصر بهذا المعنى وبمورد الجبال. بل يستعمل بمعنى القلع وبمعنى الدكّ والذرء في غير مورد الجبال أيضاً. كما في قوله تعالى:

«وانظر إلى إلٰهك الّذي ظلت عليه عاكفاً لنحرّقنّه ثمّ لننسفنّه في اليمّ نسفاً». (طه/ ٩٧)

وبالجملة دكّ الجبال وذرؤها من أشراط السّاعة. وإليه ينظر عدّة من الآيات. قال تعالى:

«ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً». (طه/ ١٠٥ـ ١٠٧)

كما أنّه لامنافاة ولامعارضة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: «وإذا الجبال سيّرت» (التكوير/ ٣) إلاّ أنّها تدلّ على السّير المطلق وتشمل ما قبل الدكّ والذرء أيضاً. لأنّ كلا المعنيين واقعان تدريجاً في طيّ الزمان؛ كما ذكرناه سابقاً.

قوله تعالى: «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١)».

بيان: قال في القاموس ١/ ١٤٢: الأقت والتّأقيت: تحديد الأوقات.

وقوله: «أُقّتت» فعل مجهول أُسند إلى الرّسل. وواضح أنّ الرسل بما أنّهم رسل، لامحصّل لتوقيتهم وتحديدهم بالأوقات بأعيانهم؛ بل لابدّ أن يقال: إنّ الرسل أُقّتت بحسب شأن من شؤونهم. مثل أن يقال: إنّهم مؤقّتون من حيث بعثهم من قبورهم كي يحضرون في موقف الشّهادة على أممهم.

فهل يكون هذا البعث في وقت معلوم لأجل أداء الشهادة على أممهم، من باب بيان علامات السّاعة، إنذاراً وتهديداً على المكذّبين، أو من باب بيان حالات الساعة وبيان شيء من أهوالها وشدائدها إذ لامانع في ذكر علامات القيامة القارعة وشيء من أهوالها أيضاً في مقام التهديد على المكذّبين ضرورة أنّ موقف البعث والحشر من القبور من المواقف الهائلة من مواقف القيامة. ونظائر ذلك كثيرة في القرآن الكريم. قال تعالى:

«إذا الشّمس كوّرت * ... * وإذا الجحيم سعّرت». (التكوير/ ١ـ١٢)

فتحصّل في المقام أنّ الإنذار والتهديد، كما أنه وقع لطمس النّجوم ونسف الجبال اللّذين هما من علامات السّاعة، كذلك وقع لذكر أهوال السّاعة أيضاً. فظهر أنّ بعث الرسل وإحضارهم في أوقات معلومة وإحضارهم في موقف الشّهادة. قال تعالى:

«فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً». (النساء/ ٤١)

«ويوم نبعث من كلّ أمّة شهيداً». (النحل/ ٨٤)

«ويوم نبعث في كلّ أمّة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء». (النحل/ ٨٩)

أقول: قد تقرّر في تفسير هذه الآيات أنّ المراد بالشّهيد في هذه الآيات، هم الأنبياء والصدّيقون من الأوصياء؛ يشاهدون في الدنيا أعمال أممهم ومن اتّبعهم، فيؤدّون الشهادة على أتباعهم يوم الفصل. وفي هذه الآيات إشعار بتأييد ما ذكره بعض من أنّ المراد بالتأقيت هو تأقيتهم من حيث بعثهم وإحضارهم في موقف الشّهادة على أممهم.

وأمّا مايمكن أن يقال إنّ المراد بالتأقيت هو تأقيت بعثهم من قبورهم وإحضارهم كي يسألوا عما أُجيبوا من أممهم؛ فلا يخلو من الضّعف وغير متلائم بموقف فصل القضاء والحكومة العادلة. ولا ينفع في ذلك ما ذكروه في تأييده بقوله تعالى: «يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا أُجبتم» (المائدة/ ١٠٩) وقوله تعالى: «فلنسألنّ الّذين أُرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين». (الأعراف/ ٦)

فتحصّل أنّ الظّاهر والمتناسب لظواهر هذه الآيات، هو الّذي ذكرناه من أنّ الرسل أقّتت من حيث بعثهم كي يحضروا للشّهادة في موقف الحكومة الفاصلة والقضاء الحقّ.

قال في المجمع ١٠/ ٤١٥ : قال الصّادق -عليه السّلام-: «أقّتت»؛ أي: بعثت في أوقات مختلفة.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم ٢/ ٤٠٠ : «وإذا الرسل أقّتت». قال: بعثت في أوقات مختلفة.

أقول: الرّوايتان مرسلتان. وفيهما إجمال وإبهام من حيث إنّ البعث فيهما يحتمل البعث في الدّنيا للبلاغ والإنذار ويحتمل البعث من قبورهم لإقامة الشّهادة. فحيث إنّ سياق الآيات من صدر السّورة إلى قوله تعالى: «ويل يومئذ للمكذّبين» كالصّريح في التهديد بذكر علامات السّاعة وشيء من شدائدها، فلا محالة تكون الآيات الكريمة شارحةً ورافعةً لإجمالها وإبهامها.

قوله تعالى: «لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢)».

أقول: «أُجّلت» من مصدر التأجيل -بمعنى: ضرب الأجل لشيء إلى أجل مسمّى معلوم- فعل مجهول مسند إلى الرّسل. فالمعنى بحسب الظاهر: أُجّلت هؤلاء الرسل ليوم الفصل لشهادتهم على أممهم في ذلك اليوم.

والظّاهر أنّ الاستفهام للتعجّب، ولتفخيم الأمر وتهويله في شأن يوم الفصل. فالمعنى كأنّه يسأل ويستفهم على سبيل التعجّب: لأيّ يوم خطير أُجّلت فأُخّرت إحضار تلك الرسل؟! فأجاب -سبحانه-: أُجّلت هؤلاء الرسل -أي إحضارهم- ليوم الفصل. فتبيّن ممّا ذكرنا أنّ مفاد قوله تعالى: «أقّتت» أي: بعثت في وقت معلوم متقدّم على قوله تعالى: «لأيّ يوم أُجّلت» وليس كلاهما بمعنى واحد وغرض واحد. وكلاهما من أهوال السّاعة لا من أشراطها، كما تكلّفه الرازيّ في تفسير قوله: «اقّتت». (أنظر: تفسير الرازي ٣٠/ ٢٦٩- ٢٧٠)

قوله تعالى: «لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)».

جواب عن قوله تعالى: «لأيّ يوم أجّلت». والظّاهر أنّ اللاّم

للتّخصيص. فكأنّ التأجيل ليوم عظيم وشأن خطير قد كان مفروغاً وإنّما سئل عن تعيينه وتخصيصه. وهذا السّؤال على سبيل التعجّب. والجواب للتّهويل والتخويف. وفيه دلالة على ما استظهرناه من التفريق والتفكيك بين قوله: «وإذا الرسل أقّتت» وبين قوله تعالى: «لأيّ يوم أجّلت». فاتّضح أنّ يوم الفصل هو الميقات والموعد لهذا الأجل.

والفصل بمعنى الحاجز بين شيئين. والظّاهر أنّ المراد به في المقام، التفريق بين الحقّ والباطل والصّدق والكذب، ورفع الالتباس والمغالطات الّتي زيّن بها أهل الباطل والبدع مقالاتهم الكاذبة الواهية. وقد يطلق الفصل على القول الحقّ وعلى الكلام الصّدق أيضاً. قال تعالى: «إنّه لقول فصل * وما هو بالهزل». (الطّارق/١٣ و١٤)

قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)».

تفخيم لأمر هذا اليوم وشأنه. وفيه تحذير وتهديد للمبطلين.

وقوله «ما» في كلا الموضعين أو الأوّل منها، استفهام على سبيل التعجّب. أي: أيّ شيء أعلمك ما يوم الفصل؟!

قوله تعالى: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)».

دعاء من الله ـ سبحانه ـ على المكذّبين. وواضح أنّ دعاءه ـ سبحانه ـ على أحد ليس كدعاء أحد من النّاس على غيره. فإنّ دعاءه عين حكمه وقضائه المبرم عليه. قال في القاموس ٤/٦٦: الويل: حلول الشّرّ. وبهاءٍ: الفضيحة... وويل كلمة عذاب، وواد في جهنّم أو بئر أو باب لها.

والظّاهر أنّ المراد من المكذّبين، ليس كلّ من كُذّب بما جاء به الرّسل؛ من التوحيد والمعاد والرسالة والنبوّة والولاية لمن والاه تعالى والعداوة لمن عاداه ـ سبحانه ـ وخاصّةً الولاية للرّسول الأعظم وأحبّائه وأوصيائه، والأحكام والشرائع. وعلى هذا، يكون المراد من المكذّبين أنواع المكذّبين واللاّم للاستغراق الأنواعيّ.

فإن قلت: المستفاد من سياق الآيات من صدر السّورة المباركة إلى قوله:

«المكذّبين» أنّ مورد الاحتجاج والإثبات إحقاق أمر المعاد. وقد أقسم تعالى بالمرسلات و... أنّ ماتوعدون من البعث والحشر لواقع البتّة. فعليه يكون المراد من المكذّبين المنكرين للمعاد، أيّ نوع من المكذّبين.

قلت: نعم؛ إلاّ أنّ ذكر هذه الأشراط وشيء من الحوادث، ليس من باب إخبار المحض، ولا من باب الإخبار بالغيوب فقط. بل الظّاهر أنّ ذكر تلك الأشراط الفازعة، وذكر هذه الشّدائد القارعة في عرصات القيامة، كلّ ذلك للتحذير والتخويف للنّاس. ولا مجال لأن يقال إنّ الإنذار متوجّه إلى من كذّب المعاد فقط. فعليه يكون الويل على جميع أنواع المكذّبين في سياق هذه الآيات أيضاً. فكيف يصحّ أن يقال إنّ التأجيل على الرسل لإحضارهم للشّهادة على أممهم في يوم الفصل لإحقاق المعاد أو لإثبات كونهم مجرمين من حيث إنكار المعاد في الدنيا؟! ضرورة أنّ يوم الفصل لإحقاق الحقوق بين الخلائق أجمعين وبين الخلائق والخالق وأوليائه فيما ضيّعوه من حقّه ـ سبحانه ـ وحقوق أوليائه. فقوله تعالى: «المكذّبين» الجمع المحلّى بلام الاستغراق، نصّ قاطع في العموم الأنواعيّ. فلا يجوز تخصيصه إلاّ بدليل قطعيّ. ولايمكن تخصيصه ـ وخاصّة التخصيص بالأكثر ـ بهذه الاستظهارات الواهية.

في نورالثقلين ٥/٤٨٨، عن الكافي مسنداً، عن محمّد بن الفضيل، عن أبي الحسن الماضي ـ عليه السّلام ـ قال:

قلت: «ويل يومئذ للمكذّبين».

قال: يقول: ويل للمكذّبين ـ يا محمّد ـ بما أوحيت إليك من ولاية عليّ ـ عليه السّلام.

أقول: ظاهر أنّ الرواية الشريفة من باب بيان المصداق، لامن باب بيان تمام المراد. ولا يصحّ أن يقال إنّها تخصيص للمقام؛ لاحتياج التخصيص إلى الحصر في مفاد الرّواية. إذ لا تنافي بين المثبتين إلاّ مع الحصر في أحدهما بحيث تفيد نفي الآخر.

وبما ذكرنا يظهر ضعف ما ذكره في المجمع وغيره في غيره. قال في المجمع ١٠/٤١٥: إنّما خصّ الوعيد بمن جحدوا يوم القيامة وَكَذَّبَ به. لأنّ

التكذيب بذلك يتبعه خصال المعاصي كلّها وإن لم يذكر معه.

أقول: لايخفى مع ضعفه، ضعف ماذكره من التعليل. فإنّ إنكار التوحيد والصانع، أعظم فساداً ومضرّةً من تكذيب المعاد. فالأنسب في التعليل الاعتماد على دلالة اللّفظ وظهور الكلام لوكان له ظهور.

فإن قيل: فما جواب قوله: «فإذا النجوم طمست» ـ الخ؟ وما العامل في الظرف؟

قلت: فيه وجوه:

«الأوّل: إنّ الجواب والعامل في الظّرف، ما هو المقدّر في قوله تعالى: «ويل يومئذ للمكذّبين» أي خبره الّذي تعلّق به الجارّ.

الثاني: إنّ الجواب محذوف. والتقدير: إذا النّجوم طمست ـ الخ، تقع المجازاة بالأعمال وتقوم القيامة. (تفسيرالرازي ٣٠/٢٧١)

الثالث: هو الثاني بعينه؛ إلاّ أنّه قال: وقعت القيامة.

والرابع: إنّ قوله تعالى: «إنّما توعدون لواقع» إذا طمست النجوم ـ الخ.

فالمتعيّن هو الثاني. أي: إذا كان كذا وكذا، تقوم القيامة وتقع الجازاة.

أمّا الأوّل، فيصحّ بالنسبة إلى قوله: «وإذا الرّسل ـ إلى قوله تعالى ـ مايوم الفصل» وناقص بالنسبة إلى الأشراط الثلاثة المتقدّمة.

وأمّا الثالث، فيصحّ بالنسبة إلى الأشراط وغير تامّ بالنسبة إلى قوله: «وإذا الرسل...»

وأما الرّابع، فباطل مطلقاً. لأنّ الفاء في قوله: «فإذا النجوم» ـ الخ فاصلة بين «لواقع» وبين «إذا»، فلايمكن أن يكون عاملاً فيه. وثانياً انّ لازم ذلك أن **تكون ماتوعدون مقارناً** مع الطمس وفي ظرفه وفي عَرْضِه. ذكر ذلك الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٧١ أيضاً.

فقد تحصّل في المقام أنّ السّورة المباركة إلى قوله: «لواقع» في مقام الإخبار عن وقوع القيامة والتحذير والإنذار بوقوعها مع الِاهتمام بها و تأكيدها بالأقسام المذكورة ولام التأكيد، ثمّ الإنذار بذكر عدّة من علاماتها المدهشة وبذكر شيء من حوادثها وإقامة يوم الفصل والقضاء وحكمه تعالى على

المكذّبين بالدعاء عليهم بالهلاك .

/ ← أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

بيان:

الظّاهر أنّ الغرض المسوق له الآيات إلى قوله تعالى: « وأسقيناكم ماءاً فراتا» هو الاحتجاج والاستدلال على صحّة ما ذكره تعالى في الآيات المتقدّمة؛ من انحلال الدنيا وما فيها، واستقبال الآخرة مع ما فيها من شؤونها وحوادثها من إقامة يوم الفصل والقضاء ومجازاة الظّالمين والمكذّبين بالعذاب والهلاك .

قد احتجّ ـ سبحانه ـ على قدرته وعلى صحّة مايفعله في عالم الغيب، بما يرونه ويشهدون من قدرته الظّاهرة وتوحّده ـ سبحانه ـ فيها بالآيات الواضحة والعلامات السّاطعة من صنعه وسننه: ألم يروا أنّه كيف أهلك المكذّبين بسطواته؟! وكيف حصد من حصد منهم بنقماته في قرن بعد قرن؟! وكيف صيّر نعمته عليهم نقمةً وبدّل عزّته ذلّةً؟! وقال تعالى: « كذلك نفعل بالمجرمين» . فالقادر على إهلاك المكذّبين في الدنيا، هو القادر على إهلاك المنكرين في الآخرة. فإنشاء النشأة الأخرى والنشأة الأولى عنده تعالى سواء؛ وكلاهما أهون من أن يمتنع عليه تعالى من غير فرق بين سنّة وسنّة، بالنسبة إلى قدرته تعالى. فليس إيجاد صنع وإجراء سنّة من سننه تعالى أهون عنده

تعالى من الأخرى؛ ولا بعضها أشقّ وأصعب عليه ـ سبحانه ـ دون بعض. فالمشهود من هذه الصنائع والسّنن، دليل قاطع عند أولي الألباب على كون المستور منها مقدوراً لله ـ سبحانه ـ وكونه تعالى متوحّدا ومتفرّداً في جميع ذلك .

قوله تعالى :« أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) » .

احتجاج وتخويف وإنذار. و« لم» من الحروف الجازمة الّتي تفيد نفي صيغة المضارع في الماضي. وحيث إنّ المقام مقام الاحتجاج، أراد بالاستفهام إلزام المخاطبين على الإقرار والاعتراف، وتوبيخ المكذّبين وتشنيعهم على الإنكار والتكذيب لأمر قد ثبت عندهم بالبرهان والوجدان، بأنّ المهلك هو الله ـ سبحانه ـ وحده.

والمراد بالأوّلين كلّ من كذّب الرسل فيما جاؤوا به من عندالله أو في بعض ما جاؤوا به من المعارف والأحكام. ولايجوز أن يقال إنّ المراد بالأوّلين هم الأقدمون من الماضين؛ بل يشمل جميع المكذّبين الّذين أهلكم الله بذنوبهم قبل زمان الرّسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وقوله: « ثمّ» للاستيناف. ذكره في الكشّاف ٤/ ٢٠٣، وفي المجمع ١٠/ ٤١٦ .

وقوله: « نتبع» بالرفع على الاستقبال؛ وليس معطوفاً على قوله: « نهلك » كي يكون مجزوماً وبمعنى الماضي ويكون المراد بالآخرين، المتأخّرين من الأمم الّتي أهلكهم الله بذنوبهم؛ كما قيل: إنّ المراد بالأوّلين قوم نوح وعاد وثمود؛ وبالآخرين مثل قوم إبراهيم ولوط (أُنظر: الكشّاف ٤/ ٢٠٣)

فالحقّ أنّ قوله « نتبع» ـ بالرفع، على القراءة المشهورة ـ نصّ في الاستقبال؛ ويكون المراد بالآخرين هم المتأخّرون بعد زمان الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ من الطغاة وفراعنة الأرض وأتباعهم إلى يوم القيامة. وهذه السنّة المقدّسة الإلٰهيّة، جارية في الأوّلين والآخرين في كلّ عصر وفي كل قرن بعد قرن. وهي من آيات قدرته ومن براهين كبريائه وجلاله ـ جلّ جلاله.

قوله تعالى : « كَذلكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) » .

إشارة إلى ما تقدّم في الآيتين؛ من إهلاك الظّالمين والطّاغين من الأوّلين والآخرين. وهذا تمجيد منه تعالى على نفسه أنّه لم يهمَل عنده الأمور؛ ولا تسامح ولا تغافل منه تعالى في شيء من دقائق التدبير والقضاء بالعدل. وقد أخبر تعالى أنّ هذا مجده الدائم ومن سننه الجارية، من غير فرق بين قرن وقرن وبين الدنيا والآخرة، إلى أن يقع الجزاء على النحو الأوفى ويقع كلّ حقّ في محلّه ومقرّه. وهذه الجملة المباركة تهديد للمكذّبين بنكال الدّنيا وعذاب الآخرة.

قوله تعالى: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩)».

هذا بمنزلة التّفريع والنّتيجة ممّا تقدّم. أي: بعد وضوح الدلائل وسطوع البراهين على نكاله تعالى وبأسه الشّديد على المكذّبين في الدنيا وفي الآخرة، وعلى صحّة وقوع يوم الفصل، فلا مسوّغ لهم لتكذيبهم الرّسل. فالويل لهم يوم يحكم الله ربّ العالمين. أو يقال: إنّ قضيّة العدل والحكم بالقسط، تقضي وتحكم باستحقاق المكذّبين العقاب في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠)».

الهمزة للاستفهام؛ أريد به إلزام المخاطبين على الإقرار والاعتراف بقدرته تعالى وحسن إنعامه تعالى عليهم، وتوبيخهم على الكفران والإنكار. والخلق بمعنى التقدير؛ كما صرّح به أهل اللّغة وذكره في المرآة/ ١٤٣ وقال: إنّه استعمل في مورد الإيجاد أيضاً.

أقول: الخلق إن قلنا إنّه استعمل في الإيجاد، فالظّاهر أنّه الإيجاد عن تقدير.

وقوله تعالى: «مهين» صفة مشبّهة أي: القليل والحقير من مهن يمهن. وفي لسان العرب ٢١٢/١٣: وامتهن نفسه: ابتذلها. وفيه تقريع شديد وتوبيخ على المكذّبين أنّه تعالى قد خلق من هذا الماء المهين إنساناً في أحسن صورة وأحسن تقويم ذاشعور وإرادة وكمال وجلال وجمال ومهابة ووقار وعزّة وكبرياء وغيرها من آثار فضله وقدرته ـ سبحانه ـ الّتي لاينكرها إلاّ معاند أو مكابر.

وقد ذكرنا في الأبحاث السّابقة أنّ هذه الآية ونظائرها، لا تنافي الآيات الدالّة على خلق الإنسان من التّراب. لأنّ كُلاً منها من المراتب الطّوليّة في خلق الإنسان. وكذلك كلتا الطّائفتين من الآيات، لا تنافيان قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً» (الدّهر/ ١)

قوله تعالى: «فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)».

الضّمير للماء. والقرار مصدر أريد منه المقرّ. وقد فسّره في المجمع بالمكان. والمكين اسم فاعل من مكن يمكن. والظّاهر أنّه صفة للقرار باعتبار مايستقرّ فيه؛ أعني الماء. أي: في قرار مكين فيه الماء، أي ماكث.

قوله تعالى: «إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢)».

الظّاهر أنّ المراد المقدار والحدّ. قال في القاموس ٢/ ١١٤: القدر: مبلغ الشيء.

وهذا المقدار والحدّ بالنسبة إلى كلّ نفس، معلوم عنده ـ سبحانه ـ بحسب أيّامه وساعاته ولحظاته وآنائه بخصوصها. فإنّه ـ سبحانه ـ هو المقدّر لهذا الوقت. «ألا يعلم من خلق وهو اللّطيف الخبير». (الملك/ ١٤)

قوله تعالى: «فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)».

فيه ثلاثة وجوه:

الأوّل: أن يكون قوله تعالى: «فقدرنا» بمعنى التقدير. قال في القاموس ٢/ ١١٤: القَدَرُ ـ مُحَرَّكَةً ـ: القضاءُ والحكم ومبلغ الشيء.... وقدرالله تعالى ذلك عليه يقدُرُهُ ويقدِرُهُ قدراً وقَدَراً وَقَدَّرَهُ عليه وله.

أقول: وقد استعمل بهذا المعنى في القرآن الكريم. قال تعالى:

«إنّا أنزلناه في ليلة القدر». (القدر/ ١)
«قد جعل الله لكلّ شيء قدراً». (الطّلاق/ ٣)
«إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر». (القمر/ ٤٩)
«وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزّله إلاّ بقدر معلوم». (الحجر/ ٢١)

فعليه فالمعنى: إنّا خلقناكم. وقدّرنا خلقكم من هذا الماء المهين؛ وهو النطفة. وجعلناه في مقرّمكين؛ وهوالرحم. ومكث فيه إلى قدر معلوم؛ وهو

مدّة الحمل ونشوء الولد فيه خلقاً بعد خلق. كلّ ذلك بتقدير العليم الحكيم.

وقد مجّد تعالى نفسه بفعل هذا الصّنع البديع الحكيم بقوله: «فنعم القادرون» نحن؛ أي: نعم المقدّرون. والتعبير بلفظ الجمع للتّعظيم في سياق كلام العظماء؛ مثل قوله: «والأرض فرشناها فنعم الماهدون». (الذاريات/ ٤٨) وقدجرت سنّته تعالى على ذلك السّياق في كتابه الكريم؛ وتكلّم بلسان الألوهيّة والكبرياء وعبرّ عن نفسه كثيراً بلفظ الجمع إلاّ في موارد خاصّة بعنايات خاصّة.

الوجه الثّاني: أن يكون قوله تعالى: «فقدرنا» من القدرة. أي: خلقناكم... فقدرنا على ذلك؛ أي: إنّا نقدر على ذلك، فنعم القادرون نحن.

الوجه الثّالث: قال الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٧٣: قرأ نافع وعبدالله بن عامر بالتشديد؛ والباقون بالتخفيف.

أقول: منْ أخذ بقراءة التشديد في قوله تعالى: «فقدرنا»، فاستشكل عليه بأنّه يجب أن يلتزم بأن يقول في قوله تعالى: «فنعم القادرون»: فنعم المقدّرون.

وأُجيب عنه أنّ ذلك من باب الجمع بين المعنيين؛ كما في قوله تعالى: «أمهلهم رويداً». (الطارق/ ١٧) فأُخذ قوله: «فقدرنا» من باب التفعيل، وقوله تعالى: «فنعم القادرون» من باب قدر يقدر.

والظّاهر أنّ الصّواب هو الوجه الأوّل والأخذ بالقراءة المشهورة؛ لاحتياج الوجه الثاني إلى التكلّف في توجيه قوله تعالى: «فقدرنا» بلفظ الماضي، واحتياج الوجه الثالث إلى الجمع بين المعنيين. وكلا التوجهين غير واضح.

ومتعلّق التقدير هو خلق الإنسان من الماء المهين، وجعله في قرار مكين، ومكثه فيه إلى قدر معلوم. وأمّا ما يقال من شمول الآية لِتصوير الإنسان دميماً أو وجيهاً أو قصيراً أو طويلاً كما ورد في تفسير الرازي ٣٠/ ٢٧٢، فغير معلوم؛ وإن كان هذا حقّاً في حدّ نفسه بحسب الأدلّة الأخرى، إلاّ أنّه لابدّ من التقدير في كلّ طور من أطوار الخلقة بحسب قوله تعالى: «هو الّذي يصوّركم في

الأرحام كيف يشاء». (آل‌عمران/٦) وأولى بالمنع دعوى شمول الآية ما يستقبله الإنسان ممّا يجري عليه من الحوادث في أيّام حياته؛ من المرض والصحّة والبلاء والرفاه وغيرها من الحالات، وإن كان جميع ذلك مقدّراً بحسب الأدلّة الأخرى.

إن قلت: فأيّ مانع من الإطلاق في قوله تعالى: «فقدرنا» بالنسبة إلى متعلّقاته؟

قلت: دعوى الإطلاق متوقّف على إحراز أنّ المتكلّم في مقام بيان جميع الأنحاء والفروض ولادليل في المقام على أنّ الله ـ سبحانه ـ في مقام بيان جميع أطوار خلق الإنسان وشؤونه ومايجري عليه وما يستقبله من الحوادث والحالات في أيّام حياته. وصلاحيّة الموارد ـ أي: صلاحيّة كون الإنسان ذا أطوار وحالات مختلفة إلى آخر عمره ـ لايكفي في إثبات الإطلاق.

هذا أوّلاً. وثانياً: انّ الآيات ظاهرة في أنّها مسوقة لبيان سنّة الله الحكيمة في خلقة الإنسان وأنّه كيف قرّره وجعله على سبيل التّناسل وإنشاء إنسان من إنسان آخر، على تقدير منظّم متقن، في مقابل السّنن الأخرى المعلومة المقدورة لله ـ سبحانه ـ الجارية في غير الإنسان من خلقه تعالى. فليست الآيات مسوقةً في بيان كيفيّة خلق الإنسان من حيث أطوار خلقه حتّى يتشبّث بإطلاق الآية فيها؛ فضلاً عن حالاته ومايجري عليه في مدّة حياته. والآية الكريمة قريبة المفاد من قوله تعالى:

«وبدأ خلق الإنسان من طين * ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين». (السّجدة/ ٧ و ٨)

قال في القاموس ٣٩٦/٣: السّلالة ـ بالضمّ ـ: ما انسلّ من الشّيء.

وقال تعالى:

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثمّ جعلناه نطفةً في قرار مكين * ثمّ خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً...». (المؤمنون/ ١٢ــ١٤)

«هو الّذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ يخرجكم طفلاً...». (غافر/ ٦٧)

أقول: هذه الآيات الكريمة فيها أبحاث جليلة أعرضنا عن إيرادها في المقام. والغرض من إيرادها توضيح الآية المبحوثة عنها وأنّها في مقام بيان خلقة الإنسان وتدبير أمر الخلقة على التّناسل وتكثير هذا النوع بإنشاء إنسان من إنسان آخر.

قوله تعالى: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)»؛ أي: في يوم الفصل لجميع المكذّبين للرّسل في جميع ما جاؤوا به أو في بعض ما جاؤوا به من دين الله. فكأنّ هذا الويل لهم متفرّع ومترتّب على ما ذكره تعالى في هذه الآيات؛ من الأدلّة القائمة والحجج الباهرة في خلقة الإنسان، على قدرته وعلى علمه في تدبير هذا الخلق العظيم وجعله في مسير التّناسل وتقدير هذا المسير وتنظيمه من حيث استيفاء الغايات الّتي خلق الانسان لها. فالويل الدائم لمن أنكر المدبّر وجحد المقدّر.

قوله تعالى: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (٢٥) أَحْيَاءً وأَمْوَاتاً (٢٦)».

الظّاهر أنّه أُريد بالاستفهام، إلزام المخاطب على الإقرار والاعتراف بمورد الاستفهام، لبداهة الأمر ووضوح الحقّ عند من اعتبر وتدبّر فيه. وفيه تقريع للمكذّبين وتوبيخ إيّاهم.

قال في القاموس ١٥٦/١: كَفَتَهُ يَكْفِتُهُ... فانكفت، والشيء إليه: ضمّه وقبضه.... والكفات - بالكسر- : الموضع يُكفَت فيه الشيء؛ أي: يُضمّ ويجمع. والأرض كفاتٌ لنا.

فالمحصّل من عبارة القاموس أنّه بمعنى الضمّ والجمع؛ وقوله تعالى: «كفاتاً» مصدر بمعنى الفاعل. وفي الكشّاف ٢٠٤/٤: هو اسم مايكفت.... والمعنى: تكفت أحياءً على ظهرها وأمواتاً في بطنها.

في نورالثقلين ٤٨٩/٥ مسنداً، عن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبدالله عليه السّلام - أنّه نظر إلى المقابر فقال: يا حمّاد، هذه كفات الأموات. ونظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء. ثمّ تلا هذه الآية: «ألم نجعل الأرض كفاتاً».

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم ٢/ ٤٠٠:

«نظر أميرالمؤمنين - عليه السّلام - في رجوعه من الصّفّين إلى المقابر فقال: هذه كفات الأموات؛ أي: مساكنهم.

ثمّ نظر إلى بيوت الكوفة فقال: هذه كفات الأحياء. ثم تلا قوله: «ألم نجعل الأرض كفاتاً احياءاً وأمواتا»».

قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءاً فُرَاتاً (٢٧)».

قال في القاموس ٤/ ٣٣٤: رسا رَسْواً ورسوّاً: ثبت كأرسى وَالسّفينة: وقفت على الأنْجر.

والمعنى: جعل فيها الجبال الشّامخة أرسى عروقها في أعماق الأرض. ويأتي مزيد توضيح لذلك في تفسير قوله تعالى: «والجبال أرساها». (النازعات/ ٣٢)

والفرات بمعنى العذب. أي: أسقيناكم من هذه الأرض ماءاً عذباً وشراباً سائغاً.

قوله تعالى: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)».

أي: في يوم الفصل الويل لكلّ من كذّب آياته ورسله.

ولـمّا كان في هذه الآيات استدلال واحتجاج بعدّة من شواهد تدبيره تعالى ودلائل حكمته - سبحانه - على علمه وقدرته الظّاهرة الباهرة - حيث ذكر تعالى أنّه خلق الأرض وجعلها كفاتاً؛ أي: مسكناً ومقرّاً لأحياء الخلق، ومدفناً وقبوراً لأمواتهم - فلا مجال لإنكار التدبير العلميّ العمديّ وإنكار الصّانع العالم القادر الحكيم. فالويل الدائم والخيبة الخاذلة لمن تجاهل بهذه الشواهد القطعيّة واستكبر وكذّب آياته ورسله.

انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

بيـان :

الآيات الكريمة في مقام التهديد والتخويف للمكذّبين، بما يغشاهم ويحيط بهم من شدائد النّار، وما يواجهونه من الذلّة والهوان؛ وقد حقّت عليهم اللّعنة والخيبة، وفات عنهم مجال الاعتذار والاستغفار.

قوله تعالى: «انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠)».

الانطلاق هو المشي بالإرسال من غير توقّف وتقيّد.

والظّاهر أنّ الأمر على نحو التوبيخ والتقريع. ولا يبعد أن يقال: إنّ هذا الأمر أمر تكوينيّ. أي: ـ يساقون إلى النار والآمر بالأصالة هو الله ـ سبحانه. ويصحّ نسبة الأمر إلى الموكّلين بهم من الله ـ سبحانه.

والظّلّ ـ على ما يستفاد من القاموس ٤/ ١٠ ـ يطلق على فيء الغداة وفيء العشيّ، والعزّة والمنعة. ومن كلّ شيء: شخصه. ومن السحاب: ما وارى الشمس وسواده. وأظلّني: غشيني. والظّلّة: الغاشية والسّحابة وأوّل سحابة تظلّ.

أقول: بناءاً على ما ذكره أهل اللّغة: أنّ الظلّ هو ضدّ الضوء. ويكون هذه المعاني المذكورة وغيرها من موارد الاستعمال من باب التوسيع وتشبيه تلك الموارد بالظلّ، بعناية كونه ساتراً ومانعاً بالستر والمنع الحسّي أو المعنويّ كالعزّة والمنعة والأمان. أو يقال: إنّ الظلّ بمعنى السّتر والساتر. وهذه الموارد من مصاديقه وأفراده. وكيف كان، فقد استعمل الظلّ في مورد النار. قال تعالى:

«لهم من فوقهم ظلل من النّار ومن تحتهم ظلل». (الزمر/١٦)

قال في الجوامع/٤١٠ في تفسير المقام: وهي السترة العالية؛ أي: أطباق من النّار ومن تحتهم أطباق وهي ظلل للآخرين.

قال تعالى:

«وظلّ من يحموم». (الواقعة/ ٤٣)

في القاموس ٢/ ١٠٢: حُمّ -بالضّم- واليحموم: الدخان، وطائر، والجبل الأسود.

قال تعالى:

«فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظّلّة». (الشعراء/ ١٨٩)

قال في الجوامع/ ٣٣٢: روى أنّه حبس عنهم الرّيح سبعاً وسلّط عليهم الومد. وفي هامشه: الومد شدّة حرّ الليل. فأخذ بأنفاسهم فخرجوا إلى البرية فأظلّتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً. فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا.

إذا تقرّر ذلك فنقول: الأشبه في تفسير المقام أنّ المراد بالظلّ في قوله تعالى: «انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب» هو الدّخان المتصاعد من النار؛ بل لايبعد أن يقال: إنّه الدّخان الأسود.

قوله تعالى: «لاَ ظَلِيلٍ».

صفة لهذا الدّخان المسمّى بالظلّ. قال في القاموس ٤/ ١٠: ومكان ظليل ذوظلّ أو دائمه. وظلّ ظليل منه أو مبالغة.

أقول: أي المبالغة مثل ظلّ الجبال ونحوها من الأجسام الكبار الغلاظ. والمعنى: إنّ هذا الدّخان ليس له ظلّ بالمعنى المعروف، أو انّ ظلّه ليس ممّا يستراح ويستظلّ به من حرارة النّار. كما في قوله تعالى:

«وظلّ من يحموم لابارد ولا كريم». (الواقعة/ ٤٣ و ٤٤)

قوله تعالى: «وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ(٣١)».

اللّهب -على ما ذكره في القاموس ١/ ١٢٩-: اشتعال النّار إذا خلص من الدّخان.

الآية المباركة بمنزلة النعت وصفة ثانية للظلّ بمعنى الدّخان. أي: لاينفع

ولا يدفع شيئاً من شدّة النار. فالإقامة في هذا الظلّ المتصاعد من نار الجحيم، لايغني شيئاً في تخفيف عذاب النّار.

والظّاهر أنّ الغرض في المقام: التّهديد والتحذير، وبيان شدّة العذاب وأنّ الاحتباس في وسط الدّخان الّذي لاظلّ له لايدفع شيئاً من حرارة النّار ويزيد في اشتداد العذاب.

وفي هذه الآية دلالة على ضعف قول من يقول: إنّ المراد بالظلّ في قوله تعالى: «انطلقوا إلى ظلّ ...» النّار. ووجه الضّعف أنّه لامحصّل لأن يقال: إنّ النار لا تغني من النّار؛ إلاّ أن يقال: إنّ المراد من اللّهب التهاب العطش؛ وهو بعض الأقوال في تفسير اللّهب.

قوله تعالى: «إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ».

الضّمير في «إنّها» راجع إلى اللّهب وتأنيثها باعتبار أنّها النّار الخالصة من الدّخان. وهذه الجملة بمنزلة النعت وصفة للّهب قد وصفها تعالى بأنّها لشدّتها وقوّتها ترمي بشرر من نفسها وهي الجمرات المتصاعدة من النّار والقطعات الصغار منها بالنسبة إلى تلك النار تطاير منها في الجهات.

قوله تعالى: «كَالْقَصْرِ (٣٢)».

هذا نعت للشّرر. والقصر: البيوت، أو البيوت المبنيّة بالأحجار خاصّةً.

وقد ذكر المفسّرون أنّه تعالى وصف ذلك الشّرر وشبّهه بالقصور العالية في عظمة. ولايخلو من الضّعف. ضرورة أنّه لا تلاؤم ولا تناسب بين تشبيه ذلك الشّرر بالقصور العالية كالجبال، وبين تشبيهه ثانياً بالجمالة الصّفر، على ماسيجيء بيانه عن قريب ـ إن شاء الله.

قال في القاموس ٢/ ١١٧ القَصْر: الحَطَبُ الجَزْل.

أقول: الحطب الجزل؛ أي: اليابس منه. فالأشبه في المقام أنّ المراد من القصر هو الحطب أي قطعات من الحطب.

قوله تعالى: «كَأَنَّهُ حمالَةٌ صُفْرٌ (٣٣)».

قال في القاموس ٣/ ٣٥١: والجَمَل محرّكة ويسكن ميمُه وشذّ

للأنثى... والجمل محرّكة: النخل وسمكة طولها ثلاثون ذراعاً... وكسكّر وصُرَد وقُفْل وعُنُق وجَبَل: حبل السّفينة. وقُرئ بهنّ «حتّى يلج الْجمل». [الأعراف/ ٤٠]

وقال الرازيّ في تفسيره ٢٧٦/٣٠: وقيل: هي قطع النحاس. وهو مرويّ عن عليّ بن أبي طالب -عليه السّلام- وابن عبّاس. ومعظم أهل اللّغة لايعرفونه.

أقول: الجمالة جمع جَمَلْ. وقرئ: «جمالاتِ» أيضاً؛ وهو جمع الجمع. والضّمير في «كأنّه» راجع إلى الشّرر. وقد شبّه تعالى الشّرر بالقصر؛ ثمّ وصفه تعالى وشبّهه بالجمالة الصّفر.

وهذه المعاني الّتي ذكرنا في تفسير الجمل والجمالة، كلّ منها محتمل في تفسير المقام ويصلح في تفسير الآية الكريمة. ولادليل على تعيين واحد منها؛ ولمّا تقم قرينة على ذلك بعدُ بخصوصه. وجميعها متناسب للقصر بالمعنى الّذي ذكرناه في تفسير القصر. وَأمّا بناءاً على تفسير القصر بالبناء المشيّد بالأحجار، فغير ملائم بمعنى الجمل والجمالة على جميع المعاني الّتي ذكرناها في تفسير الجمل والجمالة. ولابدّ من الالتزام بالمناسبة بين القصر والجمالة الصفر ولاأقلّ من عدم المخالفة بينها. ضرورة أنّ الجمالة الصّفر في عين كونها وصفاً للشّرر، لابدّ أن ينطبق على القصر الّذي هو وصف للشّرر أيضاً.

ولمّا ذكر تعالى في مقام تهديد الكفّار والمكذّبين شدائد النّار وأهوالها، وكلّها قد لزمت في حقّ المكذّبين وقد حكم تعالى وقضى -سبحانه- بذلك، فقال -عزّ اسمه-: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)». والظّاهر أنّه اليوم الّذي يساقون إلى النّار.

قوله تعالى: «هَذَا يَوْمُ لاَيَنْطِقُونَ (٣٥) وَلاَيُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)».

قد ذكر المفسّرون في تفسير الآية الكريمة قولين: الأوّل: إنّهم لاينطقون ماينتفعون به من الكلام والخصام. الثاني: إنّ في القيامة مواقف. ففي بعضها ينطقون؛ وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلّمون.

أقول: يريدون بذلك رفع مايتوهّم من الاختلاف بين الآيات الدالّة على

النطق والكلام، وبين مايدلّ على عدم النّطق وأنه يختم على أفواههم فلا ينطقون ولايؤذن لهُم فيعتذرون.

ولايخفى أنّ الظّاهر في الآية الكريمة بقرينة المقام والسّياق: إنّ هذا الموقف والمورد، موقف سوقهم إلى النار، ومورد انطلاقهم إلى ظلّ ذي ثلاث شعب. فهذا اليوم يوم الخذلان؛ فلا ناصر لهم ولا شفيع، ويوم الذلّة. وقد سلبهم الله ـ سبحانه ـ ما قدكان وهبهم من العزّة والكبرياء؛ فالموقف موقف الهوان. وقد هانوا على الله ـ سبحانه ـ فلا كرامة لهم، ولا عهد لهم عندالله ـ سبحانه ـ بوجه.

وواضح أنّ ذلك الموقف بعد انقضاء موقف القضاء بالعدل، وبعد يوم الفصل؛ وقد أدحض الله ـ سبحانه ـ لهم كلّ حجّة؛ وأبطل تعالى لهم كلّ مايعتذرون به عن الكفر والعصيان. فما بقي موقع للنّطق والكلام. ولامورد للاعتذار والخصام. فلو أرادوا حينئذٍ النطق والاعتذار، فلا يؤذن لهم واستحقّوا عند ذلك أن يقال لهم: اخسؤوا ولا تكلّموني!

في البرهان ٤/ ٤١٨، عن الكلينيّ بإسناده عن حمّاد بن عثمان قال: سمعت أبا عبدالله ـ عليه السّلام ـ يقول: «ولا يؤذن لهم فيعتذرون». فقال:

«الله أجلّ وأعدل وأعظم من أن يكون لعبده عذر لايدعه يعتذر به. ولكن فلج فلم يكن له عذر».

قوله ـ عليه السّلام ـ: فلج؛ أي: فاز وظفر على أعدائه يومئذ بالبراهين القيّمة؛ ولم يبق لهم حجّة إلاّ أدحضها، ولاعذر إلاّ أبطله. ويمكن أن يكون المراد من عدم الإذن وعدم النطق، أي بحسب التكوين.

أقول: واضحٌ أنّ الموقف موقف الخيبة الخاذلة والويل الدائم؛ وقد استحقّوا ذلك بسوء صنيعهم فقال ـ سبحانه ـ: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧)».

أي: يوم يساقون إلى النّار وليس لهُم مجال كلام ولا اعتذار.

قوله تعالى: «هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨)».

الخطاب للمكذّبين؛ من حضر منهم ومن لم يحضر، تهديداً إيّاهم. وصرّح تعالى أنه يجمع معهم المكذّبين من الأمم السّابقة أيضاً. لأنّ سنّته تعالى في

الانتقام من الظّالمين؛ من الأوّلين والآخرين، واحدة. واختصاص الخطاب بالمكذّبين، إنّما هو لتوجيه التقريع والتوبيخ إليهم، ولبيان مايجري من حكمه تعالى فيهم.

والظّاهر بقرينة المقام والسّياق: إنّ يوم الفصل المشار إليه بقوله: «هذا» هو يوم الانطلاق إلى الظّلّ، ومورد سكوتهم عن الكلام والاعتذار، وقد فصّل الله ـ سبحانه ـ بين الحقّ والباطل وحكم على أهل الباطل والكذب، بما يحقّ ويليق بهم. فيكون المراد من يوم الفصل، هو يوم تحقّق الفصل ومضيّ الحكم فيهم.

ويؤيّد ذلك قوله تعالى: «فإن كان لكم كيد فكيدون» في الآية التالية. فإنّ المقام مقام تقريع المكذّبين وتعجيزهم، وهم مركوزون في حاقّ الذلّة والهوان وقد سلبهم الله ما كانوا يحتالونه من الشّيطنة والنكراء في دارالدنيا، لايقدرون لأنفسهم نفعاً ولادفعاً.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: «هذا يوم الفصل...» إقامة يوم الفصل وإحقاق الحقّ من الباطل.

فعلى الوجه الأوّل، يكون ما به التهديد، هو ظهور سطواته تعالى على أعدائه وإجراء القضاء العدل فيهم. و تكون هذه الآية أشدّ تهديداً من سابقتها؛ وهو قوله: «هذا يوم لاينطقون و...».

وعلى الوجه الثاني، يكون ما به التّهديد، نفس إقامة يوم الفصل وإحضار المكذّبين فيه.

قوله تعالى: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠)».

السّياق سياق التعجيز وتقريعهم على عجزهم، وقد علقت بهم مخالب قهره وسخطه تعالى ولات حين مناص، وقد تقطّعت عنهم الأسباب، وضلّت عنهم الحيل.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

بيان:

الآيات الكريمة من أوّل السّورة المباركة إلى قوله تعالى: «إنّ المتقين...» مسوقة في مقام التهديد على الكفّار والعصاة، بذكر شيء من شدائد أشراط السّاعة، وبذكر عدّة من أهوال الساعة وأفزاعها.

وأمّا قوله تعالى: «إنّ المتقين...» ففيه وجهان:

الأوّل: قوله: «إنّ المتّقين ـ إلى قوله تعالى: نجزي المحسنين» يحكي حنانه تعالى وكراماته على أهل الإيمان والتّقوى، بما أفاض عليهم من نعمائه وإحسانه، وأسكنهم في جنانه في عيش هنيء. والغرض من ذكرها أن يحكي مشاهدة الكفّار في النّار هؤلاء المؤمنين، كي يكون حسرةً وغصّةً ومحنةً عليهم ويزيد ذلك عذاباً روحيّاً على عذابهم الحسّيّ. فهذه الآيات في عين أنّها تحكي إكرامه تعالى وحنانه على عباده الصّالحين، في سياق الآيات المتقدّمه المسوقة لغرض التحذير والتّهديد للكافرين.

الثاني: إنّ الآية مسوقة في مقام البشرى والعطوفة على المتّقين.

اختار الرازيّ الوجه الأوّل وأنّ الآية الكريمة في عين أنّها تحكي أحوال المتّقين في الجنّة تهديد للكفّار. وقد أصرّ على ذلك وقال: لو لم تحمل الآية على التّهديد، لاختلّ نظم الآيات من أوّلها بأسرها. (أنظر: تفسير الرازي

٣٠/ ٢٨٢)

أقول: لاشاهد ولادليل للرازيّ في هذه الدعوى، إلاّ التشبّث بنظم الآيات. ولقائل أن يقول: أيّ موجب ودليل على أن يجعل تعالى كلامه في سورة واحدة من أوّلها إلى آخرها من سنخ واحد؟!

والوجه الثاني هو الوجيه. فإنّ الظّاهر: إنّه تعالى يحكي أحوال المتقين في الجنّة؛ وهو الغرض بالأصالة. وحسرة الكفّار من ذلك، إذا شاهدوا كراماته تعالى على المتّقين، لازم قهريّ خارج عن غرض الآية؛ لا أنّه الغرض المسوق له الآيات.

فإن قلت: فعلى ماذكرت، كيف يرتبط قوله تعالى: «ويل يومئذ للمكذّبين» بقوله تعالى: «إنّ المتّقين في ظلال وعيون»؟ وأيّ موقع لهذا التهديد بعد البشارة للمتّقين بكراماته تعالى وحنانه؟

قلت: إنّ يوم الفصل يوم يقرب فيه المحسنون ويبعد فيه المسيئون وتمتاز الأشرار من الأخيار. فلا محالة يجزي تعالى الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات إحساناً وزيادةً والّذين عملوا السّيّئات بنقماته. فتفيد الآية بشارةً للمحسنين وتهديداً للمكذّبين.

قوله تعالى: «الْمُتَّقِينَ».

أي: الّذين يتّقون جميع مايجب اتّقاؤه؛ من الكفر بأنواعه؛ ومن الشرك بأنواعه، ومن ترك الواجبات، ومن ارتكاب المحرّمات وغيرها؛ إلاّ أن يكون هناك دليل قاطع لتقييد هذا الإطلاق من عفوه تعالى وصفحه ـ سبحانه ـ عن بعض الذّنوب.

فإن قلت: إنّ من يتّقي شيئاً من هذه المآثم والمعاصي، يصدق عليه أنّه متّق؛ سواء كان متّقياً عن جميع ما يجب اتّقاؤه، أو لا.

قلت: نعم؛ إلاّ أنّ من يصدق عليه عنوان المتّقي بترك بعض المحرّمات، كذلك يصدق عليه أنّه مجرم ومفسد من وجه آخر أيضاً. فلابدّ من تحكيم هذا العموم وأن يكون المراد من المتّقين الّذين يتّقون جميع أنواع الكفر والشرك وغيرهما من المعاصي. فلادليل على القول بأنّ المراد من المتّقين من يتّقي

عن الشرك فقط، كما اختاره الرازيّ وأورد في تفسيره ٣٠/ ٢٨٢ وجوهاً في إثبات ما اختاره، أعرضنا عن إيرادها في المقام. من أرادها، فليراجعها.

قوله تعالى: «فِي ظِلَالٍ وعُيُونٍ (٤١)».

قد تقدّم في تفسير قوله تعالى: «انطلقوا إلى ظلّ...» أنّ الظّلّ هو ضدّ الضّوء. وقد استعمل في فيء الغداة والعشيّ وفي اللّيل، والعزّ والمنعة، ومن كلّ شيء: شخصه، ومن السّحاب: ماوارى الشّمس وسواده. وأظلّني: عشيني. والظّلّة: الغاشية، وأوّل سحابة تظلّ. ومكان ظليل وظلّ ظليل وغير ذلك من موارد الاستعمال.

فلابدّ من الالتزام بأنّ الظلّ بمعنى السّاتر والمانع؛ سواء كان ساتراً ومانعاً معنويّاً أو حِسّيّاً. واستعمال الظلّ في هذه الموارد من باب الاستعمال في مصاديقه. أو يقال: إنّ استعماله في تلك الموارد، من باب التشبيه بالظّلّ الحقيقيّ الحسّيّ، بعناية كونه ساتراً.

إذا تقرّر ذلك، فنقول: بناءاً على أنّ أهل الجنّة لايرون فيها شمساً ولازمهريراً، وليس فيها حرّ ولابرد، ولا ما يؤذي وما يؤلم، فلا يحتاجون فيها إلى ظلّ مثل ظلال الدنيا لمنعهم ولسترهم من الحرّ والبرد وغيرهما من المؤذيات.

فيمكن أن يقال: إنّ المراد من الظّلال في الآية المبحوثة ، وفي قوله تعالى: «وظلّ ممدود» (الواقعة/ ٣٠) وفي قوله تعالى: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلّها» (الرعد/ ٣٥) وفي قوله تعالى: «سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهّرة و ندخلهم ظلاً ظليلاً» (النساء/ ٥٧)، هو الهواء الطيّب والفضاء المنوّر المحيط بهم.

في نورالثقلين ٥/ ٢١٦، عن روضة الكافي مسنداً، عن محمّد بن إسحاق المدنيّ، عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال: سئل رسول الله ـ ونقل حديثاً طويلاً يقول فيه حاكياً حال أهل الجنّة:

«ويزور بعضهم بعضاً. ويتنعّمون في جنّاتهم في ظلّ ممدود، في

مثل مابين طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس، وأطيب من ذلك ».

وفيه أيضاً عن تفسير عليّ بن إبراهيم: حدّثني أبي، عن بعض أصحابه رفعه قال: قال رسول الله:

« لمّا دخلت الجنّة، رأيت في الجنّة شجرة طوبى أصلها في دار عليّ - عليه السّلام. وما في الجنّة قصر ولا منزل إلاّ ومنها فتر فيها.... و وسطها ظلّ ممدود. وعرض الجنّة كعرض السّماء والأرض؛ أعدّت للّذين آمنوا.»

أقول: الظّاهر من الحديث أنّ المراد من الظلّ، هو الجوّ النّوريّ والهواء الطيّب المحيطة بقصور أهل الجنّة ومنازلهم.

وفيه ٥/ ٤٩٠ عن تفسير عليّ بن إبراهيم: قوله: « إنّ المتّقين في ظلال وعيون» قال:

« في ظلال من نور أنور من الشّمس».

ويمكن أن يقال: إنّ المراد بالظّلال هي الأشجار نفسها، بلحاظ كونها محيطةً بهم، لابمعنى الفيء المتعارف عندنا - كما توهّم ذلك بعض المفسّرين. لأنّ الجنّة ليس فيها شمس ولاحرّ ولابرد، كي يكون للأشجار ظلّ يمنع من الحرّ والبرد ويستر من الشمس. كما في قوله تعالى:

«ودانيةً عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلاً ». (الدهر/ ١٤)

قال في القاموس ٣/ ١٨٦: والقطف - بالكسر-: العنقود واسم للثّمار المقطوفة.

والمعنى: إنّ أشجار الجنّة مسخّرة لأهلها، وكذلك قطوفها، حسب ماشاؤوا في حالاتهم وشؤونهم. فالمراد من الظّلال بقرينة القطوف الأشجار، لإطلاقها. فإنّ الظّلال ليس لها قطوف كي تكون هذه القطوف مثل الأشجار مذلّلة ومسخّرةً لأهل الجنّة. وقد عرفت أيضاً ماذكرناه عن القاموس في موارد استعمال الظلّ: ومن كلّ شيء شخصه. فلا بأس أن يقال أيضاً: إنّ المراد هي الأشجار شخصها بهذا المعنى، من دون عناية بمعنى الإحاطة.

في نورالثقلين ٥/ ٢١٦، عن روضة الكافي، عن عليّ بن إبراهيم، عن

أبيه، عن ابن محبوب، عن محمّد بن إسحاق المدنيّ، عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال: سئل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وذكر حديثاً طويلاً يقول فيه ـ صلّى الله عليه وآله ـ حاكياً حال أهل الجنّة:

«والثمار دانية منهم. وهو قوله ـ عزّوجلّ ـ: «ودانيةً عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلاً» من قربها منهم. يتناول المؤمن من النوع الّذي يشتهيه من الثّمار بفيه وهو متّكئ. وإنّ الأنواع من الفاكهة ليقلن لوليّ الله: كلني قبل أن تأكل هذا قبلي.»

فتبيّن من جميع ماذكرنا أنّ المراد من الظّلال هو الهواء الطيّب، أو نفس الأشجار بعينها.

وقوله تعالى: «وعيون» عطف على «ظلال» وهي ينابيع المياه. وليس المراد أنّ أهل الجنّة منعّمون في الماء. بل الظّاهر أنّ المراد أنّ أهل الجنّة يتنعّمون ويتنزّهون في هذا الهواء اللّطيف، أو تحت الأشجار حافّتي العيون والأنهار. وهذه العيون والأنهار تزيد في زينة المكان وصفاء تلك المناظر. ولعلّ التنكير فيها للتفخيم والتعظيم.

قوله تعالى: «وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢)».

«فواكه» جمع فاكهة. وفي القاموس ٤/ ٢٨٩: الفاكهة: الثّمر كلّه. وقوله تعالى: «ممّا يشتهون» بيان وتفصيل للفاكهة. أي: إنّها مايرغب الإنسان ويميل إليه، وليس فيها مايتنفّر منها. فجميعها أجود وأطيب من حيث ألوانها وطعومها.

قوله تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا».

الظّاهر أنّ الأمر للإكرام والتشريف؛ نظير مايقال للوافدين.

وقيل: إنّ الأمر للإذن والترخيص. (تفسير الرازي ٣٠/ ٢٨٣) وعليه لابدّ أن يقال: إنّه ليس لأهل الجنّة أن يتناولوا شيئاً من نعيمها، إلاّ بعد الإذن. وهو كما ترى.

قوله تعالى: «هَنِيئاً»؛ أي: سائغاً.

وهذا دعاء من الله - سبحانه - لهم. أي: ولْيكن هنيئاً لكم. ودعاؤه تعالى عين تحقّق مايدعو في مورد الدعاء. أو: إنّ ذلك إخبار بأنّ مايأكلون ويشربون من فواكه الجنّة، يكون سائغاً لهم. وعلى كلا الوجهين، يكون مايأكلون ويشربون سائغاً؛ أي: لايتبع آفةً وأذًى وَمَرَضاً فيهم؛ بل يكون قوّةً وعافيةً ونشاطاً.

قوله تعالى: « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ».

ليس معنى الباء في الآية الكريمة المقابلة، مثل قولنا: بعت هذا بهذا. فإنّ هذا خلاف التكريم والتشريف للوافد الّذي يريد إكرامه. فإنّ مرجعه أداء دين وإيفاء حقّ. بل الظّاهر أنّ السّياق سياق التشكّر والتقدير. فإنّه - سبحانه - شكور لايضيع لديه أجر المحسنين ولا يضيع إيمان المؤمنين.

أي: إنّكم آمنتم بربّكم، حين كفر النّاس؛ ووفيتم بعهده - سبحانه - حين نقضوا ونكثوا؛ وأقبلتم إليه تعالى، حين نكصوا وأدبروا؛ وعملتم بفرائضه وسننه، حين ضيّعوها وأهملوها. وهل يكون جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟! سيّما عند ربّنا الشكور الرؤوف المبتدئ بالإنعام والبادئ بالإكرام! ولادلالة في قوله: «بما كنتم تعملون» على أنّ الجزاء في المقام على نحو الاستحقاق وعلى نحو الوجوب عليه تعالى.

قال الرازيّ في تفسيره ٣٠/ ٢٨٣ - بتوضيح وتلخيص منّا -: إنّ الباء لاتدلّ على أزيد من ارتباط الجزاء بالعمل ارتباطاً ما. وأمّا إنّه تعالى متفضّل بالجزاء أو مسؤول به، فليطلب من أدلّة أخرى.

أقول: ويؤيّد ذلك **قوله تعالى: « إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) »**. فإنّه ثناء وتمجيد على نفسه القدّوس بأنّه يجزي للّذين أحسنوا الحسنى وزيادة خالدة متّصلة؛ وليس عنده تعالى المتّقون كالفجّار. وفيه أيضاً تعريض وتوبيخ وزجر للمسيئين.

قوله تعالى: « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) »؛ اي: يوم قرب المحسنون وبعد المسيئون، وامتازت الأخيار من الأشرار؛ وقد فاز الأخيار بكرامته تعالى،

وافتضح الأشرار بالخزي والهوان من الله ـ سبحانه.

قوله تعالى: « كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُجْرِمُونَ (٤٦) ».

الظّاهر أنّ الأمر للتّهديد والتوبيخ؛ مثل قوله تعالى: « اعملوا ماشئتم إنّه بما تعملون بصير». (فصّلت/ ٤٠) أي: كلوا أكلاً قليلاً وتمتّعوا تمتّعاً قليلاً؛ وكلوا وتمتّعوا زماناً قليلاً في هذه الدنيا العاجلة. فإنّ أكلكم وتمتّعكم هذا أهون شيء عندالله ـ سبحانه. فإنّه ليس أكل كرامة وتمتّع كرامة؛ بل هو أكل وتمتّع إملاءاً وإمهالاً وسخطاً واستدراجاً. لأنّكم مجرمون بالكفر والشرك والجنايات والفساد في الأرض؛ وقد قضى الله ـ سبحانه ـ على المجرمين بالحرمان من الأكل والتمتّع في دار كرامته حرماناً دائماً وحكم عليهم بالعذاب عذاباً خالداً أبداً.

قوله تعالى: « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) »؛ أي: يوم يتحقّق هذا الوعيد الّذي قضى الله تعالى وحكم ـ سبحانه ـ في حقّ المجرمين المكذّبين بآيات الله وكتبه ورسله وماجاء به الرّسل.

قوله تعالى: « وإذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَيَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) ».

قال في القاموس ٣/ ٣١: ركع الشيخ: انحنى كبراً، أوكبا على وجهه، وافتقر بعد غنًى وانحطّت حاله. وكلّ شيء يخفض رأسه، فهو راكع.

وفي مرآة الأنوار/ ١٦١ قال: الركوع لغةً هو الانحناء وخفض الرأس للتواضع أو لغيره، وإن نذر.

أقول: ليس المراد بالركوع ما هو ركن في الصّلاة. فإنّه مصداق خاصّ من مصاديق المطلق. وحمل المطلق على المقيّد، من دون تقييده بدليل خاصّ، مجازفة باطل.

وليس المراد به الصّلاة باعتبار اشتمالها على الركوع، تسميةً للكلّ باسم جزئه. إذ لادليل على إرادة الجزء أيضاً. واعتمد بعضهم في ذلك إلى رواية مرسلة في شأن نزول الآية أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أمر أهل الطائف

بالصّلاة فقالوا: نحن لانـنحـنـي. (أنظر: مجمع البـيان ١٠/ ٤١٩) وأنت خبير أنّ هذه المرسلات التاريخيّة، لا تصلح لتقييد مطلقات القرآن الكريـم.

ومنشأ هذه الأقاويل هو سريان القول بالحقيقه الشّرعيّة في أمثال المقام وغفلة الناس من أنّه لابدّ للفقيه والمفسّر من حمل الألفاظ على المعاني اللّغويّة والتحرّي في تحقيقها. واحتمال الحقيقة الشّرعيّة والمتشرّعة في ألفاظ الكتاب والسّنّة، جزاف وباطل مطلقاً. فعليه يكون المراد مطلق التواضع والخضوع، في قبال دعوة الحقّ؛ الدعوة إلى الله وتوحيده واليوم الآخر وكتبه تعالى ورسله وشرائعه.

وقد استعمل الركوع في الخرور على وجه الأرض وهو مصداق للسّجدة ومصداق للخضوع والتواضع بالحقيقة. وقد يعبّر عن السّجود بالركوع. كما في قول الشاعر:

فخرّ على وجهه راكعاً　　　وتاب إلى الله من كلّ ذنبُ

أقول: قد عرفت أنّ الخرور على الأرض من مصاديق الركوع والسّجود بالحقيقة، لامن باب تسمية السّجود ركوعاً كما توهمه القائل.

في البرهان ١/ ٩١، عن تفسير مولانا العسكريّ -عليه السّلام- في تفسير قوله تعالى: «ولا تلبسوا الحقّ بالباطل... واركعوا مع الراكعين». (البقرة/ ٤٢ و ٤٣) قال -عليه السّلام-:

«خاطب الله قوما من اليهود... «واركعوا مع الراكعين»: تواضعوا مع المتواضعين لعظمة الله -عزّوجلّ- في الانقياد لأولياء الله؛ محمّد نبيّ الله وعليّ وليّ الله والأئمّة بعدهما سادة أصفياء الله».

وفي نورالثّقلين ٥/ ٤٩٠، عن تفسير عليّ بن إبراهيم: وقوله: «وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون» قال:

«وإذا قيل لهم: تولّوا الإمام، لم يتولّوه».

أقول: واضح أنّ ولاية الإمام من أعظم فرائض الدّين ومن المصاديق البارزة للرّكوع المطلق الواجب بضرورة من العقل.

وقد اتّضح من جميع ماذكرنا: أنّ المراد بالركوع في الآية الكريمة، هو

الانقياد المطلق والاستسلام الخالص في مقابل أمره تعالى؛ والأمر به إرشاديّ. والأوامر الإرشاديّة لاإطلاق فيها ولا تقييد، ولاعموم فيها ولاخصوص؛ وإنّما تدور مدار الأمر المرشد إليه سعةً وضيقاً.

وقوله تعالى: «وإذا قيل لهم اركعوا...» احتجاج وتوبيخ عليهم في مخالفة مايدركونه بعقولهم. ولادليل على مازعموا من أنّ المراد بالركوع هو الصّلاة المفروضة بالتعبّد المولويّ الشّرعيّ لاشتمال الصّلاة المفروضة للركوع، تسميةً للكلّ باسم جزئه.

وأضعف منه ما استدلّ بقوله: «اركعوا...» على عموم الخطابات الشرعيّة-للكافر والمؤمن. ووجه الضّعف: إنّ محلّ النزاع في هذا الباب هي الأحكام التعبّديّه. وأمّا الأحكام العقليّة المستقلّة، فخارجة عن محلّ النزاع ولافرق فيها بين الكافر والمؤمن. فإن الأوامر الإرشاديّة إرشاد إلى مايدركه العقل. فإن كان المرشَد إليه واجباً بحسب الواقع، فيدركه العقل واجباً. وإن كان مندوباً، فيدركه كذلك . فلا يدل الأمر على وجوب غير مايدركه العقل واجباً.

وقوله تعالى: «لايركعون» إبراز لاستنكارهم عن قبول الدّعوة وعنادهم ولجاجهم في تكذيب مايعرفون من الحقّ المبين.

وواضح أنّ الآيةالكريمةفي سياق الآيات السّابقه ومسوقة في تهديد الكفّار وتقريعهم على إنكارهم. وهذا وجه انطباق الآية الكريمةبالآيات السّابقة. ومنه يعلم مايستحقّ من استنكف واستنكر الانقياد لسلطان الربّ ـ جلّ مجده ـ فقال ـ سبحانه ـ: «ويل يومئذ للمُكذِّبين»؛ أي: في يوم الفصل، لمن يتعالى عن الركوع ويتعاظم عن الخضوع للحقّ وأعرض عنه.

قوله تعالى: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)»

بيان: قال في القاموس ١٦٤/١: حدث حدوثاً وحَداثةً: نقيض قدم. وتضمّ داله إذا ذكرَ مع قَدُمَ. وَحِدْثان الأمر ـ بالكسر ـ: أوّله وابتداؤه.

فالمستفاد من عبارة القاموس أنّ الحادث والحديث والمُحْدَث مايقابل القديم وليس الحديث بمعنى الجديد الّذي يقابل الخَلِق. فإنّ العناية في الحديد تصدق إذا كان تجديد الشيء بعد اندراسه فصار جديداً، أو كان جديداً ابتداءاً؛

بخلاف الحديث. فإنّ العناية فيه عدم سبق وجوده بنحو من أنحاء وجوده، بل هو أوّله وابتداؤه.

وقد توسّع في لفظ الحديث ويطلق على مايتحدّث به الناس ويخبرون به، بضرب من العناية. قال تعالى: «ومن النّاس من يشتري لهو الحديث». (لقمان/٦) وغيرها من الآيات.

وهذا الاستعمال يكون بمعاونة قرائن الحالات والمقامات. وأمّا بحسب المعنى اللّغويّ ، فالأمر كما ذكرناه. وقد استعمل الحديث في مورد القرآن وعبّر تعالى عن القرآن الكريم بالحديث. قال تعالى:

«فبأيّ حديث بعده يؤمنون». (الأعراف/١٨٥)

«فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً». (الكهف/٦)

«اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً». (الزّمر/٢٣)

«فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون». (الجاثية/٦)

«فليأتوا بحديث مثله». (الطّور/٣٤)

«فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث». (القلم/٤٤)

أقول: لم أجد في كلام المفسّرين من يتعرّض لتفسير الحديث في مورد إطلاقه على القرآن وبيان الوجه في تسمية القرآن حديثاً. وفي كتاب رياض السّالكين في شرح الدعاء الثاني والأربعين من الصّحيفة المباركة السّجّاديّة ص٤٠٥ في شرح قوله-عليه السّلام-: «اللّهم إنّك أعنتني على ختم كتابك الّذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً على كلّ كتاب أنزلته، وفضّلته على كلّ حديث قصصته» قال السيّد (قده): الحديث ضدّ القديم يستعمل في قليل الكلام وكثيره؛ لأنّه يحدث شيئاً فشيئاً. قال الرّاغب: يقال لكلّ ماقرب عهده حديث؛ مقالاً كان أو فعالاً. فكلّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السّمع أو الوحي، في يقظته أو منامه، يقال له حديث. فسمّى تعالى كتابه حديثاً فقال: «فليأتوا بحديث مثله». [الطّور/٣٤] وقال تعالى: «أفمن هذا الحديث تعجبون». [النجم/ ٥٩]

أقول: يستفاد من كلام السّيّد: انّه سمّي الكلام حديثاً، لأنّه يحدث شيئاً

فشيئاً. يعني حدوث أجزائه و أبعاضه. و أمّا بعد مضىّ زمان على المجموع من الكلام، فلا يصدق عليه الحديث، إلاّ بضرب من العناية حتّى يتكلّم به آخر و هكذا.

أقول: لايخفى ضعف ماذكره السيّد في باب القرآن الكريم. لوضوح أنّ إطلاق الحديث على القرآن باعتبار جميع القرآن و أبعاضه و أجزائه، ليس إلاّ إطلاقاً حقيقيّاً دائميّاً باعتبار أنّه واجد لنعت الحدوث و أنّ هذا النعت نعت دائميّ له؛ لاأنّه باعتبار ماكان من الحدوث.

و أمّا ماذكره الرّاغب من إطلاق الحديث على كلّ ماقرب عَهْدُهُ مَقالاً كان أو فعالاً، فلا ينطبق على القرآن. فلا دخل له في تسمية القرآن حديثاً قرب عهده. فهو حديث بالحقيقة إلى انقضاء الدّنيا. و كذلك ماذكره من إطلاق الحديث على كلّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السّمع أو الوحي، فعلى فرض صحّته، لم يتبيّن في بيانه العناية إلى المعنى اللّغوي والحدوث.

فلا يبعد أن يقال: إنّ القرآن الكريم ذكر محدث وحديث باعتبار عدم كونه مسبوقاً بشيء من أنحاء وجوده ولابشيء ممّا يساويه ويدانيه ولابشيء ممّا يشابهه ويقارنه. وكذلك لاثاني له بعده ولابديل له ولانظير. فلا سابق له ولا حديث مثل هذا الحديث من بين يديه ومن خلفه؛ تنزيل من الله ربّ العالمين. وهو فعله تعالى مستقيماً، استثناءاً من سُنّة الأسباب و العلل. فلا يقدر أحد أن يأتي بمثله وبما يدانيه ويساويه.

فحيث إنّه نور قاهر ساطع في جبهة الدهر، فيقرع بحججه وبيّناته وأنواره أقاويل جميع الملل وَالأمم. فنسبته الآن إلى جميع أهل العالم بعينها، هي النسبة الّتي كانت له عند أوّل طلوعه بالنسبة إلى جميع ألواع النّاس و أفراده. فهو ذكر محدث وقرآن حديث في كلّ زمان، بالنّسبة إلى جميع الأقوام. فلكلّ قوم آية يتلوها منه. فلا يندرس ولايخلق ولايبلى. فهو غضّ طريّ وحديث جديد إلى انقضاء الدنيا بالنسبة إلى جميع أهلها.

في البحار ٩٢/١٤، عن العيون مسنداً، عن محمّد بن موسى الرازيّ، عن أبيه قال: ذكر الرضا ـ عليه السّلام ـ يوماً القرآن فعظّم الحجّة فيه و الآية المعجزة

في نظمه إلى أن قال:

لايخلق من الأزمنة. ولا يغثّ على الألسنة. لأنّه لم يجعل لزمان دون زمان؛ بل جعل دليل البرهان وحجّةً على كلّ إنسان. «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد». [فصّلت/ ٤٢]

وفيه أيضاً/ ١٥، عن العيون مسنداً، عن إبراهيم بن عبّاس، عن الرّضا -عليه السّلام- عن أبيه أنّ رجلاً سأل أبا عبدالله -عليه السّلام- قال: ما بال القرآن لايزداد على النشر والدرس إلاّ غضاضةً؟! قال:

«لأنّ الله -تبارك وتعالى- لم يجعله لزمان دون زمان، ولالناس دون ناس. فهو في كلّ زمان جديد وعند كل قوم غضّ.»

والله العالم بحقائق كلامه.